بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود عليه السلام

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ؛ وهى قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ »(١) . وأسند أبو محمد الدارمىّ فى مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقرءوا سورة هود يوم الجمعة" . وروى الترمذىّ عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله قد شِبْتَ ! قال : "شَيبتنى هود والواقعةُ والمرسلاتُ وَعَمَّ يتساءلون و إذا الشّمس كُوِّرت". قال : هذا حديث حسن غريب ، وقد رُوى شىء من هذا مرسلا . وأخرجه الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله فى « نوادر الأصول » : حدّثنا سفيان بن وكيع قال حدّثنا محمد بن بِشر عن علىّ بن صالح عن أبى إسحق عن أبى جُحَيفة قال : قالوا يا رسول الله نراك قد شِبتَ ! قال : "شَيبتنى هود وأخواتها" . قال أبو عبد الله : فالفزع يورث الشّيب وذلك أن الفزع يُذهِل النفس فينشِّف رطوبة الجسد ، وتحت كل شعرة مَنْبع ، ومنه يَعْرَق ، فإذا انتشف الفزعُ رطوبتَه يبست المنابع فيبِس الشعر وابيضّ ؛ كما ترى الزرع الأخضر بسقائه ، فإذا ذهب سِقاؤه يبِس فابيضّ ؛ و إنما يبيضّ شعر الشيخ لذهاب رطوبته و يُبْسِ جلده ، فالنفس تذهل بِوَعيد الله ، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتذبل ، ويُنَشِّف(٢) ماءها ذلك الوعيد والهول الذى جاء به ؛ فمنه تَشيب . وقال الله تعالى : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا »(٣) فإنما شابوا من الفزع . وأمّا سورة « هود » فلما ذكر الأمم ، وما حلّ بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل اليقين إذا تلوها تَراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطشُ بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لَحَقّ لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يَلطُف(٤) بهم فى تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه . وأمّا أخواتها فما أشبهها من السور ؛ مثل « الحاقّة » و « سأل سائل » و « إذا الشمس كوّرت »

---

(١) راجع ص ١٠٩ من هذا الجزء . وفى رواية عن ابن عباس أنها مكية كلها وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة . (٢) فى و : خوف . (٣) راجع جـ ١٩ ص ٤٨ . (٤) فى ع و و : تلطف .

و «القارعة» ، ففى تلاوة هذه السّور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانَه وبطشَه فتذهل منه النفوس، وتَشيب منه الرءوس . [قلت][1] وقد قيل : إن الذى شيب النبيّ صلى الله عليه وسلم من سورة «هود» قوله : «فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ»[2] على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وقال يزيد بن أبان : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامى فقرأت عليه سورة «هود» فلما ختمتها قال : "يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء" . قال علماؤنا قال أبو جعفر النحاس : يقال هذه هود فاعلم بغير تنوين على أنه ٱسم للسورة ؛ لأنك لو سميت ٱمرأة بزيد لم تَصرِف ؛ وهذا قول الخليل وسيبويه . وعيسى بن عمر يقول : هذه هود بالتنوين على أنه ٱسم للسورة ؛ وكذا إن سمى ٱمرأة بزيد ؛ لأنه لما سكن وسطه خف فصرف ، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع ، فقلت : هذه هود وأنت تريد سورة هود ؛ قال سيبويه : والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن ، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه .

قوله تعالى : الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿الٓر﴾. تقدّم القول فيه[3] . ﴿كِتَابٌ﴾ بمعنى هذا كتاب . ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ فى موضع رفع نعت لكتاب . وأحسن ماقيل فى معنى «أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» قول قتادة ؛ أى جعلت محكمة كلّها لا خَلَل فيها ولا باطل . والإحكام منع القول من الفساد ، أى نُظمت نظما مُحْكَما لا يلحقها تناقض ولا خَلَل . وقال ٱبن عباس : أى لم ينسخها كتاب ، بخلاف التوراة والإنجيل . وعلى هذا فالمعنى ؛ أُحكم بعض آياته بأن جعل ناسخا غير منسوخ . وقد تقـدّم القول فيـه[4] .

(١) من ع . (٢) راجع ص ١٠٧ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٤ .
(٤) راجع جـ ٤ ص ١٠

وقد يقع آسم الجنس على النوع؛ فيقال: أكلت طعام زيد؛ أى بعض طعامه . وقال الحسن وأبو العاليـة : « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » بالأمر والنهى . ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وقال قتادة : أحكمها الله من البـاطل ، ثم فصّلها بالحـلال والحرام . مجاهد : أحكمت جمـلة، ثم بُيِّنت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليــه من الدليـل على التوحيد والنبوّة والبعث وغيرها . وقيــل : جمعت فى اللــوح المحفوظ ، ثم فصلت فى التنزيل . وقيــل : « فُصِّلت » أنزلت نجْما نجْما لِتُتَدَبَّر . وقرأ عكرمة « فَصَلَتْ » مخفّفا أى حَكَمت بالحق . ﴿ مِنْ لَدُنْ ﴾ أى من عند . ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أى محكم للأمور . ﴿ خَبِيرٍ ﴾ بكل كائن وغير كائن .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُــدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ قال الكسائى والفرّاء : أى بالا ؛ أى أحكمت ثم فصّلت بألا تعبدوا إلا الله. قال الزجاج: لئلا؛ أى أحكمت ثم فصّلت لئلا تعبدوا إلا الله. قيل : أمر رسـوله أن يقول للنـاس ألا تعبدوا إلا الله . ﴿ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْــهُ ﴾ أى من الله . ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أى مخوف من عذابه وسطوته لمن عصاه . ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالرضوان والجنة لمن أطاعه. وقيل: هو من قول الله أوّلا وآخرا؛ أى لا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير؛ أى الله نذير لكم من عبادة غيره ، كما قال : « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنِ ٱسْــتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ عطف على الأوّل . ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْــهِ ﴾ أى آرجعوا إليــه بالطاعة والعبادة . قال الفرّاء : « ثم » هنا بمعنى الواو ؛ أى وتوبوا إليه؛ لأن الآستغفار هــو التوبة ، والتوبة هى الآستغفار . وقيــل : آستغفروه من سالف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم . قال بعض الصلحاء: الآستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين . وقد تقدّم هــذا المعنى فى « آل عمران »(١) مستوفى . وفى « البقرة »(٢) عنـد قوله : « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا » . وقيل : إنمــا قدم ذكر الآستغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب ، والتوبة هى السبب إليها ؛ فالمغفرة أوّل فى المطلوب وآخر فى السبب . ويحتمل أن يكون المعــنى استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليــه من الكبائر. ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٨ وص ٢١٠　　　(٢) راجع جـ ٣ ص ١٥٦

هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم . وقيل : يمتّعكم يُعمّركم؛ وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه أمتع اللهُ بك ومتّع . وقال سهل بن عبد الله : المتاع الحسن ترك الخَلْق والإقبال على الحق. وقيل : هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود . ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قيل : هـو الموت . وقيل : القيامة . وقيل : دخول الجنة . والمتاع الحسن على هذا وقاية كلّ مكروه وأمرٍ مَخُوف ، ممـا يكون فى القبر وغيره من أهوال القيامة وكُرَبها ؛ والأوّل أظهر ؛ لقـوله فى هذه السورة: « وَيَاقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ[(١)] » وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى . والله أعلم . قال مقاتل : فأبوا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرّقة والقَـذَر والجيف والكلاب . ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى يؤت كل ذى عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله . وقيل : ويؤت كلّ من فضلت حسناته على سيئاته «فَضْلَهُ» أى الجنة، وهى فضل الله؛ فالكناية فى قوله : «فَضْلَهُ» ترجع إلى الله تعالى . وقال مجاهد: هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه، أو عمل يعمله بيده أو رجله ، أو ماتطوّع به من ماله فهو فضل الله ، يؤتيه ذلك إذا آمن ، ولا يتقبله منـه إن كان كافرا . ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أى يوم القيامة ، وهو كبير لمـا فيه من الأهـوال . وقيل : اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره : و « تَوَلَّوْا » يجوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى : وإن تولّوا فقل لهم إنى أخاف عليكم . ويجوز أن يكون مستقبلا حذفت منه إحدى التاءين والمعنى : قل لهم إن تتولّوا فإنى أخاف عليكم .

قوله تعـالى : ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى بعـد الموت . ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ثواب وعقاب .

قوله تعـالى : أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

(١) راجع ص ٥٠ فما بعد من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ أخبر عن معاداة المشركين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . « يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » أى يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف، قال آبن عباس : يخفون ما فى صدورهم من الشّحناء والعداوة ، ويظهرون خلافه . نزلت فى الأخنس بن شريق، وكان رجلا حُلو الكلام حُلو المنطق ، يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب ، وينطوى له بقلبه على ما يسوء . وقال مجاهد : « يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » شكًّا وآمتراء . وقال الحسن : يثنونها على ما فيها من الكفر . وقيل : نزلت فى بعض المنافقين ، كان إذا مرّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ثَنَى صدره وظهره ، وطأطأ رأسه وغطّى وجهه ، لكيلا يراه النبيّ صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان ؛ حكى معناه عن عبد الله بن شدّاد فالهاء فى « مِنْهُ » تعود على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا، وآستغشينا ثيابنا، وثَنَينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية . وقيل : إن قوما من المسلمين كانوا يَتَنَسَّكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبيّن الله تعالى أن التّنَسّك ما آشتملت عليه قلوبهم من معتقد ، وأظهروه من قول وعمل . وروى آبن جرير عن محمد بن عبّاد بن جعفر قال سمعت آبن عباس رضى الله عنهما يقول : « أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَونِى[1] صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ » قال : كانوا لا يجامعون النساء ، ولا يأتون الغائط وهم يُفضون إلى السماء ، فنزلت هذه الاية . وروى غير محمد بن عباد عن آبن عباس : « أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوِى صُدُورُهُمْ » بغير نون بعد الواو، فى وزن تنطوى؛ ومعنى « تَثْنوِى » والقراءتين الأخريين متقارب؛ لأنها لاتَثْنوِى حتى يَثْنوها . وقيل : كان بعضهم يَحنى على بعض يساره فى الطّعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى . « لِيَسْتَخْفُوا » أى ليتواروا عنه ؛ أى عن محمد أو عن الله .

(١) فى الأصل : « تثنوى » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ، وهو يخالف ما فى صحيح البخارى وتفسير الطبرى عن محمد بن عباد ، فلذا صوّبناه عنهما ؛ وأما رواية « تثنوى » المذكورة بالأصل فقد نسبها آبن عطية إلى آبن عيينة ، ويعضده ما فى (إعراب القرآن للنحاس) حيث قال : وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس « ألا إنهم تثنوى صدورهم » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ... ... الخ ، وهى العبارة الآتية بالأصل . وتعقب بعض المفسرين هذه القراءة بأنها غلط فى النقل لا تتجه . راجع روح المعانى والبحر وتفسير ابن عطية .

﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أى يُغطّون رءوسهم بثيابهم . قال قَتَادة : أخفى ما يكون العبد إذا حَنَى ظهره، وآستغشى ثوبه، وأضمر فى نفسه هَمّه .

قوله تعالى : وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ « ما » نفى و « مِنْ » زائدة و « دَابَّةٍ » فى موضع رفع؛ التقدير : وما دابة . « إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا » « على » بمعنى « مِن » ، أى من الله رزقها؛ يدلّ عليه قول مجاهد : كل ماجاءها من رزق فمن الله . وقيل : « على الله » أى فضـلا لا وجوبا . وقيـل : وعدا منه حقا . وقد تقدّم بيان هذا المعنى فى « النسـاء »(1) وأنه سبحانه لا يجب عليه شىء . « رِزْقُهَا » رفع بالأبتداء، وعند الكوفيين بالصـفة؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يُرزق . وقيـل : هى عامة [فى كل دابة](2) : وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رُزقت رُوحها؛ ووجه النظم بمـا قبلُ : أنه سبحانه أخبر برزق الجميع ، وأنه لا يَغفُل عن تربيتـه ، فكيف تخفى عليـه أحوالكم يامعشر الكفار وهو يرزقكم ؟ ! والدّابة كل حيـوان يَدِبّ . والرزق حقيقته ما يتغـذّى به الحىّ ، ويكون فيه بقاء رُوحه ونمـاء جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى المِلك؛ لأن البهائم تُرزق وليس يصح وصـفها بأنها مالكة لعَلَفها؛ وهكذا الأطفال تُرزق اللّبن ولا يقـال : إن اللّبن الذى فى الثّـدى مِلك للطفل . وقال تعـالى : « وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ »(3) وليس لنـا فى السماء مِلك؛ ولأن الرزق لو كان مِلكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره، وذلك محال؛ لأن العبـد لا يأكل إلا رزق نفسه . وقد تقدّم فى « البقـرة »(4) هذا المعنى والحمد لله . وقيل لبعضهم : من أين تأكل ؟ فقال : الذى خلق الرّحى يأتيها بالطّحين، والذى شدق الأشداق هو خالق الأرزاق .

---

(1) راجع جـ ٥ ص ٢٧٣ (2) من ع . (3) راجع جـ ١٧ ص ٤١ .
(4) راجع جـ ١ ص ١٧٧ فما بعد .

وقيل لأبى أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحان الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد ! . وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله ؛ فقيل له : الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء ؟ فقال : كأن ماله إلا السماء ! يا هذا الأرضُ له والسماءُ له ؛ فإن لم يؤتنى رزقى من السماء ساقه لى من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أخافُ الفقرَ واللهُ رازقِى * ورازقُ هذا الخلقِ فى العُسْرِ واليُسْرِ
تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهِمْ * وللضَّبِّ فى البيداءِ والحُوتِ فى البحرِ

وذكر التِّرمذىّ الحكيم فى « نوادر الأصول » بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر فى نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وقد أَرْمَلُوا[1] من الزاد ، فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ، فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » فقال الرجل : ما الأشعريّون بأهون الدواب على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الغوث ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلوا منها ما شاءوا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى به حاجته ؛ فقالوا للرجلين : اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنا قد قضينا منه حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : " ما أرسلت إليكم طعاما " فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذلك شيء رزقكموه الله " .

---

(١) أرملوا من الزاد : أى نفد زادهم ؛ وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل ، كما قيل للفقير الترب .

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أى من الأرض حيث تأوى إليه . ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ أى الموضع الذى تموت فيه فتدفن؛ قاله مِقْسَم عن ٱبن عباس رضى الله عنهما . وقال الربيع ٱبن أنس : « مُسْتَقَرَّهَا » أيام حياتها . « وَمُسْتَوْدَعَهَا » حيث تموت وحيث تبعث . وقال سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس : « مُسْتَقَرَّهَا » فى الرّحِم ، « وَمُسْتَوْدَعَهَا » فى الصلب . وقيل : « يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا » فى الجنة أو فى النار . « وَمُسْتَوْدَعَهَا » فى القبر؛ يدلّ عليه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة وأهل النار : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » « وَسَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » (١) . ﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدّم فى «الأعراف» (٢) بيانه والحمد لله . ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء . قال كعب : خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى ؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكنا ، ثم خلق الريح فجعل الماء على مَتْنها، ثم وضع العرش على الماء . وقال سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس : إنه سئل عن قوله عز وجل : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » فقال : على أى شىء كان الماء ؟ قال : على مَتْن الرِّيح . وروى البخارىّ عن عِمْران بن حُصَين . قال : كنت عند النبىّ صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : " ٱقبلوا البشرى يابنى تميم " قالوا : بَشَّرْتَنَا فأعطنا [مرتين] (٣) فدخل ناس من أهل اليمن فقال : " ٱقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم " قالوا : قَبِلنا ، جئنا لنتفقه فى الدِّين ، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان (٤) ؟ قال : " كان اللهُ ولم يكن شى غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب

(١) راجع جـ ١٣ ص ٧٢ وص ٨٢ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ فما بعد .
(٣) الزيادة عن صحيح البخارى . (٤) فى ع : نسألك عن هذا الدين ونسألك عن أول هذا الأمر .

فى الذِّكر كلّ شىء" ثم أتانى رجل فقـال : يا عِمران أدرك ناقتك فقـد ذهبت ، فانطلقت أطلبها فإذا هى يقطَعُ دونها السَّرابُ ؛ وأيمُ اللهِ لودِدْت أنها قد ذهبتْ ولم أقم .

قوله تعـالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى خلق ذلك لِيبتلى عبـاده بالاعتبـار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث . وقال قَتَادة : معنى «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» [أيكم](١) أتمّ عقلا . وقال الحسن وسـفيان الثوريّ : أيكم أزهد فى الدنيا . وذكر أن عيسى عليه السلام مرّ برجل نائم فقال : يانائم قم فتعبَّدْ، فقال : يارُوح الله قد تَعبَّدتُ، فقال « وبم تَعَبَّدتَ »؟ قال : قد تركت الدنيا لأهلها، قال : نَمْ فقد فقتَ العابدين . الضّحاك : أيكم أكثر شكرا . مقاتل : أيكم أتقى لله . ابن عباس : أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل . ورُوى عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا : « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا » قال : " أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله " فجمع الأقاويل كلها، وسيأتى فى «الكهف»(٢) هذا أيضا إن شاء الله تعالى . وقد تقدّم معنى الابتلاء . ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ أى دللت يا محمد على البعث . ﴿ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ وذكرت ذلك للشركين لقالوا : هذا سحر . وكسرت «إنّ» لأنها بعد القول مبتدأة . وحكى سيبويه الفتح . ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فتحت اللام لأنه فعل متقدم لا ضمير فيه ، وبعده « لَيَقُولُنَّ » لأن فيه ضميرا . و ﴿ سِحْرٌ ﴾ أى غرور باطل، لبطلان السحر عندهم . وقرأ حمزة والكسائى «إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ» كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ اللام فى « لَئِنْ » للقسم، والجواب « لَيَقُولُنَّ » . ومعنى « إِلَى أُمَّةٍ » إلى أجل معـدود وحين معـلوم ؛ فالأمّة هنا المدّة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقَتـادة وجمهور المفسّرين . وأصل الأمّة الجماعة؛ فعبّر عن

(١) من ع و و .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٣

الحين والسـنين بالأمّة لأن الأمّة تكون فيها . وقيل : هو على حذف المضاف ؛ والمعنى إلى مجيء أمّة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك . أو إلى ٱنقراض أمّة فيها من يؤمن فلا يبقى بعد ٱنقراضها من يؤمن . والأمّة ٱسم مشترك يقال على ثمـانية أوجه : فالأمّة تكون الجماعة؛ كقوله تعالى : « وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ » (١) . والأمّة أيضا اتباع الأنبياء عليهم السلام . والأمّة الرجل الجـامع للخير الذى يُقتـدى به ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا » (٢) . والأمة الدِّين والمِلّة ؛ كقوله تعـالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّـةٍ » (٣) . والأمة الحين والزمان ؛ كقوله تعـالى : « وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُـمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّـةٍ مَعْدُودَةٍ » وكذلك قوله تعالى : « وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » (٤) والأمّة القامة ، وهـو طول الإنسان وارتفـاعه ؛ يقال من ذلك : فلان حسن الأُمّة أى القامة . والأمّة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يُشْرِكُه فيه أحد؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "يُبعَث زيدُ بن عَمرو بن نُفَيل أمّة وحده" (٥) . والأمة الأم؛ يقال: هذه أمّة زيد، يعنى أمّ زيد.﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يعنى العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكذيبا للعذاب لتأخره عنهم ، أو استعجالا وٱستهزاء؛ أى ما الذى يحبسه عنا . ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ (٢) قيل : هو قتل المشركين ببدر ؛ وقتل جبريل المستهزئين على ما يأتى . ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أى نزل وأحاط.﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى جزاء ما كانوا به يستهزئون، والمضاف محذوف.

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ الإنسـان ٱسم شائع للجنس فى جميع (٦) الكفار . ويقال : إن الإنسان هنا الوليد بن المغـيرة وفيه نزلت . وقيـل : فى عبد الله بن

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٦٧ (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٩٧ وص ٦٢ (٣) راجع جـ ١٦ ص ٧٤
(٤) راجع ص ٢٠١ من هذا الجزء . (٥) (يبعث زيد أمة) لأنه كان تبرأ من أديان المشركين، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه .
(٦) فى ع : جامع .

أبي أمية المخزومي. «رَحْمَةً» أي نعمة. ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي سلبناه إياها. ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ أي يائس من الرحمة. ﴿كَفُورٌ﴾ للنعم جاحد لها؛ قاله ابن الأعرابي. النحاس: «لَيَئُوسٌ» من يَئِس يَيْأَس، وحكى سيبويه يَئِس يَئِس على فَعِل يفعِل، ونظيره حَسِب يَحْسِب ونَعِم يَنْعِم، ويَئِس ييئِس؛[1] وبعضهم يقول: يَئِس يَيْئِس؛ ولا يعرف في الكلام [العربي][2] إلا هذه الأربعة الأحرف من السالم جاءت على فَعِل يفعِل؛ وفي واحد منها اختلاف. وهو يَئِس و «يَئُوسٌ» على التكثير كفخور للمبالغة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾ أي صحة ورخاء وسعة في الرزق. ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي بعد ضُرٍّ وفقر وشدّة. ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي الخطايا التي تسوء صاحبها من الضُّرّ والفقر. ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي يفرح ويفخر بما ناله من السَّعة وينسى شكر الله عليه؛ يقال: رجل فاخر إذا افتخر — وفخور للمبالغة — قال يعقوب القارئ: وقرأ بعض أهل المدينة «لَفَرُحٌ» بضم الراء كما يقال: رجل فَطُنٌ وحَذُرٌ ونَدُسٌ. ويجوز في كلتا اللغتين[3] الإسكان لثقل الضمة والكسرة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ يعني المؤمنين، مدحهم بالصبر على الشدائد. وهو في موضع نصب. قال الأخفش: هو استثناء ليس من الأول؛ أي لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والمحنة. وقال الفراء: هو استثناء من «وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ» أي من الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، والناس يشمل الكافر والمؤمن؛ فهو استثناء متصل وهو حسن. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ابتداء وخبر. ﴿وَأَجْرٌ﴾ معطوف. ﴿كَبِيرٌ﴾ صفة.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

---

(١) كذا في الأصول. ولعل الصواب: يبس ييبس: بالموحدة بعد الياء. وهو الحرف الرابع.
(٢) من ع.　　(٣) في ع: اللفظين.

قوله تعـالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ أى فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه. وقيل: إنهم لما قالوا : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْـهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » هَمَّ أن يدع سبّ آلهتهم فنزلت هذه الآية؛ فالكلام معناه الاستفهام؛ أى هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سألوك؟ وتأكد عليه الأمر فى الإبلاغ؛ كقوله : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ »(١) . وقيـل : معنى الكلام النفى مع استبعاد؛ أى لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك؛ وذلك أن مشركى مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتبعناك ، فهَمّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع سبّ آلهتهم؛ فنزلت .

قوله تعـالى : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على « تَارِكٌ » و « صَدْرُكَ » مرفوع به ، والهاء فى «به» تعود على «ما» أو على بعض، أو على التبليغ، أو التكذيب. وقال : «ضَائِقٌ» ولم يقل ضيّق ليشاكل « تَارِكٌ » الذى قبله ؛ ولأن الضّائق عارض ، والضيّق ألزم منه . ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب ؛ أى كراهية أن يقولوا ، [أولئلا يقولوا](٢) كقوله : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »(٣) أى لئلا تضلّوا . أو لأن يقـولوا . ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلّا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْـهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدقه؛ قاله عبد الله بن أبى أميّة بن المغيرة المخزومىّ؛ فقال الله تعالى : يا محمد ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ إنما عليـك أن تنذرهم، لا بأن تأتيهم بما يقـترحونه من الآيات . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وشهيد .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾(٤) « أم » بمعنى بل، وقد تقدّم فى « يونس » أى قد أزحت عِلّتهم وإشكالهم فى نبوّتك بهـذا القرآن ، وحجَجْتَهم به؛ فإن قالوا : افتريته — أى اختلقتـه — فليأتوا بمثـله مفترًى بزعمهـم . ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من الكهنة والأعوان .

قوله تعـالى : فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

---

(١) راجع جـ٦ ص٢٤٢ (٢) من و . (٣) راجع جـ٦ ص٢٨ فما بعد . (٤) راجع جـ٨ ص٣٤٤

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى فى المعارضة ولم تتهيأ لهم فقد قامت عليهم الحجة؛ إذ هم اللُّسْن البلغاء ، وأصحاب الألسن الفصحاء . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ واعلموا صدق محمد صلى الله عليه وسلم ،﴿و﴾ اعلموا ﴿أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ استفهام معناه الأمر . وقد تقدّم القول فى معنى هذه الآية ، وأن القرآن معجز فى مقدمة الكتاب . والحمد لله . وقال : « قُلْ فَأْتُوا » و بعده . « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ » ولم يقل لك ؛ فقيل: هو على تحويل المخاطَبة[1] من الإفراد ، إلى الجمع تعظيما وتفخيما ؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة . وقيل : الضمير فى « لَكُمْ » وفى « فَاعْلَمُوا » للجميع ؛ أى فليعلم الجميع « أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ؛ قاله مجاهد . وقيل : الضمير فى «لكم» وفى «فاعلموا» للشركين ؛ والمعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة ، ولا تهيأت لكم المعارضة «فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» . وقيل: الضمير فى «لكم» للنبي صلى الله عليه وسلم وللؤمنين ، وفى «فاعلموا» للشركين .

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ كان زائدة[2] ، ولهذا جزم بالجواب فقال : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ قاله الفراء . وقال الزجاج : « مَنْ كَانَ » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه « نُوَفِّ إِلَيْهِمْ » أى من يَكُن يريد؛ والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل ، كما قال زهير:

وَمَنْ هَاب أسباب المنية يلقها ... ولو رام أسبابَ السَّماء بسُلَّمِ

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل : نزلت فى الكفار ؛ قاله الضحاك ، واختاره النحاس ؛ بدليل الآية التى بعدها « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » أى من أتى منهم بصلة رَحِم أو صدقة نكافئه بها فى الدنيا ، بصحة الجسم ، وكثرة الرزق ، لكن لا حسنة

---

(١) فى ع : المخاطب . (٢) قال فى البحر: ولعله لا يصح إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط «يريد» وكان يكون مجزوما .

له فى الآخرة . وقد تقدم هذا المعنى فى «براءة»(١) مستوفى . وقيل : المراد بالآية المؤمنون ؛ أى من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجّل له الثواب ولم يُنقص شيئا فى الدنيا ، وله فى الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده ، و بحكم ضميره ؛ وهذا أمر متفق عليه فى الأمم بين كل مِلّة . وقيل : هو لأهل الرياء ؛ وفى الخبر أنه يقال لأهل الرياء : "صُمتم وصلّيتم وتصدّقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك " ثم قال : " إنّ هؤلاء أولُ من تُسْعَر بهم النار " . رواه أبو هريرة ، ثم بكى بكاء شديدا وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا» وقرأ الآيتين ، خرّجه مسلم [فى صحيحه](٢) بمعناه والترمذىّ أيضا . وقيل : الآية عامة فى كل من ينوى بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن ؛ قاله مجاهد وميمون بن مِهْران ، و إليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى . وقال ميمون بن مِهْران : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفّى ثوابها ؛ فإن كان مسلما مخلصا وُفّى فى الدنيا والآخرة ، و إن كان كافرا وُفّى فى الدنيا . وقيل : من كان يريد [الدنيا] بغزوه مع النبى صلى الله عليه وسلم وُفّيها ، أى وُفّى أجر الغَزاة ولم يُنقص منها ؛ وهذا خصوص والصحيح العموم .

الثانية — قال بعض العلماء : معنى هذه الآية قوله عليه السلام : "إنما الأعمال بالنيات" . وتدلك هذه الآية على أن من صام فى رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان ، وتدلّ على أن من توضأ للتبرّد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة ، وهكذا كل ما كان فى معناه .

الثالثة — ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ؛ وكذلك الآية التى فى «الشورى» «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا»(٣) الآية . وكذلك «وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا»(٤) قيدها وفسرها التى فى «سبحان» «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ»(٥) إلى قوله : «مَحْظُورًا» فأخبر سبحانه أن العبد ينوى و يريد والله سبحانه يحكم ما يريد ، وروى الضّحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦١ (٢) من ع و و . (٣) راجع جـ ١٦ ص ١٨
(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٢٦ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥ فما بعد .

فى قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أنها منسوخة بقوله : «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ » . والصحيح ما ذكرناه ؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد ؛ ومثله قوله : «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ[(١)] » فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داعٍ دائمـا على كل حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ[(٢)] » . والنسخ فى الأخبار لا يجوز ؛ لاستحالة تبدّل الواجبات العقلية ، ولاستحالة الكذب على الله تعالى ؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيـه ، على ما هـو مذكور فى الأصول؛ و يأتى فى « النحل[(٣)] » بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى :﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ إشارة إلى التّخليد، والمؤمن لا يُخلَّد ؛ لقوله تعـالى : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ[(٤)] » الآية . فهو محمول على ما لو كانت موافاة هذا المرائى على الكفر . وقيل : المعنى ليس لهم إلا النار فى أيام معلومة ثم يخرج ؛ إما بالشـفاعة ، و إما بالقَبْضة . والآية تقتضى الوعيد بسلْب الإيمان ؛ وفى الحديث [المـاضى[(٥)]] يريد الكفر وخاصة الرياء ، إذ هـو شرك على ما تقدّم بيـانه فى « النساء[(٤)] » و يأتى فى آخر « الكهف[(٦)] » . ﴿ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ابتداء وخبر؛ قال أبو حاتم : وحذف الهاء ؛ قال النحاس : هـذا لا يحتاج إلى حذف ؛ لأنه بمعنى المصدر ؛ أى وباطل عمله . وفى حرف أبىّ وعبـد الله « وَبَاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُون » وتكون « ما » زائدة ؛ أى وكانوا يعملون باطلا .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٢٢ (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٢٧
(٤) راجع جـ ٥ ص ٢٤٥ وص ٤٢٢ (٥) فى الأصل (المعاصى) وهو تحريف ، والمراد بالحديث الماضى حديث أبى هريرة المتقدم فى عمل المرائى "صمتم وصليتم..." . (٦) راجع جـ ١١ ص ٦٩

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ابتداء والخبر محذوف؛ أى أفمن كان على بينة من ربه فى اتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم، ومعه من الفضل ما يتبيّن به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟! عن على بن الحسين والحسن بن أبى الحسن. وكذلك قال ابن زيد: إن الذى على بيّنة هو من اتبع النبيّ[(١)] محمدا[(١)] صلى الله عليه وسلم. ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ من الله، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقيل المراد بقوله: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» النبيّ صلى الله عليه وسلم، والكلام راجع إلى قوله : «وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ» ؛ أى أفمن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل — على ما يأتى — وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ، وهو يعلم أن الله لا يُسلِمه . والهاء فى «ربّه» تعود عليه، وقوله: «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» . وروى عكرمة عن ابن عباس أنه جبريل؛ وهو قول مجاهد والنَّخَعِيّ. والهاء فى «منه» لله عز وجل؛ أى ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل. وقال مجاهد: الشاهد ملَك من الله عزّ وجلّ يحفظه ويُسدّده. وقال الحسن البصرى وقَتَادة: الشاهد لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال محمد بن على بن الحنفية : قلت لأبى أنت الشاهد؟ فقال : وددت أن أكون أنا هو، ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل : هو على بن أبى طالب؛ روى عن ابن عباس أنه قال : هو على بن أبى طالب؛ وروى عن علىّ أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان؛ فقال له رجل : أى شىء نزل فيك؟ فقال علىّ : «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» . وقيل : الشاهد صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخائله؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى

---

(١) من ع.

النبيّ صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، على قول ابن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد؛ قاله الحسين بن الفضل، فالهاء في « منه » للقرآن . وقال الفرّاء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق ؛ والهاء في « منه » لله عزّ وجلّ . وقيل : البيّنة معرفة الله التي أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذي يتلوه العقلُ الذي رُكِّب في دماغه وأشرق صدره بنوره .
﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل الإنجيل. ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحق الزجاج: والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى «يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ»[1]. وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابَ مُوسَى » بالنصب ؛ وحكاها المهدويّ عن الكلبيّ؛ يكون معطوفا على الهاء في « يَتْلُوهُ » والمعنى : ويتلو كتابَ موسى جبريلُ عليه السلام ؛ وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما ؛ المعنى من قبله تلا جبريلُ كتابَ موسى على موسى . ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضا من هذا القول أن يُرفع « كتاب » على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أي تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد . ﴿ إِمَامًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ معطوف . ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إشارة إلى بني إسرائيل، أي يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار ؛ حكاه القشيريّ . والهاء في « به » يجوز أن تكون للقرآن، ويجوز أن تكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن أو بالنبيّ عليه السلام . ﴿ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ يعني من الملل كلها ؛ عن قتادة؛ وكذا قال سعيد بن جُبَير : « الأحزاب » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يتحازبون . وقيل : قريش وحلفاؤهم . ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أي هو من أهل النار ؛ وأنشد حسان :

أوردتموها حياضَ الموتِ ضاحيةً * فالنارُ موعدُها والموتُ لاقيها

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٩٧ .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى يونس عن النبى صلى الله عليه وسلم : "والذى نفس محمد بيده لَايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى [ثم يموت](١) ولم يؤمن بالذى أُرسلتُ به إلّا كان من أصحاب النار". ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أى فى شك . ﴿ مِنْهُ ﴾ أى من القرآن . ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى القرآن من الله ؛ قاله مقـاتل . وقال الكلبى : المعنى فلا تك فى مرية فى أن الكافر فى النار . « إِنَّه الْحَقُّ » أى القول الحق الكائن؛ والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم، والمراد جميع المكلّفين .

قوله تعـالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم ٱفتروا على الله كذبا، فأضافوا كلامه إلى غيره، وزعمـوا أن له شريكا وولدا ، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله . ﴿ أُولَـٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ أى يحاسبهم على أعمالهم . ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعنى الملائكة الحفظة؛ عن مجاهد وغيره؛ وقال سفيان : سألت الأعمش عن «الْأَشْهَادُ» فقال : الملائكة . الضّحاك : هم الأنبياء والمرسلون؛ دليله قوله : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا »(٢) .وقيل: الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلّغـوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخـلائق أجمع . وفى صحيح مسـلم من حديث صـفوان بن مُحرِز عن ٱبن عمر عن النبى صـلى الله عليه وسـلم ، وفيه قال : " وأما الكفار والمنـافقون فينادى بهم على رءوس الخـلائق هؤلاء الذين كَذَبوا على الله " . ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّـالِمِينَ ﴾ أى بعده وسخطه و إبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها .

(١) [زي]ادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٩٧ .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن تكون «ٱلَّذِينَ» فى موضع خفض نعتا للظالمين ، ويجوز أن تكون فى موضع رفع ؛ أى هم الذين . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى ؛ أى هم الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة . ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى يعدلون بالناس عنها إلى المعاصى والشرك . ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أعاد لفظ « هم » تأكيدا .

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أى فائتين من عذاب الله . وقال ابن عباس : لم يُعجزونى أن آمر الأرض فتنخسف بهم . ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يعنى أنصارا ، و«مِنْ» زائدة . وقيل : «ما» بمعنى الذى تقديره : أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله ؛ وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما . ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أى على قدر كفرهم ومعاصيهم . ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ «ما» فى موضع نصب على أن يكون المعنى : بما كانوا يستطيعون السمع . ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ولم يستعملوا ذلك فى استماع الحق وإبصاره . والعرب تقول : جزيته ما فعل وبما فعل ؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى ؛ وأنشد سيبويه [(١)] :

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعل ما أُمِرتَ بهِ　*　فقد تركْتُك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

ويجوز أن تكون «ما» ظرفا ، والمعنى : يضاعف لهم أبدا ، أى وقت استطاعتهم السمع والبصر ، والله سبحانه يجعلهم فى جهنم مستطيعى ذلك أبدا . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لها ؛ إذ الكلام قد تمّ قبلها ، والوقف على العذاب كافٍ ؛ والمعنى : ما كانوا

(١) البيت لعمرو بن معدى كرب الزَّبيدىّ . أراد (بالخير) فحذف ووصل الفعل ونصب . والنشب : المال الثابت كالضياع ونحوها . وقيل : النشب جميع المال ؛ فيكون عطفه على الأول مبالغة وتأكيدا . (شواهد سيبويه) .

يستطيعون فى الدنيا أن يسمعوا سمعا ينتفعون به، ولا أن يبصروا إبصار مهتد . قال الفرّاء: ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأن الله أضلّهم فى اللوح المحفوظ . وقال الزجاج: لبغضهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا[1] عنه . قال النحاس: وهـذا معروف فى كلام العرب؛ يقال : فلان لا يسـتطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلا عليه .

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٢٢)

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى ضاع عنهم افتراؤهم وتلِف .

قوله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ للعلماء فيها أقوال؛ فقال الخليل وسيبويه : « لَا جَرَمَ » بمعنى حق ، فـ«لا » و « جَرَمَ » عندهما كلمة واحدة ، و « أنّ » عندهما فى موضع رفع ، وهذا قول الفرّاء ومحمد بن يزيد؛ حكاه النحاس . قال المهـدوىّ : وعن الخليل أيضا أن معناها لا بدّ ولا محالة ، وهو قول الفـرّاء أيضا ؛ ذكره الثعلبيّ . وقال الزجاج : « لا » هاهنا نفى وهو ردّ لقولهم : إن الأصنام تنفعهم؛ كأن المعنى لا ينفعهم ذلك، وجرم بمعنى كَسَب ؛ أى كسب ذلك الفعلُ لهم الخسران ، وفاعل كسب مضمر، و « أنّ » منصوبة بجرم ، كما تقول كَسَب جفاؤُك زيدا غضبه عليك ؛ وقال الشاعر :

نَصبنا رأسـه فى جِذع نَخْـلٍ[2] * بما جَرَمَتْ يداه وما اعتـدينا

أى بمـا كسبت . وقال الكسائىّ : معنى « لَا جَرَمَ » لا صَدّ ولا مَنْع عن أنهم . وقيـل : المعنى لا قَطعَ قاطعٌ ، فحـذف الفاعل حين كثر استعماله ؛ والجَـرْم القَطْع ؛ وقد جَرَمَ النَّخْلَ واجْتَرَمَه أى صَرَمه فهو جارِمٌ، وقومٌ جُرُم و جُرَّامٌ وهذا زمن الجَرام والجِرام، وجَرَمْتُ صوف الشاة أى جززتُه، وقد جَرَمْتُ منه أى أخذتُ منه؛ مثـل جَلَمْت الشيء جَلْمًا أى قطعتُ،

(١) فى ع : يفهموا . (٢) فى ع و و ى : فى رأس جذع .

وجَلَمت الجزورَ أجلِمها جَلْما إذا أخذتَ ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجَلْمته — ساكنة اللام — إذا أخذته أجمع، وهذه جَلَمة الجزور — بالتحريك — أى لحمها أجمع؛ قاله الجوهري. قال النحاس: وزعم الكسائي أن فيها أربع لغات: لا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَمَ، ولا أنَّ ذا جَرَمَ، قال: وناس من فَزَارة يقولون: لا جَرَ أنهم بغير ميم. وحكى الفراء فيه[1] لغتين أخريين قال: بنو عامر يقولون لا ذا جَرَمَ، قال: وناس من العرب يقولون: لا جُرم بضم الجيم.

قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «الذين» اسم «إن» و«آمنوا» صلة، أى صدّقوا. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ عطف على الصلة. قال ابن عباس: أخبتوا أنابوا. مجاهد: أطاعوا. قَتَادة: خشعوا وخضعوا. مقاتل: أخلصوا. الحسن: الإخبات الخشوع للخافة الثابتة فى القلب؛ وأصل الإخبات الاستواء، من الخَبْت وهو الأرض المستوية الواسعة: فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإنابة إلى الله عز وجل المستمرة ذلك على استواء. «إِلَى رَبِّهِمْ» قال الفراء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون المعنى: وجهوا إخباتهم إلى ربهم. ﴿أُولَئِكَ﴾ خبر «إنّ».

قوله تعالى: مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ ابتداء، والخبر ﴿كَالْأَعْمَى﴾ وما بعده. قال الأخفش: أى كمثل الأعمى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر [كالأعمى][2] والأصم، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ فردّ إلى الفريقين وهما اثنان؛

---

(١) فى ع: فيها. (٢) الزيادة عن النحاس.

روى معناه عن قتادة وغيره . قال الضحّاك : الأعمى والأصمّ مثلٌ للكافر، والسميع والبصير مثل للؤمن . وقيل : المعنى هل يستوى الأعمى والبصير ، وهل يستوى الأصمّ والسميع . ﴿ مَثَلًا ﴾ منصوب على التمييز [(١)] . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فى الوصفين وتنظرون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم . ﴿ إِنِّى ﴾ أى فقال : إنى ؛ لأن فى الإرسال معنى القول . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائىّ «أَنِّى» بفتح الهمزة؛ أى أرسلناه بأنى لكم نذير مبين . ولم يقل «إنه» لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه[(٢)]؛ كما قال: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ» ثم قال: «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ»[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى اتركوا الأصنام فلا تعبدوها، وأطيعوا الله وحده . ومن قرأ « إنّى » بالكسر جعله معترضا فى الكلام ، والمعنى أرسلناه بألا تعبدوا [إلا الله] . ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

قوله تعالى : فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : الملأ الرؤساء؛ أى هم مليئون بما يقولون . وقد تقدّم هذا فى « البقرة »[(٤)] وغيرها . ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا ﴾

(١) فى ع ، و ، ى : على التفسير . (٢) قال ابن عطية : وفى هذا نظر ، وإنما هى حكاية مخاطبة لقومه ، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى مخاطبة ، ولو كان الكلام أن أنذرهم أو نحوه لصح ذلك .

(٣) راجع ج ٧ ص ٢٨٠ . (٤) راجع ج ٣ ص ٢٤٣

أى آدميا . ﴿ مِثْلَنَا ﴾ نصب على الحال . و « مثلنا » مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقـدر فيه التنوين ؛ كما قال الشاعر(١) :

* يا رُبَّ مِثْلِكِ فى النِّساءِ غَرِيرَةٍ *

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ أَراذل جمع أَرْذُل وأَرْذُل جمع رَذْل ؛ مثل كَلْب وأَكْلُب وأَكالب . وقيل : والأراذل جمع الأَرْذل ، كأَساود جمـع الأَسْوَد من الحيّات . والرَّذْل النَّذْل ؛ أرادوا ٱتبعك أخِسّاؤنا وسَقَطُنا وسفلتنا . قال الزجاج : نسبوهم إلى الحِياكة ؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها فى الديانة . قال النحاس : الأراذل هم الفقراء ، والذين لا حسب لهم ، والخسيسو الصناعات . وفى الحديث "إنهـم كانوا حاكة وحجّامين" . وكان هذا جهلا منهم ؛ لأنهم عابوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بما لاعيب فيه ؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات ، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات ، وهم يرسَلون إلى الناس جميعا ، فإذا أسلم منهـم الدنىء لم يلحقهم من ذلك نقصان ؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم .

قلت : الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء ؛ كما قال هِرَقْل لأبى سفيان : أشراف الناس ٱتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ؛ فقال : هم أتباع الرسل . قال علماؤنا : إنمـا كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف ، وصعوبة الانفكاك عنهـا ، والأَنَفَة من الانقياد للغير ؛ والفقير خِلٌّ عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد . وهذا غالب أحوال أهل الدنيـا .

الثالثـــة — ٱختلف العلماء فى تعيين السّفلة على أقوال ؛ فذكر ٱبن المبارك عن سفيان أن السّـفلة هم الذين يَتَقَلَّسون(٢) ، ويأتون أبواب القضاة والسـلاطين يطلبون الشهادات .

---

(١) هو أبو محجن الثقفى و تمام البيت :

* بيضاء قد متعتها بطلاق *

الغريرة : المغترة بلين العيش . ومتعها : أعطاها ما تستمتع به عند طلاقها .

(٢) التقليس : استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو .

وقال ثعلب عن ابن الأعرابى : السّفِلة الذين يأكلون الدنيا بدينهم (١) ؛ قيـل له : فمن سفلة السّفلة ؟ قال : الذى يُصلح دنيا غيره بفساد دينه . وسـئل على رضى الله عنه عن السّفلة فقال : الذين إذا اجتمعوا غَلَبوا ، و إذا تفرقوا لم يعرفوا . وقيل لمـالك بن أنس رضى الله عنه : مَن السّفلة ؟ قال : الذى يسبّ الصحابة . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : الأرذلون الحاكَة والحجّامون . يحيى بن أَكْثَم : الدبّاغ والكنّاس إذا كان من غير العرب .

الرابعـــة — إذا قالت المرأة لزوجها : يا سَفِلة، فقال : إن كنتُ منهم فأنتِ طالق؛ فحكى النقاش أن رجلا جاء إلى الترمذى فقال : إن امرأتى قالت لى يا سَفِلة، فقلت : إن كنتُ سَفِلة فأنت طالق؛ قال الترمذى : ما صناعتك ؟ قال : سماك ؛ قال : سَفِلة والله، سَفِلة والله [سفلة] (٢) .

قلت : وعلى ما ذكره ابن المبـارك عن سـفيان لا تطلق ، وكذلك على قـول مالك ، وابن الأعرابى لا يلزمه شىء .

قوله تعـالى : ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ . أى ظاهر الرأى، و باطنهم على خلاف ذلك . يقال : بدا يبدو إذا ظهر ؛ كما قال :

* فاليوم حين بَدَوْن للنُّظّار *

و يقال للبرّية بادية لظهورها . و بدا لى أن أفعل كذا ، أى ظهر لى رأى غير الأول . وقال الأزهرى : معناه فيما يبـدو لنا من الرأى . ويجوز أن يكون « بَادِيَ الرَّأْيِ » من بدأ يبدأ وحذف الهمزة . وحقّق أبو عمرو الهمزة فقرأ : «بَادِئَ الرأى» أى أوّل الرأى؛ أى اتبعوك حين ابتـدءوا ينظرون ، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك ؛ ولا يختلف المعنى هاهنا بالهمز وترك الهمز . وانتصب على حذف « فى » كما قال عز وجل : « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَـهُ (٣) » .

﴿وَمَا نَرَى لَـكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أى فى اتباعه؛ وهذا جحد منهم لنبوّته صلى الله عليه وسلم . ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ (٤) كَاذِبِينَ﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه .

---

(١) كذا فى ع ، والذى فى غيره بالإفراد . (٢) من ى . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤ .
(٤) فى ع و ى : به .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أي على يقين ؛ قاله أبو عمران الجَوْني . وقيل : على معجزة ؛ وقد تقدّم في «الأنعام»(١) هذا المعنى . ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ أي نبوّة ورسالة ؛ عن ابن عباس ؛ وهي رحمة على الخلق . وقيل : الهداية إلى الله بالبراهين . وقيل : بالإيمان والإسلام . ﴿ فَعَمِيَتْ(٢) عَلَيْكُمْ ﴾ أي عَمِيت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها . يقال : عَمِيتُ عن كذا، وعَمِي عليّ كذا أي لم أفهمه . والمعنى : فعَمِيت الرحمةُ ؛ فقيل : هو مقلوب ؛ لأن الرحمة لا تَعمَى إنما يُعمَى عنها ؛ فهو كقولك : أدخلت في القَلَنْسُوة رأسي، ودخل الخفُّ في رجلي . وقرأها الأعمش وحمزة والكسائي « فعُمِّيَتْ » بضم العين وتشديد الميم على ما لم يُسمَّ فاعله ؛ أي فعمّاها الله عليكم ؛ وكذا في قراءة أُبَيّ «فعمّاها» ذكرها الماوردي . ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ قيل : شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : الهاء ترجع إلى الرحمة . وقيل : إلى البينة؛ أي أنلزمكم قبولها، وأُوجبها عليكم ؟! وهو استفهام بمعنى الإنكار؛ أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها ؛ وإنما قصد نوح عليه السلام

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٣٨ . (٢) قراءة نافع .

بهـذا القول أن يرد عليهم . وحكى الكسائى والفراء « أَنُلْزِمْكُمُوهَا » بإسكان الميم الأولى تخفيفا، وقد أجاز مثل هذا سيبويه، وأنشد[1] :

فاليـومَ أَشربْ غيرَ مُستَحْقِبٍ * إثمـًا مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلِ

وقال النحاس : ويجوز على قول يونس [في غير القرآن][2] أنلزمكها يجرى المضمر مجرى المظهر؛ كما تقول : أنلزمكم ذلك . ﴿ وَأَنْتُمْ لَهَـا كَارِهُونَ ﴾ أى لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عليها . قال قتادة : والله لو آستطاع نبى الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على التبليغ، والدعاء إلى الله، والإيمان به [أجرا أى][3] ﴿ مَالًا ﴾ فيثقل عليكم . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى ثوابى فى تبليغ الرسالة . ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُـوا ﴾ سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنـوا به، كما سألت قريش النبى صلى الله عليه وسلم أن يطرد الموالى والفقراء، حسب ماتقدم « فى الأنعام[4] » بيانه ؛ فأجابهم بقوله : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عز وجل، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الآختصام ؛ أى لو فعلت ذلك لخاصمونى عنـد الله، فيجازيهم على إيمـانهم، ويجازى من طـردهم . ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فى آسترذالكم لهم، وسؤالكم طردهم .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ ﴾ قال الفـراء : أى يمنعنى من عذابه . ﴿ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ﴾ أى لأجل إيمـانهم . ﴿ أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ[5] ﴾ أدغمت التـاء فى الذال . ويجـوز حذفها فتقول : تَذَكَّرون .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَـكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْـلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أخبر بتـذلله وتواضعه لله عز وجل، وأنه لا يدّعى ماليس له من خزائن الله ؛ وهى إنعامه على من يشـاء

---

(١) البيت لامرئ القيس، والشاهد فيه تسكين الباء من قوله (أشرب) فى حال الرفع والوصل . احتقب الإثم واستحقبه احتمله . والواغل الداخل على الشراب ولم يدع له . يقول : حلت لى الخمر فلا آثم بشربها إذ قد وفيت بنذرى فيها . وكان قد نذر ألا يشربها حتى يدرك ثأر أبيه .

(٢) الزيادة عن النحاس .

(٣) من ع وك وى .

(٤) راجع جـ ٦ ص ٤٣١ وما بعدها .

(٥) قراءة نافع .

من عباده؛ وأنه لا يعلم الغيب؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ. ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي لا أقول إن منزلتي عند الناس منزلة الملائكة . وقد قالت العلماء : الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لدوامهم على الطاعة، واتصال عباداتهم إلى يوم القيامة، صلوات الله عليهم أجمعين . وقد تقدّم هذا المعنى في « البقرة »[1] . ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ أي تستثقل وتحتقر أعينكم؛ والأصل تزدريهم حذفت الهاء والميم لطول الاسم . والدّال مبدلة من تاء؛ لأن الأصل في تزدري تَزْتَرِي، ولكن التّاء تبدل بعد الزاي دالا؛ لأن الزّاي مجهورة والتّاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها . ويقال : أَزْرَيْتُ عليه إذا عِبتَه . وزَرَيتُ عليه إذا حقَّرته . وأنشد الفرّاء :

يُباعِدُه الصديقُ وتَزْدَريهِ　＊　حَليلتُـهُ ويَنْهَـرُه الصَّـغيرُ

﴿ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ أي ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم، أو ينقص ثوابهم . ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به . ﴿ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي إن قلت هذا الذي تقدّم ذكره . و« إِذًا » ملغاة؛ لأنها متوسطة .

قوله تعالى : قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ أي خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها . والجَدَل في كلام العرب المبالغة في الخصومة؛ مشتق من الجَدْل

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٩ وما بعدها .

وهو شدّة القَتل؛ ويقال للصقر أيضا أَجْدَل لشدّته فى الطّير؛ وقد مضى هذا المعنى فى «الأنعام»[1] بأشبع من هذا . وقرأ ٱبن عباس « فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا » ذكره النحاس . والجَدَل فى الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق؛ فمن قَبِله أنجح وأفلح، ومن ردّه خاب وخَسِر . وأما الجدال لغير الحقّ حتى يظهر الباطل فى صورة الحقّ فمذموم، وصاحبه فى الدّارين ملوم . ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أى من العذاب . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى قولك .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ ﴾ أى إن أراد إهلاككم عذّبكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى بفائتين . وقيل : بغالبين بكثرتكم؛ لأنهم أعجبوا بذلك؛ كانوا مَلئوا الأرض سهلا وجبلا على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى ﴾ أى إبلاغى وٱجتهادى فى إيمانكم . ﴿ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ أى لأنكم لا تقبلون نصحا؛ وقد تقدّم فى « براءة »[2] معنى النصح لغة . ﴿ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أى يضلّكم . وهذا مما يدلّ على بطلان مذهب المعتزلة والقَدَرية ومن وافقهما؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يَعصى العاصى، ولا يَكفر الكافر، ولا يَغوى الغاوى؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فردّ الله عليهم بقوله : « إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » . وقد مضى هذا المعنى فى « الفاتحة »[3] وغيرها . وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيّناه فى « الأعراف » فى إغواء الله تعالى إيّاه حيث قال : « فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى »[1] ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام : « إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادى والمضل؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون عُلُوّا كبيرا . وقيل : « أَنْ يُغْوِيَكُمْ » يهلككم؛ لأن الإضلال يُفضى إلى الهلاك . الطّبرىّ : « يُغْوِيَكُمْ » يهلككم بعذابه؛ حكى عن طىّ : أصبح فلان غاويا أى مريضا، وأغويته أهلكته؛ ومنه « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا »[4] . ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ فإليه الإغواء، وإليه الهداية . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٧٧ وص ١٧٤ . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٢٦ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٤٩ ، وجـ ٤ ص ٢٠ . (٤) راجع جـ ١١ ص ١٢٥ .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبي صلى الله عليه وسلم . ٱفترى ٱفتعل؛ أى ٱختلق القرآن من قِبل نفسه، وما أخبر به عن نوح وقومه؛ قاله مقاتل . وقال ٱبن عباس : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه؛ فالخطاب منهم ولهم . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ ﴾ أى اختلقته وٱفتعلته، يعنى الوحى والرسالة . ﴿ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى ﴾ أى عقاب إجرامى، وإن كنت محقا فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبى . والإجرام مصدر أجرم؛ وهو ٱقتراف السّيئة . وقيل[المعنى](1) : أى جزاء جُرْمى وكَسْبى . وجَرَم وأَجْرَم بمعنى؛ عن النحاس وغيره . قال(2) :

طَرِيدُ عَشيرةٍ ورَهينُ جُرْمٍ * بمـا جَرَمَتْ يَدِى وجَنَى لِسَانِى

ومن قرأ « أَجْرَامِى » بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جُرْم؛ وذكره النحاس أيضا . ﴿ وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ « أنه » فى موضع رفع على أنه ٱسم مالم يُسمَّ فاعله . ويجوز أن يكون فى موضع نصب، ويكون التقدير بـ«أنه» . و « آمَنَ » فى موضع نصب بـ«يؤمن» ومعنى الكلام الإياس من إيمانهم، وٱستدامة كفرهم، تحقيقا لنزول الوعيد بهم . قال الضحاك : فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »(3) الآيتين . وقيل : إن رجلا من قوم نوح حمل ٱبنه على كتفه، فلما رأى الصبى نوحا قال لأبيه : أعطنى حجرا؛ فأعطاه حجرا، ورمى به نوحا عليه السلام فأدماه؛ فأوحى الله تعالى إليه « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ

(1) من ع و ى . (2) البيت للهيردان السعدى أحد لصوص بنى سعد . (اللسان) .
(3) راجع جـ ١٨ ص ٣١٢ .

إلّا مَنْ قَدْ آمَنَ » . ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أى فلا تغتمّ بهلاكهم حتى تكون بائسا؛ أى حزينا . والبؤس الحزن؛ ومنه قول الشاعر :

وكم مِن خليلٍ أو حميمٍ رُزِئتُـه * فلم أبتئِسْ والرُّزءُ فيـه جليـلُ

يقال : ٱبتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه . والٱبتئاس حزن فى ٱستكانة .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ أى ٱعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن معك . « بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الرّبيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ من يَراك . وقال ٱبن عباس رضى الله عنهما : بحراستنا؛ والمعنى واحد؛ فعبّر عن الرؤية بالأعين؛ لأن الرؤية تكون بها . ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعالى : « فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ »[1] « فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ »[2] . وقد يرجع معنى الأعين فى هذه الآية وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي »[3] وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة؛ وهو سبحانه منزّه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف؛ لا ربّ غيره . وقيل : المعنى « بِأَعْيُنِنَا » أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حِفظك ومعونتك؛ فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه . وقيل : « بِأَعْيُنِنَا » أى بعلمنا؛ قاله مقاتل : وقال الضّحاك وسفيان : « بِأَعْيُنِنَا » بأمرنا . وقيل : بوحينا . وقيل : بمعونتنا لك على صنعها . « وَوَحْيِنَا » أى على ما أوحينا إليك من صنعتها . ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ أى لا تطلب إمهالهم فإنى مغرقهم .

قوله تعالى : وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٧٥ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٢ . (٣) راجع جـ ١١ ص ١٩٥ .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ أى وطفق يصنع . قال زيد بن أسلم : مكث نوح صلى الله عليه وسلم مائة سنة يَغرس الشّجر و يقطعها و ييبسها ، ومائة سنة يعملها . وروى آبن القاسم عن آبن أشرس عن مالك قال : بلغـنى أن قوم نوح مَلَـئوا الأرض، حتى مَلَـئوا السّهل والجبل، فمـا يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء؛ فمكث نوح يَغرس الشـجر مائة عام لعمـل السّفينة ، ثم جمعها ييبسها مائة عام ، وقـومه يسخرون ؛ وذلك لمـا رأوه يصنع من ذلك ؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان . وروى عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينته ببقاع دمشق، وقطع خشبها من جبل لبنان . وقال القـاضى أبو بكر بن العـربى : لمـا آستنقذ الله سبحانه وتعـالى مَن فى الأصـلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه . «أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فآصنع الفلك» قال : يارب ما أنا بنجّـار ، قال : « بلى فإن ذلك بعينى » فأخذ القـدوم فجعله بيـده ، وجعلت يده لا تُخطئ ، فجعلوا يمـرّون به و يقولون : هـذا الذى يزعم أنه نبى صارا نجّارا ؛ فعملها فى أربعين سنة .

وحكى الثّعلبى وأبو نصر القُشَيرى عن آبن عباس قال : آتخذ نوح السفينة فى سنتين . زاد الثّعلبى : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن آصنعها كجُؤْجُؤ الطائر . وقال كعب : بناها فى ثلاثين سنة ، والله أعلم . المهدوى : وجاء فى الخبر أن الملائكة كانت تعلّمــه كيف يصنعها . وآختلفوا فى طولها وعرضها ؛ فعن آبن عباس رضى الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ، وسمكها ثلاثون ذراعا ؛ وكانت من خشب السّاج . وكذا قال الكَلْبى وقَتَادة وعِكْرِمة كان طولها ثلثمائة ذراع ، والذّراع إلى المَنْكِب . قاله سلمان الفارسى . وقال الحسن البصرى : إن طول السّفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة درع . وحكاه الثّعلبى فى كتاب العرائس . وروى علىّ بن زيد عن يوسف بن مِهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدّثنا عنها ، فانطلق بهم حتى آنتهى إلى كَثيب من تراب فأخذ كفًّا من ذلك التراب ، قال أتدرون ماهذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : [هذا كعبُ[(١)] حام بن نوح] قال فضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من[(٢)] رأســه ، وقد شاب[(٣)] ؛ فقال له عيسى : أهكذا هلكت ؟ قال : لا بل متُّ وأنا شابّ ، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثَمّ شِبت . قال : أخبرنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، طبقة فيها الدوابّ والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطّير . وذكر باقى الخبر[(٤)] على ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى . وقال الكلْبى فيما حكاه النقاش : ودخل المـاء فيها أربعة أذرع ، وكان لها ثلاثة أبواب ؛ باب فيه السّباع والطير ، وباب فيه الوحش ، وباب فيه الرجال والنساء . ٱبن عباس جعلها ثلاث بطون ؛ البطن الأسفل للوحوش والسباع والدواب ، والأوسط للطعام والشراب ، وركب هو فى البطن الأعلى ، وحمل معه جسد آدم عليه السـلام معترضا بين الرجال والنساء ، ثم دفنــه بعدُ ببيت المقدس ؛ وكان إبليس معهم فى الكَوْثَل[(٥)] . وقيــل : جاءت الحيّــة والعقرب لدخول السفينة فقـال نوح : لا أحملكما ؛ لأنكما سبب الضرر والبلاء ، فقالتا : احملنا فنحن نضمن لك ألا نضرّ أحدا ذَكَرك ؛ فمن قرأ حين يخاف مَضَرّتهما « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ[(٦)] » لم تضرّاه ؛ ذكره القشيرى وغيره . وذكر الحافظ بن عساكر فى التاريخ له مرفوعا من حديث أبى أمامة قال قال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " من قال حين يمسى صــلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقــرب تلك الليلة " . قوله تعـالى : ﴿ وَكُلَّمَا ﴾ ظرف . ﴿ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ . قال الأخفش والكِسائى يقال : سَخِرتُ به ومنه . وفى سخريتهم منه قولان : أحدهما — أنهم كانوا يرونه يبنى سفينته فى البر ، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون : يا نوح صرت بعد النبوّة نجارا . الثـانى — لمـا رأوه يبنى السـفينة ولم يشاهدوا قبلها سـفينة بنيت قالوا : يانوح

(١) كذا فى الطبرى والدر المنثور والكشاف ، وفى الأصل (قبر سام بن نوح) . (٢) فى ع : عن .
(٣) فى ع و ى : شاخ . (٤) جاء فى البحر : وٱختلفوا فى هيئتها من التربيع والطول ، وفى مقدار مدة عملها ، وفى المكان الذى عملت فيه ، ومقدار طولها وعرضها على أقوال متعارضة لم يصح منها شىء .
وقال الفخر الرازى : اعلم أن هذه المباحث لا تعجبنى ، لأنهــا أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة ، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا . (٥) الكوثل : مؤخر السفينة وفيه يكون الملاحون ومتاعهم . وقيل : هو السكان .
(٦) راجع جـ ١٥ ص ٩٠ .

ما تصنع؟ قال : أبنى بيتا يمشى على المـاء؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه . قال آبن عباس : ولم يكن فى الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر ؛ فلذلك سخروا منه ؛ ومياه البحار هى بقية الطوفان. ﴿ قالَ إِن تَسخروا مِنا ﴾ أى من فعلنا اليوم عند بناء السفينة . ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ ﴾ غدا عنـد الغرق . والمراد بالسخرية هنا الآستجهال ؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا .

قوله تعـالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ تهديد، و « مَنْ » متصلة بـ « سَوْفَ تَعْلَمُونَ » و « تعلمون » هنا من باب التعـدية إلى مفعول؛ أى فسوف تعلمون الذى يأتيـه العذاب . ويجوز أن تكون « مَن » آستفهامية ؛ أى أينا يأتيـه العذاب ؟ . وقيل : « مَن » فى موضع رفع بالآبتداء و « يَأْتِيهِ » الخبر، و « يُخْزِيهِ » صفة لـ « عذاب» . وحكى الكسائى : أن أناسا من أهل الحجاز يقولون : سو تعلمون؛ وقال من قال: «ستعلمون» أسقط الواو والفـاء جميعا . وحكى الكوفيـون : سف تعلمون(١) ؛ ولا يعـرف البصريون إلا ســوف تفعل ، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْـهِ ﴾ أى يجب عليه وينزل به . ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أى دائم، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعـالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ آختلف فى التنور على أقوال سبعة : الأول ــ أنه وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورا ؛ قاله آبن عباس وعِكرمة والزهرى وآبن عيينة؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت المـاء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك . الثانى ــ أنه تنور الخبز الذى يخبز فيــه ؛ وكان تنورا من حجارة ؛ وكان لحوّاء حتى صار لنوح؛ فقيل له : إذا رأيت المـاء يفور من التنور فآركب أنت وأصحابك . وأنبع الله المـاء من التنور، فعلمت به آمرأته فقالت : يا نوح فار المـاء من التنور ؛ فقـال : جاء وعد ربى حقا . هذا قول الحسن، وقاله مجـاهد وعطية عن آبن عباس . الثـالث ــ أنه

(١) ورد فى اللسان : قد قالوا سو يكون فحـذفوا اللام ، وسا يكون فحذفوا اللام وأبدلوا العين طلب الخفة ، وسف يكون فحذفوا العين .

موضع آجتماع المـاء فى السفينة ؛ عن الحسن أيضـا . الرابع — أنه طلوع الفجر ، ونور الصبح؛ من قولهم : نوّر الفجر تنويرا؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . الخامس — أنه مسجد الكوفة؛ قاله علىّ بن أبى طالب أيضا ؛ وقاله مجاهد . قال مجاهد : كان ناحيـة التنور بالكوفة . وقال : آتخـذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة، وكان التنور على يمين الداخل مما يلى كندة . وكان فوران المـاء منه علما لنوح ، ودليلا على هلاك قومه . قال الشاعر وهو أمية :

فار تَنّورُهم وجاشَ بماءٍ * صار فوق الجبالِ حتّى عَلاها

السـادس — أنه أعالى الأرض، والمواضع المرتفعة منها ؛ قاله قتادة .

السابـــع — أنه العين التى بالجزيرة « عين الوردة » رواه عِكرمة . وقال مقاتل : كان ذلك تنور آدم، و إنمـا كان بالشام بموضع يقال له : « عين وَرْدَة » وقال آبن عباس أيضا : فار تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهــذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن المـاء جاء من السماء والأرض؛ قال : «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا»[1] . فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان علامة . والفَوَران الغَلَيان . والتنور آسم أعجمىّ عربته العرب، وهو على بناء فَعّل؛ لأنّ أصل بنائه تَنّر، وليس فى كلام العرب نون قبل راء[2] . وقيل : معنى « فَارَ التَّنُّورُ » التمثيل لحضور العذاب؛ كقولهم : حَمِيَ الوطيس إذا آشتدت الحرب . والوطيس التنـور . و يقال : فارت قِدر القوم إذا آشـتد حربهم ؛ قال شاعرهم :

تركتم قِدْرَكم لا شيء فيهـا * وقِدْرُ القوم حاميـــةٌ تَفُورُ

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا آحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ آثْنَيْنِ ﴾ يعنى ذكرا وأنثى ؛ لبقاء أصل النسل بعد الطوفان . وقرأ حفص : «مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ آثْنَيْنِ» بتنوين « كل» أى من كل شيء زوجين . والقراءتان ترجعان إلى معنًى واحدٍ : [شيء][3] معه آخر لا يستغنى عنه . و يقال للآثنين : هما زوجان، فى كل آثنين لا يَستغنى أحدهما عن صاحبه ؛ فإن العرب تسمى كل واحد منهما زوجا . يقال : له زوجا نعلٍ إذا كان له نعلان . وكذلك عنـده زوجا حمامٍ ، وعليه زوجا

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٣١ .

(٢) قلت : ورد زنره : ملأه، وتزنر : دق : والسنر محركة : شراسة الخلق ، وشنر عليه : عابه .

(٣) من ع .

قيود؛ قال الله تعالى : « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى »[1] . ويقال للمرأة هي زوج الرجل، وللرجل هو زوجها . وقد يقال للاثنين هما زوج، وقد يكون الزوجان بمعنى الضربين، والصنفين، وكل ضرب يدعى زوجا؛ قال الله تعالى : « وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »[1] أى من كلّ لون وصنف . وقال الأعشى :

وكل زوجٍ من الدّيباجِ يَلبَسه　*　أبو قُدامة مَحبوٌّ بذاك مَعَا

أراد كل ضرب ولون . و « مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ » فى موضع نصب بـ « آحمل » . « آثنين » تأكيد . ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أى وآحمل أهلك . ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ ﴾ . « مَن » فى موضع نصب بالآستثناء . ﴿ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ منهم أى بالهلاك؛ وهو آبنه كنعان وآمرأته وَاعِلَة كانا كافرين . ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ قال الضحاك وآبن جريج : أى آحمل من آمن بى، أى من صدّقك؛ فـ « من » فى موضع نصب بـ « ا حمل » . ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال آبن عباس رضى الله عنهما : آمن من قومه ثمانون إنسانا، منهم ثلاثة من بنيه؛ سام وحام ويافث، وثلاث كنائن[2] له . ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهى اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل . وورد فى الخبر أنه كان فى السفينة ثمانية أنفس؛ نوح وزوجته غير التى عوقبت، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم؛ وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جريج ومحمد بن كعب؛ فأصاب حام آمرأته فى السفينة، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان . قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . وقال الأعمش : كانوا سبعة؛ نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين، وأسقط امرأة نوح . وقال آبن إسحق : كانوا عشرة سوى نسائهم؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث، وستة أناس ممن كان آمن به، وأزواجهم جميعا . و «قَلِيلٌ» رفع بآمن، ولا يجوز نصبه على الآستثناء؛ لأن الكلام قبله لم يتم، إلا أن الفائدة فى دخول «إلا» و «ما» لأنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن، فإذا جئت بما و إلا، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم .

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١٦ وجـ ١٢ ص ١٤ .　　(٢) الكنة (بالفتح) : آمرأة الابن أو الأخ .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا ﴾ أمر بالركوب ؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه . والركوب العلوّ على ظهر الشيء . ويقال : ركبه الدَّيْن . وفى الكلام حذف؛ أى آركبوا المـاء فى السفينة . وقيل : المعنى آركبوها . و «فى» للتأكيد كقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ »(١) وفائدة « فى » أنهم أمروا أن يكونوا فى جوفها لا على ظهرها . قال عِكرمة : ركب نوح عليه السلام فى الفلك لعشر خلون من رجب ، وآستوت على الجُودىّ لعشر خلون من المحرم؛ فذلك ستة أشهر ؛ وقاله قَتادة وزاد؛ وهو يوم عاشوراء؛ فقال لمن كان معـه : من كان صائما فليتم صـومه، ومن لم يكن صائما فليصمه . وذكر الطبرىّ فى هذا حديثا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أن نوحا ركب فى السفينة أوّل يوم من رجب ، وصام الشهر أجمع، وجرت بهـم السفينة إلى يوم عاشوراء ، ففيه أرست على الجودىّ، فصامه نوح ومن معه . وذكر الطبرىّ عن ابن إسحق مايقتضى أنه أقام على المـاء نحو السنة ، ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد رفعه الله عن الغرق فلم ينله غرق ، ثم مضت إلى اليمن ورجعت إلى الجودىّ فاستوت عليه .

قوله تعـالى : ﴿ بِسْمِ اللهِ مُجْرَيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شـذ، على معنى بسم الله إجراؤها و إرساؤها ؛ فمجراها ومرساها فى موضع رفع

(١) راجع ص ١٩٨ فما بعد من هذا الجزء .

بالابتــداء ؛ ويجوز أن تكون فى موضع نصب ، ويكون التقــدير : بسم ٱلله وقت إجرائهــا ثم حذف وقت ، وأقيم «مجراها» مقامه . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى : «بِسمِ ٱللهِ مَجْرِيهاَ» بفتح الميم و « مُرْسَاهَا » بضم المــيم . وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيي بن وثّاب « بِسْمِ ٱللهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا » بفتح الميم فيهما ؛ على المصــدر من جَرت تَجرى جريا ومَجْرًى ، ورَست رُسوًّا ومَرْسًى إذا ثبتت . وقرأ مجاهد وسليمان بن جُنْدُب وعاصم الجَحْدَرىّ وأبو رَجاء العُطَارِدِىّ : « بِسْمِ ٱللهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا » نعت لله عز وجل فى موضع جر . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ أى هو مُجْريها ومُرسيها . ويجوز النصب على الحال . وقال الضحّاك : كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مَجراها جرت ، وإذا قال بسم ٱلله مَرساها رست . وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن الحسين بن علىّ عن النبى صلى الله عليــه وسلم قال : "أمَانٌ لأمتى من الغرق إذا ركبوا فى الفلك بسم الله الرحمن الرحيم «وَمَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»(1) «بِسْمِ ٱللهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»" . وفى هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ٱبتداء كل فعل ؛ كما(2) بيّناه فى البسملة(3) ، والحمد لله . ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى لأهل السفينة . وروى عن ٱبن عباس قال : لمــا كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح ٱغمز ذنب الفيل ، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ؛ فقال نوح : لو غمزت ذنب هذا الخنزير ! ففعل ، فخرج منه فأر وفأرة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالهــا تقرضها ، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة ؛ فأوحى الله إلى نوح أن ٱمسح جبهة الأسد فمسحها ، فخرج منها سِنّوران فأكلا الفئرة . ولمــا حمل الأسد فى السفينة قال : يارب من أين أطعمه؟ قال : سوف أشغله ، فأخذته ٱلحُمَّى ؛ فهو الدهرَ محموم . قال ٱبن عباس : وأوّل ما حمل نوح من البهائم فى الفلك حمل الإوزّة ، وآخر ما حمل حمل الحمار ؛ قال : وتعلق إبليس بذنبــه ، ويداه قد دخلتا فى السفينة ، ورجلاه خارجة بعــد ، فجعل الحمار يضطرب

(1) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ .　(2) فى ع و و : على ما .　(3) راجع جـ ١ ص ٩٧ .

ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : آدخل ويلك ! فجعل يضطرب ؛ فقال : آدخل ويلك ! وإن كان معــك الشيطان ؛ كلمة زلّت على لسانه ، فدخل ووثب الشيطان فدخل . ثم إن نوحا رآه يغنّي فى السفينة، فقال له : يالعين ما أدخلك بيتى ؟! قال : أنت أذنت لى ؛ فذكرله ؛ فقال له : قم فاخرج . قال : مالك بدّ فى أن تحملنى معــك ؛ فكان فيما يزعمــون فى ظهر الفــلك . وكان مع نوح عليــه السلام خرزتان مضيئتان ، واحدة مكان الشــمس ، والأخرى مكان القمر . آبن عباس : إحداهما بيضاء كبياض النهار، والأخرى سوداء كسواد الليل؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة ؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه؛ على قدر الساعات .

قوله تعـالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ الموج جمع موجة؛ وهى ما آرتفع من جملة المـاء الكثير عنـد اشتداد الريح . والكاف للتشبيه، وهى فى موضع خفض نعت للوج . وجاء فى التفسير أن المـاء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعا . ﴿ وَنَادَى نُوحٌ آبْنَـهُ ﴾ قيل : كان كافرا وآسمه كنعان . وقيل : يام . ويجوز على قول سيبويه : « ونادى نوح آبنه » بحذف الواو من « ابنه » فى اللفظ ، وأنشد[1] :

* لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَــوْتُ حادٍ *

فأما « وَنَادَى نُوحٌ آبْنَهْ وَكَانَ[2] » فقراءة شاذّة ، وهى مروية عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وعروة بن الزبير . وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد « ابنها » فحذف الألف كما تقول : «آبنه»؛ فتحذف الواو . وقال النحاس : وهذا الذى قاله أبو حاتم لايجوز على مذهب سيبويه؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها، والواو ثقيلة يجوز حذفها . ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾ أى من دين أبيه . وقيل : عن السفينة . وقيل : إن نوحا لم يعلم أن آبنه كان كافرا ، وأنه

---

(١) البيت للشماخ، والشاهد فى (كأنه) حذف الواو ضرورة . وتمـامه :

* إذا طلب الوســيقة أو زمير *

يصف حمار وحش هائجا يطلب وسيقته ، وهى أتناه التى يضمها ويجمعها ؛ من وسقت الشيء أى جمعته . (شواهد سيبويه) .

(٢) كذا فى الشواذ ، ويدل عليه ما يأتى عن أبى حاتم ، وأما رسم آبنه بالواو فليس بشاذ .

ظن أنه مؤمن ؛ ولذلك قال له : ﴿ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ وسيأتى . وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق ، وقبل رؤية اليأس ، بل كان فى أول ما فار التنور ، وظهرت العلامة لنوح . وقرأ عاصم : « يَا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا » بفتح الياء ، والباقون بكسرها . وأصل « يابنىّ » أن تكون بثلاث ياءات ؛ ياء التصغير ، وياء الفعل ، وياء الإضافة ؛ فأدغمت ياء التصغير فى لام الفعل ، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة ، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين ، أو لسكونها وسكون الراء فى هذا الموضع ؛ هذا أصل قراءة من كسر الياء ، وهو أيضا أصل قراءة من فتح ؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفا لخفة الألف ، ثم حذف الألف لكونها عوضا من حرف يحذف ، أو لسكونها وسكون الراء . قال النحاس : أما قراءة عاصم فمشكلة ؛ قال أبو حاتم : يريد يا بُنَيَّاه ثم يحذف ؛ قال النحاس : رأيت علىّ بن سليمان يذهب إلى أن هذا لا يجوز ؛ لأن الألف خفيفة . قال أبو جعفر النحاس : ما علمت أن أحدا من النحويين جوز الكلام فى هذا إلا أبا إسحق ؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين ، والكسر من جهتين ؛ فالفتح على أنه يبدل من الياء ألفا ، قال الله عز وجل إخبارا : « يَا وَيْلَتَا »(1) وكما قال الشاعر :

* فيا عجبا من رَحْلها المتحمَّلِ *

فيريد يا بنيّا ، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين ، كما تقول : جاءنى عبدا الله فى التثنية . والجهة الأخرى أن تحذف الألف ؛ لأن النداء موضع حذف . والكسر على أن تحذف الياء للنداء . والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَآوِي ﴾ أى أرجع وأنضم . ﴿ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي ﴾ أى يمنعنى ﴿ مِنَ الْمَاءِ ﴾ فلا أغرق . ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى لا مانع ؛ فإنه يوم حق فيه العذاب على الكفار . وانتصب « عاصم » على التبرئة . ويجوز « لا عاصم اليوم » تكون لا بمعنى ليس . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ فى موضع نصب استثناء ليس من الأول ؛ أى لكن من رحمه الله فهو يعصمه ؛ قاله الزجاج . ويجوز أن يكون فى موضع رفع ، على أن عاصما بمعنى معصوم ؛ مثل : « مَاءٍ دَافِقٍ »(2) أى مدفوق ؛ فالاستثناء على هذا متصل ؛ قال الشاعر :

(1) راجع ص ٦٩ من هذا الجزء .	(2) راجع جـ ٢٠ ص ٤ .

بطىءُ القيـامِ رخيـمُ الكلا * مِ أَمْسَى فؤادِى بهِ فَاتِنَـا

أى مفتونا . وقال آخر[1] :

دَعِ المكارِمَ لا تَنهضْ لبغيتهـا * وٱقعدْ فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكَاسِى

أى المطعوم المكسوّ . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيه أن تكون « مَن » فى موضع رفع؛ بمعـنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم؛ أى إلا الله . وهـذا اختيار الطَّبَرىّ . ويُحسِّن هذا أنك لم تجعل عاصما بمعنى معصوم فتخرجه من بابه، ولا «إلّا» بمعنى «لكن» . ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ﴾ يعنى بين نوح وٱبنه . ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ قيل : إنه كان راكبا على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها؛ فلما رأى المـاء جاء قال : يا أبت فار التنور، فقال له أبوه : «يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا» فما ٱستتمّ المراجعة حتى جاءت مَوْجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه و بين نوح فغرق . وقيل : إنه اتخذ لنفسه بيتا من زجاج يتحصّن فيه من المـاء، فلما فار التّنور دخل فيه وأقفله[2] عليه من داخل، فلم يزل يتغوّط فيه و يبول حتى غرق بذلك. وقيل : إن الجبل الذى آوى إليه « طورسيناء » .

قوله تعـالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ هذا مجاز لأنهـا موات . وقيل : جعل فيها ما تُميِّز به . والذى قال إنه مجاز قال : لو فُتِّش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها، و بلاغة رصفها، واشتمال المعـانى فيها . وفى الأثر : إن الله تعالى لايخلى الأرض من مطر فى عام أو عامين، وأنه ما نزل من السماء ماء قطّ إلا بحفظ مَلك موكّل به إلا ما كان من ماء الطوفان؛ فإنه خرج منـه ما لا يحفظه المَلَك . وذلك قوله تعالى: « إِنَّا لَمَّـا طَغَى الْمَـاءُ حَمَلْنَـاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ[3] » فجرت بهم السّفينة إلى أن تناهى الأمر؛ فأمر الله المـاء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع . يقال : بَلِع المـاء يبلَعه مثل منع يمنع وبَلِـع يبلَع مثل حمِـد يحمَد؛ لغتان حكاهما الكسائىّ والفرّاء . والبالُوعة

(١) البيت للحطيئة يهجو الزبرقان . (٢) فى ع : أغلقه . (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٢ .

الموضع الذى يشرب الماء . قال ابن العربى : التقى الماءان على أمر قد قدر ، ما كان فى الأرض وما نزل من السماء؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع ، فلم تمتص الأرض منه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط . وذلك قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ » وقيل : ميز الله بين الماءين، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته[1]، وصار ماء السماء بحارا .

قوله تعالى : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ أى نقص؛ يقال[2] : غاض الشيءُ وغضته أنا؛ كما يقال : نَقَص بنفسه ونَقَصه غيره ، ويجوز « غيض » بضم الغين[3] . ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أى أحكم وفرغ منه ؛ يعنى أهلك قوم نوح على تمام و إحكام . و يقال : إن الله تعالى أعقم أرحامهم أى أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة ، فلم يكن فيمن هلك صغير . والصحيح أنه أهلك الوِلدان بالطّوفان ، كما هلكت الطير والسباع ، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير، بل ماتوا بآجالهم . وحكى أنه لما كثر الماء فى السّكك خشيت أم صبيّ عليه ، وكانت تحبه حبّا شديدا ، فخرجت به إلى الجبل ، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه ، فلما بلغها الماء آستوت على الجبل ؛ فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بآبنها حتى ذهب بها الماء ؛ فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى هلاكا لهم . الجُوديّ جبل بقرب المَوْصل ؛ استوت عليه فى العاشر من المحرّم يوم عاشوراء ؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه ، شكرا لله تعالى ؛ وقد تقدّم هذا المعنى . وقيل : كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسى على واحد منها فتطاولت ، و بقى الجُوديّ لم يتطاول تواضعا لله ، فاستوت السّفينة عليه : و بقيت عليه أعوادها . وفى الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لقد بقى منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة" . وقال مجاهد : تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها

---

(١) فى ع : فابتلعته .　(٢) فى المصباح : غاض : نضب أى ذهب فى الأرض .　(٣) أى باشمام الكسرة الضم .

الغرق، فعلا المـاء فوقها خمسـة عشر ذراعا، وتطامن الجودىّ، وتواضع لأمر الله تعـالى فلم يغرق، ورست السفينة عليه . وقد قيل : إن الجودىّ آسم لكل جبل ؛ ومنه قول زيد ابن عمرو بن نُفَيل(١) .

سُبحانه ثُمّ سُبحانًا يَعودُ لَه * وقَبْلَنا سبّحَ الجُودىُّ والجَمَدُ

ويقال : إن الجُودىّ من جبال الجنة ؛ فلهذا آستوت عليه . ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر: الجودىّ بنوح، وطورسيناء بموسى، وحِراء بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

مســـألة : لمـا تواضع الجودىّ وخضع عزّ ، ولمـا آرتفع غيره واستعلى ذلّ ، وهذه سُنّة الله فى خلقه، يرفع من تخشّع، ويضع من ترفّع؛ ولقد أحسن القائل :

وإذا تذلّلتِ الرّقابُ تخشُّعًا * مِنّـا إليكَ فعِـزُّها فى ذُلِّهـا

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك قال : كانت ناقة للنبى صلى الله عليه وسلم تُسمّى العَضْباء ، وكانت لا تُسبق ؛ فجاء أعرابىّ على قعودٍ له فسبقها، فاشتدّ ذلك على المسلمين ؛ وقالوا : سُبِقت العضباءُ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن حقّا على الله ألا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه " . وخرج مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما نَقَصت صـدقةٌ من مالٍ وما زاد الله عبـدا بعفو إلا عزًّا وما تواضـع أحد لله إلا رفعه الله " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يبغِى أحد على أحد ولا يَفخر أحد على أحد " . خرجه البخارىّ .

مسـئلة : نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة . ذكر الحافظ بن عساكر فى التاريخ له عن الحسن : أن نوحا أوّل رسول بعثـه الله إلى [أهل(٢)] الأرض ؛ فذلك قوله تعـالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا(٣) » . وكان قد كثرت فيهم المعاصى، وكثرت الجبابرة وعَتَوْا عُتُوًّا كبيرا، وكان نوح يدعوهم ليلا ونهارا، سرًّا وعلانية، وكان صبورا حليما، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدّ مما لقى نوح؛ فكانوا يدخلون عليه

(١) نسبه اللسان لأمية بن أبى الصلت وفى (معجم الياقوت) : هو لزيد بن عمرو ؛ وقيـل : لورقة بن نوفل . وفى ع : الجمد . كخدم جمع خادم، ولعله الأشبه . (٢) من ع . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٢ .

فيخنقونه حتى يترك وقيذا ، ويضربونه فى المجالس ويطرد، وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول : « رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » فكان لا يزيدهم ذلك إلا فرار منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه ، ويجعل أصبعيه فى أذنيه لكيلا يسمع شيئا من كلامه، فذلك قوله تعالى: «وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ »[(1)] . وقال مجاهد وعُبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال : « رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » . وقال ابن عباس : إن نوحا كان يضرب ثم يُلف فى لِبد فيلقى فى بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم؛ حتى إذا يئس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا ؛ فقال : يا بُنيّ انظر هذا الشيخ لا يغرنك، قال : يا أبت أمكنّي من العصا، [فأمكنه][(2)] فأخذ العصا ثم قال: ضعني فى الأرض فوضعه ، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجه شجة مُوضحة فى رأسه، وسالت الدماء؛ فقال نوح : « ربّ قد ترى ما يفعل بى عبادك فإن يك لك فى عبادك خيرية فاهدهم و إن يك غير ذلك فصبّرنى إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين» فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ولا فى أرحام النساء مؤمن ؛ قال : «وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » ؛ أى لا تحزن عليهم. «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا » قال : يا رب وأين الخشب ؟ قال : اغرس الشجر . قال : فغرس السّاج عشرين سنة، وكفّ عن الدعاء، وكفّوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه ؛ فلما أدرك الشجرُ أمره ربه فقطعها وجفّفها : فقال : يا رب كيف أتخذ هذا البيت ؟ قال : اجعله على ثلاثة صور؛ رأسه كرأس الدّيك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذنَبه كذنَب الديك؛ واجعلها مطبقة واجعل لها أبوابا فى جنبها، وشدّها بدُسُر، يعنى مسامير الحديد . وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة ، وجعلت يده لا تخطئ . قال ابن عباس : كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينته من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب فى الباب الأول، وجعل الوحش والطير فى الباب الثانى، وأطبق عليهما،

---
(١) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٠ (٢) من ع .

وجعـل أولاد آدم أربعين رجلا وأربعين آمرأة فى الباب الأعلى وأطبق عليهم، وجعل الدّر معه فى الباب الأعلى لضعفها ألا تطأها الدوابّ .

قال الزُّهرى : إن الله عز وجل بعث ريحا فحمل إليـه من كل زوجين آثنين ؛ من السباع والطير والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمـد : بعث الله جبريل فحشرهم ، فجعل يضرب بيديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى ، فيدخله السفينة . وقال زيد بن ثابت : استصعبت على نوح المـاعزة أن تدخل السفينة ، فدفعها بيده فى ذنبها ؛ فمن ثَمّ انكسر ذنبها فصار مَعْقوفا و بدا حَياؤها . ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حياؤها ؛ قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحا حمل أهل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين آثنين ، وحمل من الهدهد زوجين ، فماتت الهدهدة فى السفينة قبل أن تظهر الأرض ، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكانا ، فلم يجد طينا ولا ترابا ، فرحمه ربه فحفر لها فى قفاه قبرا فدفنها فيه ، فذلك الريش الناتئ فى قفا الهدهد موضع القبر؛ فلذلك نتأت أقفية الهداهد . وقال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "كان حمل نوح معه فى السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح فى السفينة" . وذكر صاحب كتاب «العروس» وغيره : أن نوحا عليه السلام لمـا أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الدّجاج : أنا ؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت مختومة بخاتمى لا تطيرى أبدا ، أنت ينتفع بك أمتى ؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتبس فلعنه ، ولذلك يقتل فى [الحل][1] والحَرَم ودعا عليه بالخوف ؛ فلذلك لا يألف البيوت . و بعث الحمامة فلم تجد قرارا فوقعت على شجرة بأرض سيناء[2] فحملت ورقة زيتونة ، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض ، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادى الحرم ، فإذا المـاء قد نضب من مواضع الكعبة ، وكانت طينتها حمراء ، فاختضبت رجلاها ، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت : بشراى منكَ أن تهب لى الطوق فى عنقى ، والخضاب فى رجلى ، وأسكُنَ الحَرَمَ ؛ فمسح يده على عنقها وطوقها ، ووهب لها الحمرة فى رجليها ، ودعا لهـا ولذريتها بالبركة . وذكر الثعلبى أنه بعث

(١) من و .

(٢) كذا فى و ، وفى ع و ا و جـ : سيبا .

بعد الغراب التُّدْرُج[1] وكان من جنس الدّجاج ؛ وقال : إياك أن تعتذر ، فأصاب الخضرة والفرجة فلم يرجع ، وأخذ أولاده عنده رهنا إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ أى دعاه . ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أى من أهلى الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق ؛ ففى الكلام حذف . ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ يعنى الصدق . وقال علماؤنا : وإنما سأل نوح ربه ٱبنه لقوله : «وَأَهْلَكَ» وترك قوله : «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» فلما كان عنده من أهله قال : «رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي» يدلّ على ذلك قوله : «وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ» أى لا تكن ممن لست منهم؛ لأنه كان عنده مؤمنا فى ظنه، ولم يك نوح يقول لربه : «إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي» إلا وذلك عنده كذلك ؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إنجاء بعضهم ؛ وكان ٱبنه يُسِرّ الكفر و يظهر الإيمان؛ فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب؛ أى علمت من حال ٱبنك ما لم تعلمه أنت . وقال الحسن : كان منافقا؛ ولذلك ٱستحل نوح أن يناديه . وعنه أيضا : كان ٱبن ٱمرأته؛ دليله قراءة علىّ «وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهَا» . ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ابتداء وخبر . أى حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالغرق .

(١) التدرج كحبرج : طائر يغرد فى البساتين بأصوات طيبة ؛ وموطنه بلاد فارس . (حياة الحيوان) .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [أى ليس[1] من أهلك] الذين وعدتهم أن أنجيهم ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ؛ فهو على حذف مضاف ؛ وهذا يدلّ على أن حكم الاتفاق فى الدِّين أقوى من [حكم][1] النسب . ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ قرأ ٱبن عباس وعُروة وعِكرمة ويعقوب والكسائىّ « إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ » أى من الكفر والتكذيب ؛ وٱختاره أبو عبيد . وقرأ الباقون « عَمَلٌ » أى ٱبنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف ؛ قاله الزجاج وغيره . قال[2] :

تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حتّى إذا ادّكَرتْ * فإنما هى إقبالٌ وإدبار

أى ذات إقبال وإدبار . وهـذا القول والذى قبله يرجع إلى معنى واحد . ويجوز أن تكون الهاء للسؤال ؛ أى إن سؤالك إياى أن أنجيه عمل غير صالح . قاله قتادة . وقال الحسن : معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ٱبنه . وكان لغير رِشْدَة ، وقاله أيضا مجاهد . قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان ٱبنه ؛ قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال : « إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي » فقال : لم يقل منى ، وهذه إشارة إلى أنه كان ٱبن ٱمرأته من زوج آخر ؛ فقلت له : إن الله حكى عنـه أنه قال : « إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي » « وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَـهُ » ولا يختلف أهل الكتابين أنه ٱبنـه ؛ فقال الحسن : ومن يأخذ دينـه عن أهل الكتاب ! إنهم يكذِبون . وقرأ : « فَخَانَتَاهُمَا[3] » . وقال ٱبن جريج : ناداه وهو يحسب أنه ٱبنه ، وكان ولد على فراشه ، وكانت ٱمرأته خانته فيه ؛ ولهذا قال : « فَخَانَتَاهُمَا » . وقال ٱبن عباس : ما بغت ٱمرأة نبىّ قطّ ، وأنه كان ٱبنـه لصُلْبه . وكذلك قال الضّحاك وعِكرمة وسـعيد بن جُبير وميمون بن مِهران وغيرهم ، وأنه كان ٱبنه لصُلْبه . وقيـل لسعيد بن جُبير يقول نوح : « إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي » أكان من أهله ؟ أكان ٱبنه ؟ فسبّح اللهَ طويلا ثم قال : لا إله إلا الله ! يحدث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أنه ٱبنه ، وتقول إنه ليس ٱبنـه ! نعم كان ٱبنه ؛ ولكن كان مخالفا فى النية والعمل والدِّين ، ولهذا قال الله تعـالى : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » ؛ وهذا

---

(١) من ع . (٢) البيت للخنساء تصف ناقة ذهب عنها ولدها ؛ وهو من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا .
(٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٠١ .

هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعـالى لجلالة من قال به ، و إن قـوله : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » ليس مما ينفى عنه أنه ٱبنه . وقوله : « فَخَانَتَاهُمَا » يعنى فى الدِّين لا فى الفِراش ، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون ، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك ؟ فقال لهـا : نعم . قالت : فمتى ؟ قال : إذا فار التّنور ؛ فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفور هذا التّنور ، فهذه خيانتها . وخيانة الأخرى أنها كانت تدلّ على الأضياف على ما سيأتى إن شاء الله . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عملا كما يسمى كَسْبا ، كما فى الخبر " أولادكم من كَسْبكم " . ذكره القشيرى .

الثالثـــة — فى هــذه الآية تسلية للخلق فى فساد أبنائهم و إن كانوا صالحين . وروى أن ٱبن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطّاه، قال : فعلم مالك أنه قد فهمه الناس ؛ فقـال مالك : الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات ، والخـير خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الآبن من الأهل لغة وشرعا ، ومن أهل البيت ؛ فمن وصّى لأهله دخل فى ذلك ٱبنه ، ومن تضمنه منزلُه ، وهو فى عياله . وقال تعـالى فى آية أخرى : « وَلَقَـدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ »(١) فسمى جميع من ضمه منزله من أهله .

الرابعـــة — ودلّت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما : أن الولد للفراش ؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذا بظاهر الفراش . وقد روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينـار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رســول الله صلى الله عليه وسلم إنمـا قضى بالولد للفراش من أجل ٱبن نوح عليه السلام ؛ ذكره أبو عمر فى كتاب « التمهيد » . وفى الحديث الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الولدُ للفراش وللعاهِر الحَجَر " يريد الخيبة . وقيل : الرّجم بالحجارة . وقرأ عُروة بن الزّبير . « وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهَا » يريد ٱبن ٱمرأته، وهى تفسير القراءة المتقدّمة عنه ، وعن عليّ رضى الله عنه ، وهى حجة للحسن ومجاهد ؛ إلا أنهـا قراءة شاذة ، فلا نترك المتفق عليها لهـا . والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨٩ .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى أنهاك عن هذا السؤال ، وأحذرك لئلا تكون ، أو كراهية أن تكون من الجاهلين ؛ أى الآثمين . ومنه قوله تعالى : « يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا » (١) أى يحذركم الله وينهاكم . وقيل : المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين ؛ فـ﴿ قَالَ ﴾ نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الآية] (٢) وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام ، فشكر الله تذلله وتواضعه . ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط من السؤال . ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ أى بالتوبة . ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى أعمالا . فقال : « يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا » .

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ أى قالت [له] (٢) الملائكة ، أو قال الله تعالى له : اهبط من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى الأرض ؛ فقد ابتلعت الماء وجفت . « بِسَلَامٍ مِنَّا » أى بسلامة وأمن . وقيل : بتحية . ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ أى نعم ثابتة ؛ مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته وإقامته . ومنه البركة لثبوت الماء فيها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : نوح آدم الأصغر ، فجميع الخلائق الآن من نسله ، ولم يكن معه فى السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته ؛ على قول قتادة وغيره ، حسب ما تقدم ؛ وفى التنزيل « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » (٣) . ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ قيل : دخل فى هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة . ودخل فى قوله : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كل كافر إلى يوم القيامة ؛ روى ذلك عن محمد بن كعب . والتقدير على هذا : وعلى ذرية أمم ممن معك ، وذرية أمم سنمتعهم . وقيل : « مِن » للتبعيض ، وتكون لبيان الجنس . « وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ » ارتفع « وَأُمَمٌ » على معنى وتكون أمم . قال الأخفش سعيد كما تقول : كلمت زيدا وعمرو جالس . وأجاز الفراء فى غير القراءة وأمما ، وتقديره : ونمتع أمما . وأعيدت « على » مع

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٠٥ . (٢) من ع و و . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٨٩ .

« أُمَمٌ » لأنه معطوف على الكاف من « عَلَيْكَ » وهى ضمير المجرور ، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره . وقد تقدّم فى « النساء »(١) بيان هذا مستوفى فى قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ » بالخفض . والباء فى قوله : « بِسَلَامٍ » متعلقة بمحذوف ؛ لأنها فى موضع الحال ؛ أى آهبط مسلَّمًا عليك . و « مِنَّا » فى موضع جر متعلق بمحذوف ؛ لأنه نعت للبركات . « وَعَلَى أُمَمٍ » متعلق بما تعلق به « عَلَيْكَ » ؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف . و « من » فى قوله : « مِمَّنْ مَعَكَ » متعلق بمحذوف ؛ لأنه فى موضع جر نعت للأمم . و « مَعَكَ » متعلق بفعل محذوف ؛ لأنه صلة « لمن » أى ممن آستقر معك ، أو آمن معك ، أو ركب معك .

قوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أى تلك الأنباء ، وفى موضع آخر « ذلك » أى ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك . ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ أى لتقف عليها . ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ ﴾ أى كانوا غير عارفين بأمر الطوفان ، والمجوس الآن ينكرونه . [﴿ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ خبر أى مجهولة عندك وعند قومك . ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على مشاق الرسالة و إذاية القوم كما صبر نوح](٢) . وقيل : أراد جهلهم بقصة آبن نوح و إن سمعوا أمر الطوفان [فإنه](٣) على الجملة . « فَاصْبِرْ » أى آصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على [أذى](٢) قومه . ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ ﴾ فى الدنيا بالظَّفر ، وفى الآخرة بالفوز . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصى .

قوله تعالى : وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا

(١) راجع جـ ٥ ص ٢ فما بعد . (٢) من ك . (٣) من و .

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أى وأرسلنا ، فهو معطوف على « أَرْسَلْنَا نُوحًا » . وقيل له أخوهم لأنه منهم ، وكانت القبيلة تجمعهم ؛ كما تقول : يا أخا تميم . وقيل : إنما قيل له أخوهم لأنه من بنى آدم كما أنهم من بنى آدم ؛ وقد تقدّم هذا فى « الأعراف »(١) وكانوا عبدة الأوثان . وقيل : هم عادان ، عاد الأولى وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ؛ وأما الأخرى فهو شدّاد ولقمان المذكوران فى قوله تعالى : « إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ »(٢) . وعاد اسم

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٥ فما بعد .

(٢) راجع جـ ٢٠ ص ٤٤ .

رجل ثم ٱستمر على قوم ٱنتسبو إليه . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ﴾ بالخفض على اللفظ ، و « غيره » بالرفع على الموضع ، و « غيرَه » بالنصب على الاستثناء. ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ أى ما أنتم فى اتخاذكم إلها غيره إلا كاذبون عليه جلّ وعزّ .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ تقدم معناه . والفِطرة ٱبتداء الخلق . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما جرى على قوم نوح لما كذبوا الرسل .

قوله تعالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تقدّم فى أوّل السورة . ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴾ جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة . ﴿ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير؛ أى يرسل السماء بالمطر متتابعا يتلو بعضه بعضا؛ والعرب تحذف الهاء فى مِفعال على النسب، وأكثر ما يأتى مِفعال من أفعل ، وقد جاء هاهنا من فَعل ؛ لأنه من درّت السماء تَدِر وتَدُر فهى مدرار . وكان قوم هود — أعنى عادا — أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن كما تقدّم فى « الأعراف »[(١)] . ﴿ وَيَزِدْكُمْ ﴾ عطف على يرسل . ﴿ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ قال مجاهد : شدّة على شدّتكم . الضحاك : خصبا إلى خصبكم . على بن عيسى : عزّا على عزّكم . عِكرمة : ولدا إلى ولدكم . وقيل : إن الله حبس عنهم المطر [وأعقم الأرحام][(٢)] ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد؛ فقال لهم هود : إن آمنتم أحيي الله بلادكم ورزقكم المال والولد ؛ فتلك القوة . وقال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النِّعم . ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ أى لا تعرضوا عما أدعوكم إليه ، وتقيموا على الكفر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَاهُودُ مَاجِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أى حجة واضحة . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إصرارا منهم على الكفر .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴾ أى أصابك . ﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا ﴾ أى أصنامنا . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ أى بجنون لسبِّك إياها ، عن ٱبن عباس وغيره . يقال : عراه الأمر وٱعتراه إذا ألمّ به . ومنه « وَأَطْعِمُوا القانع وَالْمُعْتَرَّ »[(٣)] . ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ ﴾ أى على نفسى . ﴿ وَٱشْهَدُوا ﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٦ .	(٢) من ع و و .	(٣) راجع جـ ١٢ ص ٤٧ .

أى وأشهدكم؛ لا أنهم كانوا أهـل شهادة ، ولكنه نهـاية للتقرير؛ أى لتعرفوا ﴿ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أى من عبادة الأصنام التى تعبدونها . ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أى أنتم وأوثانكم فى عداوتى وضرى . ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أى لا تؤخرون . وهذا القول مع كثرة الأعداء يدلّ على كمال الثقة بنصر الله تعالى . وهو من أعلام النبوّة، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : « فَكِيدُونِى جَمِيعًا » . وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسـلم لقريش . وقال نوح صـلى الله عليه وسلم : « فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ »(1) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ أى رضيت بحكمه، ووثقت بنصره . ﴿ مَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أى نفس تدب على الأرض؛ وهو فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أى يصرفها كيف يشاء، ويمنعها مما يشاء؛ أى فلا تصلون إلى ضرى . وكل ما فيه رُوح يقـال له دابّ ودابّة ؛ والهاء للمبالغة . وقال الفراء : مالكها ، والقادر عليهـا . وقال القتبىّ : قاهرها؛ لأن من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَه . وقال الضّحاك : يحييهـا ثم يميتها؛ والمعنى متقارب . والناصية قُصاص الشّعر فى مقدم الرأس . ونَصوتُ الرجل أَنصوه نَصْوًا أى مددت ناصيته . قال ابن جريج : إنمـا خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانا بالذلّة والخضوع ؛ فيقولون . ما ناصية فلان إلا بيد فلان؛ أى إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزوا ناصيته ليعرفوا بذلك فخرا عليه؛ فخاطبهم بما يعرفونه فى كلامهم . وقال الترمذىّ الحكيم فى «نوادر الأصول» قوله تعالى : « مَا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ » وجهه عندنا أن الله تعالى قدّر مقادير أعمال العباد ، ثم نظر إليها، ثم خلق خلقه، وقد نفذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون من قبـل أن يخلقهم، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة فى نواصيهم فذلك النور آخذ بنواصيهم ، يجريهم إلى أعمالهم المقدّرة عليهم يوم المقادير . وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سـنة " . ولهذا

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٣٦٢ .

قويت الرسل وصاروا من أولى العــزم لأنهم لاحظوا نور النواصى ، وأيقنوا أن جميع خلقه منقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال، فأوفرهم حظا من الملاحظة أقواهم فى العــزم ، ولذلك ما قوِى هود النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال : « فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ . إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » . وإنما سمِّيت ناصية لأن الأعمال قد نصّت و برزت من غيب الغيب فصارت منصوصة فى المقادير، قد نفذ بصر الخالق فى جميع حركات الخلق بقدرة ، ثم وضعت حركات كل من دبّ على الأرض حيا فى جبهته بين عينيه، فسُمّى ذلك الموضع منه ناصية؛ لأنها تنص حركات العباد بمـا قدّر؛ فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التى نظر الله تعـالى إليها قبل أن يخلقها . ووصف ناصية أبى جهل فقال : « نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ » (١) يخبر أن النواصى فيها كاذبة خاطئــة ؛ فعلى سبيل ما تأوّلوه يستحيل أن تكون النـاصية منسوبة إلى الكذب والخطأ . [والله أعلم] (٢) . ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال النحاس : الصّراط فى اللغـة المنهاج الواضح؛ والمعنى أن الله جلّ ثنـاؤه و إن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق . وقيل : معناه لا خَلل فى تدبيره، ولا تفاوت فى خلقه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ فى موضع جزم؛ فلذلك حذفت منه النون، والأصل تتولوا، فحذفت التـاء لاجتماع تاءين . ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بمعنى قد بيّنت لكم . ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أى يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبــدونه . « وَيَسْتَخْلِفُ » مقطوع ممـا قبله فلذلك ارتفع؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله : « فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ » . وروى عن حفص عن عاصم « وَيَسْتَخْلِفْ » بالجزم حملا على موضع الفاء وما بعدها؛ مثل : « وَيَذَرْهُمْ (٣) فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ أى بتوليكم وإعراضكم . ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى لكل شيء حافظ . « على » بمعنى اللام ؛ فهو يحفظنى من أن تنالونى بسوء .

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٤ . (٢) من ع . (٣) بالياء وسكون الراء قراءة . راجع جـ ٧ ص ٣٣٤ .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَمَّـا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا بهلاك عاد . ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّـا ﴾ لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعـالى ، وإن كانت له أعمـال صالحة . وفى صحيح مسلم والبخارى وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم "لن يُنجى أحدًا منكم عملُه" قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟! قال : "ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمة منه" . وقيل : معنى « بِرَحْمَةٍ مِنَّا » بأن بيّنا لهم الهدى الذى هو رحمة . وكانوا أربعة آلاف . وقيل : ثلاثة آلاف . ﴿ وَنَجَّيْنَـاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى عذاب يوم القيامة . وقيل : هو الريح العقيم كما ذكر الله فى «الذاريات»(١) وغيرها وسيأتى . قال القُشيرى أبو نصر: والعذاب الذى يتوعد به النبي أمته إذا حضر ينجى الله منه النبي والمؤمنين معه؛ نعم! لا يبعد أن يبتلى الله نبيا وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصا للؤمنين، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ ابتداء وخبر . وحكى الكسائى أن من العرب من لا يصرف « عادا » فيجعله آسما للقبيلة . ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى كذّبوا بالمعجزات وأنكروها . ﴿ وَعَصَوْا رُسُـلَهُ ﴾ يعنى هودا وحده؛ لأنه لم يرسـل إليهم من الرسل سواه . ونظيره قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ »(٢) يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وحده؛ لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه؛ وإنما جمع هاهنا لأن من كذّب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل. وقيل : عصوا هودا والرسل قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّـارٍ عَنِيدٍ ﴾ أى اتبع سـقّاطُهم(٣) رؤساءهم . والجبار المتكبر . والعنيد الطاغى الذى لا يقبـل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيد : العنيد والعَنود والعانِد والمعاند المعارض بالخلاف، ومنه قيل للعِرق الذى ينفجر بالدم عاند . وقال الراجز :

* إنّى كبيرٌ لا أطيقُ العُنَّدَا(٤) *

قوله تعـالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِى هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى أُلحقوها . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَـامَةِ ﴾ . أى وآتبعوا يوم القيامة مثل ذلك؛ فالتمام على قوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » . ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا

(١) راجع جـ ١٧ ص ٥٠ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٢٧ . (٣) فى ع : ينقاد .
(٤) صدر البيت : * إذا رحلت فاجعلونى وسطا *

رَبَّهُمْ ﴾ قال الفـرّاء : أى كفروا نعمة ربهم؛ قال : ويقال كفرته وكَفَرت به ، مثل شكرته وشكرت له . ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أى لا زالوا مبعدين عن رحمة الله . والبعد الهلاك . والبُعد التّباعد من الخير. يقال: بَعُدَ يَبعُدُ بُعْدا إذا تأخر وتباعد. وبَعِديبعَد بَعَدًا إذا هلك؛ قال :

لا يَبعَـدَنْ قومى الذين هُمُ * سُمُّ العُـدَاةِ وآفَةُ الجُـزْرِ[1]

وقال النابغـــة :

فلا تَبعَدنْ إنّ المنيةَ مَنهَلٌ * وكلُّ آمرئ يومًا به الحالُ زائلُ

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أى أرسلنا إلى ثمود ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ أى فى النسب. ﴿ صَالِحًا ﴾ . وقرأ يحيى بن وثّاب « وَإِلَى ثَمُودٍ » بالتنوين فى كل القرآن ؛ وكذلك روى عن الحسن. وآختلف سائر القرّاء فيه فصرفوه فى موضع ولم يصرفوه فى موضع. وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف؛ إذ كان الأغلب عليه التأنيث. قال النحاس: الذى قال أبو عبيدة — رحمه الله — من أن الغالب عليه التأنيث كلام مردود؛ لأن ثمودا يقال له حىّ؛ ويقال له قبيلة، وليس الغالب عليـه القبيلة؛ بل الأمر على ضدّ ما قال عند سيبويه. والأجود عند سيبويه فيما لم يُقل فيـه بنو فلان الصّرف ؛ نحو قريش وثقيف وما أشبههما، وكذلك ثمود، والعلة فى ذلك أنه لمـا كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى . والتأنيث جيـد بالغ حسن . وأنشد سيبويه[2] فى التأنيث :

غَلَبَ المساميحَ الوليدُ سَمَاحةً * وكَفَى قريشَ المعضلاتِ وسادَهَا

---

(١) تقدّم شرح البيت فى هامش جـ ٦ ص ١٤

(٢) البيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبـد الملك ؛ والشاهد فيه ترك صرف قريش حملا على معنى القبيلة ؛ والصرف فيها أكثر وأعرف لأنهم قصدوا بها قصد الحى ، وغلب ذلك عليها . (شواهد سيبويه) .

الثـانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقـدّم . ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى ابتدأ خلقكم من الأرض، وذلك أن آدم خلق من الأرض على ما تقدّم فى « البقرة »(١) و « الأنعام »(٢) وهم منه . وقيل : أنشأكم فى الأرض . ولا يجوز إدغام الهاء من « غيره » فى الهاء من « هو » إلا على لغة من حذف الواو فى الإدراج . ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أى جعلكم عُمّارها وسكّانها . قال مجاهد : ومعنى «ٱسْتَعْمَرَكُمْ» أعمركم من قوله : أَعْمـر فلان فلانا داره، فهى له عُمْرى . وقال قَتَادة : أسكنكم فيها؛ وعلى هذين القولين تكون ٱستفعل بمعنى أفعل ؛ مثل ٱستجاب بمعنى أجاب . وقال الضّحاك : أطـال أعماركم، وكانت أعمـارهم من ثلثمائة إلى ألف . ٱبن عباس : أعاشكم فيها . زيد بن أسلم : أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن ، وغرس أشجار . وقيل : المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثـالثـــة ـــ قال ٱبن العربى: قال بعض علمـاء الشافعية : الاستعمار طلب العمارة ، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب؛ قال القاضى أبو بكر : تأتى كلمة استفعل فى لسان العرب على معان:منها ؛ ٱستفعل بمعنى طلب الفعل كقوله : ٱستحملته أى طلبت منه حملانا ؛ وبمعنى ٱعتقـد ، كقولهم : استسهلت هـذا الأمر ٱعتقدته سهلا ، أو وجدته سهـلا ، وٱستعظمته أى ٱعتقدته عظيما و وجدته ؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت ، كقولهم : ٱستجدته أى أصبته جيـدا(٣) : ومنهـا بمعنى فَعـل ؛ كقوله : قرّ فى المكان وٱستقرّ ؛ وقالوا وقوله : « يَسْتَهْزِئُونَ » و « يَسْتَسْخِرُونَ » منه؛ فقوله تعـالى : « ٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » خلقكم لعمارتها ، لا على معنى استجدته وٱستسهلته ، أى أصبته جيدا وسهلا ، وهذا يستحيل فى الخالق ، فيرجع إلى أنه خلق ؛ لأنه الفائدة ، وقد يعبر عن الشىء بفائدته مجازا ؛ ولا يصح أن يقال : إنه طلبٌ من الله تعالى لعمارتها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز فى حقه ، أما أنه يصح أن يقال : أنه ٱستدعى

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ فما بعد . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٨٧ فما بعد .

(٣) فى و : وجدته .

عمارتها فإنه جاء بلفظ آستفعل ، وهو آستدعاء الفعـل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمرا ، وطلب للفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [رغبة][1] .

قلت : لم يذكر آستفعل بمعنى أفعل ، مثل قوله : استوقد بمعنى أوقد ، وقد ذكرناه[2] ؛ وهي :

الرابعــة — ويكون فيهـا دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في « البقرة »[2] في السُّكنى والرُّقبى . وأما العُمْرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال : أحدها — أنها تمليك لمنافع الرقبة حياةَ المُعْمَر مدة عمره ؛ فإن لم يذكر عقبا فمات المعمر رجعت إلى الذي أعطاها أو لورثته ؛ هذا قول القاسم بن محمد ويزيد بن قُسيط والليث بن سعد ، وهو مشهور مذهب مالك ، وأحد أقوال الشافعي ، وقد تقدّم في «البقرة» حجة هذا القول . الثاني — أنها تمليك الرقبة ومنافعها وهي هبة مبتولة[3] ؛ وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثّوري والحسن ابن حيّ وأحمد بن حنبل وآبن شُبْرمة وأبي عُبيد ؛ قالوا : من أعمر رجلا شيئا حياته فهو له حياته ، وبعد وفاته لورثته ؛ لأنه قد ملك رقبتها ، وشرط المعطى الحياة والعمر باطل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "العمرى جائزة" و"العمرى لمن وُهبت له" . الثالث — إن قال عُمرك ولم يذكر العقب كان كالقول الأوّل ؛ وإن قال لعقبك كان كالقول الثـاني ؛ وبه قال الزهريّ وأبو ثور وأبو سلَمة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب ، وقد رُوي عن مالك ؛ وهو ظاهر قوله في الموطأ . والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المُعْمِر ؛ إذا انقرض عقب المُعْمَر ؛ إن كان المُعمِر حيّا ، وإلا فإلى من كان حيّا من ورثته ، وأولى النـاس بميراثه . ولا يملك المُعْمَر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقبة شيء من الأشياء ، وإنما يملك بلفظ العُمْرى المنفعة دون الرقبة . وقد قال مالك في الحبس أيضـا : إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليـه . وإن حبس على رجل بعينه حيـاته رجع إليه ، وكذلك العُمْرى قياسا ، وهو ظاهر الموطأ . وفي صحيح مسـلم عن جابر بن عبـد الله أن رسول الله صلى الله

---

(١) الزيادة عن ابن العربي .		(٢) راجع جـ ١ ص ٢١٢ وص ٢٩٩

(٣) مبتولة : ماضية غير راجعة إلى الواهب ، من بتله ، قطعه وأبانه .

عليه وسلم قال : "أيمـا رجلٍ أَعْمر رجلاً عُمْرى له ولعقبه فقال قد أعطيتُكها وعقبَك ما بقى منكم أحد فإنها لمن أعطيها وأنها لا ترجـع إلى صاحبها من أجلِ أنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث" . وعنه قال : إن العمرى التى أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : هى لك ولعقبك، فأما إذا قال : هى لك ما عِشتَ فإنها ترجع إلى صاحبها؛ قال معْمَر: وبذلك كان الزّهرىّ يفتى .

قلت : معنى القرآن يجرى مع أهل القول الثانى؛ لأن الله سبحانه قال : « وَٱسْتَعْمَرَكُمْ » بمعنى أعمركم ؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح ، وبعد موته بالذكر الجميل والثناء الحسن؛ وبالعكس الرجل الفاجر؛ فالدنيا ظرف لهما حياة وموتا . وقد يقال : إن الثناء الحسن يجرى مجرى العقب . وفى التنزيل : « وَٱجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ »(1) أى ثناء حسنا . وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقال : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ »(2) وقال : « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ »(2) .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى ســلوه المغفرة من عبادة الأصنام . ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْـهِ ﴾ أى ٱرجعوا إلى عبادته . ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ أى قريب الإجابة لمن دعاه . وقد مضى فى «البقرة»(3) عند قوله : «فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ»القولُ فيه .

قوله تعـالى : قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا

---

(1) راجع جـ ١٣ ص ١١٢ . (2) راجع جـ ١٥ ص ٨٩ وص ١١٢ .

(3) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ فما بعد .

بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ أى كنا نرجو أن تكون فينا سيّدا قبل هذا ؛ أى قبل دعوتك النبوّة . وقيل : كان صالح يعيب آلهتهم ويشنؤها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجاؤنا منك . ﴿ أَتَنْهَانَا ﴾ استفهام معناه الإنكار . ﴿ أَنْ نَعْبُدَ ﴾ أى عن أن نعبد . ﴿ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فأن فى محل نصب بإسقاط حرف الجر . ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ ﴾ وفى سورة « إبراهيم » « وَإِنَّا »[1] والأصل وإنّنا ، فاستثقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة . ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا ﴾ الخطاب لصالح ، وفى سورة « إبراهيم » « تَدْعُونَنَا »[1] لأن الخطاب للرسل [صلوات الله وسلامه عليهم][2] ﴿ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ من أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة . قال الهذلى[3] :

كنتُ إذا أتوتُه من غَيْبِ * يَشُمُّ عِطفِي ويَبُزُّ ثوبِي[4]

* كأنّما أربتُه بِرَيْبِ *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ تقدّم معناه فى قول نوح . ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ استفهام معناه النفى ؛ أى لاينصرنى منه إن عصيته أحد . ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أى تضليل وإبعاد من الخير ؛ قاله الفرّاء .

---

(١) راجع ص ٣٤٤ من هذا الجزء .		(٢) من ع .

(٣) هو خالد بن زهير الهذلىّ كما فى اللسان ؛ وصدر البيت الأوّل :

* يا قوم مالى وأنا ذؤيب *

(٤) (يبز ثوبى) : يجذبه إليه .

والتخسير لهم لا له صلى الله عليه وسلم ؛ كأنه قال : غير تخسير لكم لا لى . وقيل : المعنى ما تزيدوننى باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم ؛ عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ نصب على الحال، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه فى «هَذِهِ» . وإنما قيل: ناقة الله؛ لأنه أخرجها لهم من جبل — على ما طلبوا — على أنهم يؤمنون . وقيل : أخرجها من صخرة صمّاء منفردة فى ناحية الحِجر يقال لها الكاثبة[1]، فلما خرجت الناقة — على ما طلبوا — قال لهم [نبى الله[2]] صالح : «هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً» . ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ﴾ أمر وجوابه؛ وحذفت النون من «فذروها» لأنه أمر . ولا يقال : وَذِرَ ولا وَاذِرٌ إلا شاذًا . وللنحويين فيه قولان ؛ قال سيبويه : استغنوا عنه بتَرَكَ . وقال غيره : لما كانت الواو ثقيلة وكان فى الكلام فِعل بمعناه لا واو فيه ألغوه؛ قال أبو إسحق الزجّاج : ويجوز رفع «تأكل» على الحال والاستئناف . ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ جزم بالنهى . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ قال الفرّاء : بعَقْر . ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهى . ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أى قريب من عَقْرِها .

قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ إنما عقرها بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين . وقد تقدّم الكلام فى عقرها فى « الأعراف[3] . ويأتى أيضا . ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا ﴾ أى قال لهم صالح تمتعوا ؛ أى بنعم الله عزّ وجلّ قبل العذاب . ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ أى فى بلدكم ، ولو أراد المنزل لقال فى دوركم . وقيل : أى يتمتع كل واحد منكم فى داره ومسكنه ؛ كقوله : « يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا[4] » أى كل واحد طفلا . وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميّت لا يتلذذ ولا يتمتع بشىء؛ فعقرت يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد . وإنما أقاموا ثلاثة أيام؛ لأن الفصيل رغا ثلاثا على ما تقدّم فى « الأعراف » فاصفرّت ألوانهم فى اليوم الأول ، ثم احمرّت فى الثانى ، ثم اسودّت فى الثالث، وهلكوا فى الرابع؛ وقد تقدّم فى « الأعراف » .

(١) كذا فى و والطبرى؛ وفى التاج : كاثبة : كرمانة . وفى ك : الكاثية . (٢) من ع .
(٣) راجع ج ٧ ص ٢٤٠ فما بعدها . (٤) راجع ج ١٢ ص ١١ وص ٣٣٠ ج ١٥

الثـانيـــة ـــ استدلّ علمـاؤنا بإرجاء الله العــذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يُجمع على إقامة أربع ليـال قصر ؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة . وقد تقدّم فى « النساء »(١) ما للعلماء فى هذا .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أى غير كذب . وقيل : غير مكذوب فيه .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ تقدّم . ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أى ونجيناهم من خزى يومئذ ؛ أى من فضيحته وذلّته . وقيل : الواو زائدة ؛ أى نجيناهم من خزى يومئذ . ولا يجوز زيادتها عند سيبويه وأهـل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع « لمـا » و « حتى » لا غير . وقرأ نافع والكسائى « يَوْمَئِـذٍ » بالنصب . الباقون بالكسر على إضافة « يوم » إلى « إذ » . وقال أبو حاتم : حدّثنا أبو زيد عن أبى عمرو أنه قرأ « وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِـذٍ » أدغم الياء فى الياء، وأضاف، وكسر الميم فى « يومئذ » . قال النحاس : الذى يرويه النحويون ـــ مثل سيبويه ومن قاربه عن أبى عمرو فى مثل هــذا ـــ الإخفـاء ؛ فأما الإدغام فلا يجـوز ، لأنه يلتقى ساكنان ، ولا يجوز كسر الزاى .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ أى فى اليـوم الرابع صِيح بهم فمـاتوا ؛ وذكّر لأن الصّيحة والصِّياح واحد . قيــل : صيحة جبريل . وقيل : صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة ، وصوت كل شيء فى الأرض ، فتقطعت قلوبهم وماتوا . وقال هنا : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ » وقال فى « الأعراف » « فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَــةُ » وقد تقدّم بيانه هنالك(٢) . وفى التفسير : أنهم لمـا أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم الأمر بغتــة ؟ ! قالوا : فمـا نصنع ؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعُدَدهم ، وكانوا فيما يقال اثنى عشر ألف قبيــلة ، فى كل قبيلة اثنا عشر ألف مقاتل ، فوقفوا على الطرق والفجاج ، زعموا يلاقون العذاب ؛ فأوحى الله تعـالى إلى الملَك الموكل بالشمس أن يعذبهم بحرّها ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٥٧ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٢

فأدناها من رءوسهم فاشتوت أيديهم ، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش ، ومات كل ما كان معهم من البهائم . وجعل المـاء يتفوّر[١] من تلك العيون من غليانه حتى يبلغ السماء، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدّة حره، فمـا زالوا كذلك ، وأوحى الله إلى ملَك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيبا لهم إلى أن غربت الشمس، فصيح بهم فأهلكوا . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أى ساقطين على وجوههم ، قـد لصقوا بالتراب كالطـير إذا جثَمت . ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ هذه قصة لوط عليه السلام، وهو آبن عم إبراهيم عليـه السلام لحـًّا[٢] ، وكانت قرى لوط بنواحى الشام، وإبراهـيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قِراه ، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافا . وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام؛ قاله آبن عبـاس . الضحّاك : كانوا تسعة . السّدى : أحد عشر ملَكا على صورة الغلمان الحسان الوجوه ، ذوو وضاءة وجمال بارع . « بِالْبُشْرَى » قيل : بالولد . وقيـل : بإهلاك قوم لوط . وقيـل : بشروه بأنهم رسـل الله عزّ وجلّ ، وأنه لا خوف عليه . ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ نصب بوقوع الفعل عليه ؛ كما تقول : قالوا خيرا . وهذا آختيار الطبرى . وأما قوله : «سيقُولُون ثَلاثَةٌ»[٣] فالثلاثة آسم غير [قول][٤] مقول . ولو رفعا جميعا

(١) فى ع : يفور (٢) أى لازق النسب منه (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٨٢ (٤) من ع .

أو نصبا جميعـا « قالوا سلاما قال سلاما » جاز في العربية . وقيل : ٱنتصب على المصدر . وقيل : « قالوا سلاما » أي فاتحوه بصواب من القول . كما قال : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا »[1] أي صوابا؛ فسلاما معنى قولهم لا لفظه؛ قال معناه ٱبن العربي وٱختاره . قال : ألا ترى أن الله تعالى لمـا أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبرا عن الملائكة : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ »[2] « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ »[3] . وقيـل : دعوا له؛ والمعنى سلمت سـلاما .

﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ في رفعه وجهان : أحدهما — على إضمار مبتدأ أي هو سلام، وأمري سلام . والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية؛ فأضمر الخبر . وجاز سلام على التنكير لكثرة اسـتعماله ، فحـذف الألف واللام كما حذفت من لا هم في قولك اللهم . وقرئ « سِلْمٌ » قال الفرّاء : السّلم والسّلام بمعنى؛ مثل الحِلّ والحلال .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فيه أربع عشرة مسئلة[4] :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ ﴾ « أن » بمعنى حـتى ، قاله كبراء[5] النحويين ؛ حكاه ٱبن العربي . التقدير : فمـا لبث حتى جاء . وقيل : « أن » في موضع نصب بسقوط حرف الجر؛ التقدير : فمـا لبث عن أن جاء؛ أي ما أبطأ عن مجيئه بعجل؛ فلمـا حذف حرف الجر بقي « أن » في محـل النصب . وفي « لبث » ضمير ٱسم إبراهيم . و « ما » نافية ؛ قاله سيبويه . وقال الفـراء : فما لبث مجيئه؛ أي ما أبطأ مجيئه ؛ فأن في موضع رفع ، ولا ضمير في « لبث » ، و « ما » نافية ؛ ويصح أن تكون « ما » بمعنى الذي ، وفي « لبث » ضمـير إبراهيم و « أن جاء » خبر « ما » أي فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ . و ﴿ حَنِيـذٍ ﴾ مشويّ . وقيـل : هو المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النـار . يقال : حنذت الشاة أحنِذها حنذا أي شويتها، وجعلت فوقها حجارة مُحَمَّاة لتنضجها فهي حنيذ . وحَنَذت الفرس أحنِذه حَنْذا ، وهو أن تُحضِره شوطا أو شوطين ثم تُظاهِر عليـه الجِلال في الشمس ليعرَق، فهو محنوذ وحنيذ؛ فإن لم يعرق قيل : كَبَا . وحَنَذٌ موضع قريب

(١) راجع جـ ١٣ ص ٦٧ (٢) راجع ص ٣١٢ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد . (٤) كذا في الأصل والمسائل المذكورة هي في آية ٧٠ و ٧١ أيضا لا في هذه الآية فحسب . (٥) في ع : أكثر .

من المدينـة . وقيل : الحنيذ السَّمِيط . آبن عبـاس وغيره : حنيذ نضيج . وحنيذٍ[1] بمعنى محنوذ؛ وإنما جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله .

الثانيـــة — فى هــذه الآية من أدب الضّيف أن يُعجّل قِراه، فيقدّم الموجود الميسّر فى الحـال، ثم يتبعه بغـيره إن كان له جِدَة، ولا يتكلف ما يضرّ به . والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسـلام، ومن خلق النبيين والصالحين . وإبراهيم أوّل من أضاف على ما تقدّم فى « البقرة »[2] وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الضّيافة ثلاثة أيامٍ وجائزته يوم وليلة فما كان وراء ذلك فهو صدقة " . والجـائزة العطية والصلة التى أصلها على النّدب . وقال صلى الله عليه وسلم : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفـه " . وإكرام الجار ليس بواجب إجماعا، فالضيافة مثله . والله أعلم . وذهب الليث إلى وجوبها تمسكا بقوله صلى الله عليـه وسلم : " ليـلة الضّيف حقّ " إلى غير ذلك من الأحاديث . وفيما أشرنا إليـه كفاية، والله الموفق للهداية . قال آبن العربى : وقد قال قوم : إن وجوب الضّيافة كان فى صـدر الإسلام ثم نسخ، وهــذا ضعيف؛ فإن الوجوب لم يثبت، والنـاسخ لم يرِد؛ وذكر حديث أبى سعيد الخـدرى خرجه الأئمة ، وفيه : « فآستضفناهم فأبوا أن يُضيِّفونا فلُدِغ سيّد ذلك الحىّ » الحديثَ . وقال: هذا ظاهر فى أن الضيافة لو كانت حقا للاَمَ النبىّ صلى الله عليه وسلم القوم الذين أَبَوا، ولبيّن لهم ذلك .

الثالثـــة — اختلف العلماء فيمن يخاطب بها ؛ فذهب الشافعى ومحمد بن عبـد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية . وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة . قال سُحْنون[3] : إنمـا الضّيافة على أهل القُرى، وأما الحضر فالفُنْدق ينزل فيه المسافر [حكى اللغتين صاحب العين وغيره] . واحتجوا بحديث آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الضّيافة على أهل الوَبَر وليست على أهل المَدَر" . وهذا حديث لا يصح، وإبراهيم آبن أخى

(١) وحنيذ موضع قريب من مكة أيضا . (٢) راجع جـ ٢ ص ٩٨ . (٣) من و، فليتأمل .

عبد الرزاق متروك الحديث منسوب إلى الكذب، وهذا مما آنفرد به، ونسب إلى وضعه؛ قاله أبو عمر بن عبد البر . قال آبن العربي : الضيافة حقيقة فرض على الكفاية، ومن الناس من قال : إنها واجبة فى القرى حيث لا طعام ولا مأوى، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة والأقوات؛ ولا شك أن الضّيف كريم، والضيافة كرامة؛ فإن كان غريبا فهى فريضة .

الرابعـــة — قال آبن العربي قال بعض علمائنا : كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب، وهذا حكم بالظن فى موضع القطع، و بالقياس فى موضع النقل؛ من أين علِم أنه قليل ؟ ! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة ؛ جبريل وميكائيل و إسرافيل صلى الله عليهم وسلم؛ وعجل لثلاثة عظيم ؛ فما هذا التفسير لكتاب الله بالرأى؟! هذا بأمانةِ الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه .

الخامســـة — السنة إذا قُدِّم للضّيف الطعام أن يبادر المقدَّم إليه بالأكل؛ فإن كرامة الضّيف تعجيل التقديم، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول؛ فلما قبضوا أيديهم نكرهم إبراهيم؛ لأنهم خرجوا عن العادة، وخالفوا السنة، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه . وروى أنهم كانوا يَنكُتون بقِداح[1] كانت فى أيديهم فى اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم، فلما رأى ذلك منهم ﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أى أضمر . وقيل : أحس؛ والوجوس الدخول؛ قال الشاعر :

جاء البريدُ بقرطاسٍ يَخُبُّ بهِ * فأوجسَ القلبُ من قرطاسه جَزَعاَ

« خِيفَةً » خوفا؛ أى فزعا . وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرا؛ فقالت الملائكة ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

السادســـة — من أدب الطعام أن لصاحب الضّيف أن ينظر فى ضيفه هل يأكل أم لا ؟ وذلك ينبغى أن يكون بتلفت ومسارقة[2] لا بتحديد النظر . روى أن أعرابيا أكل مع

---

(١) قداح (جمع قدح بالكسر) السهم قبل أن ينصل و يراش .
(٢) فى ع : أو مسارقة .

سليمان بن عبد الملك، فرأى سليمان فى لقمة الأعرابىّ شعرة فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك؛ فقال له : أتنظر إلىّ نظر من يرى الشّعرة فى لقمتى؟! والله لا أكلت معك .

قلت : وقد ذُكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان، وأن الأعرابى خرج من عنده وهو يقول :

وللموتُ خيرٌ من [زيارة][1] باخل * يُلاحظُ أطرافَ الأَكِيلِ على عَمْدِ

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول : أنكرهم؛ تقول : نَكِرتك [وأنكرتك][2] واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته ؛ قال الشاعر[3] :

وأنكرتني وما كان الذى نَكِرتْ * من الحوادِث إلا الشّيبَ والصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين . ويقال : نكِرت لما تراه بعينك . وأنكرت لما تراه بقلبك .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ ﴾ ابتداء وخبر، أى قائمة بحيث ترى الملائكة. قيل : كانت من وراء الستر . وقيل : كانت تخدم الملائكة وهو جالس . وقال محمد ابن إسحق : قائمة تصلى . وفى قراءة عبد الله بن مسعود « وآمرأته قائِمة وهو قاعِد » .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ قال مجاهد وعِكرمة : حاضت ، وكانت آيسة ؛ تحقيقا للبشارة ؛ وأنشد على ذلك اللغويون :

وإنى لآتى العِرسَ عند طُهورها * وأهجُرُها يومًا إذا تَكُ ضاحِكَا

وقال آخر :

وضِحكُ الأرانبِ فوق الصَّفَا * كمثلِ دمِ الجوفِ يوم اللِّقَا

والعرب تقول : ضحكت الأرنب إذا حاضت ؛ وروى عن آبن عباس رضى الله عنهما وعِكرمة؛ أخذ من قولهم : ضحكت الكافورة — وهى قشرة الطلعة — إذا انشقّت . وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت . وقال الجمهور : هو الضحك المعروف ، واختلفوا فيه؛ فقيل : هو ضحك التعجّب ؛ قال أبو ذؤيب :

(١) كذا فى ع وى وفى العقد الفريد ، وفى ك : ضيافة . (٢) من ا وع وك ور . (٣) البيت للأعشى .

فجاءَ بمزجٍ لم يَرَ الناسُ مثلَه　＊　هو الضَّحْكُ[١] إلا أنه عمل النَّحْلِ

وقال مقاتل : ضحكت من خوف إبراهيم، ورعدته من ثلاثة نفر ، وإبراهيم فى حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوّم وحده بمائة رجل . قال : وليس الضحك الحيض فى اللغة بمستقيم . وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك؛ قال الفراء : لم أسمعه من ثقة؛ وإنما هو كناية . وروى أن الملائكة مسحت العجل، فقام من موضعه فلحق بأمه ، فضحكت سارة عند ذلك فبشّروها بإسحق . ويقال : كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم، فذلك قوله : « وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ » أى قائمة فى خدمتهم . ويقال : « قَائِمَةٌ » لروع إبراهيم « فَضَحِكَتْ » لقولهم : « لَا تَخَفْ » سرورا بالأمن . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير؛ المعنى : فبشرناها بإسحق فضحكت، أى ضحكت سرورا بالولد، وقد هرمت؛ والله أعلم أىّ ذلك كان . قال النحاس فيه أقوال : أحسنها — أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم ؛ فلما قالوا لا تخف، وأخبروه أنهم رُسُل [الله][٢] ، فرح بذلك، فضحكت آمرأته سرورا بفرحه . وقيل : إنها كانت قالت له : أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فضم لوطا إليك، فلما جاءت الرسل بما قالته سرّت به فضحكت ؛ قال النحاس : وهذا إن صح إسناده فهو حسن . والضحك آنكشاف الأسنان . ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه؛ تقول : رأيت فلانا ضاحكا؛ أى مشرقا . وأتيت على رَوْضة تضحك؛ أى مشرقة . وفى الحديث "إن الله سبحانه يبعث السّحاب فيضحك أحسن الضّحك"[٢] . جعل آنجلاءه عن البرق ضحكا ؛ وهذا كلام مستعار . وروى عن رجل من قرّاء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابى . «فضَحَكت» بفتح الحاء؛ قال المهدوى : وفتح « الحاء» من « فضحكت » غير معروف . وضَحِك يضحَك ضَحْكا وضِحكا وضِحِكا [وضَحِكا][٢] أربع لغات . والضَّحْكة المرّة الواحدة، ومنه قول كُثَيِّر :

＊ غَلِقت لضَحكتِه رقابُ المالِ[٣] ＊

قاله الجوهرى :

(١) وفسر الضحك هنا بالعسل أو الشهد . راجع اللسان مادة (ضحك) .　(٢) من ع .
(٣) صدر البيت :　＊ غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا ＊

العـاشرة — روى مسلم عن سهل بن سـعد قال : دعا أبو أسيّد الساعدىّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى عُرْسه ، فكانت امرأته يومئذ خادمهم وهى العَروس . قال سهل : أتدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أنقعت له تمراتٍ من الليـل فى تَوْر(١) ، فلما أكل سقته إياه . وأخرجه البخارى وترجم له «باب قيام المرأة على الرجال فى العُرْس وخدمتهم بالنفس» . قال علماؤنا : فيه جواز خدمة العَروس زوجها وأصحابه فى عُرْسها . وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهـله على صالح إخوانه ، ويستخدمهنّ(٢) لهم . ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب . والله أعلم .

الحـادية عشرة — ذكر الطبرىّ أن إبراهيم عليه السلام لـمّا قدّم العجل قالوا : لا نأكل طعاما إلا بثمن ؛ فقال لهم : « ثمنه أن تذكروا الله فى أوّله وتحمدوه فى آخره » فقـال جبريل لأصحابه : بحق اتخذ الله هذا خليلا . قال علماؤنا : ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل . وقد كان من الجائز كما يسّر الله للملائكة أن يتشكّلوا فى صفة الآدمى جسـدا وهيئة أن ييسر لهم أكل الطعام ؛ إلا أنه فى قول العلماء أرسلهم فى صفة الآدمى وتكلّف إبراهيم عليـه السلام الضّيافة [حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى بغتة(٣)] .

الثانيـة عشرة — ودلّ هذا على أن التسمية فى أوّل الطعام ، والحمد فى آخره مشروع فى الأمم قبلنا ؛ وقد جاء فى الإسرائيليات أن إبراهيم عليه السـلام كان لا يأكل وحده ؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معـه ، فلقى يوما رجلا ، فلما جلس معه على الطعام ، قال له إبراهيم : سمّ الله ، قال الرجل لا أدرى ما الله؟ فقال له : فاخرج عن طعامى ، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له : يقـول الله إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة ؛ فخرج إبراهيم فزعا يجرّ رداءه ، وقال : ارجع ، فقال : لا أرجع حتى تخبرنى لم تردّنى لغير معنى ؟ فأخبره بالأمر ، فقال : هذا رب كريم ، آمنت ؛ ودخل وسمّى الله وأكل مؤمنا(٤) .

---

(١) التور : إناء تشرب فيه العرب ، وقد يتوضأ منه ، ويصنع من صفر أو حجارة .

(٢) فى ع : يستخدمها . (٣) الزيادة عن ابن العربى . (٤) فى ع : متمنا .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ ﴾ لما ولد لإبراهيم إسمعيل من هاجر تمنت سارة أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنها، فبشرت بولد يكون نبيا و يلد نبيا، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ قرأ حمزة وعبد الله ابن عامر « يعقوبَ » بالنصب . ورفع الباقون ؛ فالرفع على معنى : ويحدث لها من وراء إسحٰق يعقوبُ . ويجوز أن يرتفع بالفعل الذى يعمل فى « من » كأن المعنى : وثبت لها من وراء إسحق يعقوبُ . ويجوز ان يرتفع بالابتداء ، ويكون فى موضع الحال ؛ أى بشروها بإسحٰق مقابلا له يعقوب . والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحٰق يعقوبُ . وأجاز الكسائى والأخفش وأبو حاتم أن يكون « يعقوب » فى موضع جرّ على معنى : وبشرناها من وراء إسحٰق بيعقوب . قال الفراء : ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض ؛ قال سيبويه ولو قلت : مررت بزيد أول من أمس وأمس عمرو[1] كان قبيحا [خبيثا][2]؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو ، كما تفرق بين الجار والمجرور ؛ لأن الجار لا يفصل بينه و بين المجرور ، ولا بينه وبين الواو .

قوله تعالى : قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ قال الزجاج : أصلها يا ويلتى ؛ فأبدل من الياء ألف، لأنها أخف من الياء والكسرة ؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تخف على أفواه النساء إذا طرأ عليهن مايعجبن منه ؛ وعجبت من ولادتها [ومن][3] كون بعلها شيخا لخروجه عن العادة ، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر . و ﴿ أَأَلِدُ ﴾ آستفهام معناه التعجب . ﴿ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ أى شيخة . ولقد عَجَزت تَعجِزُ عَجْزا وعَجَّزت تعجيزا ؛ أى طعنت فى السنّ .

---

(١) والوجه عنده (وأمس بعمرو) .　(٢) كذا فى أ و ك وع و و ى .　(٣) من ع .

وقد يقال : عجوزة أيضا . وعجزت المرأة بكسر الجيم؛ عظمت عجيزتها عُجْزا وعَجْزا بضم العين وفتحها . قال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحٰق : كانت بنت تسعين [سنة[1]] . وقيل غير هذا .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي ﴾ أى زوجى . ﴿ شَيْخًا ﴾ نصب على الحال ، والعامل فيـه التنبيه أو الإشارة . « وَهَٰذَا بَعْلِي » آبتداء وخبر . وقال الأخفش : وفى قراءة ابن مسعود وأُبيّ « وهذا بعلى شيخ » قال النحاس : كما تقول هذا زيد قائم؛ فزيد بدل من هذا؛ وقائم خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « هذا » مبتدأ « وزيد قائم » خبرين؛ وحكى سيبويه : هذا حلوٌ حامضٌ . وقيل : كان إبراهيم آبن مائة وعشرين سنة . وقيل : آبن مائة فكان يزيد عليها فى قول مجاهد سنة . وقيل : إنها عرضت بقولها : « وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا » أى عن ترك غِشْيانه لهـا . وسارّة هذه آمرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحـور بن شاروع بن أرغو بن فالغ، وهى بنت عم إبراهـيم . ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أى الذى بشرتمـونى به لشى عجيب .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ لمـا قالت : « وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا » وتعجبت، أنكرت الملائكة عليها تعجّبها من أمر الله ، أى من قضائه وقدره ، أى لا عجب من أن يرزقكما الله الولد ، وهو إسحٰق . وبهذه الآية آستدلّ كثير من العلمـاء على أن الذّبيح إسمٰعيل، وأنه أسنّ من إسحٰق؛ لأنها بشّرت بأن إسحٰق يعيش حتى يولد له يعقوب . وسيأتى الكلام فى هذا ؛ وبيانه فى « الصافات[2] » إن شاء الله تعالى .

---

(١) من ع . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٩٨ فـا بعد .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ . وحكى سيبويه «عليكِم» بكسر الكاف لمجاورتها الياء . وهل هو خبر أو دعاء ؟ وكونه إخبارا أشرف؛ لأن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم ، المعنى : أوصل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت . وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يُترجّى ولم يتحصّل بعد . ونصب ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ على الاختصاص؛ وهذا مذهب سيبويه . وقيل : على النداء .

الثالثـة — هذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل البيت ؛ فدلّ هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت ؛ فعائشة رضي الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ممن قال الله فيهم : « وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »(1) وسيأتي .

الرابعـة — ودلّت الآية أيضا على أنّ منتهى السلام «وَبَرَكَاتُهُ» كما أخبر الله عن صالحي عباده « رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » . والبركة النموّ والزيادة ؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارة . وروى مالك عن وهب بن كَيْسان أبي نعيم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : كنت جالسا عند عبد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ؛ ثم زاد شيئا مع ذلك ؛ فقال ابن عباس — وهو يومئذ قد ذهب بصره — مَن هذا ؟ فقالوا اليمانيّ الذي يغشاك ، فعرّفوه إياه، فقال : إن السلام انتهى إلى البركة . ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : دخلت المسجد فإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسلم في عصبة من أصحابه، فقلت : السلام عليكم؛ فقال : "وعليك السلام ورحمة الله عشرون لي وعشرة لك" . قال : ودخلت الثانية ؛ فقلت : السلام عليكم ورحمة الله فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وعشرون لك". فدخلت الثالثة فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وثلاثون لك أنا وأنت في السلام سواء . ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أي محمود ماجد . وقد بيناهما في « الأسماء الحسنى » .

---

(1) راجع جـ ١٤ ص ١٧٨ .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أى الخوف؛ يقال : ارتاع من كذا إذا خاف؛ قال النابغة :

فارتاعَ من صَوْتِ كَلَّابٍ[1] فبـات لهُ * طوعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ

﴿ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ﴾ أى بإسحق ويعقوب . وقال قَتَادة : بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط، وأنه لا يخاف . ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ أى يجادل رسلنا، وأضافه إلى نفسه، لأنهم نزلوا بأمره . وهذه المجادلة رواها حُميد بن هلال عن جُنْدب عن حُذَيفة؛ وذلك أنهم لما قالوا : « إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ »[2] قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا : لا . قال : فأربعون ؟ قالوا : لا . قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا قال : فعشرون ؟ قالوا : لا . قال : فإن كان فيها عشرة — أو خمسة شك حميد — قالوا : لا . قال قَتَادة : نحوا منه؛ قال فقال يعنى إبراهيم : قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم . وقيل إن إبراهيم قال : أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فقال إبراهيم عند ذلك : « إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » . وقال عبد الرحمن بن سَمُرة : كانوا أربعمائة ألف . ابن جُرَيج . وكان فى قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف . ومذهب الأخفش والكسائى أن « يجادلنا » فى موضع « جادلنا » . قال النحاس : لما كان جواب « لمّا » يجب أن يكون بالماضى جعل المستقبل مكانه ؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضى مكانه . وفيه جواب آخر — أن يكون « يجادلنا » فى موضع الحال؛ أى أقبل يجادلنا ، وهذا قول الفراء . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

---

(١) الكلاب : صاحب الكلاب . يصف الشاعر ثورا وحشيا بأنه بات من الخوف الذى أدركه ، والبرد الذى أصابه مبيت سوء، وميته على ذلك الحال يسر أعداءه .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٤١ فما بعد .

أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) تقـدّم فى « براءة » معنى « لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »(١) . والمنيب الراجع؛ يقال : أناب إذا رجع . وإبراهيم صلى الله عليه وسلم كان راجعا إلى الله تعالى فى أموره كلها . وقيل : الأوّاه المتأوّه أسفا على ما قد فات قوم لوط من الإيمان .

قوله تعـالى : (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) أى دع عنك الجدال فى قوم لوط. (إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ) أى عذابه لهم . (وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ) أى نازل بهم . (عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) أى غير مصروف عنهم ولا مدفوع .

قوله تعـالى : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

قوله تعـالى : (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ) لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط — وهما تستقيان — بالملائكة

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٤ .

ورأتا هيئة حسنة ؛ فقالتا : ما شأنكم ؟ ومن أين أقبلتم ؟ قالوا : من موضع كذا نريد هذه القرية قالتا : فإن أهلها أصحاب الفواحش ؛ فقـالوا : أبها من يضيفنا ؟ قالتا : نعم ! هذا الشيخ وأشارتا إلى لوط ؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم . ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ أى ساءه مجيئهم ؛ يقال : ساء يسوء فهو لازم ، وساءه يسوءه فهو متعدّ أيضا ، وإن شئت ضممت السين ؛ لأن أصلها الضمّ ، والأصل سُوِئَ بهم من السوء ؛ قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء ، وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت : «سِيَ بِهِم» مخففا ، ولغة شاذة بالتشديد . ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أى ضاق صدره بمجيئهم وكرهه . وقيل : ضاق وسعه وطاقته . وأصله أن يَذْرَع البعير بيديه فى سيره ذَرْعا على قدر سعة خَطْوِه ؛ فإذا حُمِل على أكثر من طَوْقه ضاق عن ذلك، وضعف ومدّ عنقه؛ فضيق الذّرع عبارة عن ضيق الوُسع . وقيل : هو من ذَرَعه القىء أى غلبه ؛ أى ضاق عن حبسه المكروه فى نفسه ، وإنمـا ضاق ذرعه بهم لمـا رأى من جمالهم، وما يعلم من فسق قومه. ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أى شديد فى الشر . وقال الشاعر :

وإنّكَ إلّا تُرضِ بكرَ بن وائلٍ * يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصِيبُ

وقال آخـــر :

يومٌ عصِيبٌ يَعصِبُ الأبطالَا * عَصْبَ القَـوِىّ السَّلَمَ الطّوالَا

ويقال : عصِيبٌ وعَصَبْصَبٌ على التكثير ؛ أى مكروه مجتمع الشر وقد عصب؛ أى عصب بالشر عِصابة ؛ ومنه قيل : عُصبة وعِصابة أى مجتمعوا الكلمة ؛ أى مجتمعون فى أنفسهم . وعَصَـبة الرجل المجتمعون معـه فى النسب ؛ وتعصّبت لفلان صرت كعصبته ، ورجل معصوب(١) ، أى مجتمع الخَلْق .

قوله تعـالى : ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ فى موضع الحال. «يُهْرَعُونَ» أى يسرعون . قال الكسائى والفراء وغيرهما من أهل اللغة : لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رِعدة؛ يقال: أُهْرِع الرجل إهراعا أى أسرع فى رِعدة من بَرْد أو غضب أو حُمّى،وهو مُهرَع؛ قال مُهلهِل :

---

(١) فى مفردات الراغب : ومعصوب الخلق أى مدمج الخلقة .

فجــاءوا يُهرَعون وهُمْ أسارَى * تقودُهمُ على رَغْــمِ الأُنوفِ

وقال آخــر :

* بمعجَلاتٍ نحـوه مَهارِعِ *

وهذا مثــل : أُولِــع فلان بالأمر ، وأُرعِد زيد ، وزُهِي فلان . وتجيء ولا تستعمل إلا على هذا الوجه . وقيل : أهرِع أى أهرعه حِرصُه؛ وعلى هذا « يُهرَعُونَ » أى يُستحثّون عليه . ومن قال بالأول قال : لم يســمع إلا أُهْرِع الرجلُ أى أسرع؛ على لفظ ما لم يسمّ فاعله . قال ابن القوطيّــة : هُرِع الإنسـان هَرَعا ، وأُهرِع : سِــيق واستعجل . وقال الهروىّ يقــال : هُرِع الرجلُ وأُهرِع أى آستُحِثّ . قال ابن عباس وقتادة والسّــدّى : « يُهرعون » يهرولون . الضحاك : يَسعون . ابن عُيينة : كأنهم يدفعون . وقال شِمر بن عطية : هو مشى بين الهرولة والجَمَزَى . وقال الحسن : مشيٌ بين مشيين؛ والمعنى متقارب . وكان سبب إسراعهم ما روى أن آمرأة لوط الكافرة ، لمــا رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها، فقالت لهم : إن لوطا قد أضاف الليلةَ فِتية ما رؤى مثلهم جمالا ؛ وكذا وكذا ؛ فحينئذ جاءوا يُهرعون إليه . ويذكر أن الرسل لمــا وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطا فى حرث له . وقيل: وجدوا ابنتــه تستقى ماء من نهر سَدوم ، فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم : مكانكم! وذهبت إلى أبيها فأخبرته؛ فخرج إليهم ؛ فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة؛ فقال لهم : أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا : وما عملهم؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم فى الأرض — وقد كان الله عزّ وجل قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهــم أربع شهادات — فلما قال لوط هذه المقالة، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردّد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، ثم دخل بهم المدينة .

قوله تعــالى : ﴿ وَمِنْ قَبْــلُ ﴾ أى ومن قبل مجىء الرسل . وقيل : من قبــل لوط . ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى كانت عادتهم إتيــان الرجال . فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا

أضيافه قام إليهم لوط مدافعا، وقال : ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ ابتداء وخبر. وقد اختلف فى قوله : « هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي » فقيل : كان له ثلاث بنات من صُلبه . وقيل : بنتان ؛ زيتا[(١)] وزعوراء ؛ فقيل : كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ٱبنتيه . وقيل : ندبهم فى هذه الحالة إلى النكاح ، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة ؛ وقد كان هذا فى أول الإسلام جائزا ثم نسخ ؛ فزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنتا له من عُتْبَة بن أبى لهب ، والأخرى من أبى العاص بن الربيع قبل الوحى، وكانا كافرين . وقالت فرقة — منهم مجاهد وسعيد بن جُبير — أشار بقوله : « بَنَاتِي » إلى النساء جملة ؛ إذ نبيّ القوم أب لهم ؛ ويقوّى هذا أن فى قراءة ابن مسعود. « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وهو أب لهم » . وقالت طائفة : إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه ؛ روى هذا القول عن أبى عبيدة ؛ كما يقال لمن يُنهى عن أكل مال الغير : الخنزير أحل لك من هذا . وقال عِكرمة : لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته ، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا .

قوله تعالى : ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ٱبتداء وخبر؛ أى أزوّجكموهنّ ؛ فهو أطهر لكم مما تريدون، أى أحلّ . والتطهر التنزّه عما لا يحل . وقال ٱبن عباس : كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم ، وأراد ذلك اليوم أن يفدى أضيافه ببناته . وليس ألِف « أطهر» للتفضيل حتى يتوهم أن فى نكاح [الرجال[(٢)]] طهارة، بل هو كقولك : الله أكبر وأعلى وأجلّ، وإن لم يكن تفضيلا ؛ وهذا جائز شائع[(٣)] فى كلام العرب؛ ولم يكابر الله تعالى أحدٌ حتى يكون الله تعالى أكبر منه . وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أُحد : ٱعْلُ[(٤)] هُبَلُ ٱعْلُ هُبَلُ ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : ” قل الله أعلى وأجلّ“. وهبل لم يكن قط عاليا ولا جليلا . وقرأ العامة برفع الراء . وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو « هُنَّ أطهرَ » بالنصب على الحال . و « هُنّ » عِماد . ولا يجيز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون « هُنّ » هاهنا عمادا، وإنما يكون عمادا فيما لايتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك، لتدلّ بها على أن الأخ ليس بنعت .

(١) كذا فى الأصول والألوسى، وفى الطبرى : رثيا .
(٢) فى الأصل (النساء) وهو تحريف .
(٣) فى ع : سائغ .
(٤) أى أظهر دينك .

قال الزجاج : ويدلّ بها على أنّ كان تحتاج إلى خبر . وقال غيره : يدلّ بها على أن الخبر معرفة أو ما قارنها .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أى لا تهينونى ولا تذلّونى . ومنه قول حسان :

فأخزاك ربى ياعُتيبَ بن مالك * ولقّاكَ قبل الموت إحدى الصّواعقِ
مددتَ يمينًا للنبى تعمّدًا * ودَمَّيْتَ فاهُ قُطّعتْ بالبَوارق

ويجوز أن يكون من الخَزَاية، وهو الحياء، والخجل ؛ قال ذو الرُّمّة :

خزايةً[1] أدركته بعد جولتِهِ * من جانبِ الحبلِ مخلوطا بها الغضب

وقال آخر :

من البيض لا تَخزَى إذا الريحُ ألصقتْ * بها مِرْطَها أو زايلَ الحَلْىُ جيدَهَا

وضيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد؛ لأنه فى الأصل مصدر؛ قال الشاعر :

لا تَعدمى الدهرَ شِفار الجازِرِ * لِلضّيفِ والضيفُ أحقّ زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع ؛ والأوّل أكثر كقولك : رجالٌ صَوْمٍ وفِطر وزَوْرٍ . وخزى الرجلُ خَزَايةً ؛ أى استحيا مثل ذَلّ وهان . وخَزِى خزيًا إذا افتضح ؛ يَخْزَى فيهما جميعا . ثم وبخهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أى شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وقيل : «رشيد» أى ذو رَشَد . أو بمعنى راشد أو مرشِد، أى صالح أو مصلِح. ابن عباس : مؤمن . أبو مالك : ناه عن المنكر . وقيل : الرشيد بمعنى الرَّشَد ؛ والرُّشد والرّشاد الهدى والاستقامة . ويجوز أى يكون بمعنى المرشد؛ كالحكيم بمعنى المحكِم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ روى أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم ، وكانت سنتهم أن من ردّ فى خِطبة امرأة لم تحل له أبدا ؛ فذلك قوله تعالى :

---

(١) (خزاية) أى من الخزاية . والحبل هو حبل الرمل . والكلام فى وصف ثور وحشى تطارده الكلاب . وقبله :

حتى إذا دوّمت فى الأرض راجعه * كبر ولو شاء نجى نفسه الهرب

يعنى أن الثور أنف من الهرب فرجع إلى الكلاب .

« قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ » وبعد ألّا تكون هذه الخاصيّة . فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق ، ولا هنّ قصدنا ، ولا لنا عادة نطلب ذلك . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ إشارة إلى الأضياف .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ لما رأى استمرارهم فى غيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عونا على ردهم؛ فقال على جهة التفجع والآستكانة : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً » أى أنصارا وأعوانا . وقال آبن عباس : أراد الولد . و « أنّ » فى موضع رفع بفعل مضمر، تقديره : لو آتفق أو وقع . وهذا يطرد فى « أن » التابعة لِـ « لو» . وجواب «لو» محذوف؛ أى لرددت أهل الفساد، وحلت بينهم و بين ما يريدون . ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أى ألجأ وأنضوى . وقرى « أو آوِيَ» بالنصب عطفا على « قوة » كأنه قال : « لو أن لى بكم قوة »أو إيواء إلى ركن شديد؛ أى وأن آوى ، فهو منصوب بإضمار «أن». ومراد لوط بالركن العشيرة، والمنعة بالكثرة . و بلغ بهم قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى؛ فيروى أن الملائكة وَجَدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركنك لشديد. وفى البخارى عن أبى هُريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد" الحديث؛ وقد تقدّم فى « البقرة »[(١)] . وخرجه الترمذىّ وزاد " ما بعث الله بعده نبيّاً إلا فى ثروة من قومه" . قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمنعة؛ حديث حسن. ويروى أن لوطا عليه السلام لما غلبه قومه ، وهمّوا بكسر الباب وهو يمسكه ، قالت له الرسل : تنحّ عن الباب ؛ فتنحّى وانفتح الباب ؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعُمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ »[(٢)] . وقال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط بابه والملائكة معه فى الدار، وهو يناظر قومه و يناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار، فلما رأت الملائكة ما لقى من الجهد والكرب والنّصب بسببهم، قالوا : يا لوط إن ركنك لشديد، وأنهم آتيهم عذاب غير مردود،

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩٨ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٤٣ .

و إنا رسل ربك ؛ فافتح الباب ودعنا و إياهم ؛ ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما تقدّم . وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم، فأوصل الله إلى عين مَن بَعُد ومَن قَرُب من ذلك التراب فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقا، ولا آهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! فإن في بيت لوط قوما هم أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا . وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى؛ يتوعدونه .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ لما رأت الملائكة حزنه وآضطرابه ومدافعته عرّفوه بأنفسهم ، فلما علم أنهم رسلٌ مكّن قومه من الدخول، فأمرّ جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا، وعلى أيديهم فجفّت . ﴿ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ أي بمكروه ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ قرئ « فأسر » بوصل الألف وقطعها ؛ لغتان فصيحتان . قال الله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ »[1] وقال : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى »[2] وقال النابغة : فجمع بين اللغتين :

أَسْرَتْ[3] عليه من الجوزاء ساريةٌ * تُزجِى الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ

وقال آخر :

حَيِّ النَّضيرةَ ربَّةَ الخِدْرِ * أَسْرتْ إليكَ ولم تَكُنْ تَسْرِى

وقد قيل : « فَأَسْرِ » بالقطع إذا سار من أوّل الليل، وسرى إذا سار من آخره؛ ولا يقال في النهار إلا سار . وقال لبيد :

إذا المرءُ أَسْرَى ليلةً ظَنَّ أنَّهُ * قَضَى عمَلًا والمرءُ ما عاش عامِلُ

وقال عبد الله بن رَوَاحَةَ :

عند الصَّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى * وتَنجلِي عنهم غَيَاباتُ الكَرَى

﴿ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال آبن عباس : بطائفة من الليل . الضّحاك : ببقية من الليل . قَتَادة : بعد مضى صدر من الليل . الأخفش : بعد جنح من الليل . آبن الأعرابي : بساعة من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هدءٍ من الليل . وقيل : هزيع

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٤٢ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٤ .
(٣) ويروى (سرت) . يقول : إن السحابة سرت في الجوزاء : فلذلك شبهها بالجوزاء .

من الليل . وكلها متقاربة ؛ وقيـل : إنه نصف الليـل ؛ مأخوذ من قطعه نصفين؛ ومنه قول الشاعر[١] :

ونائحـــةٍ تَنوحُ بِقطعِ ليـلٍ * على رجلٍ بقارعةِ الصّـعيدِ

فإن قيل : السُّرى لا يكون إلا بالليل، فمـا معنى « بقطع من الليل » ؟ فالجواب : أنه لو لم يقل : « بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْـلِ » جاز أن يكون أوله . ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ أى لا ينظر وراءه منكم أحد ؛ قاله مجـاهد . ٱبن عباس : لا يتخلف منكم أحد . علىّ بن عيسى : لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع . ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ بالنصب ؛ وهى القـراءة الواضحة البيّنـة المعنى ؛ أى فأسر بأهلك إلا ٱمرأتك . وكذا فى قراءة ٱبن مسـعود « فأسرِ بأهلك إلا ٱمرأتك» فهو ٱستثناء من الأهل . وعلى هذا لم يخرج بها معه . وقد قال الله عز وجل : « كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ[٢] » أى من الباقين . وقرأ أبو عمرو وٱبن كثير : « إلا ٱمرأتُك » بالرفع على البدل من « أحد » . وأنكر هـذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد؛ وقال : لا يصح ذلك إلا برفع « يلتفت » ويكون نعتا؛ لأن المعنى يصير ــ إذا أبدلت وجزمت ــ أن المرأة أبيح لها الٱلتفات، وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا الحمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمـرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ؛ والرفع على البدل له معنى صحيح، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمـد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه : لا يخرج فلان ؛ فلفظ النهى لفلان ومعناه للمخاطب؛ أى لا تدعه يخرج؛ ومثله قولك: لا يقم أحد إلا زيد؛ يكون معناه : ٱنههم عن القيام إلا زيدا ؛ وكذلك النهى للوط ولفظه لغيره؛ كأنه قال : ٱنههم لا يلتفت منهم أحد إلا ٱمرأتك . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام؛ أى لا يلتفت منكم أحد إلا ٱمرأتك فإنهـا تلتفت وتهلك ، وأن لوطا خرج بها، ونهى من معه ممن أسرى بهم ألا يلتفت، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته؛ فإنها لمـا سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها . ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا ﴾

---

(١) هو مالك ٱبن كنانة . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٤١

أى من العـذاب . والكناية فى « إنه » ترجـع إلى الأمر والشأن ؛ أى فإن الأمر والشأن والقصـة . ﴿ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ لمـا قالت الملائكة : « إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ » قال لوط : الآن الآن . آستعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه؛ فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ وقرأ عيسى بن عمر « أليس الصُّبُحُ » بضم الباء وهى لغة . ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم ؛ لأن النفوس فيه أودع، والناس فيه أجمع . وقال بعض أهل التفسير : إن لوطا خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر، وأن الملائكة قالت له : إن الله قد وكّل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد، وخطف برق، وصواعق عظيمة، وقد ذكرنا لهم أن لوطا سيخرج فلا تؤذوه؛ وأمارته أنه لا يلتفت، ولا تلتفت آبنتاه فلا يهولنّك ما ترى . فخرج لوط وطوى الله له الأرض فى وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ وذلك أن جبريل عليه السـلام أدخل جناحه تحت قرى قـوم لوط ، وهى خمس : سـدوم — وهى القرية العظمى — وعاموراء، ودادوما، وضعوه، وقـتم[(١)] ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بمـا فيها ؛ حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح دِيَكتهم ، لم تنكفىء لهم جرّة ، ولم ينكسر[(٢)] لهم إناء، ثم نكسوا على رءوسهم، وأتبعهم الله بالحجارة . مقاتل : أهلكت أربعة، ونجت ضعوه . وقيل غير هذا ؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم؛ وقد تقدّم فى « الأعراف[(٣)] » . وفى التفسير : أمطرنا فى العذاب، ومطرنا فى الرحمة . وأما كلام العرب فيقال : مطرت السماء وأمطرت : حكاه الهروى . واختلف فى «السِّجِّيل» فقال النحاس[(٤)] : السجيل الشديد الكثير؛ وسجيل وسِجِّين اللام والنون أختان . وقال أبو عبيدة : السجيل الشديد؛ وأنشد[(٥)] :

* ضَرْبًا تَوَاصَى به الأبطالُ سِجِّينَا *

---

(١) وفى ع و ز و ك : قاموارا ورادما وصعو، وفى ضبط هذه القرى اختلاف . (٢) فى ى : ينكشف .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ (٤) كذا فى ا، وفى ز و ع و ك و و و ى : (البخارى) .
(٥) سيأتى البيت بتمامه فى ص ٨٣ .

قال النحاس : وردّ عليه هـذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به ؟ ! قال النحاس : وهذا الرد لا يلزم، لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى؛ وقول أبي عبيدة يردّ من جهة أخرى؛ وهى أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلا ؛ لأنه لا يقال : حجارة من شديد؛ لأن شديدا نعت . وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قـد يقال لحجارة الأرحاء سجيل . وحكى عنـه محمد بن الجهم أن سجيلا طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء . وقالت طائفة منهم آبن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق : إن سجيلا لفظة غير عربية عُرِّبت، أصلها سَنْج وجِيلْ . ويقال : سَنْك وكِيل؛ بالكاف موضع الجيم، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما إسمـا واحدا . وقيل : هو من لغة العـرب . وقال قتادة وعِكرمة : السجيل الطين بدليل قوله : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِم حِجَارَةً مِنْ طِينٍ »[1] . وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا فشدّدت . والسجيل عند العرب كل شديد صُلْب . وقال الضحاك : يعنى الآجر . وقال آبن زيد : طين طبخ حتى كان كالآجر، وعنه أن سجيلا آسم السماء الدنيا؛ ذكره المهدوىّ؛ وحكاه الثعلبىّ عن أبى العالية؛ وقال آبن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بـ « منضود » . وعن عكرمة : أنه بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة . وقيل : هى جبال فى السماء، وهى التى أشار الله تعالى إليها بقوله : « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ »[2] . وقيل : هو مما سجّل لهم أى كتب لهم أن يصيبهم؛ فهو فى معنى سِجين؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ »[3] قاله الزجاج وآختاره . وقيل : هو فِعِّيـل من أسجلته أى أرسلته ؛ فكأنها مرسَلة عليهم . وقيل : هو من أسجلته إذا أعطيتَه ؛ فكأنه عذاب أُعطوه[4] ؛ قال :

مَنْ يُساجلْنِي يُساجِلْ ماجِدًا * يَمْـلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَب

---

(١) راجع ج ١٧ ص ٤٧ . (٢) راجع ج ١٢ ص ٢٨٩ . (٣) راجع ج ١٩ ص ٢٥٤ .

(٤) البيت للفضل بن عباس بن عتبة بن أبى لهب . وأصل المساجلة . أن يستقى ساقيان فيخرج كل واحد منهما فى سجله (دلوه) مثـل ما يخرج الآخر فأيهما نكل فقد غلب ؛ فضربته العرب مثلا للفاخرة . والكرب : الحبل الذى يشد على الدلو بعد المنين وهو الحبل الأول .

وقال أهل المعانى : السجّيل والسجّين الشديد من الحجَر والضَّرب؛ قال آبن مُقْبل :

ورَجْلةٍ يضربون البَيْضَ ضَاحِيَـةً (١) * ضَرْباً تَواصَى بِهِ الأبطالُ سِجِّينَـا

﴿ مَنْضُودٍ ﴾ قال آبن عبـاس : متتابع . وقال قتادة : نُضِـد بعضها فوق بعض . وقال الربيع : نُضِد بعضه على بعض حتى صار جسدا واحدا . وقال عِكرمة : مصفوف . وقال بعضهم مرصوص ؛ والمعنى متقارب . يقال : نَضَدت المتاع واللّبِن إذا جعلت بعضه على بعض ، فهو منضود ونَضِيد ونَضَدٌ؛ قال :

* ورفَّعَتْه إلى السِّجْفَين فالنَّضَدِ *

وقال أبو بكر الهُذَلى : مُعدّ ؛ أى هو مما أعدّه الله لأعدائه الظّلمة . ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أى معلّمة ، من السِّيما وهي العلامة؛ أى كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر آسم من رُمِى به ، وكانت لا تشا كل حجارة الأرض. وقال الفرّاء: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد فى بياض ، فذلك تسويمها . وقال كعب : كانت معلمة ببياض وحمرة، وقال الشاعر (٢) :

غلامٌ رماه اللهُ بالحسنِ يافِعًـا * له سِيمياء لا تَشُـقُّ على البَصَرْ

و « مُسَوَّمَةً » من نعت حجارة . و «منضودٍ» من نعت « سِجّيل » . وفى قوله : ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض؛ قاله الحسن. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعنى قوم لوط ؛ أى لم تكن تخطئهم . وقال مجـاهد : يُرهِب قريشا؛ المعنى : ما الحجارة من ظالمى قومك يا محمد ببعيد . وقال قتادة وعِكرمة : يعنى ظالمى هـذه الأمة ؛ والله ما أجار الله منها ظالمـا بعد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيكون فى آخر أمّتى قوم يكتفى رجالهم بالرجال ونسـاؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قـومِ لوط أن يرسل الله عليهـم حجارة من سجيل " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسـلم « وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ

(١) وروى فى اللسان : (يضربون البيض عن عرض) .

(٢) البيت لأسيد بن عنقاء الفزارى يمدح عميلة حين قاسمه ماله ؛ وبعده :

كأن الثريا علقت فـوق نحره * وفى جيده الشعرى وفى وجهه القمر

وقوله : (له سيمياء لا تشق على البصر) أى يفرح به من يراه .

بَعِيدٍ » . وفى رواية عنه عليه السـلام " لا تذهب الليالى والأيام حتى تستحلّ هذه الأمة أدبار الرجال كما آستحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من ربك".وقيل: المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببعيد ؛ وهى بين الشام والمدينة . وجاء « بِبَعِيدٍ » مذكرا على معنى بمكان بعيد . وفى الحجارة التى أمطرت قولان : أحدهما — أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل. الثانى — أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها وكان خارجا عنها .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ

وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أى وأرسلنا إلى مدين ، ومدين هم قوم شعيب . وفى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما — أنهم بنو مدين بن إبراهيم؛ فقيل : مدين والمراد بنو مدين . كما يقال مُضَر والمراد بنو مُضَر . الثانى — أنه آسم مدينتهم ، فنسبوا إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه آسم مدينة ؛ وقد تقدّم فى «الأعراف»[1] هذا المعنى وزيادة . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقدّم . ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف؛ كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، وآستوفوا بغاية ما يَقدِرون [عليه][2] وظلموا؛ وإن جاءهم مشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص، وشحّوا له بغاية ما يقدِرون؛ فأُمروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك، وبالوفاء نهيا عن التطفيف .

﴿ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ أى فى سَعة من الرزق ، وكثرة من النِّعم . وقال الحسن : كان سعرهم رخيصا . ﴿ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم، وهو كقولك : يوم شديد؛ أى شديد حرّه . وآختلف فى ذلك العذاب؛ فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٧		(٢) من ع .

وقيل : عذاب الاستئصال فى الدنيـا . وقيل : غلاء السـعر؛ روى معناه عن آبن عباس .
وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أظهر قوم البخس فى المكيال والمـيزان
إلا آبتلاهم الله بالقحط والغلاء " . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيدا . والإيفاء الإتمـام . « بالقسط » أى بالعدل والحق، والمقصود أن يصل كل ذى نصيب إلى نصيبه؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل : أوفوا بالمكيال وبالميزان؛ بل أراد ألا تنقصوا حجم المكيال عن المعهـود، وكذا الصَّنجات . ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى لا تنقصوهم ممـا آستحقوه شيئا . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾(١) بيّن أن الخيانة فى المكيال والميزان مبالغة فى الفساد فى الأرض، وقد مضى فى « الأعراف » زيادة لهذا، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبّر والظلم؛ قال معناه الطبرى وغيره . وقال مجاهد : « بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ » يريد طاعته . وقال الربيع : وصية الله . وقال الفرّاء : مراقبة الله . آبن زيد : رحمة الله . قتادة والحسن : حظكم من ربكم خير لكم . وقال آبن عباس : رزق الله خير لكم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين . وقيل : يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخاطبهم بهذا . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى رقيب أرقبـكم عند كيلكم ووزنكم ؛ أى لا يمكننى شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق . وقيل : أى لا يتهيأ لى أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ ﴾ وقرئ «أَصَلَاتُكَ» من غير جمع . ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ «أن» فى موضع نصب؛ قال الكسائى : موضعها خفض على إضمار الباء .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٨ .

وروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها ويقول: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم عيّروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة، واستهزءوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم. وقيل: إن الصلاة هنا بمعنى القراءة؛ قاله سفيان عن الأعمش، أى قراءتك تأمرك؛ ودلّ بهذا على أنهم كانوا كفارا. وقال الحسن: لم يبعث الله نبيّا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ زعم الفراء أن التقدير: أو تنهانا أن نفعل فى أموالنا مانشاء. وقرأ السُّلَمى والضّحاك بن قيس «أو أن تفعل فِي أموالِنا ما تشاء» بالتاء فى الفعلين، والمعنى: ما تشاء أنت يا شعيب. وقال النحاس: «أو أن» على هذه القراءة معطوفة على «أن» الأولى. ورُوى عن زيد بن أسلم أنه قال: كان مما نهاهم عنه حَذْف الدراهم[1]. وقيل: معنى. «أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ» إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فَلِم تمنعنا منه؟!. ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ يعنون عند نفسك بزعمك؛ ومثله فى صفة أبى جهل: «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ[2]» أى عند نفسك بزعمك. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة. ومنه قولهم للحبشى: أبو البيضاء، وللأبيض أبو الجَـون[3]؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبى جهل: «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَـزِيزُ الْكَرِيمُ». وقال سفيان بن عُيَينة: العرب تصف الشيء بضدّه للتطيّر والتفاؤل؛ كما قيل لِلّديغ سَلِيم، وللفلاة مَفازة. وقيل: هو تعريض أرادوا به السبّ؛ وأحسن من هذا كله، ويدلّ ما قبله على صحته، أى إنك أنت الحليم الرشيد حقا، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا! ويدلّ عليه. «أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضا ما يدلّ عليه. «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا» أى أفلا أنهاكم عن الضلال؟! وهذا كله يدلّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه اعتقادهم فيه. ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بنى قُريظة للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال لهم: "يا إخوة القردة[4]" فقالوا: يا محمد ما علمناك جهولا!.

---

(١) حذف الشيء قطعه من أطرافه.　(٢) راجع جـ ١٦ ص ١٥١.　(٣) الجون هنا الأسود.

(٤) فى ع: القردة والخنازير. وقد مضى فى جـ ٦ ص ٢٣٦ أنه أيضا من قول المسلمين لهم.

مســئلة — قال أهل التفسير : كان مما ينهاهم عنه، وعُذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القُراضة، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدًا، وعلى المقروضة وزنا، وكانوا يبخسون فى الوزن . وقال ابن وهب قال مالك : كانوا يكسرون الدنانير والدراهم ، وكذلك قال جمـاعة من المفسرين المتقدّمين كسعيد بن المسيّب ، وزيد ابن أسلم وغيرهما؛ وكسرهما ذنب عظيم . وفى كتاب أبى داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكّة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس؛ فإنها إذا كانت صحاحا قام معناها، وظهرت فائدتها، و إذا كسرت صارت سِلعة، و بطلت منها الفائدة ؛ فأضر ذلك بالنـاس؛ ولذلك حرم . وقد قيــل فى تأويل قوله تعـالى : « وَكَانَ فِي الْمَـدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ »(١) أنهم كانوا يكسرون الدراهم ؛ قاله زيد بن أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القُرَظى .

مســئلة : قال أصْبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة مولى زيد بن الحارث العُتَقى : من كسرها لم تقبل شهادته، و إن اعتذر بالجهالة لم يعذر، وليس هذا بموضع عذر؛ قال ٱبن العربى : أما قوله : لم تقبل شهادته فلأنه أتى كبيرةً ، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر؛ وأما قوله : لا يقبل عذره بالجهالة فى هــذا فلأنه أمرٌ بيّنٌ لا يخفى على أحد ، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه، أو خفِى وجه الصدق فيه، وكان الله أعلم به من العبد كما قال مالك .

مســئلة : إذا كان هذا معصية وفسادا تردّ به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك . ومرّ ٱبن المسيّب برجل قد جُلد فقال : ما هذا ؟ قال رجل : يقطع الدنانير والدراهم ؛ قال ٱبن المسيّب : هذا من الفساد فى الأرض؛ ولم ينكر جلده؛ ونحوه عن سفيان . وقال أبو عبد الرحمن النّجيبى : كنت قاعدا عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة(٢) فأتى برجل [يقطع الدراهم](٣) وقد شُهِد عليه فضربه وحلَقه، وأمر فطِيف به ، وأمره أن يقول : هــذا جزاء من يقطع

(١) راجع ج١٣ص ٢١٥ . (٢) فى ع : بالمدينة ، وفى و : أمير المؤمنين . (٣) من ع و ز و ك و و ى .

الدراهم ؛ ثم أمر أن يُرَدّ إليه ؛ فقال : إنه لم يمنعنى أن أقطع يدك إلا أنى لم أكن تقدّمت فى ذلك قبل اليوم، وقد تقدّمت فى ذلك فمن شاء فليقطع . قال القاضى أبو بكر بن العربى : أما أدبه بالسوط فلا كلام فيـه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ؛ وقـد كنت أيام الحكم [بين الناس](١) أضرب وأحلق، و إنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عونا له على المعصية، وطريقا إلى التجمل به فى الفساد ، وهذا هو الواجب فى كل طريق للعصية، أن يقطع إذا كان غير مؤثر فى البدن، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة؛ وذلك أن قرض الدراهم غير كسرها ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدر ، فهو أخذُ مالٍ على جهة الاختفاء؛ فإن قيل: أليس الحِرز أصلا فى القطع؟ قلنا : يحتمل أن يكون عمرُ يرى أن تهيئتها للفصل بين الخلق دينارا أو درهما حِرز لها ، وحِرز كل شىء على قدر حاله ؛ وقد أنفذ ذلك ابن الزبير، وقطع يد رجل فى قطع الدنانير والدراهم . وقد قال علماؤنا المـالكية : إن الدنانير والدراهم خواتيم الله عليها اسمه ؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتما لله كان أهلا لذلك، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أُدب ، وخاتم الله تقضى به الحوائج فلا يسـتويان فى العقوبة . قال ابن العربى : وأرى أن يقطع فى قرضها دون كسرها ، وقد كنت أفعـل ذلك أيام توليتى الحكم، إلا أنى كنت محفوفا بالجهال، فلم أجبن(٢) بسبب المقال للحسدة الضلال فمن قدر عليه يوما من أهل الحق فليفعله احتسابا لله تعـالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ تقدم . ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أى واسعا حلالا، وكان شعيب عليه السلام كثير المـال، قاله ابن عباس وغيره. وقيل: أراد به الهدى والتوفيق، والعلم والمعرفة، وفى الكلام حذف، وهو ماذكرناه، أى أفلا أنهاكم عن الضلال! وقيل: المعنى «أرأيتم إن كنت على بينة من ربى» أتبع الضلال؟ وقيل : المعنى « أرأيتم إن كنت على بينة من ربى » أتأمروننى(٣) بالعصيان فى البخس والتطفيف، وقد أغنانى الله [عنه](١) . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ«ـأُريدُ» . ﴿ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أى ليس أنهاكم عن شىء وأرتكبه، كما لا أترك ما أمرتكم به . ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ

(١) من ع و ى .	(٢) من ع وفى ز و و ى : أحب .	(٣) فى ع : أفتأمروننى .

مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أى ما أريد إلا فعل الصلاح ؛ أى أن تصلحوا دنياكم بالعـدل ، وآخرتكم بالعبادة، وقال : « مَا اسْتَطَعْتُ » لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة . و « ما » مصدرية ، أى إن أريد إلا الإصلاح جهدى واستطاعتى . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى ﴾ أى رشدى ، والتوفيق الرشد . ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت . ﴿ وَإِلَيْـهِ أُنِيبُ ﴾ أى أرجع فيما ينزل بى من جميع النوائب . وقيل : إليه أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة الدعاء، ومعناه وله أدعو .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب « يُجْرِمَنَّكُمْ » . ﴿ شِقَاقِى ﴾ فى موضع رفع . ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ ﴾ فى موضع نصب ، أى لا يحملنكم معاداتى على ترك الإيمـان فيصيبكم ما أصاب الكفار [قبلكم](١) ، قاله الحسن وقتادة . وقيـل : لا يكسبنكم شـقاق إصابتكم العذاب ، كما أصاب من كان قبلكم ، قاله الزجاج . وقد تقـدّم معنى « يجرمنكم » فى « المـائدة »(٢) و « الشقاق » فى « البقرة »(٣) وهو هنا بمعنى العداوة ، قاله السدّى ، ومنه قول الأخطل :

أَلَا مَنْ مُبلغٌ عنى رسـولا(٤) * فكيف وجدتُم طَعْمَ الشِّـقاقِ

وقال الحسن [البصرى](٥) : إضرارى . وقال قتادة : فِراقى . ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثى عهد بهلاك قوم لوط . وقيـل : وما ديار قوم لوط منكم ببعيد ، أى بمكان بعيد ، فلذلك وحد البعيد . قال الكسائى : أى دورهم فى دوركم .

قوله تعالى ﴿ وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تقدم . ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ اسمان من أسمـائه سبحانه ، وقد بيناهما فى كتاب « الأسنى فى شرح الأسماء الحسنى » . قال الجوهرى : وَدِدت الرجل أوده ودا إذا أحببته، والودود المحب، والوَد والوِد والوُد والمودة المحبة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال : " ذاك خطيب الأنبيـاء " .

---

(١) من ع و و ى . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٤ وما بعدها . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ .
(٤) الرسول هنا بمعنى الرسالة . وفى الديوان : مبلغ قيسا . (٥) من ع .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ أى ما نفهم ؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور ، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماعه ، واحتقارا لكلامه ؛ يقال : فقِه يفقَه إذا فهم فِقْها ؛ وحكى الكسائى : فَقُه فَقَها وفِقْها إذا صار فقيها[1] . ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾[2] قيل : إنه كان مصابا ببصره ؛ قاله سعيد ابن جبير وقتادة . وقيل : كان ضعيف البصر ؛ قاله الثورى ، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حِمْيَر تقول للأعمى ضعيفا ؛ أى قد ضعف بذهاب بصره ؛ كما يقال له ضرير ؛ أى قد ضرّ بذهاب بصره ؛ كما يقال له : مكفوف ؛ أى قد كف عن النظر بذهاب بصره . قال الحسن : معناه مهين . وقيل : المعنى ضعيف البدن ؛ حكاه علىّ بن عيسى . وقال السدى : وحيدا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا . وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها . و «ضعيفا» نصب على الحال . ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ رفع بالابتداء ، ورهط الرجل عشيرته الذى يستند إليهم ويتقوى بهم ؛ ومنه الراهِطاء لجُحر اليَرْبُوع ؛ لأنه يتوثّق به ويخبأ فيه ولده . ومعنى ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ لقتلناك بالرجم ، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة ، وكان رهطه من أهل ملتهم . وقيل : معنى « لَرَجَمْنَاكَ » لشتمناك ؛ ومنه قول الجعدى :

تراجَمْنا بمُرّ القولِ حتى * نصير كأننا فرَسا رِهانِ

والرجم أيضا اللعن ؛ ومنه الشيطان الرجيم . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أى ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي ﴾ « أرهطِى » رفع بالابتداء ، والمعنى أرهطى فى قلوبكم ﴿ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ وأعظم وأجل وهو يملككم . ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أى اتخذتم ما جئتكم به من أمر الله ظهريا ؛ أى جعلتموه وراء ظهوركم ، وامتنعتم من قتلى مخافة قومى ؛

---

(١) عبارة الأصول هنا مضطربة ، وصوبت عن كتب اللغة ؛ وعبارة الأصل : فقه يفقه إذا فهم فقها وفقها وحكى الكسائى : فقها ، وفقه فقها إذا صار فقيها .

(٢) ليس شعيب الرسول عليه السلام ضريرا لأن هذا الوصف ينافى العصمة مما يقدح و إنما شعيب الضرير هو صاحب موسى وليس بنبى و بينهما ثلاثمائة سنة .

يقال : جعلت أمره بِظهرٍ إذا قصرت فيه، وقد مضى فى «البقرة»[(١)] ، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى من الكفر والمعصية . ﴿مُحِيطٌ﴾ أى عليم . وقيل : حفيظ .

قوله تعـالى : ﴿وَيَاقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد، وقد تقدّم فى « الأنعام »[(٢)] . ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى يهلكه . و « من » فى موضع نصب، مثل « يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ »[(٣)] . ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ عطف عليها . وقيل: أى وسـوف تعلمون من هو كاذب منا . وقيـل : فى محل رفع ؛ تقديره : ويخزى من هو كاذب . وقيل : تقـديره ومن هو كاذب فسيعلم كذبه، ويذوق وبال أمره . وزعم الفرّاء أنهم إنمـا جاءوا بـ « هو » فى « وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ » لأنهم لا يقولون مَن قائم؛ إنما يقولون: مَن قام، ومَن يقوم، ومَن القائم؛ فزادوا « هو » ليكون جملة تقوم مقام فعل و يفعل . قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قوله[(٤)] :

مَـن رَسُـولِي إلى الثُّرَيّا بِأَنّي * ضِقْتُ ذَرْعا بِهَجْرِهَا والكِتَابِ

﴿وَٱرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أى ٱنتظروا العذاب والسخطة، فإنى منتظر النصر والرحمة .

قوله تعـالى : ﴿وَلَمَّـا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ قيل : صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم ﴿نَجَّيْنَا شُـعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّـا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أى صيحة جبريل . وأنث الفعل على لفظ الصيحة ، وقال فى قصة صالح : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ» فذكّر على معنى الصياح. قال ٱبن عباس : ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب ، أهلكهم الله بالصيحة ؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم . ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ تقدّم معناه . وحكى الكسائىّ أن أبا عبد الرحمن السلمىّ قرأ « كَمَا بَعُدَتْ ثَمُودُ » بضم العين . قال النحاس : المعروف فى اللغة إنما يقال بعد

(١) راجع جـ ٢ ص ٤٠ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٨٩ . (٣) راجع جـ ٣ ص ٦٢ .

(٤) هو عمرو بن أبى ربيعة .

يَبْعَدُ بَعَدًا و بُعْدًا إذا هلك . وقال المهدوى : من ضم العين من «بعدت» فهى لغة تستعمل فى الخير والشر، ومصدرها البعد؛ و بعِدت تستعمل فى الشر خاصة؛ يقال : بَعِد يَبْعَد بَعَدًا؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللّعنــة ؛ وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما فى المعنى ؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعانى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ بين أنه أتبع النبي النبيّ لإقامة الحجة، و إزاحة كل علّة « بِآيَاتِنَا » أى بالتوراة . وقيل : بالمعجزات . ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى حجة بيّنة ؛ يعنى العصا . وقــد مضى فى « آل عمران[1] » معنى السلطان واشتقاقه فلا معــنى للإعادة . ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أى شأنه وحاله، حتى اتخذوه إلهـا ، وخالفوا أمر الله تعالى . ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أى بسديد يؤدّى إلى صواب : وقيل : «بِرَشِيدٍ» أى بمرشد إلى خير .

قوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يعنى أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم . يقال : قَدَمهم يقــدُمهم قدما وقُدوما إذا تقدّمهم . ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ أى أدخلهم فيها . ذُكر بلفظ المــاضى ؛ والمعنى فيوردهم النــار ؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن ؛ فلهذا يُعــبَّر عن المستقبل بالمــاضى . ﴿ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَــوْرُودُ ﴾ أى بئس المدخل المدخول ؛ ولم يقل بئست لأن الكلام يرجــع إلى المورود ، وهو كما تقول : نعم المنزل دارك ، ونعمت المنزل دارك . والمورود المــاء الذى يورد، والموضع الذى يورد؛ وهو بمعنى المفعول .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ .

قوله تعالى : ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ أى فى الدنيا . ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى ولعنة يوم القيامة ، وقد تقدّم هذا المعنى . ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ حكى الكسائى وأبو عبيدة : رَفَدْتُه أَرْفِده رَفْدًا ؛ أى أعنته وأعطيته . وآسم العطية الرِّفْد ؛ أى بئس العطاء والإعانة . والرفد أيضا القدح الضخم ؛ قاله الجوهرى ، والتقدير : بئس الرفد رِفد المرفود . وذكر الماوردى : أن الرَّفْد بفتح الراء القدح ، والرِّفد بكسرها ما فى القدح من الشراب ؛ حكى ذلك عن الأصمعى ؛ فكأنه ذمّ بذلك ما يسقونه فى النار . وقيل : إن الرفد الزيادة ؛ أى بئس ما يرفدون به بعد الغرق النارُ ؛ قاله الكلبى .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ « ذَلِكَ » رفع على إضمار مبتدأ ، أى الأمر ذلك . و إن شئت بالابتداء ، والمعنى : ذلك النبأ المتقدم من أنبـاء القرى نقصه عليـك . ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ قال قتادة : القائم ما كان خاويا على عروشـه ، والحصيد ما لا أثر له . وقيل : القائم العامر ، والحصيد الخراب ؛ قاله ٱبن عباس . وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها ، وحصيد مستأصل ؛ يعنى محصودا كالزرع إذا حصد ؛ قال الشاعر :

والناس فى قَسْم المنيّة بينهم * كالزّرع منـه قائِمٌ وحَصِيدُ

وقال آخــر[1] :

إنمـا نحن مثـلُ خامَةِ زَرْعٍ * فمتى يَأْنِ يأْتِ مُحْتَصِدُهْ

قال الأخفش سعيد : حصيد أى محصود ، وجمعه حصدى وحِصاد مثل مرضى ومِراض ؛ قال : يكون فيمن يعقل حصدى ، مثل قتِيل وقتلى . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أصل الظلم فى اللغة وضع الشىء فى غير موضعه ، وقد تقــدّم فى « البقرة »[2] مستوفى . ﴿ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى . وحكى سيبويه أنه يقال : ظلم إياه ﴿ فَمَا أَغْنَتْ ﴾ أى دفعت . ﴿ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فى الكلام حذف ، أى التى كانوا يعبـدون ؛ أى يدعون . ﴿ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أى غير تخسـير ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال لبيد :

فلقد بَلِيتُ وكلُّ صاحبِ جِدّةٍ * لِبِـلًى يَعُودُ وذاكُمُ التَّتْبِيبُ

والتّبّات الهلاك والخسران ، وفيه إضمار ؛ أى ما زادتهم عبادة الأصنام ، فحذف المضـاف ؛ أى كانت عبادتهم إياها قد خسّرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى ﴾ أى كما أخذ هذه القرى التى كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة . وقرأ عاصم الجحدرى وطلحة بن مصرف « وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذْ أَخَذَ الْقُرَى » وعن الجحدرى أيضا « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ » كالجماعة « إِذْ أَخَذَ

---

(١) البيت للطرماح كما فى اللسان . (٢) راجع جـ١ ص ٣٠٩ وما بعدها .

القُرَى» . قال المهدوى: من قرأ : « وكذلك أخذ ربك إذْ أخذ » فهو إخبار عما جاءت به العادة فى إهلاك من تقدم من الأمم؛ والمعنى : وكذلك أَخَذَ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذْ أخذهم . وقراءة الجماعة على أنه مصدر، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه ؛ فإذْ لمـا مضى ؛ أى حين أخذ القـرى ؛ وإذا للمستقبل ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أى وأهلها ظالمون؛ فحذف المضاف مثل : «وَٱسْأَلِ القَرْيَةَ » . ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أى عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة . وفى صحيح مسلم والترمذى من حديث أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : " إن الله تعـالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ " ثم قرأ « وكذلك أخْذُ ربك إذا أخذ القرى » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى لعبرة وموعظة . ﴿ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ . ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ ﴾ ، ابتداء وخبر . ﴿ مَجْمُـوعٌ ﴾ من نعته . ﴿ لَهُ ٱلنَّاسُ ﴾ ٱسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل مجموعون؛ فإن قدرت ٱرتفاع « الناس » بالابتداء، والخبر « مَجْمُـوعٌ لَهُ » فإنما لم يقل : مجموعون على هذا التقدير؛ لأن «له» يقوم مقام الفاعل . والجمع الحشر، أى يحشرون لذلك اليوم . ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ أى يشهده البر والفاجر، ويشهده أهل السماء . وقد ذكرنا هذين الاسمين مع غيرهما من أسماء القيامة فى كتاب « التذكرة » وبيناهما والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ أى ما نؤخر ذلك اليوم . ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾ أى لأجل سبق به قضاؤنا ، وهو معدود عندنا . ﴿ يَوْمَ يَأْتِي ﴾ وقرئ « يَوْمَ يَأْتِ » لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة ؛ تقول : لا أدرِ؛ ذكره القشيرى . قال النحاس : قرأه أهـل المدينة وأبو عمرو والكسائى بإثبات الياء فى الإدراج، وحذفها فى الوقف؛ وروى أن أُبَيًّا وابن مسعود قرأا « يوم يأتِي » باليـاء فى الوقف والوصل . وقرأ الأعمش وحمزة « يَوْمَ يَأْتِ » بغير ياء فى الوقف والوصل ، قال أبو جعفر النحاس : الوجه فى هذا ألّا يوقف عليه ، وأن يوصل بالياء، لأن جماعة من النحو يين قالوا : لا تحذف الياء، ولا يجزم الشىء بغير جازم؛ فأما الوقف بغير ياء ففيه قول للكسائى؛ قال : لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم، فحذف الياء ، كما

تحذف الضمة . وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء فى الوصل والوقف بحجتين إحداهما — أنه زعم أنه رآه فى الإمام الذى يقال له إنه مصحف عثمان رضى الله عنه بغير ياء . والحجة الأخرى — أنه حكى أنها لغة هُذَيل؛ تقول : ما أدرِ؛ قال النحاس : أما حجته بمصحف عثمان رضى الله عنه فشىء يردّه عليه أكثر العلماء؛ قال مالك بن أنس رحمه الله : سألت عن مصحف عثمان رضى الله عنه فقيل لى ذَهَب؛ وأما حجته بقولهم : « ما أدرِ » فلا حجة فيه؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء، وذكروا علته، وأنه لا يقاس عليه . وأنشد الفراء فى حذف الياء .

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُليقُ درهما * جودًا وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدَّمَا

أى تعطى . وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول : لا أدرِ ، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال . قال الزجاج : والأجود فى النحو إثبات الياء؛ قال : والذى أراه اتباع المصحف وإجماع القراء؛ لأن القراءة سنة؛ وقد جاء مثله فى كلام العرب . ﴿ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ الأصل تتكلم، حذفت إحدى التاءين تخفيفا . وفيه إضمار؛ أى لا تتكلم فيه نفس إلا بالمؤذون فيه من حسن الكلام؛ لأنهم ملجئون إلى ترك القبيح . وقيل: المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه . وقيل: إن لهم فى الموقف وقتا يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه . وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد فى الدِّين . فيقول لِمَ قال : « لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » و « هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »[1] . وقال فى موضع من ذكر القيامة : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »[2] . وقال : « يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا »[3] . وقال : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ »[2] . وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ »[4] . والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضا ، وطرح بعضهم الذنوب على بعض ؛ فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا؛ وهذا كما تقول للذى يخاطبك كثيرا ، وخطابه فارغ عن

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٦٤ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٧٣ فما بعد . فى الأصول « يتلاومون » وليست فى المعنى المراد هنا . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٣ . (٤) راجع جـ ١٧ ص ١٧٣ .

الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء، فسمي من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم . وقال: قوم : ذلك اليــوم طويل، وله مواطن ومواقف فى بعضها يمنعون من الكلام، وفى بعضها يطلق لهم الكلام؛ فهــذا يدلّ على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه . ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أى من الأنفس، أو من الناس؛ وقــد ذكرهم فى قوله : « يَوْمٌ مَجْمُــوعٌ لَهُ النَّاسُ » . والشقى الذى كتبت عليه الشّقاوة . والسّعيد الذى كتبت عليه السّعادة؛ قال لَبِيد :

فمنهم سعيدٌ آخذ بنصيبه * ومنهم شَقيٌّ بالمعيشةِ قانع

وروى الترمذى عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لمـا نزلت هذه الآية «فَمِنْهُـمْ شَقِيٌّ وَسَـعِيدٌ» سألت رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت؛ يانبى الله فعلامَ نعمل؟ على شيء قد فُرغ منه، أو على شيء لم يُفرَغ منه ؟ فقال : "بل على شيء قد فُرغ منه وجرت به الأقلامُ ياعُمر ولكن كل مُيسّر لمـا خُلِق له". قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر؛ وقد تقدم فى « الأعراف[1] » .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شُقُوا ﴾ ابتداء . ﴿ فَفِي النَّارِ ﴾ فى موضع الخبر، وكذا ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال أبو العالية : الزّفير من الصدر، والشهيق من الحلق؛ وعنه أيضا ضد ذلك . وقال الزجاج : الزّفير من شدة الأنين، والشّهيق من الأنين المرتفع جدا؛ قال : وزعم أهل اللغــة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير فى النّهيق، والشّهيق بمنزلة [آخر] صـوت الحمار فى النّهيق . وقال ابن عباس رضى الله عنه عكسه؛ قال : الزفير الصوت الشديد، والشّهيق الصوت الضعيف . وقال الضحاك ومقاتل : الزفير مثــل أول نهيق الحمار، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته؛ قال الشاعر[2] :

حَشْرَجَ فى الجوفِ سَحِيلًا[3] أو شَهَقْ * حتى يُقـالَ ناهــقٌ وما نَهَـقْ

وقيل : الزّفير إخراج النفَس، وهو أن يمتلىء الجوف غمّاً فيخرج بالنفس، والشّهيق ردّ النفَس وقيل : الزفير ترديد النفَس من شدّة الحزن؛ مأخوذ من الزّفْر وهو الحَمْـل على الظهر لشدّته؛

---

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٤ . (٢) هو العجاج والبيت من قصيدة له يصف فيها المفازة مطلعها :

وقاتم الأعماق خاوى المخترق * مشتبه الأعلام لماع الخفق

(٣) فى ع : فى الصدر ، والسحيل : الصوت الذى يدور فى صدر الحمار .

والشهيق النفس الطويل الممتد ؛ مأخوذ من قولهم : جبــل شاهق ؛ أى طويل[1] . والزفـير والشهيق من أصوات المحزونين .

قوله تعــالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ « مَا دَامَتِ » فى موضع نصب على الظـرف ؛ أى دوام السموات والأرض ، والتقـدير : وقت ذلك . واختلف فى تأويل هذا ؛ فقالت طائفة منهم الضحاك : المعنى ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما والسماء كل ما علاك فأظلك ، والأرض ما استقر عليــه قدمك ؛ وفى التنزيل : « وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ »[2] . وقيل : أراد به السماء والأرض المعهودتين فى الدنيا وأجرى ذلك على عادة العرب فى الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده ؛ كقولهم : لا آتيك ما جَنَّ ليــل ، أو سال سيلٌ ، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض ، ونحو هذا مما يريدون به طولا من غير نهاية؛ فأفهمهم الله تخليد الكفرة بذلك . وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض . وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش، وأن السموات والأرض فى الآخرة تردّان إلى النور الذى أخذتا منه؛ فهما دائمتان أبدا فى نور العرش .

قوله تعــالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فى موضع نصب ؛ لأنه استثناء ليس من الأول ؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة : الأولى — أنه استثناء من قوله : « فَفِي النَّارِ » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهــذا قول رواه أبو نَضْرة عن أبى سعيد الخُدْرى وجابر رضى الله عنهما . وإنما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العــدد لا الأشخاص ؛ كقوله : « مَا طَابَ لَكُمْ »[3] . وعن أبى نَضْرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شقوا بالمعصية » . الثــانى — أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين فى إخراجهم بعد مدّة من النار؛ وعلى هذا يكون قوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ شُقُوا » عاما فى الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من « خَالِدِينَ » ؛ قاله قتادة والضّحاك وأبو سِـنان وغيرهم . وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يدخل ناس

---

(١) قال فى النهاية : شاهق عال .　(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٤ .　(٣) راجع جـ ٥ ص ١٢ .

جهنم حتى إذا صاروا كالحُمَمة[1] أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون" وقد تقدّم هذا المعنى فى « النساء »[2] وغيرها . الثالث — أن الاستثناء من الزّفير والشّهيق؛ أى لهم فيها زفير وشهيق إلا ما شـاء ربك من أنواع العذاب الذى لم يذكره ، وكذلك لأهل الجنـة من النعيم ما ذكر، وما لم يذكر . حكاه ابن الأنبارى . الرابع — قال ابن مسعود : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدد خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر والاستثناء له فى الأكل، وتجديد الخلق . الخامس — أن « إلا » بمعنى « سوى » كما تقول فى الكلام : ما معى رجل إلّا زيد، ولى عليك ألفا درهم إلا الألف التى لى عليك[3] . قيل : فالمعنى ما دامت السموات والأرض سـوى ما شاء ربك من الخلود . السادس — أنه استثناء من الإخراج، وهو لا يريد أن يخرجهم منها . كما تقول فى الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعل ؛ فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم، ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها، ذكر هذين القولين الزّجاج عن أهل اللغة ، قال : ولأهل المعانى قولان آخران، فأحد القولين : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَـاءَ رَبُّكَ » من مقـدار موقفهم على رأس قبورهم ، وللمحاسبة ، وقدر مكثهم فى الدنيا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب . والقول الآخر — وقوع الاستثناء فى الزيادة على النعيم والعـذاب ، وتقديره : « خَالِدِينَ فِيهَـا مَا دَامَتِ السَّـمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العـذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء فى الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المعهودتين فى الدنيا واختاره[4] الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمـد بن على ، أى خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض ، وذلك مدّة العـالم ، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيـه ، وهو قوله سبحانه : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ »[5] فخلق الله سبحانه الآدميين وعاملهم، واشترى منهم أنفسهم

---

(١) الحمم : الرماد والفحم وكل ما احترق من النار، والواحدة حمة . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٣٢

(٣) وعبارة البحر : لى عندك ألفا درهم إلا الألف التى كنت أسلفتك بمعنى سوى تلك الألف .

(٤) يلاحظ أنه لم يذكر المصنف السابع ولعله هو هذا . (٥) راجع ص ٣٨٢ من هذا الجزء .

وأموالهم بالجنة، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق، فمن وفّى بذلك العهد فله الجنة، ومن ذهب برقبته يخلّد فى النار بمقدار دوام السموات والأرض ؛ فإنما دامتا للعاملة ؛ وكذلك أهل الجنة خلود فى الجنة بمقدار ذلك؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع فى مشيئة الله؛ قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (١) » فيخلّد أهل الدارين بمقدار دوامهما ، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة؛ ثم أوجب لهم الأبد فى كلتا الدارين لحقّ الأحديّة، فمن لقيه موحّدا لأحديته بقى فى داره أبدا، ومن لقيه مشركا بأحديّته إلها بقى فى السجن أبدا؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود، ثم قال : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من زيادة المـدّة التى تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لهـا ؛ فبالاعتقاد دام خلودهم فى الدارين أبدا . وقد قيل : إن « إلا » بمعنى الواو ، قاله الفراء وبعض أهـل النظر وهو — الثـامن — والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة فى الخلود على مدّة دوام السموات والأرض فى الدنيا . وقد قيل فى قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا (٢) » أى ولا الذين ظلموا . وقال الشاعر (٣) :

وكلُّ أخٍ مفـارقُه أخـوه　*　لعَمرُ أبيـكَ إلا الفـرْقَدان

أى والفرقدان . وقال أبو محمد مكىّ : وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون « إلا » بمعنى الواو ، وقد مضى فى « البقـرة (٢) » بيانه . وقيل : معناه كما شـاء ربك ؛ كقوله تعـالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ (٤) » أى كما قد سلف ، وهو — التاسع ، العـاشر — وهو أن قوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إنما ذلك على طريق الاستثناء الذى ندب الشرع إلى استعماله فى كل كلام؛ فهو على حدّ قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (١) » فهو استثناء فى واجب ، وهذا الاستثناء فى حكم الشرط كذلك؛ كأنه قال : إن شـاء ربك، فليس يوصف بمتصل ولا منقطع ؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » ونحـوه عن أبى عُبيد قال : تقـدّمت عزيمة المشـيئة من الله تعـالى فى خلود

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٤٧ وص ٢٨٩ .　(٢) راجع جـ ٢ ص ١٢٨ .　(٣) البيت لعمرو ابن معدى كرب . وقيل : هو لحضرمى بن عامر . ويجوز أن تكون « إلا » هنا بمعنى غير . قال سيبويه : كأنه قال وكل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه ، فقد نعت « كلا » بها .　(٤) راجع جـ ٥ ص ١٠٣ .

الفريقين فى الدارين ؛ فوقع لفظ الاستثناء ، والعزيمة قد تقدّمت فى الخلود ، قال : وهذا مثل قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » وقد علم أنهم يدخلونه حتما، فلم يوجب الاستثناء فى الموضعين خيارا؛ إذ المشيئة قد تقدّمت بالعزيمة فى الخلود فى الدارين والدخول فى المسجد الحرام ؛ ونحوه عن الفراء . وقول — حادى عشر — وهو أن الأشقياء هم السعداء ، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم ، والاستثناء فى الموضعين راجع إليهم ؛ وبيانه أن « ما » بمعنى «من» استثنى الله عز وجل من الداخلين فى النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما معهم من الإيمان ، واستثنى من الداخلين فى الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة . وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثانى؛ كأنه قال تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » ألا يخلده فيها ، وهم الخارجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وبشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء ؛ كما روى الضحّاك عن ابن عباس إذ قال : الذين سعِدوا شَقُوا بدخول النار ثم سعِدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة .

وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائى « وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا » بضم السين . وقال أبو عمرو : والدليل على أنه سَعِدوا أن الأول شَقُوا ولم يقل أشقوا . قال النحاس : ورأيت علىّ بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائىّ « سُعِدوا» مع علمه بالعربية ! إذ كان هذا لحنا لا يجوز ؛ لأنه إنما يقال : سَعِد فلان وأسعده الله ، وأسعد مثل أمرِض ؛ وإنما احتج الكسائى بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه ؛ لأنه يقال : مكان مسعود فيه ، ثم يحذف فيه ويسمى به . قال المهدوى : ومن ضمّ السين من « سعدوا » فهو محمول على قولهم : مسعود وهو شاذ قليل؛ لأنه لا يقال : سعده الله، إنما يقال : أسعده الله . وقال الثعلبى : «سُعِدوا» بضم السين أى رزقوا السعادة؛ يقال : سُعِد وأسعِد بمعنى واحد وقرأ الباقون «سَعدوا» بفتح

السين قياسا على « شَقُوا » واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقال الجوهرى : والسعادة خلاف الشّقاوة ؛ تقول : منـه سَعِد الرجل بالكسر فهو سعيد ، مثل سَلِم فهـو سليم ، وسُعد فهو مسعود ؛ ولا يقال فيه : مُسْعَد ، كأنهم آستغنوا عنه بمسعود . وقال القشيرى أبو نصر عبد الرحيم : وقد ورد سَعَده الله فهو مسعود ، وأسعده الله فهو مسعَد ؛ فهذا يقوى قول الكوفيين . وقال سيبويه : لا يقال سُعِد فلان كما لا يقال شُقى فلان ؛ لأنه مما لا يتعدى . ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أى غير مقطوع ؛ من جذّه يجُذُّه أى قطعه ؛ قال النابغة :

تَجذُّ السَّلُوقِيَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ * وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ (١)

قوله تعالى : ﴿فَلَا تَكُ﴾ جزم بالنهى ، وحذفت النون لكثرة الاستعمال . ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ أى فى شك . ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ من الآلهة أنها باطل . وأحسن من هذا : أى قل يا محمد لكل من شك « لَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلَاءِ » أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنمـا يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليدا لهم . ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها — نصيبهم من الرزق ؛ قاله أبو العالية . الثانى — نصيبهم من العذاب ؛ قاله آبن زيد . الثالث — ما وُعِدوا به من خير أو شر ؛ قاله آبن عباس رضى الله عنهما .

قوله تعـالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ج وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ج وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ الكلمة : أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لمـا علم فى ذلك من الصـلاح ؛ ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر . قيل : المراد بين المختلفين فى كتاب موسى ؛ فإنهم كانوا بين مصدّق [به] (٢) ومكذّب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب ، ولكن

(١) البيت للنابغة الذبيانى يصف فيه السيوف . ويروى (تقد — ويوقدن) . والسلوق : الدرع المنسوب إلى سلوق ؛ قرية باليمن . والمضاعف : الذى نسـج حلقتين . والصفاح : الحجارة العـراض . والحباحب : ذباب له شعاع بالليل ، وقيل : نار الحباحب ما اقتدح من شرر النار فى الهواء بتصادم حجرين .

(٢) من ا و و ى .

سبق الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ إن حملت على قوم موسى ؛ أى لفى شك من كتاب موسى فهم فى شك من القرآن .

قوله تعـالى : وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى إن كلا من الأمم التى عددناهم يرون جزاء أعمالهم ؛ فكذلك قومك يا محمد . وآختلف القراء فى قراءة ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا﴾ فقرأ أهل الحرمين — نافع وآبن كثير وأبو بكر معهم — « وَإِنْ كُلًّا لَمَا » بالتخفيف، على أنها « إن » المخففة من الثقيلة معملة ؛ وقد ذكر هـذا الخليل وسيبويه ، قال سيبويه : حدثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول : إن زيدا لمنطلقٌ ؛ وأنشد قول الشاعر[1] :

* كأنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى وَارِقِ السَّلَمْ *

أراد كأنها ظبية فخفّف ونصب ما بعـدها ؛ والبصريون يجوزون تخفيف « إنّ » المشدّدة مع إعمالها ؛ وأنكر ذلك الكسائى وقال : ما أدرى على أى شىء قرئ « وَإِنْ كُلًّا » ! وزعم الفراء أنه نصب « كلّا » فى قراءة من خفف بقوله : « لَيُوفينهم » أى وإن ليوفينهم كلًّا ؛ وأنكر ذلك جميع النحويين، وقالوا : هذا من كبير الغلط؛ لا يجوز عند أحد زيدا لأضربنه[2]. وشدّد الباقون «إنّ» ونصبوا بها « كلّا » على أصلها . وقرأ عاصم وحمزة وآبن عامر «لمّا» بالتشديد . وخففها الباقون على معنى : وإن كلا ليوفينهم ، جعلوا « ما » صـلة . وقيل : دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم ، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بـ « ما » . وقال الزجاج : لام «لمـا» لام «إنّ» و «ما» زائدة مؤكدة؛ تقول : إن زيدا لمنطلق؛ فإنّ

(١) هو : آبن صريم اليشكرى ؛ وصدر البيت :

* ويوما توافينا بوجه مقسم *

يجوز نصب الظبية بكأن تشبيها بالفعل إذا حذف وعمل ، والخبر محذوف لعـلم السامع . ويجوز جر الظبية على تقدير : كظبية ، وأن زائدة مؤكدة .

(٢) قال الطبرى : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بعد لام اليمين آسما قبلها .

تقتضى أن يدخل على خبرها أو آسمها لام كقولك : « إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »، وقوله : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ »[١] . واللام فى « ليوفينهم » هى التى يُتَلَقى بها القسم، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشدّدة أو المخففة؛ ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ « ما » و « ما » زائدة مؤكدة، وقال الفراء : « ما » بمعنى « من » كقوله : « وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ »[٢] أى وإنّ كلا لمن ليوفينهم، واللام فى «ليوفينهم» للقسم؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج، غير أن « ما » عند الزجاج زائدة وعند الفراء آسم بمعنى « من » . وقيل : ليست بزائدة، بل هى آسم دخل عليها لام التأكيد، وهى خبر «إن» و «ليوفينهم» جواب القسم، التقدير: وإنّ كلا خَلْق ليوفينهم ربك أعمالهم . وقيل : « ما » بمعنى « من » كقوله : « فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ »[٢] أى مَنْ؛ وهذا كله هو قول الفراء بعينه . وأما من شدّد « لمّا » وقرأ « وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا » بالتشديد فيهما — وهو حمزة ومن وافقه — فقيل : إنه لحن؛ حكى عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز؛ ولا يقال : إنّ زيدا إلّا لأضربنّه، ولا لمّا لضربته . وقال الكسائى : الله أعلم بهذه القراءة، وما أعرف لها وجها . وقال هو وأبو على الفارسى : التشديد فيهما مشكل . قال النحاس وغيره : وللنحويين فى ذلك أقوال : الأول — أن أصلها « لمن ما » فقلبت النون ميما ، واجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى فصارت « لمّا » و « ما » على هذا القول بمعنى « من » تقديره : وإن كلا لمن الذين؛ كقولهم :

وإنّى لَمَّا أُصْدِرُ الأمرَ وجهَهُ * إذا هو أَعْيَا بالسَّبِيلِ مَصَادِرُه

وزيّف الزجاج هذا القول، وقال : « من » آسم على حرفين فلا يجوز حذفه . الثانى — أن الأصل لِمن ما، فحذفت الميم المكسورة لأجتماع الميمات، والتقدير: وإنّ كُلًّا لِمَنْ خَلْقٍ ليوفينهم . وقيل : «لمّا» مصدر « لَمَّ » وجاءت بغير تنوين حملا للوصل على الوقف؛ فهى على هذا كقوله : « وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا »[٣] أى جامعا للمال المأكول؛ فالتقدير على هذا : وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لمّا؛ أى جامعة لأعمالهم جمعا، فهو كقولك : قياما لأقومنّ . وقد قرأ الزهرى « لمًّا » بالتشديد والتنوين على هذا المعنى . الثالث —

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٥ . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٢٥ ، وص ١٢ . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٥٢ .

أن « لمّـا » بمعنى « إلّا » حكى أهـل اللغة : سألتك بالله لمّـا فعلت ؛ بمعنى إلّا فعلت ؛ ومثله قوله تعالى : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّـا عَلَيْهَا حَـافِظٌ » [1] أى إلا عليها ؛ فمعنى الآية : ما كل واحد منهـم إلا ليوفينهم ؛ قال القُشيرى : وزيّف الزجاج هـذا القول بأنه لا نفى لقوله : « وإنْ كلّا لمـا » حتى تقـدر « إلا » ولا يقـال : ذهب الناس لمـا زيد . الرابع — قال أبو عثمان المـازنى : الأصل وإن كلّا لَمَـا بتخفيف « لَمَـا » ثم ثقلت كقوله [2] :

لقد خَشِيتُ أَنْ أَرى جَدَبًّا * فى عامِنَا ذا بعدَ ما أَخْصَبًّا

وقال أبو إسحاق الزجاج : هذا خطأ ! إنمـا يخفّف المثقل، ولا يثقّل المخفّف . الخامس — قال أبوعبيد القاسم بن سلّام : يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّه لَمًّـا إذا جمعته، ثم بنى منه فَعْلَى، كما قرئ « ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى » [3] بغير تنوين و بتنوين . فالألف على هـذا للتأنيث ، وتمال على هـذا القول لأصحاب الإمالة ؛ قال أبو إسحاق : القول الذى لا يجوز غيره عندى أن تكون مخففة من الثقيلة ، وتكون بمعنى « ما » مثل : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّـا عَلَيْهَا حَافِظٌ » وكذا أيضا تشدّد على أصلها، وتكون بمعنى « ما » و « لمـا » بمعنى « إلا » حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين ؛ وأن « لمـا » يستعمل بمعنى « إلا » قلت : هـذا القول [الذى [4]] ارتضاه الزجاج [5] حكاه عنـه النحاس وغيره؛ وقد تقدم مثله وتضعيف الزجاج له ، [6] إلا أن ذلك القول صوابه « إنْ » فيه نافية، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا و بقيت قراءتان ؛ قال أبو حاتم : وفى حرف أُبَى : « وَإِنْ كُلٌّ إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ » [7] و روى عن الأعمش « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّـا » بتخفيف « إن » ورفع « كل » و بتشديد « لمـا » . قال النحاس : وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيهـا « إنْ » بمعنى « ما » لا غير، وتكون على التفسير ؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة . ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديد ووعيد .

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٣ . (٢) البيت لرؤبة . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٢٤ . (٤) من و و ى .
(٥) من أ و جـ و و . (٦) وردت العبارة الآتية بإحدى النسخ تصويبا لعبارة القرطبى، ومذيلة بكلمة (حاشية) : (صواب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول : إلا أن هذا القول « إن » فيه نافية والقول المتقدم « إن » فيه مخففة من الثقيلة فافترقا) . (٧) فى ى : و إن كلا إلا ليوفينهم . وفى الشواذ : و إن كل بفتح الكاف وتخفيف اللام لمـا .

قوله تعـالى : فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

قوله تعـالى : ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره . وقيل : له والمراد أمته ؛ قاله السدى . وقيل : «ٱسْتَقِمْ» ٱطلب الإقامة على الدين من الله وٱسأله ذلك . فتكون السين سين السؤال ، كما تقول : أستغفر الله أطلب الغفران [منه][1] . والاستقامة الاستمرار فى جهة واحدة من غير أخذ فى جهة اليمين والشمال ؛ فاستقم على امتثـال أمر الله . وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسـلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعـدك ! قال : " قل آمنت بالله ثم اسـتقم " . وروى الدارمى أبو محمد فى مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدى قال : دخلت على ابن عباس فقلت أوصنى ! فقال : نعم ! عليك بتقوى الله والاستقامة ، اتبع ولا تبتدع . ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أى استقم أنت وهم ؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومَن بعده ممن اتبعه من أمته . قال ابن عباس ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هى أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب ! فقال : " شيبتنى هود وأخواتها " . وقد تقـدّم فى أول السورة . وروى عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِى قال سمعت أبا على السَّرِى[2] يقول : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت : يارسول الله! روى عنك أنك قلت : " شيبتنى هود " . فقال : " نعم " فقلت له : ما الذى شيّبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم ! فقال : " لا ولكن قوله : فاستقم كما أمرت " . ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ نهى عن الطغيان والطغيان مجاوزة الحـد ؛ ومنه «إِنَّا لَمَّـا طَغَى الْمَـاءُ»[3] . وقيل : أى لا تتجبروا على أحد .

قوله تعـالى : وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

---

(١) من ا . (٢) فى الأصل (الشنوى) وصوب عن (الدر المنثور) .
(٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٢ .

فيــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به ، قال قتادة : معناه لا تودّوهم ولا تطيعوهم . ابن جريج : لا تميلوا إليهم . أبو العاليــة : لا ترضوا أعمالهم ؛ وكله متقــارب . وقال ابن زيد : الركون هنــا الإدهان[١] وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم .

الثانيــة — قرأ الجمهور: « تَرْكَنُوا » بفتح الكاف ؛ قال أبوعمرو : هي لغة أهل الحجاز . وقرأ طلحة بن مُصرِّف وقتادة وغيرهما : « تركُنوا » بضم الكاف ؛ قال الفراء : وهي لغة تميم وقيس . وجوز قوم رَكَن يركَن مثل منَع يمنَع[٢] .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قيل : أهل الشرك . وقيــل : عامة فيهم وفى العصاة ، على نحو قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا[٣] » الآية . وقد تقدّم . وهذا هو الصحيح فى معنى الآية ؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصى من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودّة ؛ وقد قال حكيم[٤] :

عن المرء لا تَسأل وسَلْ عن قَرينه ❊ فكلُّ قــرينٍ بالمُقارن يَقتَـدِى

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتَقِيّة فقد مضى القول فيها فى « آل عمران[٥] » و « المـائدة[٣] » . وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهى بحال الاضطرار . والله أعلم .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ أى تحرقكم . بمخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على إعراضهم[٦] وموافقتهم فى أمورهم .

قوله تعالى : وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

---

(١) الإدهان : المصانعة . (٢) والآية من باب تعب . (٣) راجع جـ ٦ ص ١٢ ، وجـ ٥ ص ٤١٧ ، وص ٢١٧ . (٤) هــو طرفة بن العبد . (٥) راجع جـ ٤ ص ٥٧ . (٦) فى ى : أغراضهم وموافقتهم .

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ؛ وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان ، وإليها يفزع في النوائب ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه[1] أمر فزع إلى الصلاة .

وقال شيوخ الصوفية : إن المراد بهذه الآية استغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا ؛ قال ابن العربي : وهذا ضعيف ، فإن الأمر لم يتناول ذلك إلا واجبا لا نفلا[2] ، فإن الأوراد معلومة ، وأوقات النوافل المرغّب فيها محصورة ، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها الندب على البدل لا على العموم ، وليس ذلك في قوة بشر .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ قال مجاهد : الطرف الأول صلاة الصبح ، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر ؛ واختاره ابن عطية . وقيل : الطرفان الصبح والمغرب ؛ قاله ابن عباس والحسن . وعن الحسن أيضا : الطرف الثاني العصر وحده ؛ وقاله قتادة والضّحاك . وقيل : الطّرفان الظهر والعصر . والزُّلَف المغرب والعشاء والصبح ؛ كأن هذا القائل راعى جهر القراءة . وحكى الماوردي أن الطرف الأول صلاة الصبح باتفاق .

قلت : وهذا الاتفاق ينقصه القول الذي قبله . ورجح الطّبري أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر ؛ قال ابن عطية : ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل . قال ابن العربي : والعجب من الطبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليل ! فقلب القوس ركوة[3] ، وحاد عن البرجاس[4] غلوة ؛ قال الطبري : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ، ولم يجمع معه على ذلك أحد .

---

(١) (حزبه) : نزل به مهم ، أو أصابه غم .

(٢) كذا في ع و و . والذي في ابن العربي : لم يتناول ذلك لا واجبا فإنها خمس صلوات ولا نفلا .

(٣) لفظ المثل كما في الصحاح وغيره (صارت القوس ركوة) و يضرب في الإدبار وانقلاب الأمور .

(٤) البرجاس (بالضم) : غرض على رأس رمح أو نحوه مولد . والغلوة : قدر رمية بسهم .

قلت: هذا تحامل من آبن العربي في الرد، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد، وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح؛ وقد وقع الاتفاق — إلا من شذّ — بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمدا أن يومه ذلك يوم فطر، وعليه القضاء والكفارة، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار ؛ فدلّ على صحة ما قاله الطّبرى فى الصبح ، وتبقى عليه المغرب والرّد عليه فيه ما تقدّم . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أى فى زُلَف من الليل ، والزّلف الساعات القريبة بعضها من بعض ؛ ومنه سميت المُزْدلِفَة؛ لأنها منزل بعد عرَفة بقرب مكة . وقرأ ابن القَعْقاع وابن أبى إسحاق وغيرهما «وزُلُفًا» بضم اللام جمع زَلِيف؛ لأنه قد نطق بزليف، ويجوز أن يكون واحده «زُلُفة» لغة؛ كبُسْرة و بُسُر، فى لغة من ضمّ السين. وقرأ آبن محيصن «وزُلْفًا» من الليل بإسكان اللام، والواحدة زُلْفة تجمع جمع الأجناس التى هى أشخاص كدرّة ودُرّ و بُرّة و بُرّ . وقرأ مجاهد وآبن محيصن أيضا «زُلْفَى» مثل قُربى . وقرأ الباقون «وزُلَفًا» بفتح اللام كغُرْفة وغُرَف . قال ابن الأعرابى : الزّلف الساعات ، واحدها زُلْفَة . وقال قوم : الزّلفة أوّل ساعة من الليل بعد مغيب الشمس ؛ فعلى هذا يكون المرادُ بزلف الليل صلاة العَتَمة ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء . وقيل : المغرب والعشاء والصبح ؛ وقد تقدّم . وقال الأخفش : يعنى صلاة الليل ولم يعين .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين [رضى الله عنهم أجمعين][1] إلى أن الحسنات ها هنا هى الصلوات الخمس وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، قال آبن عطية : وهذا على جهة المثال فى الحسنات، والذى يظهر أن اللفظ عام فى الحسنات خاص فى السيئات ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " ما آجتنبت الكبائر " .

قلت : سبب النزول يعضد قول الجمهور ؛ نزلت فى رجل من الأنصار ، قيل : هو أبو اليَسَر بن عمرو . وقيل : آسمه عبّاد ؛ خلا بامرأة فقبّلها وتلذذ بها فيما دون الفرج . روى

(١) من ك .

الترمذى عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنى عالجت آمرأة فى أقصى المدينة و إنى أصبت منها ما دون أن أمسّها وأنا هذا فاقض فىّ ما شئت . فقال له عمر : لقد سترك الله ! لو سترت على نفسك؛ فلم يردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه ، فتلا عليه : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » إلى آخر الآية؛ فقال رجل من القوم : هذا له خاصة؟ قال: "[لا] (١) بل للناس كافة". قال الترمذى : حديث حسن صحيح. وخرّج أيضا عن آبن مسعود أن رجلا أصاب من آمرأة قُبلةَ حرامٍ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فنزلت : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » فقال الرجل : ألِي هـذه يارسول الله ؟ فقال : "لك ولمن عمل بها من أمتى" . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن أبى اليَسَر قال: أتتنى آمرأة تبتاع تمرا فقلت : إن فى البيت تمرا أطيب من هذا، فدخلت معى فى البيت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : آستر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر ، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : آستر على نفسك وتُبْ ولا تخبر أحدا فلم أصبر،فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال: "أَخَلَفْتَ غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا" ؟ حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه «أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ» . قال أبو اليَسَر: فأتيته فقرأها علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يارسول الله ! ألهذا خاصة أم للناس عامة؟فقال: "بل للناس عامة". قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب (٢)، وقيس بن الربيع ضعّفه وَكِيعٌ وغيره؛ وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعرض عنه ، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له : "أشهدت معنا

---

(١) الزيادة عن الترمذى . (٢) الذى فى صحيح الترمذى (صحيح) بدل (غريب) .

الصلاة "؟ قال نعم ؛ قال : "اذهب فإنها كفارة لما فعلت" . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تلى عليه هذه الآية قال له : " قم فصل أربع ركعات " . والله أعلم . وخرّج الترمذى الحكيم فى «نوادر الأصول» من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم، «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ» " .

الخامسة — دلّت الآية مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللّمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ ، وقد يستدلّ به على أن لا حدّ ولا أدب على الرجل والمرأة و إن وُجدا فى ثوب واحد ، وهو اختيار ابن المنذر؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء فى هذه المسألة ذكر هذا الحديث مشيرا إلى أنه لا يجب عليهما شيء، وسيأتى ما للعلماء فى هذا فى « النور »[1] إن شاء الله تعالى .

السادسة — ذكر الله سبحانه فى كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ » الآية . وقال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ »[2] الآية . وقال : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ »[3] . وقال : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا »[4] . وقال : « ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا » . وقال : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ »[5]. وقال : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا »[6] على ما تقدم . وقال : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا »[2] أى بقراءتك ؛ وهذا كله مجمل أجمله فى كتابه ، وأحال على نبيه فى بيانه ؛ فقال جل ذكره : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[2] فبيّن صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة، وعدد الركعات والسّجدات ، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها، وما لا تصح [الصلاة][7] إلا به من الفرائض وما يستحب فيها من السنن والفضائل ؛ فقال فى صحيح البخارى : " صلّوا كما رأيتمونى أصلى " . ونقل ذلك عنه الكافّة عن الكافة ، على ما هو معلوم ، ولم

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٦١ وص ٩٨ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٣ وص ٣٤٣ وص ١٠٨ .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ١٤ . (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٦٠ . (٥) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ .
(٦) راجع جـ ٧ ص ٣٥٣ . (٧) من أ و ع .

يمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى بيّن جميع ما بالناس الحاجة إليـه ؛ فكمل الدِّين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعـالى : « اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ أى القـرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهـم المنتفعون بالذكرى . والذكرى مصـدر جاء بألف التأنيث .

قوله تعـالى : وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ أى على الصلاة؛ كقوله : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا »(٢) . وقيـل : المعنى وآصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعنى المصلين .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ ﴾ أى فهلّا كان . ﴿ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى من الأمم التى قبلكم . ﴿ أُولُو بَقِيَّةٍ ﴾ أى أصحاب طاعة ودين وعقل و بصر . ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ قومهم . ﴿ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ لمـا أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات؛ وهـذا توبيخ للكفار . وقيل : لولا هاهنا للنفى ؛ أى ما كان من قبلكم ؛ كقوله : « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ »(٣) أى ما كانت . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ استثناء منقطع ؛ أى لكن قليلا . ﴿ مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ نهوا عن الفساد فى الأرض . قيل : هم قوم يونس؛ لقوله : « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » . وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق . ﴿ وَٱتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى أشركوا وعصوا . ﴿ مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ أى من الاشتغال بالمـال واللذات، وإيثار ذلك على الآخرة . ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ .

---

(١) راجع ج ٦ ص ٦١ .　(٢) راجع ج ١١ ص ٢٦٣ .　(٣) راجع ج ٨ ص ٣٨٣ .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ أى أهل القرى . ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أى بشرك وكفر . ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أى فيما بينهم فى تعاطى الحقوق ؛ أى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليـه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان ، وقوم لوط باللواط ؛ ودلّ هـذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيـا من الشّرك ، و إن كان عذاب الشّرك فى الآخرة أصعب . وفى صحيح الترمذىّ من حديث أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده ". وقد تقدّم(١) . وقيـل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلما لهم ونقصا من حقهـم ، أى ما أهلك قوما إلا بعـد إعذار و إنذار . وقال الزّجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمــه و إن كان على نهاية الصلاح؛ لأنه تصرف فى ملكه؛ دليله قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا(٢) » . وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال سعيد بن جُبير : على ملّة الإسلام وحدها . وقال الضّحاك : أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى . ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ أى على أديان شتى؛ قاله مجاهد وقتادة . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ استثناء منقطع ؛ أى لكن من رحم ربك بالإيمان والهـدى فإنه لم يختلف . وقيل : مختلفين فى الرزق ، فهذا

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٤٢ فـا بعدها . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٤٦ .

غنيّ وهذا فقير. «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» بالقناعة؛ قاله الحسن. ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء [ويمان](١): الإشارة للاختلاف؛ أي وللاختلاف خلقهم. وقال ٱبن عباس ومجاهد وقَتادة والضّحاك: ولرحمته خلقهم؛ وإنما قال: «وَلِذَٰلِكَ» ولم يقل ولتلك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضا فإن تأنيث الرحمة غير حقيقي، فحملت على معنى الفضل. وقيل: الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة، وقد يشار بـ «ذلك» إلى شيئين متضادين؛ كقوله تعالى: «لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ»(٢) ولم يقل بين ذينك ولا تينك، وقال: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا»(٣) وقال: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا»(٤) وكذلك قوله: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا»(٥) وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم، أي ولما ذُكر خَلَقهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب: سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير؛ أي خلَق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة. وروى عن ٱبن عباس أيضا قال: خَلَقهم فريقين، فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه. قال المهدويّ: وفي الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير؛ المعنى: ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم. وقيل: هو متعلق بقوله: «ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» والمعنى: ولشهود ذلك اليوم خلقهم. وقيل: هو متعلق بقوله: «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ» أي للسّعادة والشّقاوة خلقهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ معنى «تمت» ثبت ذلك كما أخبر وقدّر في أزله؛ وتمام الكلمة ٱمتناعها عن قبول التغيير والتبديل. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ «مِن» لبيان الجنس؛ أي من جنس الجنة وجنس الناس. «أجمعين» تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه [صلى الله عليه وسلم](٦) أنه يملأ جنته بقوله: "ولكل واحدة منكما ملؤها". خرجه البخاريّ من حديث أبي هريرة وقد تقدّم.

---

(١) من ع، ا، و، ى. (٢) راجع جـ ١ ص ٤٤٨. (٣) راجع جـ ١٣ ص ٧٢.
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٣. (٥) راجع جـ ٨ ص ٣٥٣. (٦) من ع.

قوله تعـالى : وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ « كُلًّا » نصب بـ« نقص » معناه وكلّ الذى تحتاج إليه من أنباء الرسل نقصّ عليك . وقال الأخفش : « كُلًّا » حال مقدّمة، كقولك : كُلًّا ضربت القـوم . ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ﴾ أى من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم . ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : نزيدك به تثبيتا ويقينا . وقال آبن عباس : ما نشـدّ به قلبك . وقال آبن جُريج : نُصبِّر به قلبك حتى لا تجزع . وقال أهـل المعانى : نُطيِّب، والمعـنى متقارب . و « ما » بدل من « كلا » المعنى : نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . ﴿ وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ أى فى هـذه السورة؛ عن آبن عباس وأبى موسى وغيرهما؛ وخصّ هـذه السورة لأنّ فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار . وقيل : خصّها بالذّكر تأكيدا وإن كان الحقّ فى كل القرآن . وقال قَتَادة والحسن : المعنى فى هذه الدنيـا، يريد النبوّة . ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الموعظة ما يُتّعظ به من إهلاك الأمم المـاضية، والقرون الخالية المكذبة؛ وهذا تشريف لهذه السّورة؛ لأن غيرها من السّور قد جاء فيها الحقّ والموعظة(١) والذّكرى ولم يقل فيها كما قال فى هذه على التّخصيص . « وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » أى يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون؛ وخصّ المؤمنين لأنهم المتّعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعـالى : وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

(١) فى ع : الواعظ .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ تهديد ووعيد . ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ تهديد آخر، وقد تقدّم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى غيبهما وشهادتهما ؛ فحذف لدلالة المعنى . وقال ابن عباس : خزائن السموات والأرض . وقال الضّحاك : جميع ما غاب عن العباد فيهما . وقال الباقون : غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض . وقال أبو على الفارسىّ : « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى عِلم ما غاب فيهما ؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعا ؛ لأنه حذف حرف الجر ؛ تقول : غبت فى الأرض وغبت ببلد كذا . ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ أى يوم القيامة ؛ إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه . وقرأ نافع وحفص « يُرْجَعُ » بضم الياء و بفتح الجيم ؛ أى يُرَد . ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أى ٱلجأ إليه وثِق به . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى يجازى كلا بعمله . وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة . الباقون بياء على الخبر . قال الأخفش سعيد : « يعملون » إذا لم يخاطب النبى صلى الله عليه وسلم معهم ؛ قال : بعضهم وقال : « تعملون » بالتاء لأنه خاطب النبى صلى الله عليه وسلم وقال : قل لهم « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » . وقال كعب الأحبار : خاتمة التوراة خاتمة « هود » من قوله : « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » إلى آخر السورة . تمت سورة « هود » ويتلوها سورة « يوسف » عليه السلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

ســـورة يوسف عليه السلام

وهى مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فنزلت السورة ؛ وسيأتى . وقال سعد ابن أبى وقاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو قصصت علينا ؛ فنزل : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو حدثتنا ؛ فأنزل : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ »(١) . قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء فى القرآن وكرّرها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكرّرها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ماتكرّر ، ولا على معارضة غير المتكرّر ، والإعجاز لمن تأمل .

قوله تعالى : الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓر ﴾ تقدّم القول فيه(٢) ؛ والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر . وقيل : « الٓر » اسم السورة ؛ أى هذه السورة المسماة « الر » ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى [بالكتاب المبين](٣) القرآن المبين ؛ أى المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه وهُداه و بركته . وقيل : أى هذه تلك الآيات التى كنتم توعدون بها فى التوراة .

قوله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربيا ؛ نصب « قرآنا » على الحال ؛ أى مجموعا . و « عربيّا » نعت لقوله « قرآنا » . ويجوز أن يكون توطئة للحال ، كما تقول : مررت بزيد رجلا صالحا ، و « عربيّا » على الحال ،

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٥٤ فما بعد . (٣) من ع .

أى يُقرأ بلغتكم يا معشر العرب . أَعْرَبَ بَيَّنَ ، ومنـه " الثَّيِّبُ تُعرِب عن نفسها " .
﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى لكى تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيـه . وبعض العـرب يأتى بأن مع « لعل » تشبيها بعسى . واللام فى « لعل » زائدة للتوكيد ؛ كما قال الشاعر(١) :

* يا أَبَتَـا عَلَّكَ أَوْ عَسَاكا *

وقيل : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لتكونوا على رجاء من تدبّره ؛ فيعود معنى الشّك إليهم لا إلى الكتاب، ولا إلى الله عز وجل . وقيل : معنى « أَنْزَلْنَاهُ » أى أنزلنا خبر يوسف ؛ قال النحاس : وهـذا أشبه بالمعنى؛ لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم آنتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ؛ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما فى التوراة ، وفيه زيادة ليست عندهم . فكان هذا للنبى صلى الله عليه وسلم — إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتابا [قطّ(٢)] ولا هو فى موضع كتاب — بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتى فيه .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ بمعنى المصدر، والتقدير : قصصنا أحسن القَصَص . وأصل القَصَص تتبع الشيء، ومنه قوله تعالى : « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ(٣) » أى تتبعى أثره؛ فالقاصّ يتبع الآثار فيخبر بها . والحسن يعود إلى القَصَص لا إلى القصّة . يقال : فلان حسن الاقتصاص للحديث أى جيّد السّياقة له . وقيل : القَصَص ليس مصدرا، بل هو فى معنى الآسم، كما يقال : الله رجاؤنا ، أى مرجوّنا فالمعنى على هذا : نحن نخبرك بأحسن الأخبار . ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى بوحينا ف «ما» مع الفعل بمنزلة المصدر . ﴿ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ نصب القرآن على أنه نعت لهذا، أو بدل منه، أو عطف بيان . وأجاز الفراء الخفض؛ قال : على التكرير؛ وهو عند البصريين على البدل من « ما » .

---

(١) الرجز للعجاج، وصدر البيت .

* تقول بنتى قد أنى أناكا *

(٢) من ع .　　(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٥٤ .

وأجاز أبو إسحاق الرفع على إضمار مبتدأ؛ كأن سائلا سأله عن الوحى فقيل له : هو [هـذا][١] القرآن . ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى من الغافلين عما عرّفناكه[١] .

مســئلة — وآختلف العلمـاء لِمَ سُميت هذه السورة أحسن القَصَص من بين سائر الأقاصيص ؟ فقيل : لأنه ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصّة؛ وبيانه قوله فى آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ »[٢] . وقيل : سماها أحسن القَصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم — بعد الإلتقاء بهم — عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه فى العفو عنهم ، حتى قال : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ »[٢] . وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين، والجنّ والإنس والأنعام والطّير، وسير الملوك والممالك، والتّجار والعلماء والجهّال، والرجال والنّساء وحِيلهنّ ومكرهنّ، وفيها ذكر التّوحيد والفقه والسِّيَر وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التى تصلح للدين والدنيا . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل : « أَحْسَنَ » هنا بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعانى : إنما كانت أحسن القَصَص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة؛ آنظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وآمرأة العزيز؛ قيل : والملك أيضا أسلم بيوسف وحسن إسلامه، ومستعبر الرؤيا الساقى، والشاهد فيما يقال؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ «إِذْ» فى موضع نصب على الظرف؛ أى آذكر لهم حين قال يوسف . وقراءة العامة بضم السين . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « يُؤْسِف » بالهمز وكسر السين . وحكى أبو زيد « يؤسَف » بالهمز وفتح السين . ولم ينصرف لأنه أعجمىّ؛ وقيل: هو عربىّ . وسئل أبو الحسن الأقطع — وكان حكيما — عن «يوسف» فقال: الأسف فى اللغة

(١) من ع ، ى . (٢) راجع ص ٢٧٧ و ص ٢٥٥ من هذا الجزء .

الحزن، والأسيف العبد، وقد آجتمعا في يوسف؛ فلذلك سمي يوسف . ﴿ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ ﴾ بكسر التاء قراءة أبي عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائي، وهي عند البصريين علامة التأنيث أدخلت على الأب في النداء خاصة بدلا من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التأنيث على المذكر فيقال : رجل نُكَحَة وهُزَأة؛ قال النحاس : إذا قلت « يَا أَبَتِ » بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل : منها — أن قولك : « يا أبه » يؤدّى عن معنى « يا أبي »؛ وأنه لا يقال: « ياأبت » إلا في المعرفة؛ ولا يقال : جاءني أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا في النداء خاصة، ولا يقال : « يا أبتي » لأن التاء بدل من الياء فلا يُجمع بينهما . وزعم الفراء أنه إذا قال : « يَا أَبَتِ » فكسر دلّ على الياء لا غير؛ لأن الياء في النية . وزعم أبو إسحاق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال : « يا أبتي » ؟ ! وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر « يا أبَتَ » بفتح التاء؛ قال البصريون : أرادوا « يا أبتي » بالياء، ثم أبدلت الياء ألفا فصارت « يا أبتا » فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء . وقيل : الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال : ياغلاما أقبل . وأجاز الفراء « يا أبتُ » بضم التاء . ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ ليس بين النحويين آختلاف أنه يقال : جاءني أحدَ عشَر، ورأيت ومررت بأحدَ عشر، وكذلك ثلاثةَ عشَر وتسعةَ عشَر وما بينهما؛ جعلوا الآسمين آسما واحدا وأعربوهما بأخف الحركات . قال السّهيليّ : أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسندا؛ رواه الحرث بن أبي أسامة قال : جاء بستانة — وهو رجل من أهل الكتاب — فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأحدعشر كوكبا الذي رأى يوسف فقال: "الحرْتان[1] والطارق والذيال وقابِس والمصبح والضروح[3] وذو الكنفات وذو القرع[2] والفَليق ووَثّاب والعَمُودَان؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد له" . قال آبن عباس وقَتَادة : الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه . وقال قَتَادة أيضا : الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت

---

(١) في حاشية الجمل : جريان — بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد التحتية منقول من اسم طوق القميص . وقابس مقتبس النار وعمودان تثنية عمود والفليق نجم منفرد والمصبح ما يطلع قبل الفجر والفرع بفاء وراء مهملة ساكنة وعين : نجم عند الدلو . ووثاب بتشديد المثلة سريع الحركة وذو الكتفين تثنية كتف نجم كبير . وهذه نجوم غير مرصودة .

(٢) كذا في « عقد الجمان » للعيني، وفي الأصل « النطح » . (٣) وفي الجمل : الصروخ .

أبيـه . ﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾ توكيد . وقال : « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » فجاء مذكرا ؛ فالقول عند الخليـل وسيبويه أنه لمـا أخبر عن هذه الأشيـاء بالطاعة والسّجود وهما من أفعـال من يعقل أخبر عنها كما يخبر عمن يعقل . وقد تقدم هـذا المعنى فى قـوله : « وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْـكَ » (١) . والعرب تجمع مالا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته ، وإن كان خارجا عن الأصل .

قوله تعـالى : قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

فيه إحدى عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أى يحتالوا فى هلاكك؛ لأن تأويلها ظاهر؛ فربمـا يحملهم الشيطان على قصدك بسـوء حينئذ . واللام فى « لك » تأكيـد ، كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » .

الثانيـــة — الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " لم يبق بعدى من المبشِّرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصـالح أو تُرى له " . وقال : " أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا " . وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة، وروى " من سبعين جزءا من النبوّة » . وروى من حديث آبن عباس رضى الله عنهما " جزءا من أربعين جزءا من النبوّة " . ومن حديث آبن عمر " جزء من تسعة وأربعين جزءا " . ومن حديث العبـاس " جزء من خمسين جزءا من النبـوّة " . ومن حديث أنس " من ستة وعشرين " وعن عُبادة بن الصّامت " من أربعة وأربعين من النبوّة " . والصحيح منها حديث الستة والأربعين، ويتلوه فى الصحة حديث السبعين؛ ولم يخرّج مسلم فى صحيحه غير هذين الحديثين ، أما سائرها فمن أحاديث الشيوخ؛ قاله آبن بطّال . قال أبو عبد الله المـازَرى : والأكثر والأصح عند أهل الحـديث " من ستة وأربعين " . قال الطّبرى : والصواب أن

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤ .

يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قوله : " إنها جزء من سبعين جزءا من النبوّة " فإن ذلك قول عام فى كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها فى منامه على أى أحواله كان؛ وأما قوله : " إنها من أربعين — أو — ستة وأربعين " فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التى ذكرت عن الصدّيق — رضى الله عنه — أنه كان بها؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء فى السَّبَرات [(١)] ، والصبر فى الله على المكروهات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فرؤياه الصالحة — إن شاء الله — جزء من أربعين جزءا من النبوّة، ومن كانت حاله فى ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين جزءين ؛ ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين ؛ و إلى هذا المعنى أشار أبو عمر ابن عبد البر فقال : اختلاف الآثار فى هذا الباب فى عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندى اختلاف متضاد متدافع — والله أعلم — لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والدِّين المتين ، وحسن اليقين ؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد ؛ فمن خلصت نيته فى عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق ، و إلى النبوّة أقرب : كما أن الأنبياء يتفاضلون ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » [(٢)] .

قلت : فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث ، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه ؛ ذكره أبو سعيد الأَسْفاقُسِى [(٣)] عن بعض أهل العلم قال : معنى قوله : " جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة " فإن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم فى النبوّة ثلاثة وعشرين عاما — فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما — فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا ؛ و إلى هذا القول أشار المازَرى فى كتابه « المعلم » واختاره القونوى [(٤)] فى تفسيره من سورة « يونس » عند قوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » [(٥)] . وهو فاسد من وجهين :

---

(١) السبرات (جمع سبرة) بسكون الباء : شدّة البرد . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٧٨ .
(٣) كذا فى الأصول وصوابه : الصفاقسى . (٤) فى ع : الغزنوى . (٥) راجع جـ ٨ ص ٤٥٨ .

أحدهما — مارواه أبو سَلَمة عن ابن عباس وعائشة بأن مدّة الوحى كانت عشرين سـنة، وأن النبي صلى الله عليه وسـلم بعث على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشر سنين ؛ وهـو قول عروة والشعبيّ وابن شهاب والحسن وعطاء الخراسانى وسعيد بن المسيّب على اختلاف عنه، وهى رواية ربيعة وأبى غالب عن أنس ، وإذا ثبت هذا الحـديث[1] بطل ذلك التأويل — الثـانى : أن سائر الأحاديث فى الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى .

الثالثـــة — إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوّة؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شيء من علم الغيب؛ كما قال عليه السلام : "إنه لم يبق من مبشِّرات النبوّة إلا الرؤيا الصادقة فى النوم" الحديث . وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوّة؛ قال صلى الله عليه وسلم : "الرؤيا من الله والحُلُم من الشيطان" وأن التصديق بها حقّ، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن فى إيمانه؛ ولا خلاف فى هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأى والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشِرذمة من المعتزلة .

الرابعـــة — إن قيل : إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوّة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلِّط أهلا لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة؛ كمنام رؤيا الملِك الذى رأى سبع بقرات ، ومنام الفتيين فى السجن ، ورؤيا بُخْتُنَصَّر، التى فسّرها دانيال فى ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى فى ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، ومنام عاتكة، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره وهى كافرة؛ وقد ترجم البخارى «باب رؤيا أهل السجن» — فالجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم فى بعض الأوقات لا تكون من الوحى ولا من النبوّة؛ إذ ليس كل من صدق فى حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوّة؛ وقد تقدّم فى «الأنعام»[2] أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء؛ قال المهلّب : إنما ترجم البخارى

---

(١) فى ع و ى : هذا الخلاف . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣ فما بعدها .

بهذا الجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوة .

الخامسة — الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هى التى خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقا لما فى اللوح المحفوظ ، والتى هى من خبر[1] الأضغاث هى الحُلْم ، وهى المضافة إلى الشيطان ، وإنما سميت ضِغثا ؛ لأن فيها أشياء متضادة ؛ قال معناه المهلَّب . وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساما تغنى عن قول كل قائل ؛ روى عوف ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان ليُحزِن ٱبن آدم ومنها ما يهتم به فى يقظته فيراه فى منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة " . قال قلت : سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : نعم! سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ لآية . الرؤيا مصدر رأى فى المنام، رؤيا على وزن فُعلى كالسُّقْيا والبُشْرى ؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف . وقد ٱختلف العلماء فى حقيقة الرؤيا؛ فقيل : هى إدراكٌ فى أجزاء لم تحلّها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا فى آخر الليل لقلة غلبة النوم؛ فيخلق الله تعالى للرائى علما ناشئا ، ويخلق له الذى يراه على ما يراه ليصح الإدراك ، قال ٱبن العربى : ولا يرى فى المنام إلا ما يصح إدراكه فى اليقظة ، ولذلك لا يرى فى المنام شخصا قائما قاعدا بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات . وقيل : إن لله ملَكا يعرض المرئيات على المحل المدرِك من النائم، فيمثل له صورا محسوسة ؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع فى الوُجُود ، وتارة تكون لمعانى معقولة غير محسوسة ، وفى الحالتين تكون مُبَشِّرةً أو مُنذرة ؛ قال صلى الله عليه وسلم فى صحيح مسلم وغيره : " رأيتُ سوداء[2] ثائرة الرأسِ تَخرج من المدينة إلى مَهْيَعة[3] فأوّلتها الحُمَّى " .

(١) : ع حيز .　　(٢) أى ٱمرأة سوداء ، كما فى رواية النسائى .
(٣) المهيعة : هى الجحفة ، ميقات أهل الشام .

و" رأيت سيفي قد آنقطع صدرُه و بَقَرا تُنْحَر فأولتُهما رجلٌ من أهل بيتي يُقتل والبقر نفر من أصحابي يُقتلون". و" رأيت أني أدخلت يدي في دِرعٍ حصِينة فأولتها المدينة". و"رأيت في يديّ سُوَارين فأولتُهما كذابيْن يَخرجان بعدي". إلى غير ذلك مما ضربتْ له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أوّلا [فأولا][1]، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكر؛ وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقرا فأولها يوسف السنين، و رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه .

السابعة — إن قيل : إن يوسف عليه السلام كان صغيرا وقت رؤياه ، والصغير لا حكم لفعله ، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه : « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ » ؟ فالجواب — أن الرؤيا إدراك حقيقةٍ على ما قدّمناه ، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة ، و إذا أخبر عما رأى صدق ، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام ؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وُجدت كما رأى فلا آعتراض؛ روى أن يوسف عليه السلام كان آبن آثنتي عشرة سنة .

الثامنة — هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها ؛ روى أبو رَزِين العُقَيلي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوّة " . و" الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدّث بها صاحبها فإذا حدّث بها وقعت فلا تحدّثوا بها إلا عاقلا أو مُحبا أو ناصحا " أخرجه الترمذي وقال فيه : حديث حسن صحيح ؛ وأبو رَزِين آسمه لَقِيط بن عامر . وقيل لمالك : أيعبر الرؤيا كلّ أحد ؟ فقال : أَبِالنبوّة يُلعب ؟ وقال مالك : لا يعبّر الرؤيا إلا من يحسنها ، فإن رأى خيرا أخبر به ، و إن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت ؛ قيل : فهل يعبّرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأوّلت عليه ؟ فقال : لا ! ثم قال : الرؤيا جزء من النبوّة فلا يتلاعب بالنبوّة .

التاسعة — وفي هذه الآية دليل على أن مباحا أن يحذّر المسلم[2] أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلا في معنى الغِيبة؛ لأن يعقوب — عليه السلام — قد حذّر يوسف أن

(١) من ع و و ى . (٢) في ع : الرجل .

يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضا مايدلّ على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا؛ وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "استعينوا على [إنجاح] (١) حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود". وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه. ويدلّ أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن قصص (٢) الرؤيا عليهم خوف أن تَغِلّ بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة فى هلاكه؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدلّ على أنهم كانوا غير أنبياء فى ذلك الوقت، ووقع فى كتاب الطبرىّ لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوىّ، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك، والتآمر فى قتله، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبىّ، إلا أن هذه الزلّة قد جمعت أنواعا من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا فى الصغائر على ماتقدّم ويأتى.

العاشرة — روى البخارىّ عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لم يبق من النبوّة إلا المبشِّرات" قالوا: وما المبشِّرات؟ قال: "الرؤيا الصالحة" وهذا الحديث بظاهره يدلّ على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قِبل الله تعالى لا تسر رائيها، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعى رضى الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حَنْبل تدلّ على مِحنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك، وقد تقدّم فى «يونس» فى تفسير قوله تعالى: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (٣) أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخارىّ مخرجه على الأغلب، والله أعلم.

---

(١) الزيادة عن «الجامع الصغير».　(٢) فى ع: قصص.　(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٥٨.

الحـادية عشرة ــ روى البخاريّ عن أبى سَلَمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت أبا قَتَادة يقول: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الرؤيا الحسـنة من الله فإذا رأى أحدكم مايحب فلا يحدّث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوّذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدّث بها أحدا فإنها لن تضره " . قال علماؤنا : فجعل الله الاستعاذة منها ممـا يرفع أذاها ؛ ألا ترى قول أبى قَتَادة : إنى كنت لأرى الرؤيا هى أثقل علىّ من الجبل ، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئا . وزاد مسلم من رواية جابر عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليتعوّذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحوّل عن جنبه الذى كان عليه " . وفى حديث أبى هُريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل " . قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض، وإنمـا هذا الأمر بالتحوّل ، والصلاة زيادة ، فعلى الرائى أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحوّل عن جنبه ، وإذا تمضمض تفَل وبصَق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوّذ ودعا وتضرع لله تعالى فى أن يكفيه شرها فى حال هى أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السَحَر من الليل .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ الكاف فى موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، وكذلك الكاف فى قوله : « كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ » و « ما » كافّة . وقيل : « وَكَذَٰلِكَ » أى كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا . قال مقاتل : بالسجود لك . الحسن : بالنبوّة . والاجتباء اختيار معالى الأمور للمجتَبَى ، وأصله من جَبَيْتُ

الشيء أى حصّلته ، ومنه جبيت الماء فى الحوض؛ قاله النحاس . وهذا ثناءٌ من الله تعالى على يوسف عليه السلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التى آتاه الله تعالى؛ من التمكين فى الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث؛ وأجمعوا أن ذلك فى تأويل الرؤيا . قال عبد الله بن شدّاد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة؛ وذلك منتهى الرؤيا . وعَنَى بالأحاديث ما يراه الناس فى المنام، وهى معجزةٌ له؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك، وكان الصدّيق رضى الله عنه من أعبر الناس لها ، وحَصَل لابن سيرين فيها التقدّم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيّب فيما ذكروا . وقد قيل فى تأويل قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أى أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد، فهو إشارة إلى النبوة، وهو المقصود بقوله : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أى بالنبوة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك؛ وقيل : بإنجائك من كل مكروه . ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بالخلة، وإنجائه من النار . ﴿ وَإِسْحَقَ ﴾ بالنبوة . وقيل : من الذبح[1]؛ قاله عكرمة . وأعلمه الله تعالى بقوله : «وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ» أنه سيعطى بنى يعقوب كلهم النبوة؛ قاله جماعة من المفسرين . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بما يعطيك . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى فعله بك .

قوله تعالى : لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ يعنى من سأل عن حديثهم . وقرأ أهل مكة «آيةٌ» على التوحيد؛ واختار أبو عبيد «آياتٌ» على الجمع؛ قال : لأنها خير كثير . قال النحاس : و «آية» هنا قراءة حسنة، أى لقد كان للذين سألوا عن خبر

(١) تقدم أن الذبيح هو إسماعيل وهو الحق وسيأتى فى « والصافات » أيضا ، وفى ع : والفدا من الذبح .

يوسف آية فيما خبّروا به ،لأنهم سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج آبنه إلى مصر،فبكى عليه حتى عمي؟ —ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب،ولامن يعرف خبر الأنبياء؛و إنما وجّهَ اليهودُ[إليهم] (١) من المدينة يسألونه عن هذا — فأنزل الله عزّ وجل سورة « يوسف » جملة واحدة؛ فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة؛ فكان ذلك آية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت . « آيَاتٌ (٢) » موعظة؛ وقيل : عبرة . وروى أنها فى بعض المصاحف « عبرة » . وقيل : بصيرة . وقيل : عجب ؛ تقول فلان آية فى العلم والحسن أى عجب . قال الثعلبيّ فى تفسيره: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه؛ وقال آبن زيد : كانوا أنبياء، وقالوا : ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه! فبغوه بالعداوة، وقد تقدّم ردّ هذا القول. قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ وأسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم،وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون ويشجر، وأمهم ليا بنت ليان، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر؛دان ونفتالى وجاد وآشر،ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف و بنيامين، فكان بنو يعقوب آثنى عشر رجلا . قال السّهيلى: وأم يعقوب آسمها رفقا، وراحيل ماتت فى نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب. وقيل : فى آسم الأَمَتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا ، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحلّ لأحد بعده؛ لقول الله تعالى : «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ (٣)» . وقد تقدّم الردّ على ما قاله آبن زيد،والحمد لله.

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ ﴾ « يوسف » رفع بالابتداء؛ واللام للتأكيد ، وهى التى يتلقى بها القسم؛ أى والله ليوسف . ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ عطف عليه . ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ﴾ خبره ، ولا يثنّى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل ؛ و إنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فتآمروا فى كيده . ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أى جماعة، وكانوا عشرة . والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر . وقيل: ما بين الأربعين إلى العشرة؛ ولا واحد لها من لفظها كالنفر

(١) من ع و ز و ك و ى. (٢) فى ع : آية . بالتوحيد وهو المطابق للتفسير. (٣) راجع جـ٥ ص ١١٦ .

والزهد . ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ لم يريدوا ضلال الدين، إذ لو أرادوه لكانوا كفارا؛ بل أرادوا لفى ذهاب عن وجه التدبير، فى إيثار ٱثنين على عشرة مع ٱستوائهم فى الانتساب إليه . وقيل : لفى خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخاه علينا .

قوله تعالى : ﴿ ٱقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى قال قائل منهم : « ٱقْتُلُوا يُوسُفَ » ليكون أحسم لمادة الأمر. ﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ أى فى أرض، فأسقط الخافض وٱنتصب الأرض؛ وأنشد سيبويه فيما حذف منه « فى » :

لَدْنٌ بِهَزِّ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ * فيه كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ [١]

قال النحاس : إلا أنه فى الآية حسن كثير؛ لأنه يتعدّى إلى مفعولين، أحدهما بحرف، فإذا حذفت الحرف تعدّى الفعل إليه . والقائل قيل : هو شمعون، قاله وهب بن منبه . وقال كعب الأحبار : دان . وقال مقاتل : روبيل؛ والله أعلم . والمعنى أرضا تبعد عن أبيه؛ فلا بدّ من هذا الإضمار لأنه كان عند أبيه فى أرض [٢] . ﴿ يَخْلُ ﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ معناه: يخلص ويصفو . ﴿ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فيقبل عليكم بكليته . ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد الذنب، وقيل : من بعد يوسف . ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ أى تائبين؛ أى تحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم؛ وفى هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم . وقيل : « صَالِحِينَ » أى يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل .

قوله تعالى : قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية وقد وصف فيه رمحا لين الهز؛ فشبه اضطرابه فى نفسه أو فى حال هزه بعسلان الثعلب فى سيره؛ والعسلان : سير سريع فى اضطراب . واللدن : الناعم اللين . ويروى : لذ؛ أى مستلذ عند الهزلينه . (شواهد سيبويه) .

(٢) فى ع : أرضه .

فيه ثلاث عشرة مسـئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ القائل هو يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب؛ قاله آبن عباس . وقيل : روبيل، وهو آبن خالته ؛ وهو الذى قال : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » [الآية][(1)]. وقيل : شمعون . ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة « فى غيابةِ آلجبّ » . وقرأ أهل المدينة « فِى غَيَابَاتِ الْجُبِّ » وآختار أبو عبيد التوحيد ؛ لأنه على موضع واحد ألقوه فيه ، وأنكر الجمع لهذا . قال النحاس : وهذا تضييق فى اللغة ؛ « وغيابات » على الجمع يجوز [من وجهين][(2)] : حكى سيبويه سِيرَ عليه عشيَّاناتٍ وأصيلاناتٍ، يريد عشية وأصيلا، بجعل كل وقت منها عشية وأصيلا ؛ فكذا جعل كل موضع ممـا يُغيّب غَيابة . [والآخر — أن يكون فى الجبّ غيابات (جمـاعة) . ويقال : غاب يَغيبُ][(1)] غَيبًا وغَيابة وغِيابا ؛ كما قال الشاعر :

أَلَا فالبَثَا شهرين أو نصفَ ثالثٍ * أَنَا ذَاكُمَا قـــد غَيَّبَتْنِى غِيَابِيَـا

قال الهروىّ : والغَيابة شبه لَجَفٍ[(3)] أو طاق فى البئر فويق المـاء، يغيب الشىء عن العين . وقال آبن عُزَيْز : كل شىء غيّب عنك شيئا فهو غَيـابة . قلت : ومنه قيـل للقبر غَيابة ؛ قال الشاعر :

فإن أنا يومًا غَيَّبَتْنِى غَيـابَتِى * فَسِيروا بسَيْرِى فى العَشِيرةِ والأَهلِ

والجبّ الرَّكِيَّة التى لم تُطْوَ، فإذا طُويت فهى بئر ؛ قال الأعشى :

لئن كنتَ فى جبٍّ ثمـانين قامةً * ورُقِّيتَ أســبابَ السَّماءِ بسُـلَّمِ[(4)]

وسميت جُبًّا لأنها قُطِعت فى الأرض قَطْعا ؛ وجمع الجبّ جِببة وجِباب وأجباب ؛ وجمع بين الغَيابة والجبّ لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم من الجبّ حتى لا يلحقه نظر الناظرين . قيل :

---

(١) من ع . (٢) الزيادة عن النحاس . (٣) اللجف : الناحية من الحوض أو البئر يأكله الماء فيصير كالكهف . (٤) بعده كما فى الديوان :

ليستدرجنك القــول حتى تهـره * وتعـلـم أنى عنـك لست بمجرم
وتشرق بالقــول الذى قد أذعتــه * كما شرقت صــدر القناة من الدم

هو بئر ببيت المقدس، وقيل : هو بالأردُن؛ قاله وهب بن منبّه . مقاتل : وهو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ جزم على جواب الأمر . وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة : « تَلْتَقِطْهُ » بالتاء ، وهذا محمول على المعنى ؛ لأن بعض السّيارة سيّارة؛ وقال سيبويه : سقطت بعض أصابعه ، وأنشد[1] :

وتَشْرَقُ بالقــولِ الّذى قــد أذعتَه * كما شَرِقتْ صَــدْرُ القَناةِ من الدَّمِ

وقال آخـــر :

أَرَى مَرَّ السِّــنينَ أَخَذْنَ مــنّى * كما أَخَذَ السِّرارُ[2] من الهِـــلالِ

ولم يقـل شَرِق ولا أخذت . والسيّارة الجمع الذى يسيرون فى الطريق للسفر ؛ وإنمــا قال القائل هــذا حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ؛ فإن من التقطــه من الســيّارة يحمله إلى موضع بعيد ؛ وكان هــذا وجها فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربمــا لا يأذن لهم أبوهم ، وربمــا يطلع على قصدهم .

الثالثـــة — وفى هــذا ما يدلّ على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أوّلا ولا آخرا ؛ لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم، بل كانوا مسلمين ، فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل : كانوا أنبياء، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبيّ ، فكانت هذه زلّة منهم؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدّمناه . وقيل : ما كانوا فى ذلك الوقت أنبياء ثم نبّأهم الله ؛ وهذا أشبه ، والله أعلم .

الرابعـــة — قال ٱبن وهب قال مالك : طُرِح يوسف فى الجبّ وهو غلام ، وكذلك روى ٱبن القاسم عنه، يعنى أنه كان صغيرا؛ والدليل عليه قوله تعالى: «لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ

---

(١) البيت للأعشى ، وهو يخاطب يزيد بن مسهر الشيبانى ، وكانت بينهما مباينة ومهاجاة ، فيقول له : يعود عليك مكروه ما أذعت عنى من القول ونسبته إلى من القبيح ، فلا تجد منه مخلصا . والشرق بالماء كالغصص بالطعام .

(٢) سرار الشهر (بفتح السين المهملة وكسرها) وسرره : آخر ليلة منه .

فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » قال : ولا يُلتقط إلا الصـــغير؛ وقوله : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ » وذلك [أمر](١) يختص بالصغار؛ وقولهم : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

الخامســـة ـــ الالتقاط تناول الشيء من الطريق؛ ومنه اللّقِيط واللُّقْطَة ، ونحن نذكر من أحكامها ما دلّت عليه الآية والسُّنة، وما قال فى ذلك أهل العلم واللغة؛ قال ٱبن عرفة: الالتقاط وجود الشي على غير طلب ؛ ومنه قوله تعالى : « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى يجده من غير أن يحتسبه . وقد ٱختلف العلماء فى اللّقيط؛ فقيل : أصله الحريّة لغلبة الأحرار على العبيـــد ؛ و روى عن الحسن بن عليّ أنه قضى بأن اللّقِيط حُرّ، وتلا «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهـــو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روى عن عليّ وجماعة . وقال إبراهيم النَّخَعى : إن نوى رِقه فهو مملوك ، وإن نوى الحسبة فهو حرّ . وقال مالك فى موطّئه : الأمر عندنا فى المنبوذ أنه حرّ، وأن ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه و يعقلون عنه، وبه قال الشافعى؛ واحتج بقوله عليه السلام: ”وإنمـا الوَلَاء لمن أعتق“ قال : فنفى الوَلَاء عن غير المعتِق . واتفق مالك والشافعى وأصحابهما على أن اللّقيط لا يُوالى أحدا، ولا يرثه أحد بالوَلَاء . وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين: اللّقيط يوالى من شاء، فمن ولاه فهو يرثه و يعقِل عنه؛ وعند أبى حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء، ما لم يعقِل عنه الذى والاه، فإن عقلَ عنه جنايةً لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبدا . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن عليّ رضى الله عنه : المنبوذ حرّ، فإن أحبّ أن يوالى الذى التقطه والاه، و إن أحبّ أن يوالى غيره والاه؛ ونحوه عن عطاء، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة، وهو حرّ . قال ٱبن العربيّ : إنمـا كان أصل اللّقيط الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد ، فقضى بالغالب ، كما حكم أنه مسلم أخذا بالغالب ؛ فإن كان فى قرية فيها نصارى ومسلمون قال ٱبن القاسم : يُحكم بالأغلب؛ فإن وجد عليه زِيّ اليهود فهو يهوديّ، وإن وجد عليه زِيّ النصارى فهو نصرانيّ، وإلا فهو مسلم، إلا أن يكون أكثر أهل القرية

---

(١) من ع وك وى .

على غير الإسلام . وقال غيره : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى لِلقيط بالإسلام تغليبا لحكم الإسلام الذى يعلو ولا يُعلَى عليه ، وهو مقتضى قول أشهب ؛ قال أشهب : هو مسلم أبدا ، لأنى أجعله مسلما على كل حال ، كما أجعله حرا على كل حال . وآختلف الفقهاء فى المنبوذ تدلّ[1] البيّنة على أنه عبد ؛ فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولها[2] فى ذلك ، وإلى هذا ذهب أشهب لقول عمر : هو حرّ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البيّنة فى أنه عبد . وقال آبن القاسم : تقبل البيّنة فى ذلك ؛ وهو قول الشافعى والكوفى .

السادسة — قال مالك فى اللقيط : إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البيّنة أنه آبنه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحه متعمّدا ، وإن لم يكن طرحه ولكنه ضلّ منه فلا شىء على الأب ، والملتقِط متطوّع بالنفقة . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللّقيط فهو متطوّع ، إلا أن يأمره الحاكم . وقال الأوزاعى : كلُّ من أنفق على من لا تجب عليه نفقة رجع بما أنفق . وقال الشافعى : إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته فى بيت المال ، فإن لم يكن ففيه قولان : أحدهما — يستقرض له فى ذمته . والثانى — يقسّط على المسلمين من غير عوض .

السابعة — وأما اللّقطة والضَّوَالّ فقد اختلف العلماء فى حكمهما؛ فقالت طائفة من أهل العلم : اللقطة والضوالّ سواء فى المعنى ، والحكم فيهما سواء؛ وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوى[3] ، وأنكر قول أبى عُبيد القاسم بن سلاّم — أن الضالّة لا تكون إلا فى الحيوان واللّقطة فى غير الحيوان — وقال هذا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث الإفك للسلمين : " إن أمّكم ضلّت قِلادتها " فأطلق ذلك على القِلادة .

الثامنة — أجمع العلماء على أن اللّقطة ما لم تكن تافها يسيرا أو شيئا لا بقاء لها فإنها تُعرّف حولا كاملا ، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحقّ بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمّنه فإن ذلك له ، وإن تصدّق بها فصاحبها مخيّر بين التضمين وبين أن ينزل على أجرها ، فأى ذلك تخيّر كان

(١) فى ع وك وروى : تشهد .	(٢) كذا فى الأصول .	(٣) فى ع : الطبرى .

ذلك له بإجماع ؛ ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة ، ولا تصرف قبل الحول . وأجمعوا أن ضالّة الغنم المخوف عليها له أكلها .

التاســعة — وآختلف الفقهاء فى الأفضــل من تركها أو أخذها ؛ فمن ذلك أن فى الحديث دليــلا على إباحة التقــاط اللّقطة وأخذ الضالّة ما لم تكن إبلا . وقال فى الشاة : " لكَ أو لأخيكَ أو للذئب " يحضّه على أخذها ، ولم يقل فى شىء دعوه حتى يضيع أو يأتيه ربه . ولو كان ترك اللّقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليــه وسلم كما قال فى ضالّة الإبل ، والله أعلم . وجمــلة مذهب أصحاب مالك أنه فى ســعة ، إن شاء أخذها وإن شاء تركها ؛ هذا قول إسماعيل بن إسحاق رحمه الله . وقال المزَنى عن الشافعى : لا أحب لأحد ترك اللّقطة إن وجدها إذا كان أمينا عليها ؛ قال : وسواء قليل اللّقطة وكثيرها .

العــاشرة — روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجهَنى قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللّقطة فقال : " آعْرِف عِفَاصَها[1] ووِكَاءَها ثم عرِّفها سنة فإن جاء صاحبُها وإلا فشأْنُك بها " قال : فضالّة الغنم يا رسول الله ؟ قال : " لكَ أو لأخيكَ أو للذئب " قال : فضالة الإبل ؟ قال : " ما لكَ ولهــا معها سِــقاؤُها وحِذاؤها تَرِدُ المــاءَ وتأ كل الشجر حتى يلقاها ربُّها " . وفى حديث أُبَىّ قال : " آحفظ عَدَدها ووِعاءَها ووِكاءَها فإن جاء صاحبُها وإلا فآستمتِــع بها " ففى هذا الحديث زيادة العدد ؛ خرجه مسلم وغيره . وأجمع العلماء أن عِفاص اللّقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلّها عليها ؛ فإذا أتى صاحب اللّقطة بجميع أوصافها دُفعت له ؛ قال ابن القاسم : يُجبَر على دفعها ؛ فإن جاء مستحقٌّ يستحقها ببيّنة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئا ، وهل يُحلَّف مع الأوصاف أو لا ؟ قولان : الأول لأشهب ، والثانى لآبن القاسم ، ولا تلزمه بيّنة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حَنْبل وغيرهم . وقال أبو حنيفة والشافعى : لا تدفع له إلا إذا أقام بينــة أنها له ؛ وهو بخلاف نَصّ الحديث ؛

(١) العفاص : الوعاء الذى يكون به النفقة ، جلدا كان أو غيره . والوكاء هو الخيط الذى يشــدّ به الوعاء . والمراد بالعفاص والوكاء أن يعــلم الملتقط صدق واصفها من كذبه ، وبالحذاء خفها ، فهى تقوى بأخفافها على السير وورود المــاء والشجر .

ولو كانت البيّنــة شرطا فى الدفع لمـا كان لذكر العِفاص والوِكاء والعَدَد معنى؛ فإنه يستحقها بالبيّنة على كل حال؛ولمّا جاز سكوت النبي صلى الله عليــه وسلم عن ذلك، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة . والله أعلم .

الحادية عشرة ــ نَصّ الحديث على الإبل والغنم و بين حكمهما،وسكت عما عداهما من الحيوان . وقد اختلف علماؤنا فى البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم؟ قولان؛ وكذلك ٱختلف أئمتنا فى التقاط الخيل والبغال والحمير،وظاهر قول ٱبن القاسم أنها تلتقط،وقال أشهب وٱبن كنانة : لا تلتقط ؛ وقول ٱبن القاسم أصح؛ لقوله عليه السلام : " احفظ على أخيك المؤمن ضالّتــه " .

الثانية عشرة ــ وٱختلف العلمــاء فى النفقة على الضّوالّ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ٱبن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة، وســواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره؛ قال : وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليــه و يكون أحقّ به كالرهن . وقال الشــافعى : إذا أنفق على الضوالّ مَن أَخَذها فهو متطوع؛ حكاه عنه الرّبيع . وقال المُزنى عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دَيْنــا، وما ٱدّعى قُبِل منه إذا كان مثله قَصْدا . وقال أبو حنيفــة : إذا أنفق على اللّقطة والإبل بغير أمر القاضى فهو متطوع، و إن أنفق بأمر القاضى فذلك دين على صاحبهــا إذا جاء، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبهــا، والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها ، حتى يأمر القاضى ببيع الشاة وما أشبهها و يقضى بالنفقة .

الثالثة عشرة ــ ليس فى قوله صلى الله عليه وسلم فى اللّقطة بعد التعريف: "فاستمتع بها" أو " فشأنك بها " أو "فهى لك " أو "فاستنفقها" أو " ثم كُلْها " أو " فهو مال الله يؤتيه من يشاء " على ما فى صحيح مسلم وغيره، مايدلّ على التمليك، وسقوط الضّمان عن الملتقط إذا جاء ربها؛ فإن فى حديث زيد بن خالد الجُهَنِيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : "فإن لم تعرف[1]

(١) (إن لم تعرف) : أى لم تعرف صاحبها .

فاستنفقها ولتكن وديعة عنـدك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فأدّها إليه" فى رواية "ثم كُلْها فإن جاء صاحبها فأدّها إليه" خرجه البخارى ومسلم . وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحق بها، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقِط يملك اللّقطة بعد التعريف ؛ لتلك الظواهر، ولا التفات لقوله ؛ لمخالفة الناس، ولقوله عليه السلام : " فأدّها إليه " .

قوله تعـالى : ﴿قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ قيل للحسن : أيحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بنى يعقوب ! ولهذا قيـل : الأب جلّاب والأخ سلّاب ؛ فعنـد ذلك أجمعوا على التفريق بينـه وبيـن ولده بضرب من الاحتيال . وقالوا ليعقوب : «يا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » وقيل : لمـا تفاوضوا وافترقوا على رأى المتكلم الثـانى عادوا إلى يعقوب عليه السـلام وقالوا هـذا القول . وفيـه دليل على أنهم سألوه قبـل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتى . قرأ يزيد بن القَعْقَاع وعمرو بن عُبَيد والزّهْرِى « لَا تَأْمَنَّا » بالأدغام، وبغير إشمـام وهو القياس؛ لأن سـبيل ما يدغم أن يكون سا كنا . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «لَا تَأْمَنُنَا» بنونين ظاهرتين على الأصل. وقرأ يحيى بن وثّاب وأبو رَزِين — وروى عن الأعمش — « لا تِيمَنّا » بكسر التاء، وهى لغة تميم؛ يقولون: أنت تِضرب؛ وقد تقدّم. وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام ليدلّ على حال الحرف قبل إدغامه . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ أى فى حفظه [وحيطته][1] حتى نردّه إليك. قال مقاتل: فى الكلام تقديم وتأخير؛ وذلك أن إخوة يوسـف قالوا لأبيهم : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا » الآية ؛ فحينئذ قال أبوهم : « إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ » فقالوا حينئذ جوابا لقوله : « مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » الآية . ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ إلى الصحراء. ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ « غدا » ظرف، والأصل عنـد سيبويه غَدْوٌ، وقد نطق به على الأصـل؛ قال النّضر بن شميل : ما بين الفجر وصلاة الصبح يقـال له غُدوة ،

(١) من ع وى . وفى ا و و : وغفلته .

وكذا بُكرة . « نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ » بالنون و إسكان العين قراءة أهل البصرة . والمعروف من قراءة أهل مكة . « نَرْتَعِ » بالنون وكسر العين . وقراءة أهل الكوفة . « يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ » بالياء و إسكان العين . وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين ؛ القراءة الأولى من قول العرب رَتَعَ الإنسان والبعير إذا أَكَلا كيف شاءا ؛ والمعنى : نتسع فى الخِصب؛ وكل مخصِب راتع؛ قال :

* فارعَىْ فزارةُ لا هَنَاكِ المَرْتَعْ *

وقال آخــر[1] :

تَرْتَعُ ماغَفَلَتْ حتى إذا ٱدّكرتْ * فإنمّـا هى إقبـالٌ و إدبـارُ

وقال آخــر[2] :

أكفرًا بعــد رَدِّ المــوتِ عنّى * وبعد عَطائِكَ المــائةَ الرِّتَاعَا

أى الراتعة لكثرة المرعى . وروى مَعْمر عن قَتَادة « ترتع » تسعى ؛ قال النحاس : أخذه من قوله : « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » لأن المعنى : نستبق فى العَدْو إلى غاية بعينها؛ وكذا «يرتع» بإسكان العين، إلا أنه ليوسف وحده صلى الله عليه وسلم . و« يرتع » بكسر العين من رعى الغنم ، أى ليتدرب بذلك و يترجّل؛ فمرة يرتع ، ومرة يلعب لصغره . وقال القُتَبِيّ « نرتع » نتحارس ونتحافظ ، و يرعى بعضنا بعضا؛ من قولك : رعاك الله ؛ أى حفظك . «ونلعب» من اللعب وقيل لأبى عمرو بن العلاء : كيف قالوا «ونلعب» وهم أنبياء؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحظور الذى هو ضدّ الحق ؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم « ونلعب » . ومنه قوله عليه السلام : " فهلّا بِكرًا تلاعبها وتُلاعبك "[3] .

---

(١) البيت للخنساء من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا . ومعنى : (ترتع) ترعى . تصف ناقة أو بقرة فقدت ولدها ، فكلما غفلت عنه رتعت ، فإذا أدكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ، فضربتها مثلا لفقدها أخاها صخرا .

(٢) هو القطامى . (٣) الخطاب لجابر بن عبد الله ، وذكر ملا على عن الطيبى : أن الملاعبة عبارة عن الألفة التامة ، فإن الثيب قد تكون معلقة القلب بالزوج الأول ، فلم تكن محبتها كاملة ، بخلاف البكر . و يروى : تداعبها وتداعبك . والدعابة الممازحة .

وقرأ مجاهد وقتادة : «يُرتِـع»[1] على معنى يُرتِـع مطيته، فحذف المفعول؛ « ويَلْعَبُ » بالرفع على الاستئناف؛ والمعنى : هو ممن يلعب . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من كل ما تخاف عليـه . ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا، ويحتمل أنهم كانوا رجّالة . وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم ؛ ثم لمـا غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضرارا به .

قوله تعـالى : قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ فى موضع رفع؛ أى ذهابكم به . أخبر عن حزنه لغيبته . ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وذلك أنه رأى فى منامه أن الذئب شدّ على يوسف، فلذلك خافه عليه؛ قاله الكلبيّ . وقيل : إنه رأى فى منامه كأنه على ذروة جبل، وكأن يوسف فى بطن الوادى، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله، فدرأ عنه واحد، ثم انشقّت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام؛ فكانت العشرة إخوته، لمـا تمالئوا على قتله، والذى دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا، وتواريه فى الأرض هو مقامه فى الجب ثلاثة أيام . وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب؛ فخوفه إنمـا كان من قتلهم له، فكنى عنهم بالذئب مساترة لهم؛ قال ابن عباس : فسماهم ذئابا . وقيل : ما خافهم عليه، ولو خافهم لمـا أرسله معهم، وإنما خاف الذئب؛ لأنه أغلب ما يخاف فى الصحارى[2] . والذئب مأخوذ من تَذَاءبت[2] الريح إذا جاءت من كل وجه؛ كذا قال أحمد بن يحيى ؛ قال : والذئب مهموز

(١) (يرتع) من أرتع ، والذى فى تفسير ابن عطية والألوسى وأبى حيان عن مجاهد وقتادة هو (بالنون) وجزم (نلعب) قال ابن عطية : (وقراءة مجاهد وقتادة «نرتع» بضم النون وكسر التاء، و «نلعب» بالنون والجزم) .

(٢) فى ع : البرارى . ورد فى روح المعانى أن هذا الاشتقاق عنـد الزمخشرى ، وقال الأصمعى : إن تذاءبت من الذئب ، لأن الذئب يفعله فى عدوه، وتعقب بأن أخذ الفعل من الأسماء الجامدة قليل مخالف للقياس .

لأنه يجئ من كل وجه . وروى ورش عن نافع « الذِّيبُ » بغير همز ، لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة فخففها صارت ياء . ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ أي مشتغلون بالرعى .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه . ﴿ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ أي في حفظنا أغنامنا ؛ أي إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا . وقيل : « لَخَاسِرُونَ » لجاهلون بحقه . وقيل : لعاجزون .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ ﴾ « أَنْ » في موضع نصب ؛ أي على أن يجعلوه في غيابة الجبّ . قيل في القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقا غليظا ليحفظُنّه، وسلّمه إلى روبيل وقال : ياروبيل ! إنه صغير، وتعلم يابنيّ شفقتي عليه ؛ فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فآسقه ، وإن أَعيا[1] فآحمله ثم عَجِّل بردّه إليّ . قال : فأخذوا يحملونه على أكتافهم، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر، ويعقوب يُشيِّعهم ميلا ثم رجع ؛ فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذي كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشدّ مما عند الآخر من الغيظ والعسف ؛ فاستغاث بروبيل وقال : « أنت أكبر إخوتي، والخليفة من بعد والدي عليّ ، وأقرب الأخوة إليّ ، فارحمني وآرحم ضعفي » فلطمه لطمة شديدة وقال : لا قرابة بيني وبينك ، فادع الأحد عشر كوكبا فلتنجك منا ؛ فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه، فتعلق بأخيه يهوذا وقال : يا أخي ! ارحم ضعفي وعجزي وحداثة سني، وارحم قلب أبيك يعقوب ؛ فما أسرع ما تناسيتم وصيته ونقضتم عهده ؛ فرقّ قلب يهوذا فقال : والله لا يصلون إليك أبدا ما دمتُ حيّا، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التي حرم الله من أعظم الخطايا، فردوا هذا الصبيّ إلى أبيه ، ونعاهده

---

(١) أعيا الرجل في المشي : كَلّ .

ألا يحـدّث والده بشيء ممـا جرى أبدا ؛ فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عنـد يعقوب ، والله لئن لم تدعه لنقتلنّك معه ، قال : فإن أبيتم إلا ذلك فهاهنا هذا الجبّ الموحش القفر، الذى هو مأوى الحيات والهوام فألقُوه فيه ، فإن أصيب بشيء من ذلك فهو المراد ، وقد استرحتم من دمه ، و إن انفلت على أيدى سيّارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد ؛ فأجمع رأيهـم على ذلك ؛ فهو قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ وجواب « لمـا » محذوف ؛ أى فلما ذهبوا به وأجمعوا على طرحه فى الجب عظمت فتنتهم . وقيل : جواب «لمـا» قولهم : « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » . وقيل : التقدير فلما ذهبوا به من عنـد أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب جعلوه فيها ، هـذا على مذهب البصريين؛ وأما على قول الكوفيين فالجواب . «أوحينا» والواو مقحمة، والواو عندهم تزاد مع لمـا وحتى؛ قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »[1] أى فتحت، وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ »[2] أى فار . قال آمرئ القيس :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحَةَ الحيِّ وانتحى *[3]

أى انتحى؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ »[1] أى ناديناه . وفى قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْـهِ ﴾ دليل على نبوّته فى ذلك الوقت . قال الحسن ومجاهد والضّحاك وقَتادة : أعطاه الله النبوّة وهو فى الجبّ على حجر مرتفع عن المـاء . وقال الكلْبيّ : ألقى فى الجبّ وهو ابن ثمانى عشرة سنة، فما كان صغيرا؛ ومن قال كان صغيرا فلا يبعد فى العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه . وقيل : كان وحى إلهام كقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »[4] . وقيـل : كان مناما ، والأوّل أظهر — والله أعلم — وأن جبريل جاءه بالوحى .

قوله تعالى : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ماصنعوا ؛ فعلى هذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الجبّ تقوية لقلبه، وتبشيرا له بالسلامة . الثانى — أنه أوحى إليه بالذى يصنعون به؛ فعلى هذا [يكون][5] الوحيُ قبل إلقائه

(١) الصحيح أن الواو فى هذه الآية ليس زائدا و إنما هو للحال مع تقدير قد وذلك لإفادة أن أهل الجنة هيأ الله لهم مايزيد سرورهم بخلاف أهل النار فتحت لهم عند حضورهم زيادة فى حسرتهم . راجع جـ ١٥ ص ٢٨٤ وص ١٠٤
(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠ . (٣) تمـام البيت . * بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *
(٤) راجع جـ ١٠ ص ١٣٣ . (٥) من ع .

فى الجبّ إنذارا له . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف ؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وأخوته بمكانه . وقيل : بوحى الله تعالى بالنبوة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : « الهاء » ليعقوب ؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف ، وأنه سيعرفهم بأمره ، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه ، والله أعلم . ومما ذكر من قصته إذ ألقى فى الجبّ — ما ذكره السدّى وغيره — أن إخوته لما جعلوا يدلونه فى البئر ، تعلق بشفير البئر ، فربطوا يديه ونزعوا قميصه ؛ فقال : يا إخوتاه ! ردّوا علىّ قميصى أتوارى به فى هذا الجبّ ، فإن متّ كان كفنى ، وإن عشت أوارى[(١)] به عورتى ؛ فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فلتؤنسك وتكسك ؛ فقال : إنى لم أر شيئا ، فدلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت ؛ فكان فى البئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها . وقيل : إن شمعون هو الذى قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة ، وكان جبريل تحت ساق العرش ، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدى ؛ قال جبريل : فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمى والوقوع فأقعدته على الصخرة سالما . وكان ذلك الجبّ مأوى الهوام ؛ فقام على الصّخرة وجعل يبكى ، فنادوه ، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم ، فأجابهم ؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ؛ فلما وقع عريانا نزل جبريل إليه ؛ وكان إبراهيم حين ألقى فى النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فكان ذلك عند إبراهيم ، ثم ورثه إسحق ، ثم ورثه يعقوب ، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويذة وجعله فى عنقه ، فكان لا يفارقه ؛ فلما ألقى فى الجبّ عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه . قال وهب : فلما قام على الصخرة قال : يا إخوتاه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيتى ، قالوا : وما هى ؟ قال : إذا اجتمعتم كلكم فآنس بعضكم بعضا فاذكروا وحشتى ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى ، وإذا شربتم فاذكروا عطشى ، وإذا رأيتم غريبا فاذكروا غربتى ، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شبابى ؛ فقال له جبريل : يا يوسف ! كف عن هذا واشتغل بالدعاء ، فإن الدعاء عند الله

(١) فى ع : أتوارى به وأستر عورتى .

بمكان؛ ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كلّ غريب، و يا صاحب كلّ وحيد، و يا ملجأ كلّ خائف، و يا كاشف كل كربة ، و يا عالم كل نجوى، و يا منتهى كل شكوى، و يا حاضر كل ملإ، يا حيّ يا قيوم! أسألك أن تقذف رجاءك فى قلبى ، حتى لا يكون لى همّ ولا شغل غيرك، وأن تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا، إنك على كل شيء قدير؛ فقالت الملائكة : إلهنا ! نسمع صوتا ودعاء ، الصوت صوت صبيّ، والدعاء دعاء نبيّ . وقال الضّحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو فى الجبّ فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب ؟ فقال : نعم ! فقال له : قل يا صانع كلّ مصنوع، و يا جابر كل كسير، و يا شاهد كل نجوى، و يا حاضر كل ملإ، و يا مفرّج كل كربة، و يا صاحب كل غريب، و يا مؤنس كل وحيد، آيتنى بالفرج والرجاء، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحدا سواك ؛ فرددها يوسف فى ليلته مرارا ؛ فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجبّ .

قوله تعالى : وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ أى ليلا ، وهو ظرف يكون فى موضع الحال؛ و إنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار فى الظلمة؛ ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء فى العينين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار ؛ فروى أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى فى الغنم شيء ؟ قالوا : لا . قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب ؛ فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟ على ما يأتى بيانه [إن شاء الله][1] . وقال السدىّ وابن حبّان : إنه لما قالوا أكله الذئب خرّ مغشيا عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ؛ قال وهب : ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نَفَس يعقوب فلم يحسّ بنفس ، ولم يتحرك له عرق ؛ فقال لهم يهوذا : ويل لنا من ديّان يوم الدّين ! ضيّعنا أخانا، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السّحر ، فأفاق ورأسه

(١) من ع .

فى حجر روبيل ؛ فقال : يا روبيل ! ألم آتمنك على ولدى ؟ ألم أعهد إليك عهدا ؟ فقال : يا أبت ! كُفَّ عنّى بكاءك أخبرك ؛ فكفّ يعقوب بكاءه فقال : يا أبت « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » .

الثانية — قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدلّ على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنّعا ؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ؛ كما قال حكيم :

إذا ٱشتبكتْ دموعٌ فى خُدودٍ * تَبيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَباكَى

قوله تعالى : قَالُوا يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « نَسْتَبِقُ » نفتعل ، من المسابقة . وقيل : أى نَنْتَضِل ، وكذا فى قراءة عبد الله « إِنَّا ذَهَبْنَا نَنْتَضِل » وهو نوع من المسابقة ؛ قاله الزجاج . وقال الأزهرىّ : النِّضال فى السِّهام ، والرِّهان فى الخيل ، والمسابقة تجمعهما . قال القُشيرىّ أبو نصر : « نَسْتَبِقُ » أى فى الرمى ، أو على الفرس ، أو على الأقدام ؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العَدْو ، لأنه الآلة فى قتال العدوّ ، ودفع الذئب عن الأغنام . وقال السدّى وٱبن حبّان : « نَسْتَبِقُ » نشتد جريا لنرى أيُّنا أسبق . قال ٱبن العربى : المسابقة شِرْعة فى الشّريعة ، وخَصْلة بديعة ، وعَون على الحرب ؛ وقد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه و بخيله ، وسابق عائشة رضى الله عنها على قدميه فسبقها ؛ فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ؛ فقال لها : " هذه بتلك " .

قلت : وسابق سَلَمة بن الأكوع رجلا لما رجعوا من ذى قَرَد[1] إلى المدينة فسبقه سَلَمة ؛ خرجه مسلم .

---

(١) ذى قرد : موضع قريب من المدينة أغاروا فيه على لقاح رسول الله عليه الصلاة والسلام فغزاهم .

الثانيـــة — وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التى قد أُضمِرت(١) [من الحَفْيَاء(٢)] وكان أمدها ثَنِيَّة الوداع(٣)، وسابق بين الخيل التى لم تُضمَّر من الثَّنِيَّة إلى مسجد بنى زُرَيق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها؛ وهذا الحديث مع صحته فى هـذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقـة بدونها، وهى : أن المسافة لا بد أن تكون معلومة . الثانى — أن تكون الخيل متساوية الأحوال . الثالث — ألا يسابق المضمَّر مع غير المضمَّر فى أمد واحد وغاية واحدة . والخيـل التى يجب أن تَضمَّر و يسابق عليها، وتقام هذه السنّة فيها هى الخيل المعدّة لجهاد العدوّ لا لقتال المسلمين فى الفتن .

الثالثـــة — وأما المسابقة بالنّصال والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمـرو قال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلنا منزلا فمنّا من يصلِـح خِباءه، ومنا من يَنْتَضِل، وذكر الحديث . وخرّج النسائىّ عن أبى هريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال : "لا سَبَق(٤) إلا فى نَصْـل أو خُفّ أو حافر" . وثبت ذكر النّصل من حديث ابن أبى ذئب عن نافع بن أبى نافع عن أبى هريرة، ذكره النسائى؛ و به يقـول فقهاء الحجاز والعراق . وروى البخارىّ عن أنس قال : كان للنبى صلى الله عليـه وسلم ناقة تسمى العَضْباء لا تُسبَق — قال حُمَيد : أولا تكاد تُسبَق — فجاء أعرابى على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال : "حقّ على الله ألا يرتفع شىء من الدنيا إلا وضعه" .

الرابعـــة — أجمع المسـلمون(٥) على أن السَّبَق لا يجـوز على وجه الرهان إلا فى الخفّ والحافر والنّصل؛ قال الشافعى : ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَق فيها قِمار . وقد زاد أبو البَخْتَرِىّ

(١) تضمير الخيل : هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن، ثم لا تعلف إلا قوتا لتخف . وقيل : تشد عليها سروجها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها و يشتد لحمها، و يكون ذلك لغزو أو سباق .

(٢) الزيادة عن (موطأ مالك) . والحفياء (بالمد و يقصر) : موضع بالمدينـة بينه و بين ثنية الوداع ستة أميال أو سـبعة . (٣) الثنية فى الجبل كالعقبة فيه، وقيل : هو الطريق العالى فيه، وقيل : أعلى المسيل فى رأسه؛ وثنية الوداع مشرفة على المدينة سميت بذلك؛ لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثم؛ ومنها إلى مسجد بنى زريق ميل .

(٤) « لا سبق » : هو بفتح الباء ما يجعل للسابق على سبقه من المـال؛ و بالسكون مصـدر . قال الخطابى : الصحيح رواية الفتح؛ أى لا يحل أخذ المـال بالمسابقة إلا فى هذه الثلاثة . (٥) فى ع و ك و ى : العلماء .

القاضي في حديث الخفّ والحافر والنّصل « أو جَناح » وهي لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته ؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال . وقد رُوى عن مالك أنه قال : لا سَبَق إلا في الخيل والرمى ، لأنه قوة على أهل الحرب ؛ قال : وسَبَق الخيل أحبّ إلينا من سَبَق الرمى . وظاهر الحديث يسوّى بين السّبق على النُّجُب والسّبق على الخيل. وقد منع بعض العلماء الرّهان في كل شيء إلا في الخيل ؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها . ورُوى عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة ؛ وقد تُؤُوِّل قوله[1] ؛ لأن حمله على العموم [في كل شيء[1]] يؤدّى إلى إجازة القمار ، وهو محرّم باتفاق .

الخامسة — لا يجوز السَّبَق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم ، كما ذكرنا ، وكذلك الرمى لا يجوز السَّبَق فيه إلا بغاية معلومة ورَشْق معلوم ، ونوع من الإصابة ؛ مشترط خَسقا[2] أو إصابة بغير شرط . والأسباق ثلاثة : سَبَق يعطيه الوالى أو الرجل غير الوالى من ماله متطوعا فيجعل للسابق شيئا معلوما ؛ فمن سبق أخذه . وسَبَق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه ، فإن سَبَقه صاحبه أخذه ، وإن سَبَق هو صاحبه أخذه ؛ وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له ، ولا يرجع إلى ماله ؛ وهذا مما لا خلاف فيه . والسَّبق الثالث — اختلف فيه ؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئا مثل ما يخرجه صاحبه ، فأيهما سَبَق أحرز سَبَقه وسَبَق صاحبه ؛ وهذا الوجه[3] لا يجوز حتى يُدخِلا بينهما محلِّلا لا يأمنا أن يسبقهما ؛ فإن سبق المحلِّل أحرز السَّبَقين جميعا وأخذهما وحده ، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سَبَقه وأخذ سَبَق صاحبه ، ولا شيء للمحلِّل فيه ، ولا شيء عليه . وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما . وقال أبو على بن خيران — من أصحاب الشافعي — : وحكم الفرس المحلل أن يكون مجهولا جريه ؛ وسمى محلِّلا لأنه يحلّل السَّبَق للمتسابقين أوْ لَهُ . واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلِّل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سَبَقه وسَبَق صاحبه أنه قمار ، ولا يجوز . وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله

(١) في ع وك و و و ى : تؤول عليه . (٢) خسق السهم وخزق إذا أصاب الرمية ونفذ فيها .
(٣) في ع : السبق

عليه وسلم قال : "من أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يأمن أن يَسبق فليس بقِمار ومن أدخله وهو يأمن أن يَسبق فهو قِمار" . وفى الموطأ عن سعيد بن المسيب قال : ليس برِهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلِّل، فإن سبق أخذ السبق، و إن سُبق لم يكن عليه شيء؛ وبهذا قال الشافعى و جمهور أهل العلم . وآختلف فى ذلك قول مالك؛ فقال مرة لايجب المحلِّل فى الخيل، ولا نأخذ فيه بقول سعيد ، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحلل ؛ وهو الأجود من قوله .

السادســـة — ولا يحمل على الخيل والإبل فى المسابقة إلا محتلم ، ولو ركبها أربابها كان أولى؛ وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لا يركب الخيل فى السباق إلا أربابها . وقال الشافعى : وأقل السَبق أن يسبق بالهادى[1] أو بعضه، أو بالكَفَل أو بعضه . والسبق من الرماة على هذا النحو عنده؛ وقول محمد بن الحسن فى هذا الباب نحو قول الشافعى .

السابعـــة — روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلّى أبو بكر وثَلَّث عمر ؛ ومعنى وصلّى أبو بكر: يعنى أن رأس فرسه كان عند صَلاَ فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصَّلَوَان موضع العَجُز .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أى عنـد ثيابنا وأقمشتنا حارسا لهـا . ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنهم لمـا سمعوا أباهم يقول : « وأخاف أن يأكله الذئب » أخذوا ذلك من فيه فتحرّموا به ؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ أى بمصدق. ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ أى و إن كنا ؛ قاله المـبرد وآبن إسحق . ﴿ صَادِقِينَ ﴾ فى قولنـا ؛ ولم يصدقهم يعقوب لِمـا ظهر له منهم من قوة التّهمة وكثرة الأدلة على خلاف ما قالوه على ما يأتى بيانه . وقيل : « ولو كنا صادِقين » أى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا، ولاتّهمتنا فى هذه القضية، لشدة محبتك فى يوسف؛ قال معناه الطبرى والزجاج وغيرهما .

(١) الهادى : العنق لتقدمه ؛ والجمع (هواد) .

قوله تعالى : وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « بِدَمٍ كَذِبٍ » قال مجاهد : كان دم سخلة أو جَدْى ذبحوه[1] . وقال قتادة : كان دم ظبية ؛ أى جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه ، فوصف الدم بالمصدر ، فصار تقديره : بدم ذى كذب ؛ مثل : « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ » والفاعل والمفعول قد يسميان بالمصدر ؛ يقال : هذا ضَرْبُ الأمير ، أى مضروبه ؛ وماء سَكْب أى مسكوب ، وماء غَوْر أى غائر ، ورجل عَدْل أى عادل .

وقرأ الحسن وعائشة : « بِدَمٍ كَدِبٍ » بالدال غير المعجمة ، أى بدم طرِىّ ؛ يقال للدم الطرىّ الكَدِب . وحكى أنه المتغير ؛ قاله الشعبى . والكدب أيضا البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث ؛ فيجوز أن يكون شبه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظُّفْر من جهة ٱختلاف اللونَيْن .

الثانيــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التَّنْيِيب[2] ؛ إذ لا يمكن ٱفتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق ؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خَرْقا ولا أثرا ٱستدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ٱبن عباس وغيره ؛ روى إسرائيل عن سِماك بن حرب عن عِكرمة عن ٱبن عباس قال : كان الدم دم سَخْلة . وروى سفيان عن سِماك عن عِكرمة عن ٱبن عباس قال : لما نظر إليه قال كذبتم ؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص . وحكى الماوردىّ أن فى القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليه بدم كذب ، وحين قُدّ قميصه من دبر ، وحين أُلقِىَ على وجه أبيه فٱرتدّ بصيرا .

(١) فى ع : أو نحوه		(٢) فى ع : التخريق .

قلت : وهـذا مردود؛ فإن القميص الذى جاءوا عليـه بالدم غير القميص الذى قدّ ، وغير القميص الذى أتاه البشير به . وقد قيل : إن القميص الذى قدّ هو الذى أتى به فارتدّ بصيرا، على ما يأتى بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى . وروى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه؛ فاختلف قولهم ، فآتهمهم ، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يفضى إلى جلده، وما أرى بالقميص من شق ؛ وتزعمون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه ؛ هل يريدون إلا ثيابه ؟ ! فقالوا عند ذلك : « وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين » عن الحسن وغيره؛ أى لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا .

الثالثـــة ـــ آستدل الفقهاء بهـذه الآية فى إعمـال الأَمَارات فى مسائل من الفقه كالقَسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام آستدل على كذبهم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت ، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح ، وهى قوة التهمة ؛ ولا خلاف بالحكم بها ؛ قاله آبن العربى .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ روى أن يعقوب لمـا قالوا له : « فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » قال لهم : ألم يترك الذئب له عضوا فتأتونى به آستأنس به؟ ! ألم يترك لى[1] ثوبا أشم فيه رائحته؟ قالوا : بلى! هذا قميصه ملطوخ بدمه؛ فذلك قوله تعالى : « وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أرونى قميصه، فأروه فشمه وقبّله ، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقا ولا تمزيقا ، فقال : والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئبـا أحكم منـه ؛ أكل آبنى واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليـه ؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا ، وأن الذئب لم يأكله ، فأعرض عنهم كالمغضب باكيا حزينا وقال : يامعشر ولدى! دلونى على ولدى ؛ فإن كان حيا رددته إلىّ ، وإن كان ميتا كفنته ودفنته ، فقيـل قالوا حينئـذ : ألم تروا إلى أبينـا كيف يكذبنـا فى مقالتنا! تعالوا نخرجه من الجب ونقطعه عضوا عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا

(١) فى ع : له

فى مقالتنا و يقطع يأسه؛ فقال يهوذا : والله لئن فعلتم لأكونَنّ لكم عدوا ما بقيت، ولأخبرنّ أباكم بسوء صنيعكم؛ قالوا : فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئبا ، قال : فاصطادوا ذئبا ولطخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا : يا أبانا ! إن هذا الذئب الذى يحل بأغنامنا ويفترسها ، ولعله الذى أفجعنا بأخينا لا نشك فيه، وهذا دمه عليه ؛ فقال يعقوب : أطلقوه؛ فأطلقوه، وتَبَصْبَصَ له الذئب، فأقبل يدنو [منه](١) و يعقوب يقول له : آدن آدن؛ حتى ألصق خدّه بخدّه(٢) فقال له يعقوب : أيها الذئب ! لم فجعتنى بولدى وأورثتنى حزنا طويلا؟ ! ثم قال اللهم أنطقه، فأنطقه الله تعالى فقال : والذى آصطفاك نبيا ما أكلت لحمه، ولا مزقت جلده ، ولا نتفت شعرة من شعراته، ووالله! ما لى بولدك عهد ، و إنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحى مصر فى طلب أخ لى فقِد، فلا أدرى أحى هو أم ميت ، فاصطادنى أولادك وأوثقونى، و إن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش، وتالله! لا أقمت فى بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش ؛ فأطلقه يعقوب وقال : والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم؛ هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذِمَام أخيه، وأنتم ضيعتم أخاكم، وقد علمت أن الذئب برئ مما جئتم به . ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أى زينت . ﴿ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ غير ما تصفون وتذكرون . ثم قال توطئة لنفسه : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وهى :

الثانيـــة — قال الزجاج : أى فشأنى والذى أعتقـده صبر جميـل . وقال قُطْرُب : أى فصبرى صـبر جميل . وقيـل : أى فصبر جميل أولى بى؛ فهو مبتـدأ وخبره محذوف . و يروى أن النبى صلى الله عليـه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقـال : "هو الذى لا شكوى معه" . وسيأتى له مزيد بيـان آخر السورة إن شاء الله . قال أبو حاتم : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسـف « فصبرا جميـلا » قال : وكذا قـرأ الأشهب العُقَيْلى؛ قال وكذا فى مصحف أنس وأبى صالح . قال المبرّد : « فصبر جميل » بالرفع أولى من النصب ؛ لأن المعنى : قال رب عندى صبر جميل؛ قال : وإنما النصب على المصدر، أى فلأصبرنّ صبرا جميلا؛ قال :

(١) من ع وك وى . (٢) فى ع وك و و : بفخذه .

شـكا إلىّ جَمَـلى طُولَ السُّرَى * صَـبْراً[1] جميـلا فڪلانا مُبْتَلَى

والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ولا شكوى . وقيل : المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين ، بل أعاشركم على ما كنت عليـه معكم ؛ وفى هـذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم . وعن حبيب بن أبى ثابت أن يعقوب كان قـد سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بخرقة؛ فقيل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان ؛ فأوحى الله إليه أتشكونى يا يعقوب؟ ! قال: يارب ! خطيئة أخطأتها فاغفر لى . ﴿ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أى على احتمال ما تصفون من الكذب .

الثالثـــة — قال ابن أبى رفاعة : ينبغى لأهل الرأى أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب صلى الله عليه وسلم وهو نبى؛ حين قال له بنوه: « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْـدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » فأصاب هنـا ؛ ثم قالوا له : « إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ[2] » قال : « بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا » فلم يصب .

قوله تعـالى : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ أى رفقة مارّة يسيرون من الشام إلى مصر فأخطئوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجب ، وكان الجب فى قفرة بعيدة من العمران ، إنمـا هـو للرّعاة والمجتاز، وكان ماؤه ملحا فعـذب حين ألقى فيـه يوسف . ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ فذكر على المعـنى ؛ ولو قال : فأرسـلت واردها لـكان على اللفظ ، مثـل « وجاءت » . والوارد الذى يرد المـاء يستق للقوم ؛ وكان اسمه — فيما ذكر المفسرون — مالك بن دعر[3] ،

(١) ويروى (صبر جميل) فى البيت ، وتحمل على إضمار مبتدأ أو خبر . ويروى (صبرا جميل) على نداء الجمل .

(٢) راجع ص ٢٤٤ من هذا الجزء . (٣) دعر : هو بالدال المهملة و بالذال تصحيف كما فى القاموس .

من العرب العاربة . ﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ أى أرسله ؛ يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليملأها، ودَلَاها أى أخرجها : عن الأصمعى وغيره . ودلا — من ذات الواو — يدلوا دلوا، أى جذب وأخرج، وكذلك أدلى إذا أرسل ، فلما ثقل ردوه إلى الياء، لأنها أخف من الواو؛ قاله الكوفيون . وقال الخليل وسيبويه : لما جاوز ثلاثة أحرف رجع[(١)] إلى الياء، اتباعا للمستقبل. وجمع دَلو فى أقل العدد أَدْلٍ فإذا كثرت قلت : دُلِيّ ودِلِيّ ؛ فقلبت الواو ياء ، إلا أن الجمع بابه التغيير ، وليفرق بين الواحد والجمع ؛ ودِلاء أيضا . فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر، أحسن ما يكون من الغلمان . قال صلى الله عليه وسلم فى حديث الإسراء من صحيح مسلم :"فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطى شطر الحسن" . وقال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جعد الشعر، ضخم العينين، مستوى الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والعضدين ، خميص البطن ، صغير السرة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه ، و إذا تكلم رأيت فى كلامه شعاع الشمس من ثناياه، لا يستطيع أحد وصفه ؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية . وقيل : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن؛ فلما رآه مالك بن دعر قال : « يَا بُشْرَايَ هَـذَا غُلَامٌ » هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة ؛ إلا ابن أبى إسحق فإنه قرأ « يَا بُشْرَيَّ هَذَا غُلَامٌ » فقلب الألف ياء ، لأن هذه الياء يكسر ما قبلها ، فلما لم يجز كسر الألف كان قلبها عوضا . وقرأ أهل الكوفة « يَا بُشْرَى » غير مضاف؛ وفى معناه قولان : أحدهما — اسم الغلام، والثانى — [معناه][(٢)] يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك. قال قتاده والسدى : لما أدلى المدلى دلوه تعلق بها يوسف فقال : يابشرى هـذا غلام؛ قال قتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السدى : نادى رجلا اسمه بشرى . قال النحاس : قول قتادة أولى ؛ لأنه لم يأت فى القرآن تسمية أحد إلا يسيرا ؛ وإنما يأتى بالكناية كما قال عز وجل : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ[(٣)] » وهو عقبة بن أبى معيط، وبعده « يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا » وهو أمية

---

(١) فى ع : ردوه .	(٢) من ع .	(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٥ .

ابن خلف ؛ قاله النحاس. والمعنى فى نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أوكد من قولك تبشرت ، كما تقول : ياعجباه ! أى يا عجب هـذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر؛ وهذا مذهب سيبويه، وكذا قال السُّهيلى . وقيل: هو كما تقول : واسروراه ! وأن البشرى مصدر من الاستبشار: وهذا أصحّ؛ لأنه لو كان اسمـا علما لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم ؛ وعلى هذا يكون « بُشْرَایَ » فى موضع نصب، لأنه نداء مضاف؛ ومعنى النداء هاهنا التنبيه ، أى انتبهوا لفرحتى وسرورى؛ وعلى قول السُّدّى يكون فى موضع رفع كما تقول : يازيد هذا غلام. ويجوز أن يكون محله نصبا كقولك: يارجلا، وقوله : « يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » [1] ولكنه لم ينون « بُشْرَى » لأنه لا ينصرف. ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ الهاء كناية عن يوسف عليه السلام؛ فأما الواو فكناية عن إخوته . وقيل : عن التجار الذين آشتروه، وقيل : عن الوارد وأصحابه . « بِضَاعَةً » نصب على الحال . قال مجاهد : أسرّه مالك بن دُعْر وأصحابه من التجار الذين معهم فى الرفقـة ، وقالوا لهم : هو بضاعة آستبضعناها بعضُ أهل الشام أو أهل هذا المـاء إلى مصر ؛ وإنمـا قالوا هـذا خيفة الشركة . وقال آبن عباس : أسرّه إخوة يوسف بضاعة لمـا آستخرج من الجبّ ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئس ما صنعتم ! هذا عبد لنـا أَبِق ، وقالوا ليوسف بالعبرانيـة : إما أن تُقِرّ لنـا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء، وإما أن نأخذك فنقتلك؛ فقال : أنا أقرّ لكم بالعبودية ، فأقرّ لهم فباعوه منهم . وقيل : إن يهوذا وصّى أخاه يوسف بلسانهم أن آعترِف لإخوتك بالعبـودية فإنى أخشى إن لم تفعل قتلوك ؛ فلعـل الله أن يجعـل لك مخرجا ، وتنجو من القتل ، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ؛ فقال مالك : والله ما هذه سمة العبيد ! ، قالوا : هو تربّى فى حجورنا ، وتخلق بأخلاقنا، وتأدّب بآدابنا ؛ فقال : ماتقول ياغلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت فى حجورهم، وتخلقت بأخلاقهم؛ فقال مالك : إن بعتموه منى آشتريته [2] منكم ؛ فباعوه منه ؛ فذلك :

قوله تعـالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٢ . (٢) فى ع : اشتريتك منهم . أى على الالتفات .

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ يقال : شريت بمعنى اشتريت، وشريت بمعنى بعت لغة؛ قال الشاعر[١] :

وشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي * مِن بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هَامَهْ

أى بعت . وقال آخر :

فلما شَرَاها فاضت العينُ عَبرةً * وفى الصَّدرِ حُزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ[٢]

﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أى نقص ؛ وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أى باعوه بثمن مبخوس، أى منقوص . ولم يكن قصد إخوته مايستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم مايستفيدونه من خلو وجه أبيهم عنه . وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الجبّ فأخبر إخوته فجاءوا وباعوه من الواردة . وقيل : لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعرفون الخبر، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا : هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم . وقال قتادة : « بَخْسٍ » ظلم . وقال الضّحاك ومقاتل والسُّدى وابن عطاء : « بَخْسٍ » حرام . وقال ابن العربى : ولا وجه له، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم مايستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم مايستفيدون من خلو وجه أبيهم عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطَعا؛ أو قالوا[٣] لأصحابهم : أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يُعطُوا عنه ثمنا وأنّ ما أخذوا فيه ربح كلّه .

قلت : قوله « وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة » يدلّ على أنهم لو أخذوا القيمة فيه[٤] كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك ؛ فدلّ على صحة ماقاله السُّدى وغيره ؛ لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها، فلذلك كان لا يحلّ لهم ثمنه . وقال عِكرمة والشّعبى : قليل . وقال ابن حيان : زَيْف . وعن ابن عباس وابن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ كل واحد من إخوته درهمين، وكانوا عشرة ؛ وقاله قتادة والسّدى . وقال أبو العالية

(١) هو يزيد بن مفرغ الحميرى، و(برد) اسم عبد كان له ندم على بيعه . (٢) البيت للشماخ، قاله فى رجل باع قوسه من رجل . وحامز : عاصر، وقيل : أى ممض محرق . ويروى : من الوجد . (اللسان) .
(٣) فى ع وك و و : وقالوا . (٤) فى ع وك وى : وافية كاملة .

ومقاتل : اثنين وعشرين درهما، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمين؛ وقاله مجاهد . وقال عِكرمة : أربعين درهما ؛ وما روى عن الصحابة أولى . و « بخس » من نعت « ثمن » . ﴿ دَرَاهِمَ ﴾ على البدل والتفسير له . ويقال : دراهيم على أنه جمع دِرهام، وقد يكون اسما للجمع عند سيبويه، ويكون أيضا عنده على أنه مدّ الكسرة فصارت ياء، وليس هذا مثل مدّ المقصور؛ لأن مدّ المقصور لا يجوز عند البصريين فى شعر ولا غيره . وأنشد النحويون :

تَنْفِي يداها الحَصَى فى كلّ هاجِرةٍ * نَفْىَ الدّراهِيمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ [(١)]

﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ نعت؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجرى عندهم عدّا لا وزنا بوزن[(٢)]. وقيل: هو عبارة عن قلة الثمن ؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما [كان[(٣)]] دون الأوقية ، وهى أربعون درهما .

الثانية — قال القاضى ابن العربى : وأصل النقدين الوزن؛ قال صلى الله عليه وسلم: "لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنا بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى". والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما عينها فلا منفعة فيه ، ولكن جرى فيها العدّ[(٤)] تخفيفا عن الخلق لكثرة المعاملة، فيشق الوزن؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لجاز بيع بعضها ببعض عدّا[(٤)] إذا لم يكن بها نقصان ولا رجحان ؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك كان كسرها أو قرضها من الفساد فى الأرض حسب ما تقدّم .

الثالثة — وآختلف العلماء فى الدراهم والدنانير هل تتعين أم لا ؟ وقد آختلفت الرواية فى ذلك عن مالك : فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين ، وهو الظاهر من قول مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة . وذهب آبن القاسم إلى أنها تتعين، وحكى عن الكرخى ؛ وبه قال الشافعى . وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا لا تتعيّن فإذا قال : بعتك هذه الدنانير بهذه

---

(١) البيت للفرزدق ؛ وصف ناقة سريعة السير فى الهواجر، فشبه خروج الحصى من تحت مناسمها بارتفاع الدراهم عن الأصابع إذا نقدت .
(٢) فى ع و ى : يوزن .
(٣) من ع و ك و ى .
(٤) فى ع و ك و و و ى : العدد .

الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها ، والدراهم بذمة صاحبها ؛ ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء ، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها .

الرابعـــة — رُوى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه قضى فى اللّقيـط أنه حر ، وقرأ : « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وقد مضى القول فيه .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ قيـل : المراد إخوته . وقيل : السيارة . وقيل : الواردة ؛ وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبيطا ، لا عند الإخوة ؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أَبِق منا — والزهد قـلة الرغبة — ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أولى .

السادســـة — فى هـذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ، ويكون البيع لازما ؛ ولهذا قال مالك : لو باع درّة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال لم أعلم أنها درّة وحسبتها مَخْشَلَبة(١) لزمه البيع ولم يلتفت إلى قوله . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » أى فى حسنه ؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شَـطْر الحسن صرف عنـه دواعى نفوس القوم إليه إكراما له . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » لم يعلموا منزلته عند الله تعالى . وحكى سيبويه والكسائى : زَهِدت وزَهَدت بكسر الهاء وفتحها .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

(١) المخشلبة : خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ قيل : الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال، إذ لم يكن ذلك عقدا، مثل: « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ »(١). وقيل: إنهم ظنوه فى ظاهر الحال آشتراء، فجرى هذا اللفظ على ظاهر الظن . قال الضّحاك : هذا الذى آشتراه ملك مصر، ولقبه العزيز . السُّهيلى : وآسمه قطفير . وقال آبن إسحق : إطفير بن رويحب آشتراه لآمرأته راعيل؛ ذكره المـاوردىّ . وقيل : كان اسمها زَلِيخَاء . وكان الله ألقى محبـة يوسف على قلب العزيز، فأوصى به أهله ؛ ذكره القُشيرىّ . وقد ذكر القولين فى آسمها الثّعلبىّ وغيره . وقال آبن عباس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر، وهو الريان بن الوليد . وقيل : الوليد بن الريان، وهو رجل من العمالقة . وقيـل : هو فرعون موسى؛ لقول موسى : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » وأنه عاش أربعمائة سنة . وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، على ما يأتى فى « غافر »(٢) بيانه . وكان هذا العزيز الذى آشترى يوسف على خزائن الملك؛ واشـترى يوسف من مالك بن دُعْر بعشرين دينارا ، وزاده حلة ونعلين . وقيل : اشتراه من أهل الرفقة . وقيل : تزايدوا فى ثمنـه فبلغ أضعاف وزنه مِسْكا وعنبرا وحريرا وورِقا وذهبا ولآلىء وجواهر لايعلم قيمتها إلا الله؛ فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن ؛ قاله وهب بن منبّه . وقال وهب أيضا وغيره : ولمـا آشـترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتابا : « هذا ما آشترى مالك بن دعر من بنى يعقوب ، وهم فلان وفلان مملوكا لهم بعشرين درهما ، وقد شرطوا له أنه آبق ، وأنه لا ينقلب به إلا مقيدا مسلسلا ، وأعطاهم على ذلك عهد الله . قال : فودّعهم يوسف عند ذلك ، وجعل يقول : حفظكم الله وإن ضيعتمونى، نصركم الله وإن خذلتمونى، رحمكم الله وإن لم ترحمونى ؛ قالوا : فألقت الأغنام ما فى بطونها دما عَبِيطا(٣) لشدّة هـذا التوديع ، وحملوه على قتب بغير غطاء ولا وطاء، مقيـدا مكبّلا مسلسلا، فمرّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمّه — وقد كان وكل به أسود يحرسه فغفل الأسود — فألقى يوسف نفسه على قبر أمّه فجعل يتمرّغ

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٠ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣١٢ . (٣) الدم العبيط : الطرىّ .

و يعتنق القبر و يضطرب و يقول : يا أماه ! آرفعى رأسك ترى ولدك مكبلا مقيدا مسلسلا مغلولا ؛ فرّقوا بيني و بين والدى ، فاسألى الله أن يجمع بيننا فى مستقرّ رحمته إنه أرحم الراحمين ، فتفقده الأسود على البعير فلم يره ، فقفا أثره ، فإذا هو ببياض على قبر، فتأمله فإذا هو إياه ، فركضه برجله فى التراب ومرغه وضربه ضربا وجيعا ؛ فقال له : لا تفعل ! والله ما هربت ولا أبقت وإنما مررت بقبر أمى فأحببت أن أودّعها ، ولن أرجع إلى ما تكرهون ؛ فقال الأسود : والله إنك لعبد سوء ، تدعو أباك مرة وأمك أخرى ! فهلا كان هذا عند مواليك ؛ فرفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إن كانت لى عندك خطيئة أخلقت بها وجهى فأسألك بحق آبائى إبراهيم و إسحق و يعقوب أن تغفر لى وترحمنى ؛ فضجّت الملائكة فى السماء ، ونزل جبريل فقال له : يا يوسف ! غُضّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء ! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها؟ قال : تثبت يا جبريل ، فإن الله حليم لا يعجل ؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت ، وآرتفع الغبار ، وكسفت الشمس ، و بقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضا ؛ فقال رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثا؟ — فإنى أسافر منذ كيت وكيت ما أصابنى قطّ مثل هذا — فقال الأسود : أنا لطمت ذلك الغلام العبرانى فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه ، ولا أشك أنه دعا علينا ؛ فقال له : ما أردت إلا هلاكنا ! آيتنا به ، فأتاه به ، فقال له : يا غلام ! لقد لطمك فجاءنا ما رأيت ؛ فإن كنت تقتص فاقتص ممن شئت ، و إن كنت تعفو فهو الظنّ بك ؛ قال : قد عفوت رجاء أن يعفو الله عنى ؛ فانجلت الغبرة ، وظهرت الشمس ، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها ، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشى و يكرمه ، حتى وصل إلى مصر فاغتسل فى نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر ، وردّ عليه جماله ، ودخل به البلد نهارا فسطع نوره على الجدران ، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطفير وزير الملك ؛ قاله آبن عباس على ما تقدّم . وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وآتبع يوسف على دينه ، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزائن الأرض ؛ فملك بعده قابوس وكان كافرا ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى . ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أى منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن ؛ وهو

مأخوذ من ثوى بالمكان أى أقام به ؛ وقد تقدّم فى « آل عمران »[١] وغيره. ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ أى يكفينا بعض المهمات إذا بلغ. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ قال ٱبن عباس : كان حَصُورًا لا يولد له، وكذا قال ٱبن ٱسحق : كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له. فإن قيل : كيف قال « أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » وهو ملكه، والوَلَدية مع العبدية تتناقض ؟ قيل له : يعتقه ثم يتخذه ولدا بالتّبنّى ؛ وكان التّبنى فى الأمم معلوما عندهم، وكذلك كان فى أوّل الإسلام، على ما يأتى بيانه فى « الأحزاب »[٢] إن شاء الله تعالى. وقال عبد الله بن مسعود : أحسن الناس فراسة ثلاثة ؛ العزيز حين تفرّس فى يوسف فقال : « عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا »، وبنت شعيب حين قالت لأبيها فى موسى «ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ»[٣]، وأبو بكر حين ٱستخلف عمر. قال ٱبن العربى : عجبا للمفسرين فى اتفاقهم على جلب هذا الخبر ! والفراسة هى علم غريب على ما يأتى بيانه فى سورة « الحِجْر »[٤] وليس كذلك فيما نقلوه؛ لأن الصدّيق إنما ولّى عمر بالتجربة فى الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنّة، وليس ذلك من طريق الفراسة؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتى بيانه فى «القَصَص»[٤]. وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة. والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الكاف فى موضع نصب؛ أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الجبّ فكذلك مكنا له؛ أى عطفنا عليه قلب الملك الذى ٱشتراه حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مستول عليه. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أى فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب : « وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ». وقيل : المعنى مكّناه لنوحى إليه بكلام منا، ونعلمه تأويله وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتم الكلام. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ الهاء راجعة إلى الله تعالى؛ أى لا يغلب الله شىء، بل هو الغالب على أمر

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٣.
(٢) راجع جـ ١٤ ص ١١٨ فما بعد وص ١٨٨ فما بعد.
(٣) جـ ١٠ ص ٤٢ فما بعد.
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٧١.

نفسه فيما يريده أن يقول له : كُنْ فَيَكُونُ . وقيل : ترجع إلى يوسف؛ أى الله غالب على أمر يوسف يدبّره ويحوطه ولا يكله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيدُ كائد . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يطلعون على غيبه . وقيل : المراد بالأكثر الجميع ؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب . وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطلِع من يريد على بعض غيبه . وقيل : المعنى «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» أن الله غالب على أمره، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقَدَر . وقالت الحكماء فى هذه الآية : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » حيث أمره يعقوب ألّا يقصّ رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قَصّ، ثم أراد إخوتُه قتله فغلب أمر الله حتى صار مِلكا وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، وٱفتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال : « يَا أَسَفَا عَلَىٰ يُوسُفَ » ثم تدبّروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين، أى تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصرّوا عليه حتى أقرّوا بين يدى يوسف فى آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم : «إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ» ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص [فغلب أمر الله] فلم ينخدع، وقال : «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا» ثم ٱحتالوا فى أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق فى قلبه، ثم دبّرت ٱمرأة العزيز أنها إن ٱبتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمر الله حتى قال العزيز: « ٱسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ »، ثم دبّر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقى فغلب أمر الله فنسى الساقى، ولبث يوسف فى السجن بِضع سنين.

قوله تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ « أَشُدَّهُ » عند سيبويه جمع ، واحده شِدّة . وقال الكسائى : واحده شَدٌّ ؛ كما قال الشاعر[1] :

عَهْدِى به شَدَّ النَّهارِ كأنّما * خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ

(١) من ع و ك و و و ى . (٢) هو عنترة العبسى . وشد النهار : أى أشده ، يعنى أعلاه . واللبان : الصدر ، وقيل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين ، ويروى : « البنان » . والعظلم عصارة شجر أو نبت يصبغ به ، أو الوسمة ، وهى شجرة ورقها خضاب .

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه ٱستكمال القوّة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقَتادة : الأَشُدّ ثلاث وثلاثون سنة . وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك ٱبن أنس: الأَشُدّ بلوغ الحُلُم؛ وقد مضى ما للعلماء فى هذا فى «النساء»(١) و «الأنعام»(٢) مستوفى. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قيل : جعلناه المستولى على الحُكْم ، فكان يحكم فى سلطان الملك؛ أى وآتيناه عِلما بالحُكْم . وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة . وقيل : الحُكْم النبوّة، والعِلم عِلم الدين؛ وقيل : علم الرؤيا ؛ ومن قال : أوتى النبوّة صبِيا قال : لما بلغ أشدّه زدناه فهما وعلما . ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ يعنى المؤمنين . وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف؛ قاله الضحاك . وقال الطبرى : هذا وإن كان مخرجه ظاهرا على كل محسِن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته، كذلك أنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكّن لك فى الأرض .

قوله تعالى : وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ وهى ٱمرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها. وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين . والرّوْد والرِّياد طلب الكلأ؛ وقيل: هى من رويد؛ يقال : فلان يمشى رُوَيْدا، أى برفق؛ فالمراودة الرفق فى الطلب؛ يقال

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ فما بعد .

فى الرجل : راودها عن نفسها، وفى المرأة راودته عن نفسه . والرّود التأنّى؛ يقال : أَرْوِدْنى أمهلنى . ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ غلّق للكثير، ولا يقال : غَلَق البــابَ ؛ وأَغلَق يقع للكثير والقليل؛ كما قال الفَرَزْدق فى أبى عمرو بن العلاء :

ما زلتُ أُغلق أبوابًا وأفتحُهَــا * حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّــارِ

يقال : إنها كانت سبعة أبواب غلّقتهــا ثم دعته إلى نفسها . ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أى هَلُمّ وأقبِلْ وتَعالَ؛ ولا مصدر له ولا تصريف . قال النحاس : فيها ســبع قراءات ؛ فمن أجلّ ما فيها وأصحّه إسنادا ما رواه الأعمش عن أبى وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ « هَيْتَ لَكَ » قال فقلت : إن قوما يقرءونها « هِيتَ لك » فقال : إنمــا أقرأ كما عُلّمت . قال أبو جعفر : و بعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولا يبعد ذلك؛ لأن قوله : إنمــا أقرأ كما علّمت يدلّ على أنه مرفوع ، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هى الصحيحة من قــراءة ٱبن عباس وســعيد بن جُبير والحسن ومجاهد وعكرمة؛ و بهــا قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحمزة والكسائىّ . قال عبد الله بن مسعود : لا تقطعوا فى القرآن ؛ فإنما هو مثــل قول أحدكم : هَلمّ وتَعالَ . وقرأ ٱبن أبى إسحق النحوى « قَالَتْ هَيْتِ لَكَ » بفتح الهــاء وكسر التاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ وٱبن كثير « هَيْتُ لَكَ » بفتح الهــاء وضم التاء؛ قال طَرَفة :

ليس قــومى بالأَبْعَدِين إذا ما * قال داعٍ من العَشيرة هَيْتُ

فهذه ثلاث قراءات الهــاء فيهنّ مفتوحة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع «وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ» بكسر الهــاء وفتح التاء . وقــرأ يحيى بن وثّاب « وَقَالَت هِيتُ لَكَ » بكسر الهــاء و بعدها ياء ساكنة والتــاء مضمومة . ورُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنــه وٱبن عباس ومجاهــد وعكرمة: « وَقَالَتْ هِئْتُ لَكَ » بكسر الهــاء و بعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة. وعن ٱبن عامر وأهل الشام: «وَقَالَتْ هِئْتَ» بكسر الهاء و بالهمزة و بفتح التاء؛ قال أبو جعفر: « هِئْتَ لَكَ » بفتح التاء لالتقــاء الساكنين ، لأنه صوت نحو مَهْ وصَــهْ يجب ألّا يعرب،

والفتح خفيف؛ لأن قبل التاء ياء مثل أيْنَ وكيفَ؛ ومَن كسر التاء فإنما كسرها لأن الأصل الكسر؛ لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية؛ أى قالت: دعانى لك، فلما حذفت الإضافة بنى على الضم؛ مثل حيثُ و بعدُ . وقراءة أهل المدينة فيها قولان : أحدهما — أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مرّ . والآخر — أن يكون فعلا من هَاءَ يَهِيء مثل جاء يجيء؛ فيكون المعنى فى «هِئْتَ» أى حسنت هيئتك، ويكون «لَكَ» من كلام آخر، كما تقول : لكَ أعنى . ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأتُ لك؛ وكذلك من قرأ « هِيتُ لَكَ » . وأنكر أبو عمرو هذه القراءة؛ قال أبو عبيدة — مُعْمَر بن المُثَنَّى : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزا فقال أبو عمرو : باطل؛ جعلها من تهيأت ! آذهب فاستعرِض العربَ حتى تنتهى إلى اليمن هل تعرف أحدا يقول هذا ؟ ! وقال الكسائى أيضا : لم تُحكَ «هِئْتُ» عن العرب . قال عِكرمة : «هِئْتُ لَكَ» أى تهيأت لك وتزينت وتحسنت ، وهى قراءة غير مرضية، لأنها لم تسمع فى العربية . قال النحاس : وهى جيِّدة عند البصريين؛ لأنه يقال : هَاءَ الرجلُ يَهاء ويَهِيء هيأةً فهاء يهىء مثل جاء يجىء وهِئْتُ مثل جئت . وكسر الهـاء فى « هيت » لغـة لقوم يؤثرون كسر الهـاء على فتحها . قال الزجاج : أجود القراءات « هَيْتَ » بفتح الهـاء والتاء؛ قال طَرَفة :

ليس قـومى بالأبعدين إذا ما * قال داعٍ من العشيرة هَيْتَ

بفتح الهـاء والتـاء .

وقال الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه :

أَبلغْ أمـير المـؤمنـــينَ * أخا العراقِ إذا أَتيتَا

إنّ العراقَ وأهلَهُ * سِلْمٌ إليك فَهَيْتَ هَيْتَا

قال آبن عباس والحسن : « هيت » كلمة بالسريانيـة تدعوه إلى نفسها . وقال السُّدىّ : معناها بالقبطية[(١)] هلمّ لك . قال أبو عبيد : كان الكسائىّ يقول : هى لغة لأهل حَوْران وقعت إلى أهـل الحجاز معناه تعالَ ؛ قال أبو عبيـد : فسألت شيخا عالمـا من حَوْرَان فذكر أنهـا

(١) فى ع : النبطية .

لغتهم، وبه قال عِكْرمة . وقال مجاهد وغيره : هى لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها، وهى كلمة حثّ وإقبال على الأشياء ؛ قال الجوهرىّ : يقال هَوّتَ به وهَيَّتَ به إذا صاح به ودعاه ؛ قال :

قد رابنى أنّ الكَرِىَّ أَسْكَتَا * لوكان مَعْنِيًّا بها لَهَيَّتَا

أى صاح؛ وقال آخر :

* يَحْدو بها كُلُّ فتًى هَيَّاتِ *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ أى أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتنى إليه؛ وهو مصدر، أى أعوذ بالله مَعاذا؛ فيحذف المفعول وينتصب المصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى آسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول، كما تقول : مررت بزيد مرورَ عمرو أى كمرورى بعمرو . ﴿ إِنَّهُ رَبِّى ﴾ يعنى زوجها، أى هو سيّدى أكرمنى فلا أخونه؛ قاله مجاهد وآبن إسحق والسدّى . وقال الزجاج : أى إن الله ربى تولانى بلطفه، فلا أركب ما حرّمه. ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وفى الخبر أنها قالت له : يا يوسف ! ما أحسن صورة وجهك ! قال : فى الرَّحِم صوّرنى رَبِّى؛ قالت : يا يوسف ما أحسن شَعْرك ! قال : هو أول شىء يَبْلَى منّى فى قبرى؛ قالت : يايوسف ! ما أحسن عينيك ؟ قال : بهما أنظر إلى ربّى . قالت : يا يوسف ! آرفع بصرك فآنظر فى وجهى ، قال : إنى أخاف العمى فى آخرتى . قالت يا يوسف ! أدنو منك وتتباعد منى ؟! قال : أريد بذلك القرب من ربّى . قالت : يايوسف ! القَيْطونَ[1] [فرشته لك][2] فآدخل معى، قال : القَيْطُون لا يسترنى من ربّى . قالت : يايوسف ! فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقض حاجتى، قال : إذًا يذهب من الجنة نصيبى؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن همّ بها . وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمِلْنَ إلى يوسف مَيْل شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليه هيبة النبوّة؛ فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه . وآختلف العلماء فى همّه ؛ ولا خلاف أن همّها كان المعصية ، وأما يوسف فهمّ بها

---

(١) القيطون : المخدع ، أعجمىّ ، وقيل : بلغة أهل مصر والبربر . (٢) من ى .

﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما همّ ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء ؛ قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ فإذًا فى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى لولا أن رأى برهان[1] ربه همّ بها . قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على أبى عبيدة فلما أتيت على قوله : « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا » الآية ، قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير ؛ كأنه أراد ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها . وقال أحمد بن يحيى : أى همت زليخاء بالمعصية وكانت مصرّة ، وهمّ يوسف ولم يواقع ما همّ به ؛ فبين الهمّتين فرق ، ذكر هذين القولين الهروىّ فى كتابه . قال جميل :

هَمَمْتُ بِهَمٍّ من بُثَينةَ لو بَدَا * شَفيتُ غَليلاتِ الهوَى من فُؤاديَا

آخـر :

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتنى * تركتُ على عثمان تبكى حلائلُه

فهذا كله حديث نفس من غير عزم . وقيل : همّ بها تمنى زوجيتها . وقيل : همّ بها أى بضربها[2] ودفعها عن نفسه ، والبرهان كفه عن الضرب ؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها . وقيل : إن همّ يوسف كان معصية ، وأنه جلس منها مجلس الرجل من آمرأته ؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم ، فيما ذكر القُشيرىّ أبو نصر ، وآبن الأنبارىّ والنحاس والماوردىّ وغيرهم . قال آبن عباس : حلّ الهِمْيان[3] وجلس منها مجلس الخاتن ، وعنه : آستلقت على قفاها وقعد بين رجليها ينزع ثيابه . وقال سعيد بن جُبير : أطلق تِكّة سراويله . وقال مجاهد : حلّ السراويل حتى بلغ الأليتين ، وجلس منها مجلس الرجل من آمرأته . قال آبن عباس : ولما قال : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قال له جبريل : ولا حين هممت بها يا يوسف ؟! فقال عند ذلك : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » . قالوا : والآنكفاف فى مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص ، وأعظم للثواب .

---

(١) فى ع : رأى البرهان برهان .
(٢) هذا هو اللائق بالمعصوم دون سواه من المعانى .
(٣) الهميان شداد السراويل .

قلت : وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذى الكفل حسب ما يأتى بيانه فى «ص»(١) إن شاء الله تعالى . وجواب « لولا » على هذا محذوف؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما همّ به؛ ومثله « كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ »(٢) وجوابه لم تتنافسوا ؛ قال ابن عطية : روى هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف ، وقالوا : الحكمة فى ذلك أن يكون مثلا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم، ولم يوبقه القرب من الذنب، وهذا كله على أن همّ يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلى زليخاء وأخذ فى حلّ ثيابه وتِكّته ونحو ذلك ، وهى قد استلقت له ؛ حكاه الطبرى . وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام : وابن عباس ومن دونه لا يختلفون فى أنه همّ بها ، وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه، وأشدّ تعظيما للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم . وقال الحسن : إن الله عز وجل لم يذكر معاصى الأنبياء ليعيرهم بها ؛ ولكنه ذكرها لكيلا تيئسوا من التوبة. قال الغزنوى: مع أن لزلة الأنبياء حِكَمًا : زيادة الوجل، وشدّة الحياء بالخجل، والتخلّى عن عجب العمل ، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل ، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل . قال القُشيرى أبو نصر : وقال قوم جرى من يوسف همّ، وكان ذلك [الهمّ](٣) حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد، وتناول الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس فى النفس؛ والبرهان صرفه عن هذا الهمّ حتى لم يصر عزما مصمما .

قلت : هذا قول حسن ؛ وممن قال به الحسن . قال ابن عطية : الذى أقول به فى هذه الآية إن كون يوسف نبيا فى وقت هذه النازلة لم يصح، ولا تظاهرت به رواية؛ وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتى حُكما وعلما ، ويجوز عليه الهمّ الذى هو إرادة الشىء دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الردىء على ما فى ذلك من الخطيئة؛ وإن فرضناه نبيا فى ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندى إلا الهمّ الذى هو خاطر، ولا يصح عليه شىء مما ذكر من حلّ تِكّته

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢١٨ وجـ ١١ ص ٣٢٧　(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٧٣　(٣) من ع وك وو .

ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوّة . وما روى من أنه قيل له : « تكون فى ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء » فإنمــا معناه العِدَة بالنبوّة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من [هذا][1] التفصيل صحيح؛ لكن قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ » يدلّ على أنه كان نبيًّا على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء، وإذا كان نبيًّا فلم يبق إلّا أن يكون الهمّ الذى همّ به ما يخطر فى النفس ولا يثبت فى الصدر؛ وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لاقدرة للمكلَّف على دفعه؛ ويكون قوله : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » — إن كان من قول يوسف — أى من هذا الهمّ، أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف، لمخالفة النفس لمــا زكّى به قبل وبُرِّئ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال : « وَلَمَّــا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » على ماتقدّم بيانه، وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزّنى ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبى فى أهله؛ فمــا تعرّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفرّ منها؛ حكمة خص بهــا، وعملا بمقتضى ما علّمه الله . وفى صحيح مسلم عن أبى هُريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرّاى[2] ". وقال عليه السلام مخبرا عن ربه : " إذا همّ عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة " فإن كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفى الصحيح : " إن الله تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها مالم تعمل أو تكلّم به " وقد تقدّم . قال ابن العربى : كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية، — وأىّ إمام — يعرف بابن عطاء ! تكلّم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال : يا شيخ ! يا سيدنا ! فإذًا يوسف همّ وما تمّ ؟ قال : نعم ! لأن العناية من ثَمّ . فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم ، وانظر إلى فطنة العامى فى سؤاله ،

(١) من ع . (٢) من جراى : أى من أجلى ، وفى نسخة من صحيح مسلم " من جرائى " .

وجواب العالم فى آختصاره وآستيفائه ؛ ولذلك قال علماء الصوفية : إن فائدة قوله : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة .

قلت : و إذا تقررت عصمته و براءته بثناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَب بن عثمان : إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها ، فاشتاقته آمرأة فسامته نفسها فامتنع عليها وذكّرها ، فقالت : إن لم تفعل لأشهرنك ؛ فخرج وتركها ، فرأى فى منامه يوسف الصديق عليه السلام جالسا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذى همَمتُ، وأنت سليمان الذى لم تهمّ ؟ ! فإن هـذا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوّة وهو محال ؛ ولو قدّرنا يوسف غير نبي فدرجته الولاية ، فيكون محفوظا كهو ؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب ، وروجع فى المقال والخطاب ، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليه الفتنة ، وعظيم المحنة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [« أن » فى موضع رفع أى لولا رؤية برهان ربه[1]] والجواب محذوف لعلم السامع ؛ أى لكان ما كان . وهذا البرهان غير مذكور فى القرآن ؛ فرُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن زليخاء قامت إلى صنم مكلّل بالدرّ والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحى من إلهى هذا أن يرانى فى[2] هـذه الصورة ؛ فقال يوسف : أنا أولى أن أستحى من الله ؛ وهذا أحسن ما قيل فيه ؛ لأن فيه إقامة الدليل . وقيل : رأى مكتوبا فى سقف البيت « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا[3] » . وقال آبن عباس : بدت كفّ مكتوب عليها[4] «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ[5]» وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه . وقيل : نودى يا يوسف ! أنت مكتوب فى [ديوان[6]] الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟ ! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضا على أنملته يتوعده فسكن ، وخرجت شهوته من أناملـه ؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن والضّحاك وأبو صالح وسعيد بن جُبير . وروى الأعمش عن مجاهد قال : حلّ سراويله فتمثل له يعقوب ، وقال له :

---

(١) من ع ، ك .　(٢) فى ع وك : على .　(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٣ .
(٤) فى ع : وعن .　(٥) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٥ .　(٦) من ع .

يا يوسف ! فولّى هاربا . وروى سفيان عن أبى حصين عن سعيد بن جُبير قال : مثـل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله ؛ قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب آثنا عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان، ونقص بتلك الشهوة ولده؛ وقيل غير هذا . وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمـانه ، وآمتنع عن المعصية .

قوله تعـالى : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْـهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ الكاف من « كَذَٰلِكَ » يجوز أن تكون رفعا ، بأن يكون خبر آبتـداء محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويكون نعتـا لمصدر محذوف ؛ أى أريناه البراهين رؤية كذلك . والسوء الشهوة ، والفحشاء المبـاشرة. وقيل : السـوء الثناء القبيح، والفحشاء الزنى . وقيل : السـوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة . وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو وآبن عامر « المخلِصين » بكسر اللام ؛ وتأويلها الذين أخلصـوا طاعة الله . وقـرأ الباقون بفتح اللام ، وتأويلها : الذين أخلصهم الله لرسالته ؛ وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين؛ لأنه كان مخلِصا فى طاعة الله تعالى ، مستخلَصا لرسالة الله تعالى .

قوله تعـالى : وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿وَٱسْتَبَقَا الْبَـابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ .

فيـــه مسئلتـــان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ قالت العلماء : وهذا من آختصار القرآن المعجز الذى يجتمع فيه المعانى؛ وذلك أنه لمـا رأى برهان ربه هرب منهـا فتعاديا ، هى لتردّه إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فأدركته قبل أن يخرج . «وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ» أى من خلفه؛ قبضت فى أعلى قميصه فتخرّق القميص عنـد طوقه ، ونزل التخريق إلى أسفل القميص .

والاستباق طلب السّبق إلى الشيء ؛ ومنه السّباق . والقدّ القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا ؛ قال النابغة[(١)] :

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضَاعَفَ نَسْجُهُ * وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

والقَطّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرْضا . وقال المفضّل بن حرب : قرأت فى مصحف « فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ عُطَّ مِنْ دُبُرٍ » أى شُقّ . قال يعقوب : العَطّ الشّق فى الجلد الصحيح والثوب الصحيح . وحذفت الألف من «ٱسْتَبَقَا» فى اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها؛ كما يقال: جاءنى عبدُ الله فى التثنية؛ ومن العرب من يقول : جاءنى عبدا الله بإثبات الألف بغير همز، يجمع بين ساكنين ؛ لأن الثانى مدغم ، والأوّل حرف مدّ ولين . ومنهم من يقول : عبدا الله بإثبات الألف والهمز ، كما تقول فى الوقف .

الثانيـــة ــ فى الآية دليل على القياس والاعتبار ، والعمل بالعرف والعادة؛ لما ذكر من قدّ القميص مقبلا ومدبرا ، وهذا أمر ٱنفرد به المالكية فى كتبهم؛ وذلك أن القميص إذا جُبِذ من خلف تمزّق من تلك الجهة ، وإذا جُبِذ من قدّام تمزق من تلك الجهة ، وهذا هـو[(٢)] الأغلب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى ٱلْبَابِ ﴾ أى وجدا العزيز عند الباب، وعُنِيَ بالسيّد الزوج ؛ والقبط يسمّون الزوج سيّدا . يقال : ألفاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كله بمعنى واحد[(٣)] ؛ فلما رأت زوجها طلبت وجها للحيلة[(٤)] وكادت فـ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ أى زنى . ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تقول : يُضرب ضربا وجيعا . و « مَا جَزَآءُ » ابتداء، وخبره «أَن يُسْجَنَ» . «أَوْ عَذَابٌ» عطف على موضع «أَن يُسْجَنَ» لأن المعنى : إلا السّجن . ويجوز أو عذابا أليما بمعنى : أو يعذّب عذابا أليما؛ قاله الكسائى .

---

(١) يصف السيوف ، وقد تقدّم شرح البيت بهامش ص ١٠٣ من هذا الجزء .

(٢) فى ع و ك : فى . (٣) كذا العبارة فى الأصول وفى « البحر المحيط » ، ولم نقف على مادة (وارط ووالط ولاط) بمعنى (ألفى) فى معاجم اللغة . (٤) من الكيد .

قوله تعالى : قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِىَ راوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء(١) : لما برّأت نفسها ؛ ولم تكن صادقة فى حبه — لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب — قال : « هِىَ رَاوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى » نطق يوسف بالحق فى مقابلة بهتها وكذبها عليه . قال نُوفٌ الشامىّ وغيره : كأنّ يوسف عليه السلام لم يَبِن عن كشف القضية ، فلما بَغَت به غضب فقال الحق .

الثانيــة — ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ لأنهما لما تعارضا فى القول آحتاج الملك إلى شاهد ليعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أى حكم حاكم من أهلها ؛ لأنه حكم منه وليس بشهادة . وقد آختلف فى هذا الشاهد على أقوال أربعة : الأوّل — أنه طفل فى المهد تكلم ؛ قال السّهيلى : وهو الصحيح ؛ للحديث الوارد فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : " لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة " وذكر فيهم شاهد يوسف . وقال القُشيرىّ أبو نصر : قيل [فيه](٢) : كان صبيا فى المهد فى الدار وهو آبن خالتها ؛ وروى سعيد بن جُبير عن آبن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تكلم أربعة وهم صغار " فذكر منهم شاهد يوسف ؛ فهذا قول . الثانى — أن الشاهد قدّ القميص ؛ رواه آبن أبى نَجيح عن مجاهد ، وهو مجاز صحيح من جهة اللغة ؛ فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال ؛

---

(١) فى ع : الحسن . (٢) من ع .

وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخبر عنها بما هى عليه من الصفات ، وذلك كثير فى أشعارها وكلامها ؛ ومن أحلاه قول بعضهم : قال الحائط للوتد لِمَ تَشقُّنى ؟ قال له : سَلْ من يَدقُّنى . إلا أن قول الله تعالى بعد « مِنْ أَهْلِهَا » يبطل أن يكون القميص . الثالث — أنه خَلْق من خلق الله تعالى ليس بإنسى ولا بجنىّ ؛ قاله مجاهد أيضا ، وهذا يرده قوله تعالى : « مِنْ أَهْلِهَا » . الرابع — أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها فقال : قد سمعت[1] الاستبدار والجلبة من وراء الباب ، وشق القميص ، فلا يدرى أيكما كان قدّام صاحبه ؛ فإن كان شقّ القميص من قدّامه فأنتِ صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق ؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف ؛ هذا قول الحسن وعِكرمة وقتادة والضّحاك ومجاهد أيضا والسدّى . قال السدّى : كان ابن عمها ؛ وروى عن ابن عباس ، وهو الصحيح فى الباب ، والله أعلم . وروى عن ابن عباس — رواه [عنه][2] إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة — قال : كان رجلا ذا لحية . وقال سفيان عن جابر عن آبن أبى مليكة عن آبن عباس أنه قال : كان من خاصة الملك . وقال عكرمة : لم يكن بصبىّ ، ولكن كان رجلا حكيما . وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : كان رجلا . قال أبو جعفر النحاس : والأشبه بالمعنى — والله أعلم — أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة ؛ ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تغنى عن أن يأتى بدليل من العادة ؛ لأن كلام الطفل آية معجزة ، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة ؛ وليس هذا بمخالف للحديث " تكلم أربعة وهم صغار " منهم صاحب يوسف ؛ يكون المعنى : صغيرا ليس بشيخ ؛ وفى هذا دليل آخر وهو : أن آبن عباس رضى الله عنهما روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبىّ .

قلت : قد رُوى عن آبن عباس وأبى هُريرة وآبن جُبير وهلال بن يِسَاف[3] والضّحاك أنه كان صبيا فى المهد ؛ إلا أنه لو كان صبيا تكلم لكان الدليل نفس كلامه ، دون أن يحتاج إلى

(١) فى ع : سمعنا . (٢) من ع و ى . (٣) هو بالكسر وقد يفتح .

استدلال بالقميص، وكان يكون ذلك خرق عادة ، ونوع معجزة ؛ والله أعلم . وسيأتى من تكلم فى المهد من الصبيان فى سورة « البروج »(١) إن شاء الله .

الثالثـــة ـــ إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلا صغيرا فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا ؛ وإذا كان رجلا فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة فى اللقطة وكثير من المواضع ؛ حتى قال مالك فى اللصوص : إذا وجدت معهم أمتعة بجاء قوم فادعوها ، وليست لهم بيّنة فإن السلطان يتـلوّم(٢) لهم فى ذلك ؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم . وقال محمد فى متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل : إن ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة ، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل . وكان شُرَيح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات فى الحكومات؛ وأصل ذلك هذه الآية، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ ﴾ كان فى موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو ما يشكل ، لأن حروف الشرط تردّ المـاضى إلى المستقبل، وليس هذا فى كان؛ فقال المبرد محمد بن يزيد : هذا لقوّة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال . وقال الزجاج : المعنى إن يكن؛ أى إن يُعلَم ، والعلم لم يقع ، وكذا الكون لأنه يؤدى عن العلم . « قُدَّ مِنْ قُبُـلٍ » خبرّ عن « كان » بالفعل المـاضى ؛ كما قال زهير :

وكان طَـوَى كَشْحًا على مُسْتَكِنَّةٍ * فـلا هـو أبداهَا ولم يَتَقـدَّمِ(٣)

وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبى إسحق « مِن قُبُلُ » بضم القاف والبـاء واللام ، وكذا « دُبُرُ » قال الزجاج : يجعلهما غايتين كقبلُ وبعدُ؛ كأنه قال : مِن قُبُلِه ومن دُبُرِه، فلما حذف المضاف إليه ـــ وهو مراد ـــ صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له . ويجوز « من قُبُلَ » « ومن دُبُرَ » بفتح الراء واللام تشبيها بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه . وروى محبوب عن أبى عمرو « من قُبْلٍ » « ومن دُبْرٍ » مخفّفان مجروران .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٨٧ (٢) التلوم : التنظر للأمر تريده .

(٣) الكشح : الجنب، ويقال : طوى كشحه على كذا إذا أضمره . والمستكنة : الحقد . ويروى : (ولم يتجمجم).

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ قيل : قال لها ذلك العزيز عند قولها : « مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا » . وقيل : قاله لها الشاهد . والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدّم فى « الأنفال »(١) . ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وإنما قال « عَظِيمٌ » لعظم فتنتهنّ واحتيالهنّ فى التخلّص من ورطتهنّ . وقال مقاتل عن يحيى ابن أبى كثير عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول : « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا »(٢) وقال: « إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » " .

قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ القائل هذا هو الشاهد . و « يوسف » نداء مفرد، أى يا يوسف، فحذف . « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أى لا تذكره لأحد واكتمه . ثم أقبل عليها فقال : وأنتِ ﴿ اسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ ﴾ يقول : استغفرى زوجك من ذنبك لا يعاقبك . ﴿ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فغلّب المذكر ؛ والمعنى : من الناس الخاطئين ، أو من القوم الخاطئين ؛ مثل : « إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ »(٣) « وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ »(٤) . وقيل : إن القائل ليوسف أعرض ولها استغفرى زوجُها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما — أنه لم يكن غيورا ؛ فلذلك كان ساكنا . وعدم الغيرة فى كثير من أهل مصر موجود . الثانى — أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفى بادرته وعفا عنها(٥) .

قوله تعالى : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

(١) راجع ج ٧ ص ٣٨٦ . (٢) راجع ج ٥ ص ٢٨٠ . (٣) راجع ج ١٣ ص ٢٠٧ .
(٤) راجع ج ١٨ ص ٢٠٤ . (٥) فى ع و ك و ى : حلم .

وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ويقال : « نُسوة » بضم النون، وهى قراءة الأعمش والمفضّل والسُّلَمى، والجمع الكثير نساء . ويجوز : وقالت نسوة ، وقال نسوة، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب ؛ وذلك أن القصة آنتشرت فى أهل مصر فتحدث النساء . قيل : آمرأة ساقى العزيز، وآمرأة خبازه، وآمرأة صاحب دوابه، وآمرأة صاحب سجنه . وقيل : آمرأة الحاجب ؛ عن آبن عباس وغيره . ﴿ تُرَٰوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ الفتى فى كلام العرب الشاب، والمرأة فتاة . ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ قيل : شغفها غلبها . وقيل : دخل حبه فى شَغافها ؛ عن مجاهد وغيره . وروى عمرو بن دينار عن عِكرمة عن آبن عباس قال : دخل تحت شَغافها . وقال الحسن : الشّغف باطن القلب . السدّى وأبو عبيد(1) : شغاف القلب غلافه ، وهو جلدة عليه . وقيل : هو وسط القلب ؛ والمعنى فى هذه الأقوال متقارب، والمعنى : وصل حبه إلى شَغافها فغلب عليه ؛ قال النابغة :

وقد حال هَمٌّ دون ذلك داخلٌ * دخولَ الشّغافِ تبتغيه الأصابعُ(2)

وقد قيل : إن الشّغاف داء، وأنشد الأصمعى للراجز :

* يتبعها وهى له شَــغافُ *

وقرأ أبو جعفر بن محمد وآبن محيصن والحسن «شَعَفَهَا» بالعين غير معجمة؛ قال آبن الأعرابى : معناه أحرق حبه قلبها ؛ قال : وعلى الأول العمل . قال الجوهرى : وشَعفه الحبُّ أحرق قلبه . وقال أبو زيد : أمرضه . وقد شُعِف بكذا فهو مشعوف . وقرأ الحسن « قَدْ شَعَفَهَا » قال : بَطَنها حبًّا . قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب ؛

---

(1) فى ع و ك و ى : أبو عبيدة .

(2) يعنى أصابع المطببين ؛ يقول : قد حال عن البكاء على الديار هم دخل فى الفؤاد، حتى أصابه منه داء .

لأن شِعَاف الجبال . أعاليها، وقد شُغِف بذلك شُغْفا بإسكان الغين إذا أُولع به ؛ إلا أن أبا عبيدة أنشد بيت آمرئ القيس :

لتقتلني[1] وقد شَعَفْتُ فؤادَها * كما شَعَفَ المَهنُوءَةَ[2] الرّجلُ الطّالِي

قال : فشبهت لوعةُ الحبّ وجَوَاه بذلك . ورُوِى عن الشَّعْبي أنه قال : الشّغف بالغين المعجمة حُبّ، والشّعف بالعين غير المعجمة جنونٌ . قال النحاس : وحكى « قد شَغِفَها » بكسر الغين، ولا يعرف فى كلام العرب إلا «شَغَفَها» بفتح الغين، وكذا « شَعَفها » أى تركها مشعوفة . وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن الحسن : الشَّغاف حجاب القلب، والشّعاف سويداء القلب ، فلو وصل الحبّ إلى الشّعاف لماتت ؛ وقال الحسن : ويقال إن الشَّغاف الجلدة اللاصقة بالقلب[3] التى لا ترى، وهى الجلدة البيضاء ، فلصق حبُّه بقلبها كلصوق الجلدة بالقلب[3] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى هذا الفعل . وقال قَتَادة : «فَتَاهَا» وهو فتى زوجها، لأن يوسف كان عندهم فى حكم المماليك، وكان ينفذ أمرُها فيه . وقال مقاتل عن أبى عثمان النَّهْدِىّ عن سلمان الفارسىّ قال : إن آمرأة العزيز آستوهبت زوجها يوسف فوهبه لها، وقال : ما تصنعين به؟ قالت : أتخذه ولدا؛ قال : هو لك؛ فربته حتى أَيْفَعَ وفى نفسها منه ما فى نفسها ، فكانت تنكشف له وتتزين وتدعوه من وجه اللطف فعصمه الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أى بغيبتهنّ إياها، وآحتيالهنّ فى ذمها . وقيل : إنها أطلعتهنّ واستأمنتهنّ فأفشين سرها ، فسمى ذلك مكرا . وقوله : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى أرسلت إليهن تدعوهنّ إلى وَليمة لتُوقِعهنّ فيما وقعت فيه ؛ فقال مجاهد عن آبن عباس : إن آمرأة العزيز قالت لزوجها إنى أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النّسوة؛ فقال لها : افعلى؛ فاتخذت طعاما، ثم نَجَّدت لهن البيوت؛ نَجَّدت أى زيَّنت؛ والنَّجْد ما يُنَجَّد

---

(١) فى ى والطبرى : أتقتلنى . وهو الأشبه . (٢) المهنوءة : المطلية بالقطران ؛ وإذا هنىء البعير بالقطران يجد له لذة مع حرقة ؛ كحرقة الهوى مع لذته . (٣) فى ع و و : الكبد . وليس بصحيح .

به البيت من المتاع أى يُزيّن، والجمع نُجُود عن أبى عُبيد[(١)]، والتّنجيد التزيين؛ وأرسلت إليهنّ أن يحضُرن طعامها ، ولا تتخلف منكنّ آمرأة ممن سميتُ . قال وهب بن مُنَبِّه : إنهنّ كنّ أربعين آمرأة فجئن على كُرْه منهنّ، وقد قال فيهنّ أُمَيَّة بن أبى الصَّلْت :

حـتى إذا جئنهـا قسـرا * ومهدت لهن أنضـادا وكبابا[(٢)]

ويُروى : أنماطا. قال وهب بن [منبه][(٣)] : فجئن وأخذن مجالسهنّ. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أى هيأت لهنّ مجالس يتكئن عليهـا . قال آبن جُبير : فى كل مجلس جَامٌ فيـه عسل وأُتْرُجّ وسكِّين حاد . وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبير « مُتْكًا » مخففا غير مهموز، والمُتْك هو الأُتْرُجّ بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد . روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: المُتَّكأ مثقلا [هو][(٣)] الطعام، والمُتْك مخففا [هو][(٣)] الأُتْرُجّ؛ وقال الشاعر :

نَشْرَبُ الإثمَ بالصُّواعِ جِهَاراً * وتَرَى المُتْـك بيْننَا مُسْتَعَارَا

وقد تقول أَزْدُ شَنُوءة: الأترجّة المُتْكة؛ قال الجوهرى: المُتْك ما تُبقيه الخاتنة. وأصل المُتْك الزُّماوَرْد[(٤)]. والمَتْكَاء من النّساء التى لم تُخْفَض[(٥)]. قال الفرّاء : حدثنى شيخ من ثقات أهل البصرة أن المُتْك مخففا الزُّماوَرْد . وقال بعضهم : إنه الأترجّ؛ حكاه الأخفش . آبن زيد: أترجًّا وعسلا يؤكل به؛ قال الشاعر[(٦)] :

فَظِلْنـا بنعمـةٍ وآتّـكَأْنا * وشَرِبْنـا الحلالَ من قُلَلِه

أى أكلنا .

النحاس : قوله تعالى : « وَأَعْتَدَتْ » من العَتَاد، وهو كل ما جعلته عُدّة لشىء. «مُتَّكَأً» أصح ما قيـل فيه ما رواه علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس قال : مجلسا ، وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير: طعام متكأ ، مثل: «وَآسْأَلِ القَرْيَةَ»؛ ودلّ على

(١) كذا فى الأصول : ولعل الصواب أبو عبيدة كما يؤخذ من اللسان . (٢) كذا البيت فى الأصول .

(٣) من ع . (٤) الزماورد : الرقاق الملفوف باللحم وغيره، أو هو شىء يشبه الأترج .

(٥) خفض الجارية : ختنها ، وكذا الصبى ، والعرف أن الخفض للجارية خاصة والختان للصبى . (٦) هو جميل ابن معمر، والقلل جمع قلة، والقلة الحب العظيم . وقيل : الجرة الكبيرة . وقيل : الكوز الصغير . وقيل : غير ذلك .

هذا الحذف « وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا » لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقطع بالسكاكين ؛ كذا قال في كتاب « إعراب القرآن » له . وقال في كتاب « معاني القرآن » [له][1] : وروى مَعْمَر عن قَتَادة قال : « المتكأ » الطعام . وقيل : « المتكأ » كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة ، إلا أن الروايات قد صحت بذلك . وحكى القُتَبِيّ أنه يقال : اتكأنا عند فلان أي أكلنا ، والأصل في « متكأ » موتكأ ، ومثله مُتَّزِن ومُتَّعِد ؛ لأنه من وزنت ووعدت ووكأت ، ويقال : اتّكأ يتّكئ اتّكاء . ﴿ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ مفعولان ؛ وحكى الكسائي والفراء أن السِّكين يذكر ويؤنث ، وأنشد الفراء :

فَعَيَّثَ[2] في السَّنَامِ غَدَاةَ قُرٍّ * بسكِّينٍ مُوَثَّقَةِ النِّصَابِ

الجوهري : والغالب عليه التذكير ، وقال :

يُرَى ناصحًا فيما بَدَا فإذا خَلَا * فذلك سِكِّينٌ على الحَلْقِ حَاذِقُ

الأصمعي : لا يعرف في السكين إلا التذكير .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتُ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ بضم التاء لالتقاء الساكنين ؛ لأن الكسرة تثقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت التاء على الأصل . قيل : إنها قالت لهن : لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن ، ثم قالت لخادمها : إذا قلت لك ادع لي إيلا فادع يوسف ؛ وإيل : صنم كانوا يعبدونه ، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين ، وقد شدّ مِئزره ، وحَسَرَ عن ذراعيه ؛ فقالت للخادم : ادع لي إيلا ؛ أي ادع لي الربّ ؛ وإيل بالعبرانية الربّ ؛ قال : فتعجب النسوة وقلن : كيف يجيء ؟ ! فصعدت الخادم فدعت يوسف ، فلما انحدر قالت لهن : اقطعن ما معكن . ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم ؛ قاله وهب بن مُنَبِّه . سعيد بن جُبير : لم يخرج عليهن حتى زينته ، فخرج عليهن فجأة فدهشن فيه ، وتحيّرن لحسن وجهه وزينته وما عليه ، فجعلن يقطعن أيديهن ، ويحسبن

---

(١) من ع . (٢) عيث في السنام بالسكين أثر .

أنهن يقطعن الأترجّ، وآختلف فى معنى «أكبرنه» فروى جُوَيبر عن الضّحاك عن آبن عباس : أعظمنه وهِبنه(١)، وعنه أيضا أمنين وأمذين من الدَّهش، وقال الشاعر :

إذا ما رأين الفحلَ من فوق قارةٍ(٢) * صَهلْن وأكبرنَ المنىَّ المدفقا

وقال آبن سمعان عن عدة من أصحابه : إنهم قالوا أمذين عشقا، وهب بن مُنبّه : عشقنه حتى مات منهن عشرة فى ذلك المجلس دَهَشا وحيرة ووَجْدا بيوسف . وقيل : معناه حضن من الدَّهش، قاله قتادة ومقاتل والسُّدّى(٣)، قال الشاعر :

نأتى النساءَ على أطهارهنّ ولا * نأتى النّساءَ إذا أكبرنَ إكبارا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا : ليس ذلك فى كلام العرب، ولكنه يجوز أن يكنّ حضن من شدّة إعظامهن له، وقد تفزع المرأة فتسقط ولدها أو تحيض . قال الزجاج : يقال أكبرنه، ولا يقال حِضْنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض؛ وأجاب الأزهرى فقال : يجوز أكبرت بمعنى حاضت؛ لأن المرأة إذا حاضت فى الابتداء خرجت من حيِّز الصغر إلى الكبر؛ قال : والهاء فى « أكبرنه » يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية؛ وهذا مزيَّف، لأن هاء الوقف تسقط فى الوصل، وأمثل منه قول آبن الأنبارى : إن الهاء كناية عن مصدر الفعل، أى أكبرن إكبارا، بمعنى حِضْن حَيْضا . وعلى قول آبن عباس الأول تعود الهاء إلى يوسف؛ أى أعظمن يوسف وأجْلَلْنه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قال مجاهد : قطّعنها حتى ألقينها . وقيل : خدشنها . وروى آبن أبى نجيح [عن مجاهد](٤) قال : حزًّا بالسكّين، قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس قطعا تبِين منه اليد، إنما هو خَدْش وحزّ، وذلك معروف فى اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده . وقال عِكرمة : « أَيْدِيَهُنَّ » أكمامهنّ، وفيه بُعْد . وقيل : أناملهنّ؛ أى ماوجدن ألمَا فى القطع والجرح، أى لشغل قلوبهن بيوسف، والتقطيع يشير إلى الكثرة، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها فى مواضع، و يمكن أن يرجع إلى عددهنّ .

(١) فى هامش ع : معنى « أكبرنه » أى عظمنه ودهشن من حسنه . (٢) القارة : الجبيل الصغير المنقطع عن الجبال، وقيل : الصخرة العظيمة، وقيل غير ذلك . (٣) قال آبن عطية وقوله : «أكبرنه» معناه أعظمنه واستهولن جماله هذا قول الجمهور . وقال عبد الصمد بن على الهاشمى عن أبيه عن جده : معناه حضن وأنشد :

نأتى النساء على أطهارهن ولا * نأتى النساء إذا أكبرن إكبارا

قال القاضى أبو محمد : وهذا قول ضعيف ومعناه منكور والبيت مصنوع مختلق؛ لذلك قال الطبرى وغيره من المحققين : ليس عبد الصمد من رواة العلم رحمه الله . من هامش ع . (٤) من ع و ك .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أى معاذ الله . وروى الأصمعيّ عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء ، « وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ » بإثبات الألف وهو الأصل ، ومن حذفها جعل اللام فى « لله » عوضا منها . وفيها أربع لغات ؛ يقال : حَاشَاكَ وحَاشَا لَكَ وحاشَ لَكَ وحَشَا لَكَ . ويقال : حَاشَا زيدٍ وحاشا زيدًا ؛ قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد ابن يزيد يقول : النصب أولى ؛ لأنه قد صحّ أنها فعلٌ لقولهم حاش لزيد ، والحرف لا يحذف منه ؛ وقد قال النابغة :

* وَلَا أحاشِى من الأقوامِ من أَحَدِ [(١)] *

وقال بعضهم : حاشَ حرف ، وأُحاشى فعل . ويدلّ على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها . وحكى أبو زيد عن أعرابىّ : اللهم اغفرلى ولمن يَسمع [(٢)] ، حاشا الشيطانَ وأبا الأصبغ [(٣)] ؛ فنصب بها . وقرأ الحسن « وَقُلْنَ حَاشْ لِلَّهِ » بإسكان الشين ، وعنه أيضا « حاش الإله » . ابن مسعود وأُبَىّ : « حَاشَ اللهِ » بغير لام ، ومنه قول الشاعر [(٤)] :

حاشا أبى ثَوْبانَ إنّ بهِ * ضَنًّا عنِ الْمَلْحَاةِ والشَّتْمْ

قال الزجاج : وأصل الكلمة من الحاشية ، والحَشَا بمعنى الناحية ، تقول : كنت فى حَشَا فلانٍ أى فى ناحيته ؛ فقولك : حاشا لزيدٍ أى تَنَحَّى زيدٌ من هذا وتباعد عنه ، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين . وقال أبو على : هو فاعل من المحاشاة ؛ أى حاشا يوسف وصار فى حاشية وناحية مما قُرِف به ، أو من أن يكون بشرا ؛ فحاشا وحاش فى الاستثناء حرف جرّ عند سيبويه ، وعلى ما قال المبرّد وأبو علىّ فعل .

قوله تعالى : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ قال الخليل وسيبويه : « ما » بمنزلة ليس ؛ تقول : ليس زيد قائما ، و « ما هذا بشرا » و « مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ [(٥)] » . وقال الكوفيون : لما حذفت الباء

---

(١) صدر البيت : * ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه *
وهو من قصيدة يمدح بها النعمان و يعتذر إليه . (٢) فى ع و ك و و : سمع . (٣) كلام منثور .
(٤) هو سبرة بن عمرو الأسدى ، وقيل : هو الجميح الأسدى ، واسمه منقذ بن الطماح . والملحاة : اللوم . وفى ع : ابن مروان . كذا فى إحدى روايتى اللسان : أبى مروان . وفى ك و ى : ثروان .
(٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٧٢ .

نصبت، وشرح هذا — فيما قاله أحمد بن يحيى — أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الخفض، فلما حذفت الباء نصبت لتدلّ على محلها، قال : وهذا قول الفرّاء، قال : ولم تعمل « ما » شيئا؛ فألزمهم البصريون أن يقولوا : زيد القمرَ ؛ لأن المعنى كالقمر! فردّ أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل فى حروف الخفض من الكاف؛ لأن الكاف تكون آسما . قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين ؛ وهذا القول يتناقض ؛ لأن الفرّاء أجاز نصًّا[1] ما بمنطلق زيدٌ، وأنشد :

أَمَا واللهِ أَنْ لو كنتَ حُرًّا * وما بالحُرِّ أنتَ ولا العَتِيقِ

ومنع نصًّا[1] النصب ؛ ولا نعلم بين النحويين آختلافا أنه جائز : ما فيك براغب زيدٌ ، وما إليك بقاصدٍ عمرٌو ، ثم يحذفون الباء ويرفعون . وحكى البصريون والكوفيون ما زيدٌ منطلقٌ بالرفع ، وحكى البصريون أنها لغة تَميم ، وأنشدوا :

أَتَيمًا تجعلون إلىّ نِدًّا * وما تَيمٌ لِذِى حَسَبٍ نَدِيدُ

النِّد والنَّديد والنَّديدةُ المِثْل والنَّظير . وحكى الكسائى أنها لغة تِهامة ونَجْد . وزعم الفراء أن الرفع أقوى الوجهين : قال أبو إسحق : وهذا غلط؛ كتاب الله عز وجلّ ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى .

قلت : وفى مصحف حَفْصة رضى الله عنها «مَاهَذَا بِبَشَر» ذكره الغَزْنوى . قال القُشَيرى أبو نصر : وذكرت النّسوة أن [صورة][2] يوسف أحسن من صورة البشر ، بل هو فى صورة مَلَك، وقال الله تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»[3] والجمع بين الآيتين أن قولهن : «حَاشَ لِلَّهِ» تبرئة ليوسف عمّا رمته به آمرأة العزيز من المراودة، أى بعد يوسف عن هذا؛ وقولهنّ : « لله » أى لخوفه، أى براءة لله من هذا؛ أى قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة فى شىء ؛ والمعنى : أنه فى التبرئة عن المعاصى كالملائكة؛ فعلى هذا لا تناقضَ . وقيل : المراد تنزيهه عن مشابهة البشر فى الصورة، لفرط جماله . وقوله : «لله» تأكيد لهذا المعنى؛ فعلى هذا المعنى قالت النسوة ذلك ظنا منهن أن صورة المَلَك أحسن، وما بلغهنّ قوله

(١) فى ع : أجاز أيضا . (٢) فى ع : إن يوسف أحسن صورة من البشر . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ١١٣ .

تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » فإنه من كتابنا . وقد ظنّ بعض الضّعفة أن هذا القول لو كان ظنا باطلا منهن لوجب على الله أن يردّ عليهن، ويبيّن كذبهنّ، وهذا باطل؛ إذ لا وجوب على الله تعالى ، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الردّ عليه، وأيضا أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان، وفي الحسَن كأنه مَلَك؛ أي لم ير مثله ، لأن الناس لا يرون الملائكة؛ فهو بناء على ظنّ في أن صورة المَلَك أحسن ، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبعده عن التّهَم . ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي ما هذا إلا مَلَك ، وقال الشاعر[1] :

فلستَ لإنسيٍّ ولكن لِمَلأَكٍ * تنزّلَ من جوّ السماء يَصُوبُ

وروى عن الحسن : « مَا هَذَا بِشِرًى » بكسر الباء والشين ، أى ما هذا عبدا مُشترًى، أى ما ينبغي لمثل هذا أن يباع، فوضع المصدر موضع اسم المفعول، كما قال : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ »[2] أى مصيده ، وشبهه كثير . ويجوز أن يكون المعنى : ما هذا بثمن، أى مثله لا يثمن ولا يقوّم ؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشترى به : كقولك : ما هذا بألف إذا نفيت قول القائل : هذا بألف . فالباء على هذا متعلقة بمحذوف هو الخبر، كأنه قال : ما هذا مقدرا بشراء . وقراءة العامة أشبه؛ لأن بعده «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيما لشأنه ، ولأن مثل « بِشْرًى » يكتب في المصحف بالياء .

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ لما رأت افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها : «لُمْتُنَّنِي فِيهِ» أى بحبه، و«ذلك» بمعنى «هذا» وهو اختيار الطّبرى . وقيل : الهاء للحب، و«ذلك» على بابه، والمعنى : ذلكن الحُب الذى لمتنني فيه، أى حبّ هذا هو ذلك الحب . واللوم الوصف بالقبيح . ثم أقرت وقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أى امتنع[3] ؛

---

(١) هو رجل من عبد القيس جاهلى ، يمدح بعض الملوك ، قيل : هو النعمان ، وقال ابن السيرافى : هو لأبى وجزة يمدح به عبد الله بن الزبير . وملك — كما قال الكسائى — أصله مألك بتقديم الهمزة ؛ من الألوكة ، وهى الرسالة ، ثم قلبت وقدمت اللام فقيل : ملأك ، ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقيل : ملك ، فلما جمعوه ردوها إليه فقالوا : ملائكة وملائك أيضا . (اللسان) . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣١٧ . (٣) فى هـ ع : واعلم أنها لما أظهرت عذرها عند النسوة فى شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت : ولقد راودته عن نفسه فاستعصم .

وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية . وقيل: «آستعصم» أى آستعصى، والمعنى واحد . ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ عاودته المراودة بمحضر منهن ، وهتكت جلباب الحياء، (١) ووعدت بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لومًا ولا مقالا خلافَ أوّل أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها . ﴿ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أى الأذلاء . وخط المصحف «وليكونًا» بالألف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد؛ ونون التأكيد تثقل وتخفف والوقف على قوله : « لَيُسْجَنَنَّ » بالنون لأنها مثقلة، وعلى « ليكونًا » بالألف لأنها مخففه، وهى تشبه نون الإعراب فى قولك : رأيت رجلا وزيدا وعمرا، ومثله قوله : « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » (٢) ونحوها الوقف عليها بالألف، كقول الأعشى :

* وَلَا تعبدِ الشيطان واللهَ فاعبدا *

أى أراد فاعبدًا، فلما وقف عليه كان الوَقف بالألف .

قوله تعـالى : قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أى دخول السجن، فحذف المضاف؛ قاله الزّجاج والنحّاس . « أَحَبُّ إِلَيَّ » أى أسهل علىّ وأهون من الوقوع فى المعصية ؛ لا أنّ دخول السجن مما يُحَبّ على التحقيق . وحُكى أن يوسف عليه السلام لما قال : « السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » أوحى الله إليه « يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحبّ إلىّ، ولو قلت العافية أحبّ إلىّ لعوفيت » . وحكى أبو حاتم أن عثمان آبن عفان رضى الله عنه قرأ : « السَّجن » بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة آبن أبى إسحق

(١) فى ع : حجاب
(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٥ .
(٣) صدر البيت :
* وذا النصب المنصوب لا تنسكنه *
وهو من قصيدة يمدح بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب؛ وهو مصدر سَجنه سَجْنا . ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ أى كيد النّسوان . وقيل : كيد النّسوة اللاتى رأينه؟ فإنهنّ أمرنه بمطاوعة آمرأة العزيز، وقلن له : هى مظلومة وقد ظلمتها . وقيل : طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة فى آمرأة العزيز، والقصد بذلك أن تَعذِله فى حقها ، وتأمره بمساعدتها، فلعله يجيب ؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف ! آقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك ؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال : يارب كانت واحدة فصرن جماعة . وقيل : كيد آمرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها فى الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض . والكيد الآحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب كيدا لاحتيال الناس فيها؛ قال عمر بن لجأ :

تراءتْ كَىْ تكيدَكَ أُمُّ بِشرٍ * وكيدٌ بالتّــبرُّج مَا تَكيدُ

﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ جواب الشرط ، أى أَمِلْ إليهن؛ من صبا يصبو — إذا مال وآشتاق — صُبُوًّا وصَبْوة؛ قال[1] :

إِلَى هِنْــدٍ صَبا قَلْبِي * وهِنْــدٌ مِثْلُها يُصْبِي

أى إن لم تَلطُف بى فى آجتناب المعصية وقعت فيها . ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال؛ ودلّ هذا على أن أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله؛ ودلّ أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ لما قال . « وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ » تعرّض للدعاء، وكأنه قال : اللهم آصرف عنى كيدهنّ ؛ فاستجاب له دعاءه ، ولطف به وعصمه عن الوقوع فى الزنى . « كَيْدَهُنَّ » قيل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه . وقيل : يعنى كيد النساء . وقيل : يعنى كيد آمرأة العزيز، على ما ذكر فى الآية قبل ؛ والعموم أولى .

---

(١) هو زيد بن ضبة .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ أى ظهر للعزيز وأهـل مشورته « مِن بَعْـدِ أن رأوا الآيات » أى علامات براءة يوسف ـــ من قدّ القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحَزّ الأيدى، وقلة صبرهنّ عن لقاء يوسف ـــ أن يسجنوه كتمانا للقصة ألّا تشيع فى العامة، وللحيلولة بينه وبينها . وقيـل : هى البركات التى كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم ؛ والأول أصح . قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله : « ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ » قال : القميص من الآيات ، وشهادة الشاهـد من الآيات ، وقطع الأيدى من الآيات، وإعظام النساء إياه من الآيات . وقيل : ألجأها الخجـل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب، لتشتفى إذا مُنعت من نظره؛ قال :

وما صَبـابةُ مشتاقٍ على أملٍ * مِن اللّقاء كمشتـاقٍ بلا أَمَل

أو كادته رجاء أن يَمَلّ حبسه فيبذل نفسه .

الثانيـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ «يَسْجُنُنَّهُ» فى موضع الفاعل؛ أى ظهر لهم أن يسجنوه؛ هذا قول سيبويه . قال المبرّد : وهـذا غلط؛ لا يكون الفاعل جملة ، ولكن الفاعل ما دلّ عليـه « بَدَا » وهو مصدر ؛ أى بدا لهم بَدَاءٌ ؛ فحذف لأن الفعل يدلّ عليه ؛ كما قال الشاعر :

وحقّ لمن أبو موسى أبـوهُ * يُوَفِّقه الذى نَصبَ الجبـالَا

أى وحقّ الحقُّ، فحـذف . وقيل : المعنى ثم بدا لهم رأىٌ لم يكونوا يعرفونه ؛ وحذف هـذا لأن فى الكلام دليلا عليه، وحذف أيضا القول؛ أى قالوا : ليسجننه ، واللام جواب ليمين مضمر؛ قاله الفرّاء، وهو فعل مذكّر لا فعـل مؤنث؛ ولو كان فعلا مؤنثا لكان يَسْجُنَانِّه؛

ويدلّ على هذا قوله « لَهُم » ولم يقل لهنّ ، فكأنه أخبر عن النسوة وأعوانهنّ فغلب المذكر ؛ قاله أبو عليّ . وقال السّدّيّ : كان سبب حبس يوسف أن امرأة العزيز شكت إليه أنه شهّرها ونشر خبرها ؛ فالضمير على هذا في « لَهُمْ » للملك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي إلى مدّة غير معلومة ؛ قاله كثير من المفسّرين . وقال ابن عباس : إلى انقطاع ما شاع في المدينة . وقال سعيد بن جُبَير : إلى ستة أشهر . وحكى الكِيَا أنه عَنَى ثلاثة عشر شهرا . عِكْرِمة : تسع سنين . الكَلْبيّ : خمس سنين . مقاتل : [سبع](١) . وقد مضى في « البقرة »(٢) القول في الحين وما يرتبط به من الأحكام . وقال وهب : أقام في السجن اثنتي عشرة سنة . و « حتى » بمعنى إلى ؛ كقوله : « حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ »(٣) . وجعل الله الحبس تطهيرا ليوسف صلى(٤) الله عليه وسلم من همّه بالمرأة . وكأن العزيز — وإن عرف براءة يوسف — أطاع المرأة في سجن يوسف . قال ابن عباس : عثر يوسف ثلاث عثرات : حين هَمّ بها فسجن ، وحين قال للفتى : « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » فلبث في السجن بضع سنين ، وحين قال لإخوته : « إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » فقالوا : « إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » .

الرابعة — أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن ، وأقام خمسة أعوام ، وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره ؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعا . فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحدّه . وقد قال بعض علمائنا : إنه لا يسقط عنه الحدّ ، وهو ضعيف ؛ فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين ، ولا يصرفه بين بلاءين ؛ فإنه من أعظم الحرج في الدين . « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »(٥) . وسيأتي بيان هذا في « النحل »(٦) إن شاء الله . وصبر يوسف ، واستعاذ به من الكيد ، فاستجاب له على ما تقدّم .

(١) من ع . وفي روح المعاني والفخر الرازي عن مقاتل اثنى عشر سنة .　(٢) راجع جـ ١ ص ٣٢١ فما بعد .　(٣) راجع جـ ٢٠ ص ١٣٤ .　(٤) من ع .　(٥) راجع جـ ١٢ ص ٩٩ .　(٦) راجع جـ ١٠ ص ١٨٢ فما بعد .

قوله تعالى : وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)

قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ « فتيان » تثنية فتى ؛ وهو من ذوات الياء، وقولهم : الفُتُوشاذ (١). قال وهب وغيره : حمل يوسف إلى السجن مقيدا على حمار ، وطيف به « هذا جزاء من يعصى سيدته » وهو يقول : هذا أيسر من مُقَطَّعات النِّيران (٢) ، وسرابيل القَطِران، وشراب الحميم ، وأكل الزَّقوم . فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد انقطع رجاؤهم، واشتد بلاؤهم ؛ فجعل يقول لهم : اصبروا وأبشروا تؤجروا ؛ فقالوا له : يا فتى ! ما أحسن حديثك ! لقد بورك لنا فى جوارك، من أنت يا فتى؟ قال : أنا يوسف ابن صفيّ الله يعقوب ، ابن ذَبيح الله (٣) إسحق ، ابن خليل الله إبراهيم . وقال ابن عباس: لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى، وأنا أريد أن تسجنه، فسجنه فى السجن؛ فكان يُعزّى فيه الحزين ، و يعود فيه المريض ، و يداوى فيه الجريح ، و يصلى الليل كله، و يبكى حتى تبكى معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن، واستأنس به أهل السجن؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس (٤) فى السجن

(١) فى ع و ك و ى : الفتوة شاذة . (٢) مقطعات النيران : هى على نحو قوله تعالى : «قطعت لهم ثياب من نار» أى خيطت وسويت وجعلت لبوسا لهم . (٣) هذا دليل الوضع لأن الذبيح قطعا إسماعيل عليه السلام .
(٤) فى ع : يجلس .

مع يوسف، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال [له][(١)]: يا يوسف! لقد أحببتك حبا لم أحبّ شيئا حبك، فقال: أعوذ بالله من حبك، قال: ولِمَ ذلك؟ فقال: أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه، وأحبتنى سيدتى فنزل بى ما ترى، فكان فى حبسه حتى غضب الملك على خبّازه وصاحب شرابه، وذلك أن الملك عُمّر فيهم فملّوه، فدسّوا إلى خبّازه وصاحب شرابه أن يَسُمّاه جميعا، فأجاب الخبّاز وأبى صاحب الشّراب، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك، فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف، فذلك قوله: «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ» وقد قيل: إن الخبّاز وضع السم فى الطعام، فلما حضر الطعام قال السّاقى: أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخبّاز: أيها الملك[(١)] لا تشرب! فإن الشراب مسموم؛ فقال الملك للساقى: اشربْ! فشرب فلم يضرّه، وقال للخباز: كُلْ؛ فأبى، فجرّب الطعام على حيوان فنفق مكانه، فحبسهما سنة، وبقيا فى السجن تلك المدة مع يوسف. واسم الساقى منجا، والآخر مجلث؛ ذكره الثعلبى عن كعب. وقال النقاش: اسم أحدهما شرهم، والآخر سرهم؛ الأوّل بالشين المعجمة، والآخر بالسين المهملة. وقال الطّبرى: الذى رأى أنه يعصر خمرا هو نبو، قال السّهيلى: وذكر اسم الآخر ولم أقيده. وقال «فتيان» لأنهما كانا عبدين، والعبد يسمّى فتى، صغيرا كان أو كبيرا؛ ذكره الماوردى. وقال القُشيرى: ولعلّ الفتى كان اسما للعبد فى عرفهم؛ ولهذا قال: «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ». ويحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم وإن لم يكن مملوكا. ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذى كان فيه. «قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا» أى عنبا؛ كان يوسف قال لأهل السجن: إنى أعبّر الأحلام؛ فقال أحد الفتيين لصاحبه: تعال حتى نجرّب هذا العبد العبرانى؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا؛ قاله ابن مسعود. وحكى الطّبرى أنهما سألاه عن علمه فقال: إنى أعبّر الرؤيا؛ فسألاه عن رؤياهما. قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صدق تأويلها. وفى الصحيح عن أبى هُريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم: "أصدقكم رؤيا أصدقكم

(١) من ع.

حديثا " . وقيـل : إنهـا كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجريبا ؛ وهـذا قول ابن مسعود والسدي . وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذبا ، والآخر صادقا ؛ قاله أبو مِجْلَز . وروى الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من تحلَّم كاذبا كُلِّف يوم القيامة أن يَعقِد بين شَعِيرتين [ولن يَعقِد بينهما] (١) " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وعن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من كذب في حُلُمه كُلِّف يوم القيامة عَقْد شَعيرة". قال: حديث حسن . قال ابن عباس: لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين ؛ فقال لهما يوسف : مالي أراكما مكروبين؟ قالا : ياسيدنا ! إنا رأينا ما كرهنا ؛ قال : فقصّا عليّ ، فقصّا عليه ؛ قالا: نبئنا بتأويل ما رأينا ؛ وهذا يدلّ على أنها كانت رؤيا منام . ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإحسانه ، أنه كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزِّي الحزانى ؛ قال الضّحاك : كان إذا مرض الرجل من أهـل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّـع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له . وقيل : « مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أي العالمين الذين أحسـنوا العلم ، قاله الفراء . وقال ابن إسحق : « مِنَ الْمُحْسِنِينَ » لنا إن فَسَّرته ، كما يقول : افعل كذا وأنت محسن . قال : فما رأيتما ؟ قال الخباز : رأيت كأني اختبزت في ثلاثة تنانير ، وجعلته في ثلاث سلال ، فوضعته على رأسي فجاء الطير فأكل منه . وقال الآخر : رأيت كأني أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض ، فعصرتهن في ثلاث أوان ، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتي فيما مضى ، فذلك قوله : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا » أي عنبا ، بلغة عُمان ، قاله الضّحاك . وقرأ ابن مسعود : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عِنَبًا » . وقال الأصمعي : أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيا ومعه عنب فقال له : ما معك ؟ قال : خمر . وقيل : معنى . « أَعْصِرُ خَمْرًا » أي عنب خمر ، فحذف المضاف . ويقال : خَمْرة وخَمْر وخُمُور ، مثل تمرة وتمر وتُمور . «قال» لهما يوسف : ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ

(١) الزيادة عن صحيح الترمذي ، قال شارحه : لما تبعته نظرى ظهر إلى أن المخبر بما لم ير عقد من الكلام عقدا باطلا لم يشعر به ، أي لم يعلمه ، فقيل له : اعقد بين شعيرتين ولا ينعقد له ذلك أبدا ، عقوبة لعقده بين كلمات لم يكن منها شيء ، لتكون العقوبة من جنس المعصية .

تُرْزَقَانِهِ ﴾ يعنى لايجيئكما غدا طعام من منزلكما ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ لتعلما أنى أعلم تأويل رؤياكما ، فقالا : أفعل ! فقال لهما : يجيئكما كذا وكذا ، فكان على ما قال؛ وكان هذا من علم الغيب خُصّ به يوسف. وبيّن أن الله خصّه بهذا العلم لأنه ترك ملّة قوم لايؤمنون بالله، يعنى دين الملك . ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أوّلا ما يتعلق بالدين لتهتدوا ، ولهذا لم يعبّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، فقال : « يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ » الآية كلها ، على ما يأتى . وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام ليَسْعَدا(١) به . وقيل : إن يوسف كره أن يعبرلهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما، وأخذ فى غيره فقال : «لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ »فى النوم «إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا» بتفسيره فى اليقظة ، قاله السُّدّى ، فقالا له : هذا من فعل العَرّافين والكَهَنة ، فقال لهما يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما علّمنيه ربّى ، إنى لا أخبركما به تكهّنا وتنجيا، بل هو بوحى من الله عزّ وجلّ . وقال ابن جُرَيج: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معروفا فأرسل به إليه ، فالمعنى : لايأتيكما طعام ترزقانه فى اليقظة ، فعلى هذا « تُرْزَقَانِهِ » أى يجرى عليكما من جهة الملك أو غيره . ويحتمل يرزقكما الله . قال الحسن : كان يخبرهما بما غاب ، كعيسى عليه السلام . وقيل : إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام، وجعل المعجزة التى يستدلان بها إخبارهما بالغيوب .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ لأنهم أنبياء على الحق . ﴿ مَا كَانَ ﴾ أى ما ينبغى . ﴿ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ «مِنْ» للتأكيد، كقولك: ماجاءنى من أحد . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا ﴾ إشارة إلى عصمته من الزنى . ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل : «ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا » إذ جَعلنا أنبياء ، « وَعَلَى النَّاسِ » إذ جعلنا الرسلَ إليهم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ على نعمة(٢) التوحيد والإيمان .

(١) من ى . وفى أ وح وك وع : ليستمدا به . (٢) كذا فى ع . وفى ا وك وى : نعمه بالتوحيد .

قوله تعـالى : يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ أى ياساكنى السجن؛ وذكر الصحبة لطول مقامهما فيه ، كقولك : أصحاب الجنة، وأصحاب النار . ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ أى فى الصغر والكبر والتوسط ، أومتفرقون فى العدد . ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ وقيل : الخطاب لهما ولأهل السجن، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك إلزاما للحجة ؛ أى آلهة شتّى لاتضر ولاتنفع. «خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» الذى قهر كل شىء. نظيره : «آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ[(1)]» . وقيل : أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدّد الإله لتفرقوا فى الإرادة ولعلا بعضهم على بعض ، وبيّن أنها إذا تفرّقت لم تكن آلهة .

قوله تعـالى : ﴿ مَا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَـاءً ﴾ بيّن عجز الأصنام وضعفها فقال : «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ» أى من دون الله إلا ذوات أسماء لا معانى لها. ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ من تلقاء أنفسكم . وقيل : عنى بالأسماء المسميات ؛ أى ما تعبدون إلا أصنـاما ليس لها من الإلهية شىء إلا الاسم ؛ لأنهـا جمادات . وقال : «مَا تَعْبُدُونَ» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين ؛ لأنه قصـد جميع من هو على مثل حالهما من الشرك . ﴿ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ فحذف المفعول الثـانى للدلالة ؛ والمعنى : سميتموها آلهةً من عند أنفسكم . ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ ذلك فى كتاب . قال سعيد بن جُبير : ﴿ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ الذى هو خالق الكل . ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ . ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَـيِّمُ ﴾ . أى القـويم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢١٩ .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ أى قال للسـاقى : إنك تُرَدّ على عملك الذى كنت عليه من سقى الملك بعـد ثلاثة أيام ، وقال للآخر : وأمّا أنت فتُدعَى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيتُ شيئا ؛ قال : رأيت أوَ لم ترَ ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ . وحكى أهل اللغـة أن سقى وأسقى لغتان بمعنًى واحد، كما قال الشاعر[1] :

سَقَى قومى بَنِى مَجْـدٍ وأَسْقَى　＊　نُمَيْرًا والقبائلَ من هِلال

قال النحاس : الذى عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاه ناوله فشرب، أو صبّ المـاء فى حلقه ومعنى أَسْقاه جعل له سُقْيا ؛ قال الله تعالى : « وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا[2] » .

الثانيـــة ــ قال علماؤنا : إن قيل من كذب فى رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها؟ قلنا : لا يلزمه ؛ وإنمـا كان ذلك فى يوسف لأنه نبىّ ، وتعبـير النبىّ حكم ، وقـد قال : إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعـالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوّته ؛ فإن قيل : فقـد روى عبد الرازق عن مَعْمَر عن قَتَادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إنى رأيتُ كأنى أَعْشَبْتُ ثم أَجْدبتُ ثم أَعْشَبتُ ثم أَجْدبتُ ، فقال له عمر: أنت رجل تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر ، ثم تموت كافرا ؛ فقال الرجل : ما رأيت شيئا ؛ فقال له عمر : قد قضى لك ما قضى لصاحب يوسف ؛ قلنا : ليست لأحد بعد عمر ؛ لأن عمر كان مُحَدَّثًا[3] ، [وكان إذا ظن ظنا كان][4]

(١) هو لبيد ؛ ومجد : ابنة تيم بن غالب بن فهر ، وهى أم كلاب وكليب بنى ربيعة . وفاعل سقى هو المطر .

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٥٨ .　(٣) محدث : ملهم ، أو يلق فى روعه الشىء ، أو يجرى الصواب على لسانه من غير قصد . (القسطلانى) . والمحدث : الذى يحدثه الملك أيضا . أى يلق فى نفسه .

(٤) من ع وك و و ى .

وإذا تكلم به وقع، على ما ورد فى أخباره، وهى كثيرة؛ منهـا — أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهنا فكان كما ظن؛ خرجه البخارى . ومنهـا — أنه سأل رجلا عن آسمه فقال له فيه أسماء النار كلها، فقال له : أدرك أهلك فقد آحترقوا، فكان كما قال، خرجه الموطأ . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « الحجر »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيقن، فى قول أكثر المفسرين وفسره قتادة على الظن الذى هو خلاف اليقين؛ قال : إنما ظنّ يوسف نجاته لأن العابر يظن ظنًّا وربك يخلق ما يشاء؛ والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء وأن ما قاله للفتيين فى تعبير الرؤيا كان عن وحى، وإنمـا يكون ظنا فى حكم الناس، وأما فى حق الأنبيـاء فإن حكمهم حق كيفما وقع .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أى سيدك، وذلك معروف فى اللغة أن يقال للسيد ربّ؛ قال الأعشى :

رَبّى كريمٌ لا يُكَدِّرُ نِعمـــةً * وإذا تُنُوشِدَ(٢) فى المَهارِقِ أَنْشَدَا

أى آذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أنى مظلوم محبوسٌ بلا ذنب وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " لا يَقُلْ أحُدكم آسقِ ربّك أطعمْ ربك وضِّئْ ربّك ولا يَقل أحدُكم ربِّى وليقلْ سيّدى مولاى ولا يقلْ أحدُكم عبدى أمتى وليقلْ فتاىَ فتاتِى غلامى ". وفى القرآن : « ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ » « إلى

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٢ .

(٢) ويروى : (يناشد بالمهارق) يقول : إذا نوشد بما فى الكتب أجاب؛ أى إذا سئل أعطى . والمهرق : الصحيفة .

رَبِّكَ» «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» أى صاحبى؛ يعنى العزيز. ويقال لكل من قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد ربّه يربّه، فهو ربٌّ له. قال العلماء قوله عليه السلام: "لا يَقُلْ أحدُكم" "وليَقُل" من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرّم؛ ولأنه قد جاء عنه عليه السلام "أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا" أى مالكها وسيّدها؛ وهذا موافق للقرآن فى إطلاق ذلك اللفظ؛ فكان محل النهى فى هذا الباب ألّا تتخذ هذه الأسماء عادة فنترك الأولى والأحسن. وقد قيل: إن قول الرجل عبدى وأمتى يجمع معنيين: أحدهما — أن العبودية بالحقيقة إنما هى لله تعالى؛ ففى قول الواحد من الناس لمملوكه عبدى وأمتى تعظيم عليه، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه؛ وذلك غير جائز. والثانى — أن المملوك يدخله من ذلك شيء فى آستصغاره بتلك التسمية، فيحمله ذلك على سوء الطاعة. وقال ابن شعبان فى «الزاهى»: "لا يقل السيّد عبد وأمتى ولا يقل المملوك ربّى ولا ربّتى" وهذا محمول على ما ذكرناه. وقيل: إنما قال صلى الله عليه وسلم "لا يقل العبد ربّى وليقل سيّدى" لأن الرب من أسماء الله تعالى المستعملة بالاتفاق؛ وآختلف فى السيّد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح؛ إذ لا التباس ولا إشكال، وإذا قلنا إنه من أسمائه فليس فى الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الربّ، فيحصل الفرق. وقال ابن العربى: يحتمل أن يكون ذلك جائزا فى شرع يوسف عليه السلام.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ الضمير فى «فأنساه» فيه قولان: أحدهما — أنه عائد إلى يوسف عليه السلام، أى أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقى الملك — حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك — «آذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» نسى فى ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق؛ فعوقب باللبث. قال عبد العزيز بن عُمَير الكِنْدىّ: دخل جبريل على يوسف النبى عليه السلام فى السجن فعرفه يوسف، فقال: يا أخا المنذرين! مالى أراك بين الخاطئين؟! فقال جبريل عليه السلام: يا طاهر [ابن][1] الطاهرين! يقرئك

(١) من ع.

السلام رب العالمين ويقـول : أما استحييت إذ آستغثت[1] بالآدميين ؟ ! وعزّتى ! لألبثنّك فى السجن بضع سنين ؛ فقال : يا جبريل ! أهو عنّى راض ؟ قال : نعم ! قال : لا أبالى الساعة . ورُوى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبـه عن الله تعالى فى ذلك وطول سجنه ، وقال له : يا يوسف ! من خلّصك من القتل من أيدى إخوتك؟ ! قال : الله تعالى ، قال : فمن أخرجك من الجبّ ؟ قال : الله تعالى قال : فمن عَصَمك من الفاحشـة ؟ قال : الله تعالى، قال : فمن صرف عنـك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يارب كلمة زلّت منى ! أسألك يا إله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهـم السلام أن[2] ترحمنى ؛ فقـال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين . ورَوى أبو سلَمة عن أبى هُريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قال: «آذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ» مالبث فى السجن بضع سنين". وقال آبن عباس: عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لمـّا قال للذى نجا منهما « آذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » ولو ذكر يوسف ربه لخلّصه. وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : " لولا كلمة يوسف — يعنى قوله : « اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » — ما لبث فى السجن ما لبث " قال : ثم يبكى الحسن ويقـول : نحن ينزل بنـا الأمر فنشكو إلى الناس . وقيل : إن الهاء تعود على الناجى ، فهو الناسى ؛ أى أنسى الشيطانُ الساقى أن يذكر يوسـف لربه ، أى لسـيده ؛ وفيـه حذف، أى أنساه الشيطانُ ذكره لربه ؛ وقد رجّح بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لـمـا استحق العقاب باللبث فى السجن؛ إذ الناسى غير مؤاخذ . وأجاب أهل القول الأوّل بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب ؛ ردّ عليهم أهل القول الثانى بقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » فدلّ على أن الناسى [هو][3] الساقى لا يوسف؛ مع قوله تعالى: « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ[4] » فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان، وليس له على الأنبيـاء سطلنة ؟ ! قيل : أما

(١) فاستشفعت . (٢) فى ع ى : إلا ترحمنى . (٣) من ع . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٨ .

النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقا، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال صلى الله عليه وسلم: "نسي آدم فنسيت ذريته". وقال: "إنما أنا بشر أنسى كما تنسون". وقد تقدم.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع قطعة من الدهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن أبي زيد[1]: يقال بَضع وبِضع بفتح الباء وكسرها، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال الهروي: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناهما القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع ما دون نصف العِقد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "وكم البضع" فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: "اذهب فزائد في الخَطَر"[2]. وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبي. قال الماوردي: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقُطرُب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعي. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفراء: والبضع لا يُذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجونا ثلاثة أقاويل: أحدها — سبع سنين، قاله ابن جُرَيج وقتادة ووهب بن مُنَبِّه؛ قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني — اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث — أربع عشرة

---

(١) كذا في ع وك. وهو الذي عليه اللسان. وفي أ وى: ابن زيد.

(٢) الخطر (بالتحريك): الرهن والحظ والحديث في شأن مراهنة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقريش على غلبة الروم؛ وكان المسلمون يحبون غلبة الروم على فارس، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك، لأنهم وفارس ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بعث، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على أخرى، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "اذهب فزائد في الخطر وماد في الأجل" وكان ذلك قبل تحريم الرهان. راجع صحيح الترمذي في تفسير أول سورة الروم.

سنة، قاله الضحاك . وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف فى السجن خمسا و بضعا . واشتقاقه من بضعت الشيء أى قطعته ، فهو قطعة من العدد ، فعاقب الله يوسف بأن حُبِس سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التى مضت ، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله . قال وهب بن مُنَبِّه : حبس يوسف فى السجن سبع سنين ، ومكث أيوب فى البلاء سبع سنين، وعذّب بُخْتُنَصَّر بالمسخ سبع سنين . وقال عبد الله بن راشد البصرى عن سعيد بن أبى عَرُوبة : إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنى عشرة سنة .

الخامســـة — فى هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب و إن كان اليقين حاصلا فإن الأمور بيد مُسبِّبها ، ولكنه جعلها سلسلة، وركّبَ بعضها على بعض، فتحريكها سنّة ، والتعويل على المنتهى يقين . والذى يدلّ على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى فى لقيا الخضر، وهذا بيّن فتأملوه .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه، فنزل جبريل فسلم على يوسف و بشّره بالفرج وقال : إن الله مخرجك من سجنك، ومُمكِّن لك فى الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهى كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث فى السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولا ليوسف بلاء وشدّة، وجعلها آخرا بشرى ورحمة؛ وذلك أن الملك الأكبر الرّيّان بن الوليد رأى فى نومه كأنما خرج من نهر يابس سبع بقرات سِمـان ، فى أثرهنّ سبع عِجاف — أى مهازيل — وقـد أقبلت العِجَاف على السِّمان فأخذن بآذانهنّ فأكلنهنّ، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خُضْر قد أقبل

عليهن سبع يابسات فأكلنهن حتى أتين عليهنّ فلم يبق منهنّ شيء وهنّ يابسات، وكذلك البقر كنّ عجافا فلم يزد فيهنّ شيء من أكلهنّ السّمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنّجامة والعرافة والسحر، وأشراف قومه، فقال: «يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ» فقصّ عليهم، فقال القوم: «أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» قال ابن جريج قال لي عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جُوَيبر عن الضّحاك عن ابن عباس قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعني بها الكاذبة. وقال الهَرَوِي: قوله تعالى: «أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» أي أخلاط أحلام. والضِّغث في اللغة الحُزْمة من الشيء كالبقل والكلإ وما أشبههما، أي قالوا: ليست رؤياك ببيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث ما لا تأويل له من الرؤيا.

قوله تعالى: «سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ» حذفت الهاء من «سبع» فرقا بين المذكر والمؤنث «سِمَانٍ» من نعت البقرات، ويجوز في غير القرآن سبعَ بقراتٍ سماناً، نعت للسبع، وكذا خُضرًا، قال الفراء: ومثله. «سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا»[1]. وقد مضى في سورة «البقرة»[2] اشتقاقها[3] ومعناها. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: المَعز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سمانا فهي سِنِيّ رخاء[4]، وإن كانت عجافا كانت شدادا، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبّان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فِتَناً مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما في الخبر "يشبه بعضها بعضا". وفي خبر آخر في الفتن "كأنها صياصي البقر"[5] يريد لتشابهها، إلا أن تكون صُفْرا كلها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدوّ يضرب عليهم، وينزل بساحتهم. وقد تدلّ البقرة على الزوجة والخادم والغلّة والسّنَة؛ لما يكون فيها من الولد والغلّة والنبات. ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ من عَجُف يَعجُف، على وزن عَظُم يَعظُم، وروى عَجِف يَعجَف على وزن حَمِد يَحمَد.

---

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٠٨. (٢) راجع ج ١ ص ٢١٦. (٣) في ع: اشتقاق البقرة.
(٤) في ع و: سنين رخاء. (٥) صياصي البقر: قرونها.

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ جمع الرؤيا رُؤًى : أى أخبرونى بحكم هذه الرؤيا . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عَبَرت النهر، بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يعبر[(١)] بما يؤول إليه أمرها . واللام فى « للرؤيا » للتّبيين، أى إن كنتم تَعبُرون ، ثم بيّن فقال : للرؤيا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤)

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ قال الفراء : ويجوز «أضغاثَ أحلام» قال النحاس : النصب بعيد، لأن المعنى : لم ترشيئا له تأويل ، إنما هى أضغاث أحلام، أى أخلاط . وواحد الأضغاث ضِغث ، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضِغث ؛ قال الشاعر :

* كضِغث حُلْم غُرّ منه حالِمُــه *

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، نَفَـوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا أنهـم نفوا عن أنفسهم علم التأويل . وقيـل : نفوا عن أنفسهم علم التعبير . والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التى منها صحيحة ومنها باطلة ، ولهـذا قال الساقى : « أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » فعـلم أن القوم عجـزوا عن التأويل ، لا أنهم آدّعو ألّا تأويل لهـا . وقيـل : إنهم لم يقصدوا تفسيرا ، وإنمـا أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله ، وعلى هذا أيضا فعندهم علم . و «الْأَحْلَامِ» جمع حُلْم، والحُلْم بالضم ما يراه النائم، تقول منه : حَلَم بالفتح وآحتلم، وتقول : حَلَمتُ بكذا وحَلَمته، قال :

فَحَلَمتُها وبَنُو رُفَيْدَةَ[(٢)] دُونَهـا * لا يَبْعَدَنَّ خَيالُهـا المَحْـلُومُ

أصله الأناة ، ومنه الحِلْم ضد الطّيش ؛ فقيل لمـا يُرى فى النوم حُلْم لأن النوم حالة أناة وسكون ودَعة

(١) فى ع و ى : يخبر .

(٢) رفيدة : أبو حى من العرب ، يقال لهم الرفيدات ؛ كما يقال لآل هبيرة الهبيرات . اللسان .

الثانية — في الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أول ما تعبر ، لأن القوم قالوا : « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » ولم تقع كذلك ؛ فإن يوسف فسرها على سِنِيّ الجدب والخصب ، فكان كما عبر ؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر ، فإذا عبرت وقعت .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾ يعني ساقي الملك . « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أي بعد حين ، عن ابن عباس وغيره ؛ ومنه « إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ »(١) وأصله الجملة من الحين . وقال ابن دُرُسْتُويه(٢) : والأمة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال — والله أعلم — : وادكر بعد حين أمة ، أو بعد زمن أمة ، وما أشبه ذلك ؛ والأمة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو في اللفظ واحد ، وفي المعنى جمع ؛ وكل جنس من الحيوان أمة ؛ وفي الحديث : " لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها " .

قوله تعالى : ﴿ وَادَّكَرَ ﴾ أي تذكر حاجة يوسف ، وهي قوله : « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » .

وقرأ ابن عباس — فيما روى عفان عن همام عن قتادة عن عكرمة عنه — « وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ » . النحاس : والمعروف من قراءة ابن عباس وعكرمة والضحاك « وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ » ، بفتح الهمزة وتخفيف الميم ؛ أي بعد نسيان ؛ قال الشاعر :

أَمِهْتُ وكنتُ لا أنسى حديثًا * كذاكَ الدهرُ يُودِي بالعقولِ

وعن شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعي : « بعد أَمْهٍ » بفتح الألف وإسكان الميم وهاء خالصة ؛ وهو مثل الأَمَه ، وهما لغتان ، ومعناهما النسيان ؛ ويقال : أَمِهَ يَأْمَهُ أَمَهًا إذا نسي ؛ فعلى هذا

(١) راجع ص ٩ من هذا الجزء .

(٢) هو عبدالله بن جعفر بن درستويه (بضم الدال والراء) وضبطه ابن ماكولا (بفتحهما) .

« وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أَمَه » ؛ ذكره النحاس ؛ ورجل أَمِـهٌ(١) ذاهب العقل . قال الجوهري : وأما ما في حديث الزهري "أمِه" بمعنى أقر واعترف فهي لغة غير مشهورة . وقرأ الأشهب العُقَيلي — « بَعْـدَ إِمَّةٍ » أي بعد نعمة ؛ أي بعد أن أنعم الله عليـه بالنجاة . ثم قيل : نسى الفتى يوسف لقضاء الله تعالى في بقائه في السجن مدة . وقيل : ما نسى ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذي بسـببه حبس هو والخبّـاز ؛ فقوله : « وَٱدَّكَرَ » أي ذكر وأخبر . قال النحاس : أصل ٱدَّكَرَ اذتكرَ ؛ والذال قريبة المخرج من التاء ، ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة ، والتاء مهموسة ، فلو أدغموا ذهب الجهر ، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو الدال ؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة ؛ فصار ٱذْدَكَرَ ، فأدغموا الذال في الدال لرخاوة الدال ولينها ؛ ثم قال : ﴿ أَنَاْ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي أنا أخبركم . وقرأ الحسن « أَنَاْ آتِيكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » وقال : كيف ينبئهم العِلج(٢) ؟ ! قال النحاس : ومعنى . « أُنَبِّئُكُمْ » صحيح حسن ؛ أي أنا أخبركم إذا سألتُ . ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه . ﴿ يُوسُفُ ﴾ نداء مفرد ، وكذا ﴿ الصِّدِّيقُ ﴾ أي الكثير الصـدق . ﴿ أَفْتِنَا ﴾ أي فأرسلوه ، فجاء إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وسأله عن رؤيا الملك . ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ﴾ أي إلى الملك وأصحابه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ التعبير ، أو « لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ » مكانك من الفضل والعلم فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما له .

قوله تعـالى : قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَـا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّـا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾

فيــه مسئلتـان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ ﴾ لمـا أعلمه بالرؤيا جعل يفسّرها له ، فقال : السبع من البقرات السّمان والسّنبلات الخضر سبع سنين مخصبات ؛ وأما البقرات العِجاف

(١) في ع : أمه وامه : ذاهب العقل . والذي في اللسان : أمه الرجل فهو مأموه وهو الذي ليس عقله معه .

(٢) العلج : الكافر من العجم .

والسّنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبات ؛ فذلك قوله : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا ﴾ أى متوالية متتابعة ؛ وهو مصدر على غير المصدر، لأن معنى « تَزْرَعُونَ » تدأبون كعادتكم فى الزراعة سبع سنين . وقيل : هو حال ؛ أى دائبين . وقيل : صفة لسبع سنين ، أى دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب «دَأَبًا» بتحريك الهمزة، وكذا روى حفص عن عاصم، وهما لغتان[1]، وفيه قولان، قول أبى حاتم : إنه من دَئِب . قال النحاس: ولا يعرف أهل اللغة إلا دَأَب . والقول الآخر ـــ إنه حُرِّك لأن فيه حرفا من حروف الحلق ؛ قاله الفراء، قال: وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز إذا كان ثانيه همزة، أو هاء، أو عينا، أو غينا ، أو حاء ، أو خاء ؛ وأصله العادة ؛ قال[2] :

* كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا *

وقد مضى فى « آل عمران[3] » القول فيه . ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ قيل : لئلا يتسوّس[4] ، وليكون أبقى ؛ وهكذا الأمر فى ديار مصر . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أى آستخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة ؛ وهذا القول منه أمر، والأول خبر. ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا، وإن كان الأظهر منه الخبر ؛ فيكون معنى : «تَزْرَعُونَ» أى آزرعوا.

الثانية ـــ هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يُفوّت شيئا منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا آستحقاق ؛ هذا مذهب كافة المحقّقين من أهل السنّة أجمعين ؛ وبسطه فى أصول الفقه .

---

(١) اللغتان «دأبا» بتحريك الهمزة و«دأبا» بسكونها وهى قراءة الجمهور من السبعة كما فى تفسير ابن عطية
(٢) هو آمرؤ القيس ؛ وتمام البيت : * وجارتها أم الرباب بمأسل *
(٣) راجع جـ ٤ ص ٢٢ فما بعد .
(٤) كذا فى او ع و ك ى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ يعنى السّنين المجدبات . ﴿ يَأْكُلْنَ ﴾ مجاز ، والمعنى يأكل أهلهنّ . ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أى ما ادّخرتم لأجلهن ؛ ونحوه قول القائل :

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ * وليلُكَ نومٌ والرَّدى لكَ لازمُ

والنهـار لا يَسهو ، والليل لا ينام ؛ وإنمـا يُسهى فى النهـار ، ويُنام فى الليل . وحكى زيد ابن أسلم عن أبيه : أن يوسف كان يضع طعام الآثنين فيقرِّبه إلى رجل واحد فيأكل بعضه ، حتى إذا كان يومٌ قرّبه له فأكله كلّه ؛ فقال يوسف : هـذا أوّل يوم من السّبع الشداد . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ نصب على الآستثناء . ﴿ مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أى ممـا تحبسون لتزرعوا ؛ لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات . وقال أبو عبيدة : تحرزون . وقال قتادة : «تُحْصِنُونَ» تدّخرون ، والمعنى واحد ؛ وهو يدلّ على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة .(1)

الثانيـــة — هذه الآية أصل فى صحة رؤيا الكافر ، وأنها تُخرج على حسب ما رأى ، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن ؛ فكيف إذا كانت آية لنبيّ ، ومعجزة لرسول ، وتصديقا لمصطفى للتبليغ ، وحجة للواسطة بين الله — جل جلاله — و [بين](2) عباده .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ ﴾ هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن فى رؤيا الملك ، ولكنه من علم الغيب الذى آتاه الله . قال قَتادة : زاده الله علم سَنة لم يسألوه

---

(1) هذا فيه نظر إن كان المراد الغلاء ؛ لمـا روى عنه عليه الصلاة والسلام " من احتكر حكرة يريد أن يغلى بها على المسلمين فهو خاطئ ، وقد برئت منه ذمة الله ورسوله " رواه أحمد والحاكم عن أبى هريرة فى روايات فى النهى عن الاحتكار .

(2) من ع .

عنها إظهارا لفضله ، وإعلاما لمكانه من العلم و بمعرفته . ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ من الإغاثة أو الغوث؛ غَوَّثَ الرجل قال واغوثاه، والاسم الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث، واستغاثني فلان فأغثته، والاسم الغِياث؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . والغيث المطر؛ وقد غاث الغيث الأرضَ أى أصابها ؛ وغاث الله البلادَ يَغيثها غَيْثا ، وغِيثَت الأرضُ تُغاث غَيْثا، فهى أرض مَغِيثة ومَغيوثة؛ فمعنى «يُغَاثُ النَّاسُ» يمطَرون . ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والدُّهن؛ ذكره البخاري . وروى حجّاج عن ابن جُرَيج قال : يعصرون العنب خمرا والسِّمسم دُهنا، والزيتون زيتا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها؛ و يدلّ ذلك على كثرة النباتْ . وقيل : « يَعْصِرُونَ » أى يَنجُون؛ وهو من العُصْرة، وهي المَنْجاة . قال أبو عبيدة : والعَصَر بالتحريك المَلْجأ والمَنْجاة ، وكذلك العُصْرة؛ قال أبو زُبيد[1] :

صادِيًا يَستغيثُ غير مُغَـاثٍ ولقد كَانَ عُصْرَةَ المَنجودِ

والمَنجود الفَزِع . واعتصرتُ بفلان وتعصرتُ أى التجأت إليه . قال أبو الغوث: «يَعْصِرُونَ» يَستَغِلُّون ؛ وهو من عصر العنب . واعتصرت ماله أى استخرجته من يده . وقرأ عيسى « تُعْصَرُونَ » بضم التاء وفتح الصاد، ومعناه : تُمطَرون؛ من قول [الله][2] : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا»[3] وكذلك معنى « تُعصِرون » بضم التاء وكسر الصاد، فيمن قرأه كذلك .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

(١) قاله فى رثاء ابن أخته وكان مات عطشا فى طريق مكة . (٢) من ع . (٣) راجع جـ ١٩ ص ١٦٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ ﴾ أى فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال : ائتونى به . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ أى يأمره بالخروج قال : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَٱسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ أى حال النسوة . ﴿ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصحّ براءته [عند](١) الملك مما قُذِف به ، وأنه حبس بلا جرم . وروى الترمذىّ عن أبى هُرَيرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم](٢) يوسف بن يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم — قال — ولو لبثتُ فى السجن ما لَبث ثم جاءنى الرسول أجبت — ثم قرأ — « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » — قال — ورحمةُ الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد [إذ قال « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ](٢) فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى ذروة من قومه " . وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » " وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال " يرحم الله أخى يوسف لقد كان صابرا حليما ولو لبثت فى السجن ما لبثه أجبت الداعىَ ولم ألتمس العُـذْر(٣) " . وروى نحو هـذا الحديث من طريق عبـد الرحمن بن القسم صاحب مالك ، فى كتاب التفسير من صحيح البخارى، وليس لابن القاسم فى الديوان غيره . وفى رواية الطّبرىّ " يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسـل إلىّ لخرجت سريعـا أنْ كان لحليما ذا أناة " . وقال صلى الله عليه وسلم : " لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لمـا أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسـول ولو كنت مكانه لبادرتهم البـاب(٤) " . قال ابن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرا ، وطلبا لبراءة الساحة ؛ وذلك أنه

---

(١) من ع . وفى ا و ك و ى : للملك .
(٢) الزيادة عن صحيح الترمذى .
(٣) كذا فى ع و ك و ى .
(٤) الحديث فى تفسير الطبرى يختلف فى اللفظ عما هنا .

— فيما روى — خشى أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذى راود آمرأة مولاه ، فأراد يوسف عليه السلام أن يبيّن براءته ، ويحقق منزلته من العفّة والخير ؛ وحينئذ يخرج للإحْظَاءِ والمنزلة ؛ فلهذا قال للرسول : آرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة ، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقصى عن ذنبى ، وينظر فى أمرى هل سجنت بحق أو بظلم ؛ ونكّب عن آمرأة العزيز حُسن عشرة ، ورعاية لذِمام الملك العزيز له . فإن قيل : كيف مدح النبي صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه فى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخذ لنفسه وجها آخر من الرأى ، له جهة أيضا من الجودة ؛ يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان عذرى بعد ذلك ؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هى معرّضة لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ؛ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على الأحزم من الأمور ؛ وذلك أن ترك الحزم فى مثل هذه النازلة ، التاركَ فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ، ربما نتج له البقاء فى سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التى ذهب النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجَلَدٌ .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ ذكر النّساء جملة ليدخل فيهنّ امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح ؛ وذلك حُسن عشرة وأدب ؛ وفى الكلام محذوف ، أى فاسأله أن يتعرّف ما بال النّسوة . قال آبن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز — وكان قد مات العزيز — فدعاهنّ فـ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أى ما شأنكنّ . ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وذلك أن كل واحدة منهنّ كلمت يوسف فى حق نفسها ، على ما تقدّم ، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت آمرأة العزيز ، فكان ذلك مراودة منهنّ . ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أى معاذ الله . ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أى زنى . ﴿ قَالَتِ آمْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ لما رأت إقرارهنّ ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقرّت

هى أيضا، وكان ذلك لطفا من الله بيوسف . و « حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى تبيّن وظهر ؛ وأصله حَصَصَ ، فقيل : حَصْحَصَ ؛ كما قال : كُبْكِبُوا فى كببوا ، وكفكف فى كفف ؛ قاله الزجاج وغيره . وأصل الحصّ ٱستئصال الشىء؛ يقال : حصّ شعره إذا ٱستأصله جزًّا؛ قال أبو القيس بن الأسلت :

قد حَصّتِ البيْضَةُ رأسى فما ... أطْعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاعِ [1]

وسَنَةٌ حصّاء أى جرداء لا خير فيها؛ قال جرير :

يأوِى إليكم بلا مَنٍّ ولا جَحَدٍ ... مَن ساقه السَّنةُ الحَصّاءُ والذِّيبُ

كأنه أراد أن يقول : والضّبع ، وهى السنة المجدبة؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافية ؛ فمعنى « حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى ٱنقطع عن الباطل بظهوره وثباته [2]؛ قال :

أَلَا مُبْلِغٌ عنّى خِداشًا فإنّهُ ... كذوبٌ إذا ما حَصْحَصَ الحقُّ ظالمُ

وقيل : هو مشتق من الحِصّة؛ فالمعنى : بانت حِصّة الحق من حصّة الباطل. وقال مجاهد وقَتادة : وأصله مأخوذ من قولهم ؛ حَصّ شَعْرَه إذا استأصل قطعه؛ ومنه الحِصّة [3] من الأرض إذا قطعت منها . والحِصْحِص بالكسر التراب والحجارة؛ ذكره الجوهرى . ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا القول منها — و إن لم يكن سأل عنه — إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه ؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار ، حتى لا يخامر نفسا ظنٌّ ، ولا يخالطها شك . وشدّدت النون فى « خَطْبُكُنَّ » و « رَاوَدْتُنَّ » لأنها بمنزلة الميم والواو فى المذكر .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

---

(١) البيضة : الخوذة؛ والتهجاع : النومة الخفيفة . (٢) فى ع : بيانه . (٣) فى ع : فى .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ٱختلف فيمن قاله ، فقيل : هو من قول ٱمرأة العزيز ، وهو متصل بقولها : « ٱلْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى أقررتُ بالصدق ليعلم أنى لم أخنه بالغيب(١) أى بالكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وحدت(٢) عن الخيانة ؛ ثم قالت : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » بل أنا راودته ؛ وعلى هذا هى كانت مقرّة بالصانع ، ولهذا قالت : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقيل : هو من قول يوسف ؛ أى قال يوسف : ذلك الأمر الذى فعلته ، من رد الرسول « لِيَعْلَمَ » العزيز « أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قاله الحسن وقَتادة وغيرهما . ومعنى « بالغيب » وهو غائب . و إنمـا قال يوسف ذلك بحضرة الملك ، وقال : « لِيَعْلَمَ » على الغائب توقيرا للملك . وقيل : قاله إذ عاد إليه الرسول وهو فى السجن بعدُ ؛ قال ٱبن عباس : جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه ؛ فقال يوسف : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لم أَخُن سيّدى بالغيب ؛ فقال له جبريل عليه السلام : يا يوسف ! ولا حين حَلَلْت الإزار ، وجلست مجلس الرجل من المرأة ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » الآية . وقال السّدىّ : إنمـا قالت له ٱمرأة العزيز ولا حين حَلَلْت سراويلك يا يوسف ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » . وقيل : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » من قول العزيز ؛ أى ذلك ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب ، وأنى لم أغفل عن مجازاته على أمانته . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ معناه : أن الله لا يهدى الخائنين بكيدهم .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ قيل : هو من قول المرأة . وقال القُشَيرىّ : فالظاهر أن قوله : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » وقوله : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » من قول يوسف .

قلت : إذا ٱحتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرّئ يوسف من حَلّ الإزار والسّراويل ؛ و إذا قدرناه من قول يوسف فيكون ممـا خطر بقلبه ، على ما قدّمناه من القول المختار فى قوله : « وَهَمَّ بِهَا » . قال أبو بكر الأنبارىّ : من الناس من يقول : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » من كلام ٱمرأة العزيز ؛

(١) من ع . (٢) فى ع : خرجت .

لأنه متصل بقولها : « أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » وهذا مذهب الذين ينفون الهمّ عن يوسف عليه السلام؛ فمن بنى على قولهم قال : من قوله : « قَالَتِ ٱمْرَأَةُ الْعَزِيزِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » كلام متصل بعضه ببعض، ولا يكون فيه وقف تام على حقيقة؛ ولسنا نختار هذا القول ولا نذهب إليه . وقال الحسن : لما قال يوسف « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » كره نبيّ الله أن يكون قد زكّى نفسه فقال : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي »(١) لأنّ تزكية النفس مذمومة؛ قال الله تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ »(٢) وقد بيّناه في « النساء »(٣) . وقيل : هو من قول العزيز؛ أي وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف . ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ أي مشتهية له . ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ في موضع نصب بالاستثناء؛ و « ما » بمعنى مَنْ؛ أي إلا مَن رحم ربي فعصمه؛ و «ما» بمعنى من كثير؛ قال الله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ »(٣) وهو استثناء منقطع، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء؛ وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرّ غاية و إن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية " قالوا : يا رسول الله ! هذا شرّ صاحب في الأرض . قال : " فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم " .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ لما ثبت للملك براءته مما نُسب إليه، وتحقّق في القصة أمانته، وفهم أيضا صبره وجَلَده عظمت منزلته عنده، وتيقّن حسن خلاله قال : «ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي» فانظر إلى قول الملك أولا — حين تحقق علمه — « ائْتُونِي بِهِ » فقط، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال(٤) : « ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي » ورُوي عن وهب بن منبّه قال : لما دُعي يوسف وقف بالباب فقال : حسبي ربي من خلقه،

---

(١) من ع . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١١٠ .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ فما بعد وص ١٢ (٤) في ع وروى : قال ثانيا .

عزّ جاره وجلّ ثناؤه ولا إلٰه غيره. ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره فخرّ له ساجدا؛ ثم أقعده الملك معه على سريره فقال. «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ». «قَالَ» له يوسف: «ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ» للخزائن «عَلِيمٌ» بوجوه تصرفاتها. وقيل: حافظ للحساب، عليم بالألسن. وفي الخبر: "يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل ٱجعلني على خزائن الأرض لأستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك سنة". وقيل: إنما تأخر تمليكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله. وقد قيل في هذه القصة: إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره؛ ثم سلّم على الملك بالعربية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان عمّي إسمعيل، ثم دعا [له](1) بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا، فكلما [تكلم الملك](2) بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملك أمره، وكان يوسف إذ ذاك ٱبن ثلاثين سنة؛ ثم أجلسه على سريره وقال: أحب أن أسمع منك رؤياي، قال يوسف: نعم أيها الملك! رأيتَ سبع بقرات سِمانٍ شُهْبا غُرًّا حسانا، كشف لك عنهن النيل فطلعن عليك من شاطئه تَشْخُب(3) أخلافها لبنا؛ فبينا أنت تنظر إليهنّ وتتعجب من حسنهنّ إذ نَضَب النيل فغار ماؤه، وبدا أُسُّه(4)، فخرج من حَمَئه ووَحَله سبع بقرات عجاف شُعْث غُبْر مُقَلَّصات البطون، ليس لهنّ ضروع ولا أخلاف، لهنّ أنياب وأضراس، وأكفّ كأكفّ الكلاب وخراطيم كخراطيم السّباع، فٱختلطن بالسّمان فٱفترسنهنّ ٱفتراس السّباع، فأكلن لحومهنّ، ومزّقن جلودهنّ، وحطّمن عظامهنّ، ومشمشن مخّهنّ؛ فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل! ثم لم يظهر منهنّ سِمَن ولا زيادة بعد أكلهنّ! إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات ممتلئات حبا وماء، وإلى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة في منبت واحد، عروقهنّ في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: أي شيء هذا؟! هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولهن

(1) من ع و ى. (2) من ع. (3) تشخب: تسيل. (4) في ع و ى: يبسه.

فى المـاء، إذ هبّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهن النـار فأحرقتهن ؛ فصرن سودا مغبرات ؛ فانتبهتَ مذعورا أيهـا الملك ؛ فقال الملك : والله ما شأن هـذه الرؤيا وإن كان عجبا بأعجب مما سمعتُ منك (١) ! فـما ترى فى رؤياى أيها الصدّيق؟ فقال يوسف : أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مَدَر لنبت ، وأظهر الله فيه النّماء والبركة، ثم ترفع الزرع فى قصبه وسنبله تبنى له المخازن العظام (٢) ؛ فيكون القصب والسّنبل عَلَفا للدواب، وحبه للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم إلى أهْرائك (٣) الخُمُس ؛ فيكفيك من الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحى يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز مالم يجتمع لأحد قبلك ؛ فقـال الملك : ومن لى بتدبير هـذه الأمور ؟ ولو جمعت أهـل مصر جميعا ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء ؛ فقال يوسف عليه السلام [عند ذلك] (٤) : « ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ » أى على خزائن أرضك ؛ وهى جمـع خِزانة ؛ ودخلت الألف واللام عوضا من الإضافة، كقول النابغة :

لَهُمْ شِيَمٌ لم يُعْطِهَا الله غـــيرَهُمْ * مِنَ الجُودِ والأَحْلَامُ غيرُ كَوَاذِبِ

قوله تعـالى : ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ وهذا يدلّ على أن قوله : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » جَرَى فى السّجن . ويحتمل أنه جرى عند الملك ، ثم قال فى مجلس آخر : « ٱئْتُونِى بِهِ » تأكيـدا « أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى » أى أجعـله خالصا لنفسى ، أفوض إليـه أمر مملكتى؛ فذهبوا فجاءوا به ؛ ودلّ على هذا ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أى كلّم الملك يوسف، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف ؛ فـ﴿ قَالَ ﴾ الملك : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أى متمكن نافذ القول، « أَمِينٌ » لا تخاف غدرا .

قوله تعـالى : قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)

---

(١) فى ع : فما ترى فى هذه الرؤيا . (٢) فى ع : العظمى . (٣) كذا فى ع وى وك : هو بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان . وهى مخازن الحبوب اليوم . وفى أ وح : أمرائك . (٤) من ع وى .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال سعيد بن منصور : سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خزانة الأرض؛ أما سمعت إلى قوله : « ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ » أى على حفظها، فحذف المضاف . ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ لما وُلّيت ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأمره . وفى التفسير : إنى حاسب كاتب؛ وأنه أول من كتب فى القراطيس . وقيل : « حَفِيظٌ » لتقدير الأقوات « عَلِيمٌ » بسنى المجاعات . قال جُويبر عن الضّحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أخى يوسف لو لم يقل ٱجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك عنه سنة " . قال ابن عباس : لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوّجه وردّاه[1] بسيفه، ووضع له سريرا من ذهب، مكللا بالدرّ والياقوت، وضرب عليه حُلّة من إستبرق؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشا وستون مِرْفَقة[2]، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوجا، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه، فجلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وفوّض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام، فسلّم سلطانه كلّه إليه، وهلك قطفير تلك الليالى، فزوج الملك يوسف راعيل ٱمرأة العزيز، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟! فقالت : أيها الصدّيق لا تلمنى؛ فإنى كنت ٱمرأة حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبى لا يأتى النساء، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن فغلبتنى نفسى . فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين : إفرائيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف . وقال وهب بن منبّه : إنما كان تزويجه زليخاء ٱمرأة العزيز بين دخلتى الإخوة، وذلك أن زليخاء مات زوجها و يوسف فى السجن، وذهب مالها وعمى بصرها بكاء على يوسف، فصارت تتكفّف الناس؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها،

---

(١) رداه بسيفه : قلده به . (٢) المرفقة (بالكسر) : المتكأ والمخدة .

وكان يوسف يركب فى كل أسبوع مرة فى موكب زُهَاء مائة ألف من عظماء قومه ، فقيل لها : لو تعرّضت له لعله يسعفك بشئ ؛ ثم قيل لها : لا تفعلى، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك ، فقالت : أنا أعلم بخُلُق حبيبى منكم، ثم تركته حتى إذا ركب فى موكبه ، [قامت] (١) فنادت بأعلى صوتها : سبحان من يجعل الملوك عبيدا بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم ، فقال يوسف : ما هذه ؟ فأتوا بها ؛ فقالت : أنا التى كنت أخدمك (٢) على صدور قدمىّ، وأُرَجِّل جُمّتك بيدىّ، وتربيت فى بيتى، وأكرمت مثواك، لكن فرط مافرط من جهلى وعُتوى فذقت وبال أمرى، فذهب مالى، وتضعضع ركنى، وطال ذلّى، وعَمِى بصرى، وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفّف الناس ، فمنهم من يرحمنى ، ومنهم من لا يرحمنى ، وهذا جزاء المفسدين ؛ فبكى يوسف بكاء شديدا ، ثم قال لها : هل بقيت تجدين مما كان فى نفسك من حبك لى شيئا ؟ فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إلىّ من الدنيا بحذافيرها ، لكن ناولنى صدر سوطك ، فناولها فوضعته على صدرها ، فوجد للسوط فى يده اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى منزله فارسل إليها رسولا : إن كنتِ أَيِّمًا تزوجناك ، وإن كنتِ ذات بعل أغنيناك ، فقالت للرسول : أعوذ بالله أن يستهزئ بى الملك ! لم يُردْنى أيام شبابى وغناى ومالى وعزى أفيريدنى اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟ ! فأعلمه الرسول بمقالتها ، فلما ركب فى الأسبوع الثانى تعرضت له ، فقال لها : ألم يبلّغك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها ؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهُيئت ، ثم زُفّت إليه ، فقام يوسف يصلّى ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها ، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته ، إكراما ليوسف عليه السلام لمّا عفّ عن محارم الله ، فأصابها فإذا هى عذراء ، فسألها ؛ فقالت : يا نبىّ الله إن زوجى كان عِنّينا لا يأتى النساء ، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف ؛ قال : فعاشا فى خَفْض (٣) عيش ، فى كل يوم يجدّد الله لهما خيرا ، وولدت له ولدين ؛ إفرائيم ومنشا . وفيما روى

---

(١) من ع ، ك ، ى . (٢) فى ع : أقدمك على صدور قومى . (٣) خفض عيش : فى سعة وراحة .

أن الله تعالى ألقى فى قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان فى قلبها. فقال لها : ما شأنك لاتحبيننى كما كنت فى أول مرة؟ فقالت [له][1]: لما ذقت محبة الله تعالى شغلنى ذلك عن كل شىء.

الثانيــة ــ قال بعض أهل العلم: فى هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه فى فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته و فجوره فلا يجوز ذلك. وقال قوم : إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليومَ غيرُ جائز؛ والأول أولى إذا كان على الشرط الذى ذكرناه . والله أعلم . قال الماوردى : فإن كان المولِّى ظالما فقد اختلف الناس فى جواز الولاية من قبله على قولين : أحدهما ــ جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وُلِّىَ من قبل فرعون، ولأن الاعتبار فى حقه بفعله لا بفعل غيره . الثانى ــ أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولى الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتقلد أعمالهم؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين : أحدهما ــ أن فرعون يوسف كان صالحا، وإنما الطاغى فرعون موسى . الثانى ــ أنه نظر فى أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبعة فيه. قال الماوردى : والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصّل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام : أحدها ــ ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد فى تنفيذه كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد . والقسم الثانى ــ ما لا يجوز أن يتفردوا به و يلزم الاجتهاد فى مَصْرِفه كأموال الفىء، فلا يجوز توليه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق . والقسم الثالث ــ ما يجوز أن يتولاه لأهله، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين، وتوسطا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز .

الثالثــة ــ ودلت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا؛ فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) من ع

" يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسئلة وُكلت إليهـا و إن أُعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها" . وعن أبي بُرْدة قال قال أبو موسى : أقبلت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعى رجلان من الأشعريّين ، أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى ، فكلاهما سأل العمل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يستاك ، فقال : "ما تقول يا أبا موسى — أو يا عبد الله بن قيس —" قال قلت : والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما ، وما شـعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأنى أنظر إلى سِواكه تحت شفته وقد قلصت[1] ، فقال : " لن — أو — لانستعمل على عملنا من أراده" وذكر الحديث ؛ خرجه مسلم أيضا و غيره ؛ فالجواب : أوّلا — أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهـم فرأى أن ذلك فرض متعين عليـه فإنه لم يكن هنـاك غيره ، وهكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق فى القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعيّن ذلك عليه ، ووجب أن يتولّاها و يسأل ذلك ، ويخبر بصفاته التى يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك ، كما قال يوسف عليـه السلام ، فأما لو كان هناك من يقوم بهـا و يصلح لهـا وعلم بذلك فالأولى ألّا يطلب ؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن : "لا تسأل الإمارة " [وأيضا][2] فإن فى سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه ، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك ؛ وهذا معنى قوله عليه السلام : "وكل إليها" ومن أباها لعلمه بآفاتها ، ولخوفه من التقصير فى حقوقها فرّ منها ، ثم إن ٱبتلى بهـا فيرجى له التخلص منها ، وهو معنى قوله : "أعِينَ عليها" . الثانى — أنه لم يقل : إنى حسيب كريم ، و إن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم][3] يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم" ولا قال : إنى جميل مليح ، إنما قال : « إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ » فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال . الثالث — إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى

---

(١) قلصت : انقبضت وٱزورت . (٢) من ع . (٣) من ع و ى .

من قوله تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » . الرابع — أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه ؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر، والله أعلم . [الرابعة][1] ودلّت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل؛ قال الماوردىّ : وليس هذا على الإطلاق فى عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظّفر بأهله .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ أى ومثل هذا الإنعام الذى أنعمنا عليه فى تقريبه إلى قلب الملك، و إنجائه من السجن مكنا له فى الأرض؛ [أى][1] أقدرناه على ما يريد. وقال الكِيَا الطّبَرى قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ» دليل على إجازة الحيلة فى التوصّل إلى المباح، وما فيه الغبطة والصلاح، واستخراج الحقوق، ومثله قوله تعالى : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ »[2] وحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ فى عامل خَيْبر، والذى أدّاه من التّمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله[3] .

قلت : وهذا مردود على ما يأتى . يقال : مكّنّاه ومكّنّا له ، قال الله تعالى : « مَكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ »[4] . قال الطّبرى : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الرّيّان يوسف على عمل إطفير وعزله ؛ قال مجاهد : وأسلم على يديه . قال ابن عباس : ملّكه بعد سنة

(١) من ع ، ك ، ى . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢١٢ . (٣) الحديث : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خيبر ، فجاءه بتمر جنيب ، وهو نوع جيد من أنواع التمر ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل تمر خيبر هكذا "فقال : لا والله يا رسول الله ، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة ، فقال : "لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا" . (البخارى) . (٤) راجع جـ ٦ ص ٣٩١ .

ونصف . وروى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن يوسف قال إنى حفيظ عليم إن شاء الله لَمُلِّكَ فى وقته" . ثم مات إطفير فزوجه الوليد بزوجة إطفير راعيل، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء، وولدت له ولدين: إفرائيم ومنشا، ٱبنى يوسف، ومن زعم أنها زَلِيخَاء قال: لم يتزوجها يوسف، وأنها لمـا رأته فى موكبه بكت، ثم قالت: الحمد لله الذى جعل الملوك عبيدا بالمعصية، والحمد لله الذى جعل العبيد بالطاعة ملوكا، فضمّها إليه. فكانت من عياله حتى ماتت عنده، ولم يتزوجها ؛ ذكره المـاوردىّ ؛ وهو خلاف ماتقدّم عن وهب، وذكره الثعلبىّ؛ فالله أعلم. ولمـا فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطّف بالناس، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدل ، فأحبّه الرجال والنساء، قال وهب والسّدىّ وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون المخصبة ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع . وأمرهم أن يتوسعوا فى الزراعة، فلما أدركت الغـلّة أمر بها فجمعت، ثم بنى لها الأَهْراء، فجمعت فيها فى تلك السنة غلّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها، ثم جمع عليه غلّة كل سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السـنون المجدبة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا؛ فإن الله سلّط عليكم الجوع سبع سنين . وقال بعض أهل الحكمة : للجوع والقحط علامتان : إحداهما — أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية . والثانية — أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا ويعزّ إلى الغاية، فٱجتمعت هاتان العلامتان فى عهد يوسف، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع ! ! ويأكلون ولا يشبعون ، وانتبه الملك، ينادى الجوع الجوع ! ! قال : فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك ، ثم أصبح فنادى يوسف فى أرض مصر كلهـا؛ معاشر الناس ! لا يزرع أحد زرعا فيضيع البذر ولا يطلع شىء . وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف؛ قال ٱبن عباس : لمـا كان ابتداء القحط بينا الملك فى جوف الليل أصابه الجوع فى نصف الليل، فهتف الملك يا يوسف ! الجوع الجوع ! ! فقـال يوسف : هذا أوان القحط؛ فلما دخلت أوّل سـنة من سنىّ القحط هلك فيها كل شىء أعدّوه فى السنين

المخصبة ، فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف ؛ فباعهم أول سنة بالنقود ، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ؛ و باعهم فى السنة الثانية بالحلى والجواهر ، حتى لم يبق فى أيدى الناس منها شئ ؛ وباعهم فى السنة الثالثة بالمواشى والدواب ، حتى آحتوى عليها أجمع ، و باعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والإماء ، حتى آحتوى على الكل ؛ وباعهم فى السنة الخامسة بالعقار والضياع ، حتى ملكها كلها ؛ و باعهم فى السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقهم جميعا و باعهم فى السنة السابعة برقابهم ، حتى لم يبق [فى السنة السابعة][1] بمصر حر ولا عبد إلا صار عبدا له ؛ فقال الناس : والله ما رأينا ملكا أجلّ ولا أعظم من هذا ؛ فقال يوسف لملك مصر : كيف رأيت صنع ربى فيما خَوّلنى ! والآن كل هذا لك ، فما ترى فيه ؟ فقال : فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت ، و إنما نحن لك تبع ؛ وما أنا بالذى يستنكف عن عبادتك وطاعتك ، ولا أنا إلا من بعض مماليكك ، وخَوَل من خَوَلك ؛ فقال يوسف عليه السلام : إنى لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم ، ولم أُجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاء ؛ و إنى أشهد الله وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، و رددت عليهم أموالهم وأملاكهم ، ورددت عليك ملكك بشرط أن تستنّ بسنتى . و يروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام فى تلك السنين ، فقيل له : أتجوع و بيدك خزائن الأرض ؟ فقال : إنى أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ؛ وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غذاءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين ؛ فمن ثَمّ جعل الملوك غذاءهم نصف النهار .

قوله تعالى : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بإحساننا ؛ والرحمة النعمة والإحسان . ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى ثوابهم . وقال آبن عباس و وهب : يعنى الصابرين ؛ لصبره فى الجبّ ، وفى الرقّ ، وفى السِّجن ، وصبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة . وقال الماوردى : آختلف فيما أوتيه يوسف من هذه الحال على قولين : أحدهما — أنه ثواب من الله تعالى على ما آبتلاه . الثانى — أنه أنعم الله عليه بذلك تفضلا منه عليه ، وثوابه باق على حاله فى الآخرة .

---

(١) من ع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ أى مانعطيه فى الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه فى الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع، وظاهر الآية العموم فى كل مؤمن متق؛ وأنشدوا:

أَمَا فى رسول الله يوسف أُسْوةٌ * لمثلكَ محبوسًا على الظُّلم والإفْكِ
أقام جَميلَ الصّبر فى الحبس بُرهة * فآل به الصّبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ

وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراء مَضيقِ الخوف مُتَّسعُ الأَمْنِ * وأوّل مفروحٍ به آخرُ الحزنِ
فلا تيئسنْ فالله مَلَّكَ يوسفًا * خزائنَه بعد الخلاصِ من السِّجنِ

وأنشد بعضهم :

إذا الحادثاتُ بَلَغنَ النُّهى * وكادتْ تذوبُ لهُنَّ المُهَجْ
وحلَّ البلاءُ وقلَّ العزاء * فعند التّناهى يكونُ الفَرَجْ

والشعر فى هذا المعنى كثير .

قوله تعالى : وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ أى جاءوا إلى مصر لما أصابهم القحط ليمتاروا؛ وهذا من اختصار القرآن المعجز . قال ابن عباس وغيره : لما أصاب الناس القحط والشدّة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للميرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام فى الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدّة بالناس يجلس [للناس](١) عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رءوسهم، لكل رأس وَسْقا(٢) . ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾ يوسف ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ لأنهم خلّفوه صبيا ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة ، مع طول المدّة؛ وهى أربعون سنة . وقيل : أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر : وقيل : رأوه لابس حرير، وفى عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاج، وقد تزيّا بزىّ فرعون مصر، ويوسف

(١) من ع وك وو وى . (٢) الوسق ستون صاعا ؛ والأصل فى الوسق الحمل .

رآهم على ما كان عهدهم فى الملبس والحلية . ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه. وقيل : أنكروه لأمر خارق آمتحانا آمتحن الله به يعقوب .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ يقال : جَهَّزتُ القوم تجهيزا أى تكلّفت لهم بجهازهم للسفر؛ وجهاز العروس ما يحتاج إليه عند الإهداء إلى الزوج؛ وجوّز بعض الكوفيين الجهاز بكسر الجيم؛ والجهاز فى هذه الآية الطعام الذى آمتاروه من عنده . قال السُّدّى : وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيرا ، وهم عشرة ، فقالوا ليوسف : إنّ لنا أخا تخلّف عنا، وبعيره معنا ؛ فسألهم لِمَ تخلّف ؟ فقالوا : لحبّ أبيه إياه ؛ وذكروا له أنه كان له أخ أكبر منه نخرج إلى البرّية فهلَك ؛ فقال لهم : أردت أن أرى أخاكم هذا الذى ذكرتم ، لأعلم وجه محبة أبيكم إيّاه، وأعلم صدقكم؛ ويروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينة،حتى يأتوا بأخيه بنيامين . وقال ابن عباس : قال [يوسف][1] للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا ، وزيكم مخالف لزيّنا ، فلعلكم جواسيس ؛ فقالوا : والله ! ما نحن بجواسيس، بل نحن بَنُو أبٍ واحد، فهو شيخ صدّيق؛ قال : فكم عِدّتكم ؟ قالوا : كنا آثنى عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك فيها ؛ قال : فأين الآخر ؟ قالوا : عند أبينا ؛ قال : فمن يعلم صدقكم ؟ قالوا : لا يعرفنا هاهنا أحد ، وقد عرفناك أنسابنا، فبأى شيء تسكن نفسك إلينا ؟ فقال يوسف : ﴿ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ إن كنتم صادقين ؛ فأنا أرضى بذلك « أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ » أى أتمه ولا أبخسه ، وأزيدكم حمل بعير لأخيكم « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » توعدهم ألّا يبيعهم الطعام إن لم يأتوا به .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أنه رخص لهم فى السعر فصار زيادة فى الكيل . والثانى — أنه كال لهم بمكيال واف . ﴿ وَأَنَا خَيْرُ

(١) من ع وك وى .

ٱلْمُنْزِلِينَ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم؛ قاله مجاهد. الثانى — وهو محتمل؛ أى خير من نزلتم عليه من المأمونين؛ وهو على التأويل الأوّل مأخوذ من النُّزُل وهو الطعام، وعلى الثانى من المنزل وهو الدار .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى ﴾ أى فلا أبيعكم شيئا فيما بعد ، لأنه قد وفّاهم كيلهم فى هذه الحال . ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أى لا أنزلكم عندى منزلة القريب ، ولم يرد أنهم يبعدون منه ولا يعودون إليه[1]؛ لأنه على العَود حثّهم . قال السُّدّى : وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا ؛ فارتهن شمعون عنده؛ قال الكلبى : إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم الجبّ أجملهم قولا، وأحسنهم رأيا . و « تَقْرَبُونِ » فى موضع جزم بالنهى، فلذلك حذفت منه [النون وحذفت[2]] الياء؛ لأنه رأس آية؛ ولو كان خبرا لكان « تقربون » بفتح النون .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أى سنطلبه منه ، ونسأله أن يرسله معنا . ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ أى لضامنون المجىء به، ومحتالون فى ذلك .

مسـألة — إن قيل : كيف ٱستجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟ قيل له : عن هـذا أربعة أجوبة : أحدها — يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ٱبتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فاتبع أمره فيه . الثانى — يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبـه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام . الثالث — لتتضاعف المسرّة ليعقوب برجوع ولديه عليه . الرابع — ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معـه قبل إخوته ؛ لميل كان منه إليه؛ والأوّل أظهر، والله أعلم .

قوله تعالى : وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم ؛ وهى ٱختيار أبى حاتم والنحاس وغيرهما . وقرأ سائر الكوفيين « لِفِتْيَانِهِ » وهو ٱختيار أبى عبيد؛ وقال :

(١) فى الأصول : يبعدوا ، يعودوا . ولم يظهر وجه لحذف النون .
(٢) من ع و ك و و .

هو فى مصحف عبد الله كذلك . قال الثعلبي : وهما لغتان جيدتان ؛ مثل الصبيان والصبية
قال النحاس : « لِفِتْيَانِه » مخالف للسواد الأعظم؛ لأنه فى السواد لا ألف فيه ولا نون،
ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع ؛ وأيضا فإن فتية أشبه من فتيان؛ لأن فتية
عند العرب لأقل العدد، والقليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه . وكان هؤلاء الفتية
يسوون جهازهم ، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم فى رحالهم . ويجوز أن يكونوا أحرارا[1]،
وكانوا أعوانا له ، و بضاعتهم أثمان ما آشتروه من الطعام . وقيل : كانت دراهم ودنانير .
وقال آبن عباس : النعال والأدم ومتاع المسافر، ويسمى رَحْلا ؛ قال آبن الأنبارى :
يقال للوعاء رَحل، وللبيت رَحْل . وقال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ لجواز ألّا تسلم فى الطريق .
وقيل : إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه[2] .
قيل : ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام . وقيل : آستقبح أن يأخذ من أبيه
و إخوته ثمن الطعام . وقيل : ليروا فضله، و يرغبوا فى الرجوع إليه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٦٤ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ لأنه قال لهم :
« فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » وأخبروه بما كان من أمرهم و إكرامهم إياه،
وأن شمعون مرتهن حتى يعلم صدق قولهم . ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ أى قالوا عند ذلك :

(١) فى ع : أجراء أو كانوا . وهو الحق	(٢) فى ع و ك : بثمن .

« فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ » والأصل نكتال ، فحذفت الضمة من اللام للجزم ، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين . وقراءة أهل الحرمين وأبى عمرو وعاصم « نَكْتَلْ » بالنون وقرأ سائر الكوفيين « يكتل » بالياء ، والأول اختيار أبى عبيد ، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال ؛ وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده . قال النحاس : وهذا لا يلزم ، لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين ؛ أن يكون المعنى : فأرسل أخانا يكتل معنا ، فيكون للجميع ، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير ، فيكون فى الكلام دليل على الجميع ، لقوله : « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يناله سوء .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى قد فرطتم فى يوسف فكيف آمنكم على أخيه ! . ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا ﴾ نصب على البيان ، وهذه قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين « حَافِظًا » على الحال . وقال الزجاج : على البيان ، وفى هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم ، ومعنى الآية : حفظ الله له خير من حفظكم إياه . قال كعب الأحبار : لما قال يعقوب : « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا » قال الله تعالى : وعزتى وجلالى لأردّن عليك ابنيك كليهما بعد ما توكلت علىّ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ الآية ليس فيها معنى يشكل . ﴿ مَا نَبْغِي ﴾ « ما » استفهام فى موضع نصب ، والمعنى : أى شىء نطلب وراء هذا ؟ ! وفّى لنا الكيل ، وردّ علينا الثمن ؛ أرادوا بذلك أن يُطيّبوا نفس أبيهم . وقيل : هى نافية ، أى لا نبغى منك دراهم ولا بضاعة ، بل تكفينا بضاعتنا هذه التى ردّت إلينا . ورُوى عن علقمة « رِدَّتْ إِلَيْنَا » بكسر الراء ، لأن الأصل رِددت ، فلما أدغم قلبت حركة الدال على الراء . وقوله : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أى نجلب لهم الطعام ؛ قال الشاعر :

بَعَثْتُكَ مائرًا فمكثتَ حَوْلًا * متى يأتى غِيَاثُك مَن تُغِيثُ

وقرأ السُّلَمىّ بضم النون ، أى نعينهم على الميرة . ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أى حمل بعير لبنيامين .

قوله تعالى : قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ تُؤْتُونِ ﴾ أى تعطونى . ﴿ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ ﴾ أى عهدا يوثق به . قال السدّى : حلفوا بالله ليردّنه إليه ولا يُسلمونه ؛ واللام فى ﴿ لَتَأْتُنَّنِي ﴾ لام القسم . ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال مجاهد : إلا أن تَهلِكوا أو تموتوا . وقال قتادة : إلا أن تُغلبوا عليه . قال الزجاج: وهو فى موضع نصب . ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ للحلف . وقيل : حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل .

الثانيــة — هذه الآية أصل فى جواز الحَمَالة[1] بالعين والوثيقة بالنفس؛ وقد آختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هى جائزة إذا كان المتحمَّل به مالا . وقد ضعّف الشافعى الحَمَالة بالوجه فى المال؛وله قول كقول مالك . وقال عثمان البَتِّى : إذا تكفّل بنفس فى قصاص أو جراح فإنه إن لم يجىء به لزمه الدية وأَرْش الجراح، وكانت له فى مال الجانى ، إذ لا قصاص على الكفيل ؛ فهذه ثلاثة أقوال فى الحمالة بالوجه . والصواب تفرقة مالك فى ذلك ، وأنها تكون فى المال ، ولا تكون فى حدّ أو تعزير ، على ما يأتى بيانه :

قوله تعالى : وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

---

(١) الحمالة : الكفالة .

فيـــه سبع مسائل :

الأولى — لمـا عزموا على الخروج خشي عليهم العين؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لهـا أربعة أبواب ؛ و إنمـا خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرَجُل واحد ؛ وكانوا أهل جَمال وكَمال و بَسْطة ؛ قاله ٱبن عباس والضّحاك وقَتَادة وغيرهم .

الثانيـــة — إذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرّز من العـين ، والعين حق ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العين لتدخِل الرجل القبر والجمل القِدر". وفى تعوّذه عليه السلام: "أعوذ بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة" ما يدلّ على ذلك . وروى مالك عن محمد بن أبى أمامة بن سهل بن حُنيف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبى سهل بن حُنيف بالخـرّار(١) فنزع جُبّة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد عَذْراء! فوُعك سهل مكانه واشتدّ وَعْكه، فأُتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلا وُعِك، وأنه غير رائح معك يارسول الله ؛ فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسـلم، فأخبره سهل بالذى كان من شأن عامر؛ فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " عَلَامَ يقتل أحدكم أخاه أَلَا بَرَّكْتَ(٢) إنّ العـين حق تَوَضأْ له " فتوضأ عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس ؛ فى رواية "ٱغتسِلْ" فغســل له عامر وجهه و يديه ومرفقيــه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره فى قدح ثم صبّ عليه؛ فراح سهل مع(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . وركب سعد بن أبى وَقّاص يوما فنظرت إليه ٱمرأة فقالت : إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكَشْحين ؛ فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فغسلت له ؛ ففى هذين الحديثين أن العين حق ، وأنها تقتل كما قال [النبيّ](٤) صلى الله عليه وسلم ؛ وهـذا قول علماء الأمّة ، ومذهب أهل السنة؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة و إجماع علماء هذه الأمّة، و بما يشاهد من ذلك فى الوجود؛ فكم من رجل

(١) الخرّار : ماء بالمدينة . — (٢) برّكت : قلت بارك الله فيه ؛ وهذا القول يبطل تأثير العين وسيأتى معناها .
(٣) فى ع : مع الناس . (٤) من ع .

أدخلته العين القبر ، وكم من جمل ظهير أدخلته القِدر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال : « وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ »(١) . قال الأصمعى : رأيت رجلا عَيُونا سمع بقرة تحلب فأعجبه شَخْبها فقال : أيتهنّ هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكتا جميعا، المورَّى بها والمورَّى عنها . قال الأصمعىّ . وسمعته يقول : إذا رأيتُ الشيء يعجبنى وجدتُ حرارة تخرج من عينىّ .

الثالثة — واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبَرِّك ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر : "ألا بَرّكت" فدلّ على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا بَرَّك العائن، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك . والتبريك أن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين ! اللهم بارك فيه .

الرابعة — العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبَرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال، ويُجبر على ذلك إنْ أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، لاسيما هذا(٢) ؛ فإنه قد يخاف على المَعين الهلاك، ولا ينبغى لأحد أن يمنع أخاه ماينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولاسيما إذا كان بسببه وكان الجانى عليه.

الخامسة — من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره؛ وقد قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيته ؛ و إن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، ويكفّ أذاه عن الناس . وقد قيل : إنه يُنفى ؛ وحديث مالك الذى ذكرناه يرد هذه الأقوال؛ فإنه عليه السلام لم يأمر فى عامر بحبس ولا بنفى، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسّق به، ومن قال: يحبس ويؤمر بلزوم بيته. فذلك احتياط ودفع ضرر، والله أعلم.

السادسة — روى مالك عن حميد بن قيس المكّى أنه قال : دُخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنى جعفر بن أبى طالب فقال لحاضنتهما : "مالى أراهما ضَارِعين(٣)" فقالت حاضنتهما : يا رسول الله ! إنه تسرع إليهما العين ، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقى لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ٱسْتَرْقُوا لهما فإنه

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٥٥ . (٢) فى ع و ك و ى : هنا . (٣) الضارع : النحيف الضاوى الجسم .

لو سبق شيء القدَر سـبقته العين " . وهـذا الحديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عُمَيس الخَثعمية عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتـة متصلة صحاح؛ وفيه أن الرُّقَى مما يُستَدفع به البلاء، وأن العين تؤثر في الإنسان وتَضْرَعه، أي تضعفه وتُنحله؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، والله أعلم .

السابعـــة — أمر صلى الله عليـه وسلم في حديث أبي أُمامة العائن بالاغتسال للمَعين ، وأمر هنا بالاسترقاء؛قال علماؤنا : إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن؛وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي من شيء أحذره عليـكم ؛ أي لا ينفع الحذر مع القدر . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ أي الأمر والقضاء . ﴿ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت ووثقت . ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ﴾ أي من أبواب شتى . ﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم . ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء ليس من الأول . ﴿ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أي خاطر خطر بقلبـه ، وهو وصـيته أن يتفرّقوا ؛ قال مجاهد : خشية العين ، وقد تقدّم القول فيـه . وقيل : لئلا يرى الملك عددهم وقوّتهم

فيبطش بهم حسدا أو حذرا؛ قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال : ولا معنى للعين ها هنا . ودلّت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني يعقوب . ﴿ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أى بأمر دينه . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه، وقيل : « لَذُو عِلْمٍ » أى عمل؛ فإن العلم أوّل أسباب العمل، فسمى بما[(1)] هو بسببه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ قال قتادة : ضمّه إليه، وأنزله معه . وقيل : أمر أن ينزل كل آثنين فى منزل، فبقى أخوه منفردا فضمّه إليه وقال : أشفقت عليه من الوحدة، وقال له سِرًّا من إخوته : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أى لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له : لا تردّنى إليهم، فقال : قد علمت اغتمام يعقوب بى فيزداد غمّه، فأبى بنيامين الخروج؛ فقال يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك : فقال : لا أبالى ! فدس الصاع فى رحله؛ إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد، أو أَمَر بعض خواصّه بذلك . والتّجهيز التسريح وتنجيز الأمر؛ ومنه جَهّز على الجريح أى قتله، ونجّز أمره . والسقاية والصواع شىء واحد؛ إناء له رأسان فى وسطه مَقْبِض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ قاله النقاش عن آبن عباس، وكل شىء يشرب به فهو صواع؛ وأنشد :

* نَشربُ الخمــرَ بالصّواع جِهارًا[(2)] *

واختلف فى جنسه؛ فروى شعبة عن أبى بِشر عن سعيد بن جُبَير عن آبن عباس قال : كان صواع الملك شئ من فضة يشبه المَكُّوك، من فضة مرصع بالجوهر، يجعل على الرأس؛

(1) من ع .
(2) البيت تقدّم فى ص ١٧٨ من هذا الجزء . برواية : نشرب الإثم .

وكان للعباس واحد فى الجاهلية ، وسأله نافع بن الأزرق[1] ما الصــواع ؟ قال : الإناء ؛ قال فيه الأعشى :

له دَرْمَكٌ فى رأســه ومَشارِبٌ * وقِدْرٌ وطَبَّاخٌ وصاعٌ ودَيسَــقُ[2]

وقال عِكرمه : كان من فضة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب ؛ وبه كال طعامهم مبالغة فى إكرامهم . وقيل : إنمــا كان يكال به لعزّة الطعام . والصاع يذكّر ويؤنّث ؛ فمن أنثــه قال : أَصْوُع ؛ مثل أَدْوُر ، ومن ذكّره قال أَصْوَاع ؛ مثــل أثواب . وقال مجاهد وأبو صالح : الصاع الطِّرْجِهالة بلغــة حِمْير . وفيــه قراءات : « صُوَاع » قراءة العــامة ؛ و « صُوْغ » بالغين المعجمة ، وهى قراءة يحيى بن يَعْمُر ؛ قال : وكان إناء أُصيغ من ذهب . « وصُوع » بالعين غير المعجمة قراءة أبى رجا . « وصُوْع » بصاد مضمومة و واو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أُبىّ[3] . « وصُيَاع » بياء بين الصاد والألف ؛ قراءة سعيد بن جُبير . « وصاع » بألف بين الصاد والعين ؛ وهى قراءة أبى هريرة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أى نادى منادٍ وأعلم . « وَأَذَّنَ » للتكثير ؛ فكأنه نادى مرارا « أَيَّتُهَا الْعِيرُ » . والعير ما آمتير عليه من الحمير والإبل والبغال . قال مجاهــد : كان عِيرهم حميرا . قال أبو عبيدة : العِير الإبل المرحولة المركوبة ؛ والمعنى : يا أصحاب العير، كقوله : « وَآسْأَلِ الْقَرْيَةَ » ويا خيل الله اركبى : أى يا أصحاب خيل الله، وسيأتى . وهنا آعتراضان : الأول — إن قيل : كيف رضى بنيامين بالقعود طوعا وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن ، ووافقــه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم بُرَاء وهو — الثــانى — فالجواب عن الأول : أن الحزن كان قــد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير، أولا تراه لمــا فقده قال : « يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ » ولم يعرّج على بنيامين ؛ ولعل يوسف إنما وافقه على القعود بوحى ؛ فلا آعتراض . وأما نسبة

---

(١) كذا فى ا و ع و ك و ى . ولعله الأشه ؛ وفى و : مالك . (٢) الديسق : خوان من فضة .
والبيت من قصيدة يمدح بها المحلق مطلعها
أرقت وما هذا السهاد المؤرق * وما بى من سقم وما بى معشق

(٣) فى ع : أبى جعفر . والذى فى شواذ ابن خالويه : صواغ سعيد بن جبير . بغين معجمة ، وابن عطية .

يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب : أن القوم كانوا قد سرقوه من أبيه فألقوه فى الجب، ثم باعوه؛ فاستحقوا هذا الاسم بذلك الفعل، فصدق إطلاق ذلك عليهم . جواب آخر — وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السُّرّاق ؛ والمعنى : إن شيئا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه . جواب آخر — وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه، وفصله عنهم إليه ، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدس الصاع فى رحله ، ولا أخبره بنفسه . وقد قيل : إن معنى الكلام الاستفهام؛ أى أو إنكم لسارقون ؟ كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ »[1] أى أو تلك نعمة تمنها علىّ؟ والغرض ألّا يعزى إلى يوسف صلى الله عليه وسلم الكذب .

قوله تعالى : قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ . البعير هنا الجمل فى قول أكثر المفسرين . وقيل : إنه الحمار، وهى لغة لبعض العرب؛ قاله مجاهد واختاره . وقال مجاهد : الزعيم هو المؤذن الذى قال : « أَيَّتُهَا الْعِيرُ » . والزعيم والكفيل والحَمِيل والضَّمِين والقَبِيل سواء والزعيم الرئيس .

قال[2] :

وإنّى زعيمٌ إنْ رجعتُ مُمَلَّكا * بسيرٍ ترى منه الفُرانِقَ أزورا

وقالت ليلى الأخيلية ترثى[3] أخاها :

ومُخَرَّقٍ عنه القميصُ تخالُهُ * يومَ اللّقاءِ من الحياءِ سقيما

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٩٣ . (٢) هو امرؤ القيس . والفرانق : سبع يصيح بين يدى الأسد كأنه ينذر الناس به ؛ وهو فارسى معرب . والأزور : المائل فى شق ؛ أى إن ملكنى قيصر فإنى أسير سيرا شديدا يميل منه الفرانق من شدته بجانب . (٣) كذا فى الأصل ولعله ترثى توبة . وفى صفته بخرق القميص أقوال : الأول — أن ذلك إشارة إلى جذب العفاة له . الثانى — أنه يؤثر بجيد ثيابه فيكسوها و يكتفى بمعاوزها . الثالث — أنه غليظ المناكب ، و إذا كان كذلك أسرع الخرق إلى قيصه . الرابع — أنه كثير الغزوات متصل فى الأسفار، فقميصه منخرق لذلك .

حَـتَّى إذا رَفَـعَ اللِّوَاءَ رأيتَـهُ * [تحتَ اللِّواءِ][1] على الخميسِ زَعِيما

الثانيـــة — إن قيل : كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول، وضمان المجهول لا يصح ؟ قيل له : حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالوَسْق ؛ فصح ضمانه، غير أنه [كان][2] بدل مالٍ للسارق، ولا يحل للسارق ذلك، فلعله كان يصحّ فى شرعهم أو كان هذا جعالة ، و بذل مال لمن [كان][2] يفتّش و يطلب .

الثالثـــة — قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليلان : أحدهما — جواز الجُعْل وقد أجيز للضرورة ؛ فإنه يجوز فيـه من الجهالة مالا يجوز فى غيره؛ فإذا قال الرجل : من فعـل كذا فله كذا صح . وشأن الجُعْل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه؛ بخـلاف الإجارة؛ فإنه يتقدّر فيهـا العوض والمعوض من الجهتين ؛ وهو من العقود الجائزة التى يجوز لأحدهما فسخه؛ إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع و بعده، إذا رضِى بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له فى العمل . ولا يشترط فى عقد الجُعْل حضور المتعاقدين ، كسائر العقود ؛ لقوله : « وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْـلُ بَعِيرٍ » و بهذا كله قال الشافعى .

الرابعـــة — متى قال الإنسان ، من جاء بعبدى الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة؛ وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "من جاء بآبق فله أربعون درهما" ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد . قال آبن خُوَيْزِمَنْداد ولهذا قال أصحابنا : إن من فعل بالإنسان ما يجب عليـه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر.

قلت : وخالفنا فى هذا كله الشافعى .

---

(١) كذا فى « أمالى القالى » «والشعر والشعراء» و « الحماسة » . وفى الأصول : يوم الهياج .

(٢) من ع .

الخامسة — الدليل الثانى — جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام، قال علماؤنا : إذا قال الرجل تحمّلت أو تكفّلت أو ضمنت أو وأنا حَميل لك أو زعيم أو كَفيل أو ضامن أو قَبيل ، أو هو لك عندى أو علىّ أو إلىّ أو قِبَلى فذلك كله حَمَالة لازمة ، وقد آختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه ، هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون : من تكفّل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذى على المطلوب إن مات ؛ وهو أحد قولى الشافعى فى المشهور عنه . وقال مالك والليث والأوزاعى : إذا تكفّل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال، ويرجع به على المطلوب ؛ فإن آشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا أضمن المال فلا شىء عليه من المال؛ والحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم، وإنما يطلب بمال ؛ فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوّته عليه ، وعزه منه؛ فلذلك لزمه المال . وآحتج الطحاوى للكوفيين فقال : أما ضمان المال بموت المكفول [به][1] فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال ، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة — وآختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما ؟ فقال الثورى والكوفيون والأوزاعى والشافعى وأحمد وإسحق : يأخذ من شاء حتى يستوفى حقه ؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب ؛ لأن التبدية بالذى عليه الحق أولى ، إلا أن يكون معدما فإنه يؤخذ من الحميل ، لأنه معذور فى أخذه فى هذه الحالة ؛ وهذا قول حسن . والقياس أن للرجل مطالبة أى الرجلين شاء . وقال آبن أبى ليلى : إذا ضمن الرجل عن صاحبه مالا تحول على الكفيل وبرئ صاحب الأصل ، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء ؛ وآحتج ببراءة الميت من الدين بضمان أبى قتادة[2] ، وبنحوه قال أبو ثور .

---

(١) من ع و ى .
(٢) الحديث : روى سلمة بن الأكوع أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بجنازة فقال : "هل عليه من دين" قالوا : نعم، قال : "هل ترك شيئا" قالوا : لا، قال : "صلوا على صاحبكم" قال أبو قتادة : صل عليه يا رسول الله وعلىّ دينه ، فصلى عليه .

السابعـــة ــ الزعامـة لا تكون إلا فى الحقـوق التى تجـوز(١) النيابة فيها ، ممـا يتعلق بالذمة من الأموال ، وكان ثابتـا مستقرا ؛ فـلا تصح الحمالة بالكتابة لأنهـا ليست بدين ثابت مستقر ؛ لأن العبـد إن عجز رَقّ وٱنفسخت الكتابة ؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيـه، ويسجن المدعى عليه الحد، حتى ينظر فى أمره .

وشذّ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة فى الحدود والقصاص، وقالا : إذا قال المقذوف أو المدعى القصاص بينتى حاضرة كفله ثلاثة أيام ؛ وٱحتج لهم الطحاوى بمـا رواه حمـزة ابن عمرو عن عمر وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهـم حكموا بالكفالة بالنفس بمحضر الصحابة .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَـدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يروى أنهـم كانوا لا ينزلون على أحد ظلما، ولا يرعون زرع أحد، وأنهـم جمعوا على أفواه إبلهم الأكِمّة لئـلا تعيث فى زروع الناس . ثم قال : ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يروى أنهم ردّوا البضاعة التى كانت فى رِحالهم؛ أى فمن ردّ ما وجد فكيف يكون سارقا ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا فَمَـا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ المعنى : فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم؟ فأجاب إخوة يوسف : ﴿ جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أى يُسْتعبَد ويُسْتَرق . «فَجَزَاؤُهُ» مبتدأ، و «مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ» خبره؛ والتقدير : جزاؤه ٱستعباد من وُجِد فى رحله ؛ فهو كناية عن الاسـتعباد؛ وفى الجملة معنى التوكيد، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهـذا جزاؤه . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أى كذلك نفعـل فى الظالمين إذا سرقوا أن يُسـترَقّوا ، وكان هـذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه . وقولهم هذا قول من لم يَستَرب نفسـه ؛

(١) فى ع : تجب .

لأنهم التزموا استرقاق من وجد فى رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفى ما أخذ ؛ قاله الحسن والسدى وغيرهما .

مسألة — قد تقدم فى سورة « المائدة »(١) أن القطع فى السرقة ناسخ لما تقدم من الشرائع ، أو لما كان فى شرع يعقوب من استرقاق السارق ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ إنما بدأ يوسف برحالهم لنفى التهمة والريبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه . والوعاء يقال بضم الواو وكسرها ، لغتان ؛ وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ يعنى بنيامين ؛ أى استخرج السقاية أو الصواع عند من يؤنث ، وقال : « وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ » فذكر ؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رءوسهم ، وظنوا الظنون كلها ، وأقبلوا عليه وقالوا ويلك يا بنيامين ! ما رأينا كاليوم قط ، ولدت أمك « راحيل » أخوين لصين ! قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى . ويروى(٢) أنهم قالوا له : يا بنيامين ! أسرقت ؟ قال : لا والله ؛ قالوا : فمن جعل الصواع فى رحلك ؟ قال : الذى جعل البضاعة فى رحالكم . ويقال : إن المفتش كان إذا فرغ من رحل رجل استغفر الله عز وجل تائبا من فعله ذلك ؛ وظاهر كلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف ؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصواع حتى فرغ منهم ، وانتهى إلى رحل بنيامين فقال : ما أظن هذا الفتى رضى بهذا ولا أخذ شيئا ، فقال له إخوته : والله لا نبرح حتى تفتشه ؛ فهو أطيب لنفسك ونفوسنا ؛ ففتش فأخرج السقاية ؛ وهذا التفتيش من يوسف يقتضى أن المؤذن سرقهم برأيه ؛ فيقال : إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى ؛ ويقوى ذلك قوله تعالى : « كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » .

(١) راجع ج ٦ ص ١٦٢ . (٢) فى ع : ويقال .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ .

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : « كِدْنَا » معناه صنعنا ؛ عن ابن عباس . القُتَبِيّ : دبّرنا . ابن الأنبارى : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادتْ وكِدتُ وتِلك خـيرُ إرادةٍ * لوعاد مِن عهد الصِّبَا ما قـد مَضَى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحِيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافا لأبى حنيفة فى تجويزه الحيل و إن خالفت الأصول ، وخرمَت التحليل .

الثانيـــة — أجمع العلمـاء على أن للرجل قبـل حلول الحول التصرف فى ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعى أنه لايحل له التحيل ولا النقصان، ولا أن يفرّق بين مجتمع ، ولا أن يجمـع بين متفرّق . وقال مالك : إذا فوّت[1] من ماله شيئا ينوى به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند الحول ، أخذا منه بقـوله عليه السلام : " خشية الصدقة " . وقال أبو حنيفة : إن نوى بتفريقه[2] الفرار من الزكاة قبـل الحول بيوم لايضرّه ؛ لأن الزكاة لاتلزم إلا بتمام الحـول ، ولا يتوجه إليه معنى قوله : " خَشْيَةَ الصَّدَقة " إلا حينئذ . قال ابن العربى : سمعت أبا بكر محمـد بن الوليد الفِهْرى وغيره يقـول : كان شيخنا قاضى القضاة أبو عبد الله محمـد بن على الدّامَغَانِى صاحب عشرات آلاف [دينار][3] من المـال، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم : كبِرَت سِنّى، وضعفت قوّتى ، وهذا مال لاأحتاجه فهو لكم ، ثم يخرجه فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دورِ بنيه ؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا : يا أبانا ! إنما أملنا حياتك، وأما المـال فأىّ رغبة لنـا فيه مادمت حيا ؛ أنت ومالك لنـا ، نخذه إليك، ويسـير الرجال به حتى يضعوه بين يديه ، فيرده إلى موضـعه؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأى أبى حنيفة فى التفريق بين المجتمع ، والجمع بين المتفرق ؛ وهذا خطب عظيم وقد صنف البخارىّ رضى الله عنه فى جامعه كتابا مقصودا فقال : « كتاب الحِيل » .

(١) فى ع : فرق . (٢) فى ع : بتفويته . (٣) من ع و ى .

قلت : وترجم فيه أبوابا منها : « باب الزكاة وألّا يفترق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرق خشية الصدقة » . وأدخل فيه حديث أنس بن مالك، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة ؛ وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس . الحديث ؛ وفى آخره : " أفلح إن صدق " أو " دخل الجنة إن صَدَق " . وقال بعض الناس : فى عشرين ومائة بعير حِقّتان ؛ فإن أهلكها متعمدا أو وهبها أو احتال فيها فِرارا من الزكاة فلا شيء عليه ؛ ثم أردف بحديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون كنز أحدِكم يوم القيامة شجاعا أقرع له زبِيبتان ويقول أنا كنزك " الحديث ؛ قال المهلب : إنما قصد البخارى فى هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يتحيل بها أحد فى إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى ، وفهم من قوله : " أفلح إن صدق " أن من رام أن ينقص شيئا من فرائض الله بحيلة يحتالها أنه لا يفلح ، ولا يقوم بذلك عذرُه عند الله ؛ وما أجازه الفقهاء من تصرف صاحب المال فى ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الهرب من الزكاة ؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط ، والله حسيبه ؛ وهو كمن فرّ من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم ، واستعمل سفرا لا يحتاج إليه، رغبةً عن فرض الله الذى كتبه الله على المؤمنين ؛ فالوعيد متوجّه عليه ؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأىّ وجه متعمدا(١) كيف تطؤه الإبل، ويمثل له ماله شجاعا أقرع ! ؟ وهذا يدلّ على أن الفرار من الزكاة لا يحلّ، وهو مطالب بذلك فى الآخرة .

الثالثة — قال ابن العربى : قال بعض علماء الشافعية فى قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ » . دليل على وجه الحيلة إلى المباح، واستخراج الحقوق؛ وهذا وَهَم عظيم؛ وقوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ» قيل فيه : كما مكّنا ليوسف مِلك نفسه عن امرأة العزيز مكّنّا له مِلك الأرض عن العزيز ، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره . قال الشفعوى : ومثله قوله عزوجل : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ »(٢) وهذا ليس

(١) فى ع وى : بأى وجه منعها . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢١٢ .

حيلة، إنما هو حمل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد . قال الشفعوىّ : ومثله حديث أبى سعيد الخدرىّ فى عامل خيبر أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم بتمرٍ جَنِيب ، الحديثَ ؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعا[1] ويبتاع جَنِيبا من الذى باع منــه الجمع أو من غيره . وقالت المـالكية : معناه من غيره ؛ لئـلا يكون جَنِيبا بجمع ، والدراهم ربا ؛ كما قال ابن عباس : جريرة بجريرة[2] والدراهم ربا .

قوله تعـالى : ﴿ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أى سلطانه ، عن ابن عباس . ابن عيسى : عاداته ، أى يظلم بلا حجة . مجاهد : فى حكمه ؛ وهو استرقاق السراق . ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أى إلا بأن يشاء الله أن يجعل السّقاية فى رحله تِعلّة وعذرا له . وقال قتادة : بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين ، ولكن شاء الله أن يجرى على ألسنتهم حكم بنى إسرائيل ، على ما تقدّم .

قوله تعـالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ أى بالعلم والإيمان . وقرئ « نرفع درجاتِ من نشاء » بمعنى : نرفع من نشاء درجات ؛ وقد مضى فى « الأنعام »[3] وقوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ روى إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة عن ابن عباس قال : يكون ذا أعلم من ذا وذا أعلم من ذا ، والله فوق كل عالم . وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جُبير قال : كنا عند ابن عباس رحمه الله فتحدّث بحديث فتعجب منه رجل فقال : سبحان الله ! وفوق كل ذى علم عليم ؛ فقال ابن عباس : بئس ما قلت ؛ الله العليم وهو فوق كل عالم .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

---

(١) الجمع : تمر مختلط من أنواع متفرقة ، وليس مرغوبا فيه . (٢) كذا فى الأصل وفى « أحكام القرآن لابن العربى » ولعل العبارة كما فى ع : حريرة بالمهملة . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٠ فما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ المعنى : أى اقتدى بأخيه، ولو اقتدى بنا ما سرق ؛ وإنما قالوا ذلك ليبرءوا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عِرْق أخيه السّارق ؛ لأن الاشتراك فى الأنساب يشاكل فى الأخلاق . وقد اختلفوا فى السرقة التى نسبوا إلى يوسف ؛ فروى عن مجاهد وغيره أن عمة يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت صارت إليها مِنْطقة إسحق لسنّها ؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالسنّ ، وهذا مما نسخ حكمه بشرعنا ، وكان من سَرَق استُعبِد . وكانت عمة يوسف حَضَنَتْه وأحبّته حبًّا شديدا ؛ فلما ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب : سلّمى يوسف إلىّ ، فلست أقدر أن يغيب عنى ساعة؛ فولعتْ به ، وأشفقت من فراقه؛ فقالت له : دعه عندى أياما أنظر إليه فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى مِنطَقة إسحق ، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت : لقد فقدتُ مِنْطقة إسحق ، فانظروا مَن أخذها ومَن أصابها؛ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوا؛ فوجدت مع يوسف . فقالت: إنه والله لى سلم أصنع فيه ما شئت؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ؛ فأمسكته حتى ماتت ؛ فبذلك عيّره إخوته فى قولهم : «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ» . ومن هاهنا تعلّم يوسف وضع السقاية فى رَحْلِ أخيه كما عملت به عمته . وقال سعيد بن جُبير : إنما أمرته أن يسرق صنما كان لجدّه أبى أمه ، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق ، وكان ذلك منهما تغييرا للنكر ؛ فرموه بالسرقة وعيّروه بها ؛ وقاله قتادة . وفى كتاب الزجّاج: أنه كان صنم ذهب . وقال عطية العَوْفى : إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق[1] فخبأه فعيّروه بذلك . وقيل : إنه كان يسرق من طعام المائدة للمساكين؛ حكاه ابن عيسى. وقيل : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أى أسرّ فى نفسه قولهم : « إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » قاله ابن شجرة وابن عيسى . وقيل : إنه أسرّ فى نفسه قوله : ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ ثم جهر فقال : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

---

(١) العرق (بالفتح) هنا القطعة من اللحم المطبوخ .

[قاله ابن عباس ، أى أنتم شر مكانا ممن نسبتموه إلى هذه السرقة . ومعنى قوله « والله أعلم بما تصفون[١] »] أى الله أعلم أنّ ما قلتم كذب ، وإن كانت لله رضا . وقد قيــل : إن إخوة يوسف فى ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ خاطبوه باسم العزيز إذ كان فى تلك اللحظــة[٢] بعزل الأول أو موته . وقولهم : « إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا » أى كبير القدر، ولم يريدوا كبر السنّ؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ . « فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ » أى عبدًا بدَلَه ؛ وقد قيل : إن هذا مجاز ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقّه ؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله : آقتلنى ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنك مبالغ فى آستنزاله . ويحتمــل أن يكون قولهم : « فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ » حقيقة ؛ وبعيد عليهم وهم أنبياء[٣] أن يروا استرقاق حر، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة ؛ أى خذ أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك ؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه ؛ ويعرف يعقوب جليّة الأمر؛ فمنع يوسف عليه السلام من ذلك ، إذ الحمالة فى الحدود ونحوها — بمعنى إحضار المضمون فقط — جائزة مع التراضى ، غير لازمة إذا أَبَى الطالب ؛ وأما الحمالة فى مثل هذا على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة ، فلا يجوز إجماعا . وفى « الواضحة » : إن الحمالة فى الوجه فقط فى [جميع[٤]] الحدود جائزة ، إلا فى النفس . وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة فى النفس . وآختلف فيها عن الشافعى ؛ فمرّة ضعّفها ، ومرّة أجازها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بمــا رأوا من إحسانه فى جميع أفعاله معهم ، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحسانا علينا فى هذه اليد إن أسديتها إلينا ؛ وهذا تأويل آبن إسحق .

قوله تعــالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ مصدر . ﴿ أَنْ نَأْخُذَ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى من أن نأخذ . ﴿ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا ﴾ فى موضع نصب بـ « نأخذ » . ﴿ مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ أى معاذ الله أن نأخذ البرىء بالمجرم، ونخالف ما تعاقدنا عليه . ﴿ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ أى أن نأخذ غيره .

(١) من ع . (٢) هو قطفير . (٣) قد مضى أنهم ليسوا بأنبياء على الصحيح . (٤) من ع .

قوله تعالى : فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْئَسُوا مِنْهُ ﴾ أى يَئِسوا ؛ مثل عَجِب وٱستعجب ، وسَخِر وٱستسخر . ﴿ خَلَصُوا ﴾ أى ٱنفردوا وليس هو معهم . ﴿ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال من المضمر فى « خَلَصُوا » وهو واحد يؤدّى عن جمع ، كما فى هذه الآية ؛ و يقع على الواحد كقوله تعالى : « وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا »[1] و جمعه أَنْجِيَة ؛ قال الشاعر[2] :

إِنِّى إذا ما القومُ كانوا أَنْجِيَهْ * وٱضْطَرَبَ القومُ ٱضطرابَ الأَرْشِيَهْ
* هُنَاكَ أَوْصِينِى وَلَا تُوصِى بِيَهْ *

وقرأ ٱبن كثير : « ٱسْتَايَسُوا » « وَلَا تَايَسُوا » « إِنه لَا يَايَسُ » « أَفَلَمْ يَايَس » بألف من غير همز على القلب ؛ قدّمت الهمزة وأخّرت الياء ، ثم قلبت الهمزة ألفا لأنها ساكنة قبلها فتحة؛ والأصل قراءة الجماعة ؛ لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء — يأسا — والإياس ليس بمصدر أَيِس ؛ بل هو مصدر أُسْتُهُ أَوْسًا وَإِيَاسًا أى أعطيته . وقال قوم : أَيِس وَيئِس لغتان ؛ أى فلما يئسوا من ردّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس ، يتناجون فيما عَرَض لهم . والنَّجِىّ فعيل بمعنى المناجى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قال قَتَادة : هو روبيل ، كان أكبرهم فى السنّ . مجاهد : هو شمعون ، كان أكبرهم فى الرأى . وقال الكلبي : يهوذا ؛ وكان أعقلهم . وقال محمد ابن كعب وابن إسحق : هو لَاوَى ، وهو أبو الأنبياء . ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١١٣ . (٢) هو سحيم بن وثيل اليربوعى يصف قوما أتعبهم السير والسفر فرقدوا على ركابهم واضطربوا عليها ، وشدّ بعضهم على ناقته حذار سقوطه . وقيل : إنما ضربه مثلا لنزول الأمر المهم . والأرشية الحبال التى يستق بها ، والمواد أنه ثابت الجاش . و (أوصيى ولا توصى) بالياء لأنه يخاطب مؤنثا .

مَوْثِقًا مِنَ اللهِ﴾ أى عهدا من الله فى حفظ ابنه، وردّه إليه . ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ « ما » فى محل نصب عطفا على « أن » والمعنى : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله، وتعلموا تفريطكم فى يوسف؛ ذكره النحاس وغيره . و«من» فى قوله : «وَمِنْ قَبْلُ» متعلقة بـ«تعلموا» . ويجوز أن تكون «ما» زائدة؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما « مِنْ قَبْلُ » و « فِي يُوسُفَ » بالفعل وهو «فَرَّطْتُمْ» . ويجوز أن تكون «ما» والفعل مصدرا ، و « مِنْ قَبْلُ » متعلقا بفعل مضمر؛ التقدير : تفريطكم فى يوسف واقع من قبل؛ فما والفعل فى موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذى يتعلق به « مِنْ قَبْلُ » . ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أى ألزمها، ولا أبرح مقيما فيها[1]؛ يقال : بَرِحَ بَرَاحًا وبُرُوحا أى زال، فإذا دخل النفى صار مثبتا . ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالرجوع فإنى أستحى منه . ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي﴾ بالممرّ مع أخى فأمضى معه إلى أبى . وقيل : المعنى أو يحكم الله لى بالسيف فأحارب وآخذ أخى، أو أعجز فأنصرف بعذر، وذلك أن يعقوب قال : «لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ» ومن حارب وعَجَز فقد أحيط به؛ وقال ابن عباس : وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يردّ وجهه مائة ألف؛ يقوم شعره فى صدره مثل المَسَالّ فتنفذ من ثيابه . وجاء فى الخبر أن يهوذا قال لإخوته — وكان أشدّهم غضبا — : إما أن تكفونى الملك ومن معه أكفكم أهل مصر؛ وإما أن تكفونى أهل مصر أكفكم الملك ومن معه؛ قالوا : بل آكفنا الملك ومن معه نكفيك أهل مصر؛ فبعث واحدا من إخوته فعدّوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق، فأخذ كل واحد منهم سوقا؛ ثم إنّ يهوذا دخل على يوسف وقال : أيها الملك ! لئن لم تخلّ معنا أخانا لأصيحن صيحة لا تبقى فى مدينتك حاملا إلا أسقطت مافى بطنها؛ وكان ذلك خاصة فيهم عند الغضب؛ فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهوذا واشتدّ غضبه، وانتفجت[2] شعراته؛ وكذا كان كل واحد من بنى يعقوب؛ كان إذا غضب، اقشعرّ جلده، وانتفخ جسده، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب، حتى تقطر من كل شعرة قطرة دم؛ وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهدّم البنيان، وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم

---

(١) فى ى : أى من الأرض . (٢) نفجت : ثارت بقوة .

والطير إلا وضعت ما فى بطنها، تماما أو غير تمام؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دما، أو تمسكه يدٌ من نسل يعقوب؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تمّ وكمل كلّم ولدا له صغيرا بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كتفى يهوذا من حيث لا يراه؛ ففعل فسكن غضبه (١) وألقى السيف فالتفت يمينا وشمالا لعله يرى أحدا من إخوته فلم يره؛ فخرج مسرعا إلى إخوته وقال: هل حضرنى منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فأين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل؛ فخرج فلقيه، وقد احتمل صخرة عظيمة؛ قال: ما تصنع بهذه؟ قال أذهب إلى السوق الذى وقع فى نصيبى أشدخ بها رءوس كل من فيه؛ قال: فارجع فردّها، أو ألقها فى البحر، ولا تحدثنّ حدثا؛ فوالذى اتخذ إبراهيم خليلا! لقد مسّنى كفٌّ من نسل يعقوب. ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشدّهم بطشا، فقال: يا معشر العبرانيين! أتظنون أنه ليس أحد أشدّ منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فركله برجله فدحا به من خلف الجدار — الرّكْلُ الضرب بالرجل الواحدة؛ وقد ركله يركُله؛ قاله الجوهرى — ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه [لجنبه (٢)]، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بصُواعِه فوضع بين يديه، ثم نقره نقرة فخرج طنينه، فالتفت إليهم وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبى هؤلاء همّ ولا غمّ ولا كرب إلا بسببهم، ثم نقر نقرة ثانية وقال: إنه يخبرنى أن هؤلاء أخذوا أخًا لهم صغيرا فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه؛ فقالوا: أيها العزيز! استر علينا ستر الله عليك، وامنن علينا منّ الله عليك؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول: إن هؤلاء طرحوا صغيرهم فى الجُبّ، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله؛ ثم نقره رابعة وقال: إنه يخبرنى أنكم أذنبتم ذنبا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه، ولم تتوبوا إليه، ثم نقره خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذى زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم نقره سادسة وقال إنه يقول. لو كنتم أنبياء أو بنى أنبياء ما كذبتم ولا عققتم والدكم؛ لأجعلنّكم نكالا للعالمين. إيتونى بالحدّادين أقطع

(١) فى ى: عيظه. (٢) فى ع وى: لحنبه وفى و: لحينه.

أيديهم وأرجلهم ، فتضرعوا وبكوا وأظهروا التـوبة وقالوا : لو قـد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حيّ لنكونن طوع يده ، وترابا يطأ علينا برجله ؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم : ٱخرجوا عني ! قد خلّيت سبيلكم إكراما لأبيكم ، ولولا هو لجعلتكم نكالا .

قوله تعالى : ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ٱرْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ﴾ قاله الذي قال : « فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ » . ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وقرأ ٱبن عباس والضّحاك وأبو رزين « إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ » . النحاس : وحدثني محمد بن أحمد بن عمر قال حدّثنا ابن شَاذَان(1) قال حدّثنا أحمد بن أبي سُرَيج البغداديّ قال : سمعت الكسائيّ يقرأ : « يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ » بضم السين وتشديد الراء مكسورة ؛ على مالم يُسمّ فاعله ؛ أي نُسب إلى السرقة ورُمى بها ؛ مثـل خوّنته وفسّقته وفجّرته إذا نسبته إلى هذه الخلال . وقال الزجاج : « سُرِّقَ » يحتمل معنيين : أحدهما — علم منه السَّرَق ، والآخر — ٱتهم بالسَّرَق . قال الجوهري : والسَّرِق والسَّرِقة بكسر الراء فيهما هو ٱسم الشيء المسروق ، والمصدر سَرَق يَسْرِق سَرَقًا بالفتح .

قوله تعالى : ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ .

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا» يريدون ما شهدنا قطّ إلا بما علمنا ، وأما الآن فقـد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب ؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين : دَسَّ هذا في رحلي مَن دَسَّ بضاعتكم في رحالكم ؛ قال معناه ابن إسحق . وقيل المعنى : ما شهدنا عنـد يوسف بأن السارق يُسْتَرَقُّ إلا بما علمنا من دينك ؛ قاله ٱبن زيد . ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي لم نعلم وقت أخذناه منك أنه يَسْرِق فلا نأخذه . وقال مجاهد وقتادة : ما كنا

(1) هو العباس بن الفضل بن شاذان ، كما في « غاية النهاية » .

نعلم أن آبنك يُسترق و يصير أمرنا إلى هذا ، و إنما قلنا : نحفظ أخانا فيما نطيق . وقال آبن عباس : يعنون أنه سَرَق ليلا وهم نيام ، والغيب هو الليل بلغة حِمْير ؛ وعنه : ما كنا نعلم ما يصنع في ليله ونهاره وذهابه و إيابه . وقيل : ما دام بمرأى منا لم يجر خَلَل ، فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته . وقيل معناه : قد أخذت السّرقة من رَحْله ، ونحن أخرجناها وننظر إليها ، ولا علم لنا بالغيب ، فلعلهم سَرَّقوه ولم يَسرق .

الثانيــة ــ تضمّنت هذه الآية جواز الشهادة بأى وجه حصل العلم بها ؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا ، فلا تسمع إلا ممن عَلِم ، ولا تقبل إلا منهم ، وهذا هو الأصل في الشهادات ؛ ولهذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة ، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة ؛ وكذلك الشهادة على الخطّ ــ إذا تيقّن أنه خطه أو خطّ فلان ــ صحيحة فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به و إن لم يُشهِده المشهود عليه ؛ قال الله تعالى : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »[1] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألَا أخبركم بخير الشهداء خيرُ الشهداء الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسألها"[2] وقد مضى في "البقرة" .

الثالثــة ــ آختلف قول مالك في شهادة المرور ؛ وهو أن يقول : مررت بفلان فسمعته يقول كذا فإن آستوعب القول شهِد في أحد قوليه ، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يُشهِداه . والصحيح أداء الشهادة عند الآستيعاب ؛ و به قال جماعة العلماء ، وهو الحق ؛ لأنه [قد][3] حصل المطلوب ، وتعيّن عليه أداء العلم ؛ فكان خير الشهداء إذا أعلم المشهود له ، وشر الشهداء إذا كتمها [والله أعلم][4] .

الرابعــة ــ إذا آدّعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردّت ؛ لأنه آدّعى باطلا فأكذبه العِيَان ظاهرا .

قوله تعالى : وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٨٢)

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٢٢ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٩٩ . (٣) من ع . (٤) من ك ى .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ﴾ حقّقوا بهـا شهادتهم عنده، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم. فقولهم: « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » أى أهلها ، فحُذف ؛ ويريدون بالقرية مصر . وقيـل : قرية من قراها نزلوا بهـا وامتاروا منها . وقيل المعنى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » و إن كانت جمادا ، فأنت نبيّ الله، وهو(١) يُنطق الجماد لك ؛ وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار ؛ قال سيبويه : ولا يجوز كَلِّم هِنـدا وأنت تريد غلام هند ؛ لأن هذا يُشكل . والقول فى العِير كالقول فى القرية سواء . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى قولنا .

الثانيـــة — فى هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق، وعلِم أنه قد يُظنّ به أنه على خلاف ما هو عليـه أو يتوهّم أن يرفع التهمة وكلّ ريبة عن نفسه، ويصرح(٢) بالحق الذى هو عليه، حتى لا يبقى لأحد متكلَّم ؛ وقد فعل هذا نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفية يَقْلِبها(٣) من المسجد: "على رِسْلِكما إنما هى صفية بنت حُيَيّ" فقالا : سبحان الله ! وكَبُر عليهما ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدّم و إنى خَشيت أن يَقذف فى قلوبكما شيئا " رواه البخارى ومسلم .

قوله تعـالى : قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أى زيّنت . ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ أن ابنى سَرَق وما سَرَق ، وإنمـا ذلك لأمر يريده الله . ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى فشأنى صـبر جميل ؛ أو صبر جميل أولى بى، على ما تقدّم أوّل السورة .

---

(١) فى ى : أنت نبيّ والله ينطق الجماد لك .

(٢) كذا فى الأصول . ولعل الواو زائدة فيكون يصرح خبر أن .

(٣) يقلبها يردّها

الثانيــة ــ الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه فى نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدى [بنبي الله][1] يعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم أجمعين . وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن قَتَادة عن الحسن قال : ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحبّ إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عَزَاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو . وقال ابن جُرَيج عن مجاهد فى قوله تعالى : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » أى لا أشكو ذلك إلى أحد . وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء ابن أبى رَبَاح عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ بَثَّ لم يَصْبِر " . وقد تقـدّم فى « البقرة »[2] أن الصبر عند أوّل الصّـدمة، وثواب من ذكر مصيبته وآسترجع وإن تقادم عهـدها . وقال جُوَيبر عن الضـحّاك عن ابن عباس قال : إن يعقوب أُعطى على يوسف أجر مائة شهيد، وكذلك من آحتسب من هـذه الأمة فى مصيبته فله [مثل][3] أجر يعقوب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ لأنه كان عنده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت، وإنمـا غاب عنه خبره ؛ لأن يوسف حمل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئا، ثم آشتراه الملك فكان فى داره لا يظهر للناس، ثم حُبس، فلما تمكن آحتال فى أن يعلم أبوه خبره ؛ ولم يُوجّه برسول لأنه كره من إخوته أن يعرفوا ذلك فلا يَدعوا الرسول يَصلُ إليه . وقال : « بهم » لأنهم ثلاثة ؛ يوسف وأخوه، والمتخلّف من أجل أخيه، وهو القائل : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بحالى . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فيما يقضى .

قوله تعـالى : وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم ؛ وذلك أن يعقوب لمـا بلغه خبر بنيامين تَتامَّ حزنه، وبلغ جهـده، وجدّد الله مصيبته له فى يوسف فقال : ﴿ يَا أَسَفَا

(١) من ع . وفى ى : بأيوب، بدل يعقوب . وهو من أغلاط الناسخ .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٧٤، ١٧٥ .   (٣) من ع وك وى .

عَلَى يُوسُفَ ﴾ ونَسِيَ ٱبنه بنيامين فلم يذكره؛ عن ٱبن عباس . وقال سعيد بن جُبير : لم يكن عند يعقوب ما فى كتابنا من الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال : « يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ » . قال قَتَادة والحسن : والمعنى يا حزناه (١) ! وقال مجاهد والضحّاك : يا جزعاه ! ؛ قال كُثَيِّر :

فيا أسفا للقلب كيف ٱنصرافُهُ ... وللنَّفس لمّا سُلِّيت فَتَسلَّتِ

والأسف شدّة الحزن على ما فات . والنداء على معنى : تعالَ يا أسف فإنه من أوقاتك . وقال الزجاج : الأصل يا أسفِي ؛ فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة . ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ قيل : لم يبصر بهما ست سنين، وأنه عَمِيَ؛ قاله مقاتل . وقيل : قد تبيضّ العين ويبقى شيء من الرؤية، والله أعلم بحال يعقوب؛ وإنما ٱبيضّت عيناه من البكاء، ولكن سبب البكاء الحزن، فلهذا قال : « مِنَ الْحُزْنِ » . وقيل : إن يعقوب كان يصلّى، ويوسف نائما معترضا بين يديه، فَغَطّ فى نومه، فالتفت يعقوب إليه، ثم غَطّ ثانية فالتفت إليه، ثم غَطّ ثالثة فالتفت إليه سرورا به وبغطيطه؛ فأوحى الله تعالى إلى ملائكته : « ٱنظروا إلى صَفِيّ وٱبن خليلى قائما فى مناجاتى يلتفت إلى غيرى، وعِزّتى وجَلالى ! لأنزعنّ الحدقتين اللتين التفت بهما، ولأفرقنّ بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة ؛ ليعلم العاملون أن من قام بين يدىّ يجب عليه مراقبة نظرى » .

الثانيـــة ـــ هذا يدلّ على أن الالتفات فى الصلاة ـــ وإن لم يُبطل ـــ يدلّ على العقوبة عليها، والنقص فيها، وقد رَوى البخارى عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات فى الصلاة فقال : " هو ٱختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد " . وسيأتى ما للعلماء فى هذا فى أوّل سورة « المؤمنون » موعبا إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة ـــ قال النحاس : فإن سأل قوم عن معنى شدّة حزن يعقوب ـــ صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا ـــ فللعلماء فى هذا ثلاثة أجوبة : منها ـــ أن يعقوب صلى الله عليه وسلم لما علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم حَيٌّ خاف على دِينه، فاشتدّ حزنه لذلك . وقيل : إنما حزن لأنه سلّمه إليهم صغيرا، فندم على ذلك . والجواب الثالث ـــ وهو أَبْيَنُهَا ـــ هو أن

(١) فى و ى : واحزناه .

الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الوَلْولة وشقّ الثياب، والكلام بما لا ينبغى . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "تَدمع العين ويَحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الربّ". وقد بيّن الله جلّ وعزّ ذلك بقوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثّه؛ ومنه كَظْم الغيظ وهو إخفاؤه؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال الله تعالى : « إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ »(١) أى مملوء كربا . ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم ؛ وهو المشتمل على حزنه . وعن ابن عباس : كظيم مغموم ؛ قال الشاعر :

فإنْ أَكُ كاظِمًا لِمُصَابِ شَاسٍ　＊　فإنى اليومَ مُنطلقٌ لسانى

وقال ابن جُرَيج عن مجاهد عن ابن عباس قال : ذهبت عيناه من الحزن « فَهُوَ كَظِيمٌ » قال : فهو مكروب . وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس فى قوله : « فَهُوَ كَظِيمٌ » قال : فهو كَمِد؛ يقول : يعلم أن يوسف حىّ، وأنه لا يدرى أين هو ؛ فهو كَمِد من ذلك . قال الجوهرى : الكَمَد الحزن المكتوم ؛ تقول منه كَمِد الرجلُ فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ . النحاس . يقال فلان كَظِيم وكاظِم؛ أى حزين لا يشكو حزنه؛ قال الشاعر :

فَحَضَضْتُ قَوْمى واحتسبتُ قِتالَهم　＊　والقومُ من خوف المَنَايا كُظَّم

قوله تعالى : قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أى قال له ولده : « تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ » قال الكسائى : فَتَأْتُ وفَتِئْتُ أفعل ذلك أى مازلتُ . وزعم الفراء أن « لا » مضمرة؛ أى لا تفتأ ، وأنشد(٢) :

فقلتُ يمينُ الله أبرحُ قاعِدًا　＊　ولو قَطعُوا رأسى لديك وأَوصالِى

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٣ .

(٢) البيت لامرئ القيس و« يمين » بالرفع على الابتداء وإضمار الخبر؛ والتقدير : يمين الله لازمنى ؛ وبالنصب على إضمار فعل ، وهو كثير فى كلام العرب كقولهم : أمانة الله . وقد وصف أنه طرق محبوبته نخوفته الرقباء ، وأمرته بالانصراف ، فقال لها هذا ، وأراد : لا أبرح فحذف « لا » . والأوصال (جمع وصل) وهى المفاصل .

أى لا أبرح؛ قال النحاس : والذى قال حسن صحيح . وزعم الخليل وسيبويه أن «لا» تضمر فى القسم، لأنه ليس فيه إشكال؛ ولو كان واجبا[1] لكان باللام والنون؛ وإنما قالوا له ذلك لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك؛ يقال : ما زال يفعل كذا، وما فتئ وفتأ فهما لغتان، ولا يستعملان إلا مع الجحد قال الشاعر[2] :

فما فتئت حتى كأن غبارها[3] * سرادق يوم ذى رياح ترفع

أى ما برحت فتفتأ تبرح . وقال ٱبن عباس : تزال . ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أى تالفا . وقال ٱبن عباس ومجاهد : دنفا من المرض، وهو ما دون الموت؛ قال الشاعر :

سرى همى فأمرضنى * وقدما زادنى مرضا

كذاك الحب قبل اليو * م مما يورث الحرضا

وقال قتادة : هرما . الضحاك : باليا دائرا . محمد بن إسحق : فاسدا لاعقل لك . الفراء : الحارض الفاسد الجسم والعقل؛ وكذا الحرض. ابن زيد : الحرض الذى قد رد إلى أرذل العمر. الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم . المؤرج : ذائبا من الهم . وقال الأخفش : ذاهبا . ٱبن الأنبارى : هالكا، وكلها متقاربة . وأصل الحرض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم، عن أبى عبيدة وغيره؛ وقال العرجى :

إنى ٱمرؤ لج بى حب فأحرضنى * حتى بليت وحتى شفنى السقم

قال النحاس : يقال حرض حرضا وحرض حروضا وحروضة إذا بلى وسقم، ورجل حارض وحرض، إلا أن حرضا لا يثنى ولا يجمع، ومثله قمن وحرى لا يثنيان ولا يجمعان . الثعلبى : ومن العرب من يقول حارض للذكر، والمؤنثة حارضة، فإذا وصف بهذا اللفظ ثنى وجمع وأنث . ويقال : حرض يحرض حراضة فهو حريض وحرض. ويقال : رجل محرض، وينشد :

طلبته الخيل يوما كاملا * ولو ٱلفته لأضحى محرضا

(١) فى ع : موجبا . (٢) هو أوس بن حجر التميمى الجاهلى . (٣) الضمير للخيل .

وقال آمرؤ القيس :

أرى المرءَ ذا الأذوادِ يُصبِحُ مُحْرَضًا * كإحراضِ بِكْرٍ في الدِّيارِ مَرِيضِ (١)

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهمّ إذا أسقمه، ورجل حارض أي أحمق . وقرأ أنس : «حُرْضا» بضم الحاء وسكون الراء، أي مثل عود الأشنان . وقرأ الحسن بضم الحاء والراء . قال الجوهري : الحَرَض والحُرُض الأشنان . ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي الميتين، وهو قول الجميع ؛ وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقةً عليه، وإن كانوا السبب في ذلك .

قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ حقيقة البثّ في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها ، وهو من بثثته أي فرقته ، فسميت المصيبة بَثًّا مجازا ، قال ذو الرُّمّة :

وقفتُ على رَبعٍ لِميّةَ ناقتي * فما زِلتُ أبكي عندهُ وأُخاطِبهْ

وأُسقيه حتى كاد مما أُبثُّهُ (٢) * تُكلّمني أحجارُهُ وملاعِبهْ

وقال ابن عباس : «بَثّي» همّي . الحسن : حاجتي . وقيل : أشد الحزن، وحقيقته ما ذكرناه . ﴿وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ معطوف عليه، أعاده بغير لفظه . ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأني سأسجد له . قاله آبن عباس . قتادة : إني أعلم من إحسان الله تعالى إليّ ما يوجب حسن ظنّي به . وقيل : قال يعقوب لملك الموت هل قبضت رُوح يوسف ؟ قال : لا، فأكد هذا رجاءه . وقال السدّي : أعلم أن يوسف حيّ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وخُلُقه وقوله أحسّت نَفْس يعقوب أنه ولده فطمع، وقال : لعله يوسف . [وقال : لا يكون في الأرض صديق إلا نبيّ . وقيل : أعلم من إجابة دعاء المضطرين ما لا تعلمون] (٣) .

قوله تعالى : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

(١) الأذواد : جمع ذود ، وهو القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع . والبكر : الفتى من الإبل ؛ يقول : أرى المرء ذا المال يدركه الهرم والمرض ، والفناء بعد ذلك فلا تغني كثرة ماله ، كما أن البكر يدركه ذلك .

(٢) أسقيه أدعو له بالسقيا .   (٣) من ز و ى .

قوله تعـالى : ﴿ يَابَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ هذا يدلّ على أنه تيقن حياته ؛ إما بالرؤيا ، وإما بإنطاق الله تعـالى الذئب كما فى أول القصة ، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض رُوحه ؛ وهو أظهر . والتّحسّس طلب الشيء بالحواسّ ؛ فهو تفعّل من الحِسّ ، أى ٱذهبوا إلى هذا الذى طلب منكم أخاكم ، وٱحتال عليكم فى أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه . ويروى أن ملَك الموت قال له : ٱطلبه من هاهنا ! وأشار إلى ناحية مصر . وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف بردّ البضاعة ، وٱحتباس أخيه ، و إظهار الكرامة ؛ فلذلك وجّههم إلى جهـة مصر دون غيرها . ﴿ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللَّهِ ﴾ أى لا تقنطوا من فرج الله ؛ قاله ٱبن زيد ؛ يريد : أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط فى الشدّة . وقال قَتادة والضحاك : من رحمة الله . ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ دليل على أن القنوط من الكبائر ، وهو اليأس ، وسيأتى فى « الزُّمَر »(1) بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ أى الممتنع . ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر ؛ وفى الكلام حذف ، أى فخرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف قالوا : « مَسَّنَا » أى أصابنا « وَأَهْلَنَا الضُّرُّ » أى الجوع والحاجة ؛ وفى هذا دليل على جواز الشكوى عند الضُّر ، أى الجوع ؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضّر من الفقر وغيره أن يبـدى حالته إلى من يرجو منه النفع ؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه ؛ ولا يكون ذلك قدحا فى التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكّى على سبيل التّسخط ؛ والصبر والتّجلد فى النّوائب أحسن ، والتّعفف عن المسألة أفضل ؛ وأحسن الكلام

(1) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٧ .

فى الشكوى سؤال المولى زوال البلوى ؛ وذلك قول يعقوب : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى من جميل صنعه، وغريب لطفه ، وعائدته على عباده ؛ فأما الشكوى على غير مُشْكٍ فهو السّفه، إلا أن يكون على وجه البثّ والتسلّى ؛ كما قال ابن دُرَيْد :

لَا تَحْسَبَنْ يا دهرُ أنّى ضارِعٌ * لِنَكْبَةٍ تَعْرِقُنِي عَرْقَ المُدَى
مَارَسْتَ مَنْ لَوْ هَوَتِ الأفلاكُ مِنْ[1] * جَوَانِبِ الجوِّ عليه ما شَكَا
لكنّها نَفْثَةُ مَصْدورٍ إذا * جَاشَ لُغَامٌ[2] مِن نَوَاحِيها غَمَا

قوله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ﴾ البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شىء ؛ تقول : أبضعت الشيء وآستبضعته أى جعلته بضاعة ؛ وفى المثل : كمستبضع التمر إلى هَجَر[3] .

قوله تعالى : ﴿ مُزْجَاةٍ ﴾ صفة لبضاعة ؛ والإزجاء السّوْق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا[4] » والمعنى أنها بضاعة تدفع ؛ ولا يقبلها كل أحد . قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . آختلف فى تعيينها هنا[5] ؛ فقيل : كانت قديدًا وحيسا[6] ؛ ذكره الواقدىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وقيل : خَلَقُ الغرائر والحبال ؛ روى عن آبن عباس . وقيل : متاع الأعراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث . وقيل : الحبة الخضراء والصّنوبر وهو البُطْم ، حبّ شجرٍ بالشام ، يؤكل و يعصر الزيت منه لعمل الصابون ؛ قاله أبو صالح ؛ فباعوها بدراهم لا تَنفُق فى الطعام ، وتَنفق فيما بين الناس ؛ فقالوا : خذها منا بحساب جيادٍ تَنفُق فى الطعام . وقيل : دراهم رديئة ؛ قاله آبن عباس أيضا . وقيل : ليس عليها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف . وقال الضحاك : النعال والأدم ؛ وعنه : كانت سويقا منخلا . والله أعلم .

---

(١) من ع .
(٢) الزبد ؛ وهو ما يلقيه البعير من فمه ؛ وغما : سقط ؛ يقال : غما البعير الزبد إذا رماه ينفض رأسه ومشفره .
(٣) هجر : مدينة بالبحرين .
(٤) راجع جـ ١٢ ص ٢٨٧ .
(٥) من ع و ى .
(٦) كذا فى الأصول وفى البحر : قديد وحش .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ .

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون كما تبيع بالدراهم الجياد لاتنقصنا بمكان دراهمنا ؛ هذا قول أكثر المفسرين . وقال ابن جريج : « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون الكيل الذى كان قــد كاله لأخيهم . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى تفضل علينا بمـا بين سعر الجياد والرديئة . قاله سعيد بن جُبير والسدى والحسن : لأن الصدقة تحرم على الأنبياء . وقيل المعنى: « تَصَدَّقْ عَلَيْنَا » بالزيادة على حقّنا ؛ قاله سفيان بن عُيَيْنة . قال مجاهد : ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليــه وسلم . وقال آبن جُريج : المعنى « تَصَــدَّقْ عَلَيْنَا » بردّ أخينا إلينا . وقال آبن شجرة : « تَصَدَّقْ عَلَيْنَا » تجوّز عنا ؛ وآستشهد بقول الشاعر :

تَصدّقْ علينا يا آبن عَفّان(١) وآحْتَسِبْ * وأَمِّرْ علينـا الأشــعرىّ لَيَـالِيَا

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ يعنى فى الآخرة ؛ يقال : هذا من مَعاريض الكلام ؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يجزيك بصدقتك ، فقالوا لفظا يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجه بالتأويل ؛ قاله النقاش وفى الحديث : " إن فى المَعاريض(٢) لمندوحةً عن الكذب " .

الثانيـــة — آستدلّ مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع ؛ قال آبن القاسم وآبن نافع قال مالك : قالوا ليوســف « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » فكان يوسف هو الذى يكيل ، وكذلك الوزّان والعدّاد وغيرهم ، لأن الرجل إذا باع عِدّة معلومة من طعامه ، وأوجب العقد عليه ، وجب عليــه أن يبرزها و يميّز حق المشترى من حقه ، إلا أن يبيع منه مُعيَّنًا — صبرة(٣) أو مالا حقّ توفية فيه — خلّى [ما(٤)] بينه و بينه ، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع ؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن ، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية ، و إن تلف فهو منه قبل التوفية .

(١) فى ى : يابن حسان . (٢) المعاريض : جمع معراض ، من التعريض وهو خلاف التصريح من القول .
(٣) الصبرة : الطعام المجتمع كالكومة . (٤) من ع .

الثالثة — وأما أجرة النقد فعلى البائع أيضا؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول: إنها طيّبة، فأنت الذى تدعى الرداءة فانظر لنفسك؛ وأيضا فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه، وكذلك لا يجب على الذى [يجب][1] عليه القصاص؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه، إلا أن يمكن من ذلك طائعا؛ ألا ترى أن فرضا عليه أن يفدى يده، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه، فأجر القطاع على المقتص. وقال الشافعى فى المشهور عنه: إنها على المقتص منه كالبائع.

الرابعة — يكره للرجل أن يقول فى دعائه: اللهم تصدّق علىّ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغى الثواب، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا ربّ غيره؛ وسمع الحسن رجلا يقول: اللهم تصدّق علىّ؛ فقال الحسن: يا هذا! إن الله لا يتصدّق إنما يتصدّق من يبتغى الثواب؛ أما سمعت قول الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ» قل: اللهم أعطنى وتفضّل علىّ.

قوله تعالى: قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ استفهام بمعنى التذكير والتوبيخ، وهو الذى قال الله[2]: «لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا» الآية[3]. ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ دليل على أنهم

---

(١) من ع وو ى. (٢) أى تصديق قول الله، كما فى تفسير الفخر وفى ع: قال الرب.

(٣) من ع.

كانوا صغارا فى وقت أخذهم ليوسف، غير أنبياء؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ ويدلّ على أنه حسنت حالهم الآن؛ أى فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال؛ قال معناه ابن عباس والحسن؛ ويكون قولهم: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» على هذا، لأنهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفا منه. وقيل: جاهلون بما تؤول إليه العاقبة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ لما دخلوا عليه فقالوا: «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» خضعوا له وتواضعوا رق لهم، وعرفهم بنفسه، فقال: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ» فتنبهوا فقالوا: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ» قاله ابن إسحق. وقيل: إن يوسف تبسّم فشبهوه بيوسف وآستفهموا. قال ابن عباس لما قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ» الآية، ثم تبسم يوسف — وكان إذا تبسم كأنّ ثناياه اللؤلؤ المنظوم — فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الآستفهام: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ». وعن ابن عباس أيضا: أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان فى قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شِبْه الشامة، فلما قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ» رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ». وقال ابن عباس: كتب يعقوب إليه يطلب ردّ آبنه، وفى الكتاب: من يعقوب صفىّ الله آبن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر — أما بعد — فإنّا أهل بيت بلاء ومحَن، ابتلى الله جدّى إبراهيم بنمروذ وناره، ثم ابتلى أبى إسحق بالذبح، ثم آبتلانى بولد كان لى أحبّ أولادى إلىّ حتى كُفّ بصرى من البكاء، و إنى لم أسرق ولم ألِد سارقا والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب آرتعدت مفاصله، واقشعر جلده، وأرخى عينيه بالبكاء، وعِيلَ صبره فباح بالسرّ. وقرأ ابن كثير «إِنَّكَ» على الخبر، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله: «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ»[1]. ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ أى أنا المظلوم والمراد قتله، ولم يقل أنا هو تعظيما للقصة. ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أى بالنجاة والملك. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أى يتق الله و يصبر على المصائب وعن المعاصى. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى الصابرين فى بلائه، القائمين بطاعته. وقرأ آبن كثير: «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي» بإثبات الياء؛ والقراءة بها جائزة على أن تجعل

(١) راجع جـ ١٣ ص ٩٣ .

«مَنْ» بمعنى الذى، وتدخل « يتّقِي » فى الصلة، فتثبت الياء لا غير، وترفع « ويصبر » . وقد يجوز أن تجزم « ويصبر» على أن تجعل « يتق » فى موضع جزم و « من » للشرط، وتثبت الياء، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التى كانت فى الياء على الأصل؛ كما قال :

ثم نادِى إذا دَخلتَ دِمَشْــقًا * يا يزيدُ بنَ خالدِ بنِ يزيد

وقال آخـــر :

ألم يأتيكَ والأنبــاءُ تَنْمِى * بمـا لَاقَتْ لَبُــونُ بنِى زيادِ

وقراءة الجماعة ظاهرة ، والهاء فى « إِنَّه » كناية عن الحديث ، والجملة الخبر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ الأصل همزتان خفّفت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، وٱسم الفاعل مُؤْثِر، والمصدر إيثار . ويقال : أثَرْتُ التراب إثارةً فأنا مُثير؛ وهو أيضا على أَفْعَل ثم أُعِلّ، والأصل أَثْيَر(١) نقلت حركة الياء على الثاء، فانقلبت الياء ألفا، ثم حذفت لالتقاء الساكنين . وأَثَرْتُ الحديث على فَعَلْتُ فأنا آثِر؛ والمعنى : لقــد فضّلك الله علينا، وٱختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك . ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أى مذنبين من خَطِئ يَخْطَأ إذا أتى الخطيئة ، وفى ضمن هــذا سؤال العفــو . وقيل لٱبن عبــاس : كيف قالوا «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» وقد تعمدوا لذلك؟ قال : وإن تعمّدوا لذلك، فما تعمدوا حتى أخطئوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تَخطّى المنهاج الذى عليه من الحق، حتى يقع فى الشبهة والمعصية .

قوله تعــالى : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أى قال يوسف ــ وكان حليما موفّقا ــ : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْــكُمُ الْيَوْمَ » وتمّ الكلام . ومعنى « اليــوم » : الوقت . والتــثريب التّعيير والتوبيخ ، أى لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثورى وغيره؛ ومنه قوله عليه السلام: "إذا زنت أمة أحدكم فليجلِدها الحدّ ولا يُثَرِّب عليها" أى لا يعيرها ؛ وقال بشر :

فعَفَوتُ عنهــم عَفوَ غيرِ مُثَرِّبِ * وتركتهم لعقابِ يومٍ ســرمَدِ

(١) كذا فى الأصل وإعراب القرآن للنحاس . ويلاحظ أن عين الفعل واو لا ياء ، وعليه فالأصل أثور ، نقلت حركة الواو إلى ما قبلها فقلبت ألفا ، ثم حذفت ــ عند اتصال الفعل بضمير متحرك ــ لالتقاء الساكنين .

وقال الأصمعى : ثَرَّبتُ عليه وعَرَّبْتُ عليه بمعنى إذا قبحتَ عليه فعله . وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لمـا بينى و بينكم من الحرمة ، وحقّ الإخوة ، ولكم عندى العفو والصفح ؛ وأصل التثريب الإفساد ، وهى لغة أهل الحجاز . وعن ابن عباس أن رســول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعُضادَتَى الباب يوم فتح مكة ، وقد لَاذَ النـاسُ بالبيت فقال : " الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده " ثم قال : " ماذا تظنون يامعشر قريش " قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقــد قَدَرت ؛ قال : " وأنا أقــول كما قال أخى يوسف «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » " فقال عمر رضى الله عنه : ففِضتُ عَرقا من الحياء من قول رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ؛ ذلك أنى قــد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة : اليــوم ننتقم منكم ونفعل ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال آستحييت من قولى . ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ مستقبل فيــه معنى الدعاء ؛ سأل الله أن يستر عليهم و يرحمهم . وأجاز الأخفش الوقف على « عَلَيْكُمُ » والأوّل هو المستعمل ؛ فإن فى الوقف على «عليكم» والابتداء بـ«الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» جَزْم بالمغفرة فى اليوم ، وذلك لا يكون إلا عن وحى ، وهــذا بيّن . وقال عطاء الخراسانى : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ؛ ألم ترقول يوسف : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ » وقال يعقوب : « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى » .

قوله تعالى : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَذَا ﴾ نعت للقميص ، والقميص مذكر ، فأما قول الشاعر[1] :

تَدْعو هَوَازِنُ والقميصُ مُفَاضَةٌ * فوق النِّـطاقِ تُشَـدُّ بالأزرارِ

فتقديره : [والقميص] دِرْع مُفاضةٌ[2] . قاله النحاس . وقال ابن السدّى عن أبيه عن مجاهد : قال لهم يوسف : «اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا » قال : كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدّ على يعقوب بصره ، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذى ألبسه الله فى النـار من حرير الجنــة ، وكان كساه إسحق ، وكان إسحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص فى قَصَبة من فضة وعلّقه فى عُنق يوسف ، لِـمَا كان يخاف عليــه من

(١) هو جرير . (٢) الزيادة عن النحاس .

العين ، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة ، و[إن][1] ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلًى إلا عُوفى[1] . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره ، وكان الذى حمل قميصه يهوذا، قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته، وأنا الذى أحمله الآن لأسرّه، وليعود إليه بصره، فحمله ؛ حكاه السدّى. ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لتتخذوا مصر دارا . قال مسروق : فكانوا ثلاثة وتسعين، ما بين رجل وامرأة . وقد قيل : إن القميص الذى بعثه هو القميص الذى قدّ من دُبره ، ليعلم يعقوب أنه عُصم من الزنى ؛ والقول الأول أصح ، وقد روى مرفوعا من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره القُشَيرىّ والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أى خرجت منطلقة من مصر إلى الشام، يقال: فَصَلَ فُصولا، وفَصَلْته فَصْلًا، فهو لازم ومتعد . ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أى قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾. وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه، فقال لمن بقى: « إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ» . قال ابن عباس : هاجت[2] ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه، و بينهما مسيرة ثمان ليال . وقال الحسن : مسيرة عشر ليال ؛

(١) من ى . (٢) فى ى : هبت .

وعنه أيضا مَسيرة شهر . وقال مالك [بن أنس][1] رضي الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتدّ إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد : هبّت ريح فصَفَقَت[2] القميصَ فراحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فعند ذلك قال : « إنّي لَأَجِدُ » أي أشم ؛ فهو وجود بحاسة الشم . ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : لولا أن تُسفّهون ؛ ومنه قول النابغة :

إلّا سُليمان إذ قال المليكُ لَهُ * قُمْ في البريّة فآحْدُدْها عن الفنَدِ[3]

أي عن السَّفَه . وقال سعيد بن جُبير والضحاك : لولا أن تكذّبون . والفَنَد الكذب . وقد أَفْنَد إفنادا كَذَب ؛ ومنه قول الشاعر :

هل في آفتـخار الكريم من أَوَدِ[4] * أَمْ هل لقول الصَّدُوقِ من فَنَدِ

أي من كذب . وقيل : لولا أن تُقبِّحون ؛ قاله أبو عمرو ؛ والتّفنيد التقبيح ، قال الشاعر :

يا صاحبيّ دعا لومِي وتَفْنِيدِي * فليس ما فاتَ مِن أمرِي بمردودِ

وقال آبن الأعرابي : « لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » لولا أن تُضعّفوا رأيي ؛ وقاله ابن إسحق . والفند ضعف الرأي من كِبر . وقول رابع : تُضلّلون ، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلومونى ؛ والتفنيد اللوم وتضعيف الرأي . وقال الحسن وقَتَادة ومجاهد أيضا : تُهرِّمون ؛ وكله متقارب المعنى ، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي ؛ يقال : فَنَّده تفنيدا إذا أعجزه ، كما قال :

* أهلكني باللوم والتفنيد *

ويقال : أفند إذا تكلم بالخطأ ؛ والفند الخطأ في الكلام والرأي ، كما قال النابغة :

* ... فآحددها عن الفَنَد *

أي آمنعها عن الفساد في العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد ؛ قال الشاعر :

يا عاذليّ دَعَا المَلَامَ وأَقْصِرَا * طالَ الهَـوى وأطلتما التَّفْنِيـدا

---

(١) من ورى . (٢) صفقت الريح الشيء وصفقته إذا قلبته يمينا وشمالا ورددته .

(٣) شبه الشاعر النعمان بسيدنا سليمان عليه السلام لعظم ملكه ؛ وقبل البيت :

ولا أرى فاعلا في النـاس يشبهه * ولا أحاشي من الأقوام من أحد

ويروى : فاردُدها . وآحددها : احبسها . والفند أيضا الخطأ في الرأي . والظلم أيضا . (٤) أود : عوج .

ويقال : أَفْنَدَ فلاناً الدهرُ إذا أفسده ؛ ومنه قول ابن مُقْبِل :

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ ما أَرادَ فإنَّهُ * إذا كُلِّفَ الإفنادَ بالناسِ أَفْنَدَا

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ أى لفى ذهاب عن طريق الصواب. وقال ابن عباس وابن زيد : لفى خطئك الماضى من حبّ يوسف لا تنساه . وقال سعيد ابن جُبير : لفى جنونك القديم . قال الحسن : وهذا عقوق . وقال قَتادة وسفيان : لفى محبتك القديمة . وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات . وقيل : إن الذى قال له ذلك من بقى معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر . وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقرابته . وقيل : بنو بنيه وكانوا صغارا ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أى على عينيه . ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ «أَنْ» زائدة، والبشير قيل هو شمعون . وقيل : يهوذا قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به مُلَطَّخا بالدّم؛ قاله ابن عباس . وعن السدّى أنه قال لإخوته : قد علمتم أنى ذهبت إليه بقميص التَّرْحة فدعونى أذهب إليه بقميص الفَرْحة . وقال يحيى بن يمان عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أىّ دِينٍ تركت يوسف؟ قال : على الإسلام؛ قال : الآن تمت النعمة ؛ وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئا يُثِيبه به ؛ فقال : والله ما أصبتُ عندنا شيئا ، وما خبزنا شيئا منذ سبع ليال ، ولكن هوّن الله عليك سكراتِ الموت .

قلت : وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر . ودلّت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر . وفى الباب حديث كعب بن مالك — الطويل — وفيه : «فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت ثوبىّ فكسوتهما إياه ببشارته» وذكر الحديث ، وقد تقدّم بكماله فى قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا [1] ، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به ، وهو دليل على

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٨٢ فما بعد .

جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والترح . ومن هذا الباب جواز حِذَاقة[1] الصبيان، و إطعام الطعام فيها ، وقد نحر عمر بعد [حفظه][2] سورة « البقرة » جَزُورا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذكّرهم قوله : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ فى الكلام حذف ، التقدير: فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا ؛ وهذا يدلّ على أن الذى قال له : « تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لا ولده ؛ فإنهم كانوا غُيَّبا ، وكان يكون ذلك زيادة فى العقوق . والله أعلم . و إنما سألوه المغفرة ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المـأثم عنه إلا بإحلاله .

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما فى نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالمـا له ؛ فإنه يجب عليه أن يَتَحَلَّل[3] له و يخبره بالمَظْلِمة[4] وقدرها ؛ وهل ينفعه التّحليل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ؛ فإنه لو أخبره بمظلِمة لها قَدْرٌ وبَالٌ ر بما لم تطب نفس المظلوم فى التّحلُّل منها . والله أعلم . وفى صحيح البخارىّ وغيره عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت له مَظْلِمَة لأخيه من عِرْضه أو شىءٍ فليحلّله منه اليوم قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهمٌ إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مَظْلِمته و إن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فَحُمِل عليه " قال المهلّب فقوله صلى الله عليه وسلم : " أُخذ منه بقدر مَظْلِمته " يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارا إليها مبيّنة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى ﴾ قال ابن عباس : أَخَّر دعاءه إلى السَّحَر . وقال المُثَنّى بن الصَّبّاح عن طاوس قال : سَحَرَ ليلة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفى دعاء الحِفظ — من كتاب الترمذىّ — عن ابن عباس أنه قال : بينما نحن عند رسول الله

---

(١) حذق الغلام القرآن : مهر فيه . فى ع : جواز الفرح بحذاق الصبيان . (٢) من ا ، ع ، ك ، و ، ى . (٣) فى ع وك : منه . (٤) مظلمة (بكسر اللام) وحكى فتحها .

صلى الله عليه وسلم إذ جاءه عليّ بن أبي طالب — رضي الله عنه — فقال : — بأبي أنت وأمّي — تفلّت هذا القرآنُ من صدري ، فما أجدني أقدر عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أفلا أعلمك كلماتٍ ينفعكَ اللهُ بهنّ ويَنفعُ بهنّ من علّمته ويُثبّت ما تعلمتَ في صدرك " قال : أجل يا رسول الله ! فعلّمني؛ قال : " إذا كان ليلة الجمعة فإن ٱستطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخرِ فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخي يعقوب لبنيه « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » يقول حتى تأتي ليلة الجمعة " وذكر الحديث . وقال أيوب بن أبي تميمة السَّخْتِيَاني عن سعيد بن جُبير قال : «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» في الليالي البيض ، في الثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب . وعن عامر الشّعبي قال : « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » أي أسأل يوسف إن عفا عنكم ٱستغفرت لكم ربي؛ وذكر سُنَيد بن داود قال : حدّثنا هشيم قال حدّثنا عبد الرحمن بن إسحق عن محارب بن دِثَار عن عمّه قال : كنت آتي المسجد في السَّحر فأمرُّ بدار ٱبن مسعود فأسمعه يقول : اللهم إنك أمرتني فأطعت ، ودعوتني فأجبت ، وهذا سَحَرٌ فٱغفر لي ، فلقيت ٱبن مسعود فقلت : كلمات أسمعك تقولهنّ في السحر؟ فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السَّحَر بقوله : «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي قَصْرًا كان له هناك . ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قيل : إن يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة وجهازا ، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعا ؛ فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه ، أي ضمّ ؛ ويعني بأبويه أباه وخالته ، وكانت أمّه قد ماتت في ولادة أخيه بنيامين . وقيل : أحيا الله [له](1) أمّه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له ، قاله الحسن؛ وقد تقدّم في « البقرة » أن الله تعالى أحيا لنبيه عليه السلام أباه وأمه فآمنا به .

قوله تعالى : ﴿ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ قال ٱبن جريج : أي سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله؛ قال : وهذا من تقديم القرآن وتأخيره؛ قال النحاس : يذهب ٱبن جُرَيج إلى أنهم قد دخلوا مصر فكيف يقول : « ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» . وقيل : إنما قال : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ » تبرُّكا وجَزْمًا . « آمنين » من القَحْط ، أو من فرعون ؛ وكانوا لا يدخلونها إلا بجوازه .

(1) من ا و ع و ى

قوله تعـالى : وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠)

قوله تعـالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَـرْشِ ﴾ قال قَتَادة : يريد السَّرير، وقد تقدّمت مَحامله ؛ وقد يُعبر بالعرش عن المُلْك والمَلِك نفسه ؛ ومنه قول النابغة الذُّبْيَانِىّ :

* عُروشٌ تَفانَوْا بعد عِزٍّ وأَمْنةٍ *

وقد تقدّم (١) .

قوله تعـالى : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » الهاء فى « خَرُّوا لَهُ » قيل : إنها تعود على الله تعالى؛ المعنى : وخرّوا شكرا لله سجدا؛ و يوسف كالقِبْلة لتحقيق رؤياه، وروى عن الحسن؛ قال النَّقاش : وهذا خطأ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى فى أوّل السورة : « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » . وكان تحيّتهم أن يسجد الوضيع للشريف ، والصغير للكبير؛ سجد يعقوب وخالته وإخوته ليوسف عليه السلام، فاقشعرّ جلده وقال : «هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاىَ مِنْ قَبْلُ» وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها آثنتان وعشرون سنة . وقال سلمان الفارسىّ وعبد الله بن شَدّاد : أربعون ســنة؛ قال عبد الله بن شَـدّاد : وذلك آخر ما تبطئ الرؤيا . وقال قَتَادة : خمس وثلاثون سنة . وقال السدّى وسعيد بن جُبير وعِكرمة : ست وثلاثون سنة . وقال الحسن وجَسْر آبن فَرْقَد وفُضَيل بن عِيَاض : ثمانون سنة . وقال وهب بن مُنَبِّه : أُلْقِىَ يوسف فى الجُبّ وهو آبن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمـانين سنة، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثا وعشرين

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٠ .

سنة ، ومات وهو آبن مائة وعشرين سنة . وفى التوراة مائة وست وعشرون سنة . وولد ليوسف من آمرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورحمة آمرأة أيوب . وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة . وقيل : إن يعقوب بقى عند يوسف عشرين سنة ، ثم توفى صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقام عنده ثمانى عشرة سنة . وقال بعض المحدّثين : بضعا وأربعين سنة ؛ وكان بين يعقوب و يوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله . وقال آبن إسحق : ثمانى عشرة سنة ، والله أعلم .

الثانيـة — قال سعيد بن جُبير عن قَتَادة عن الحسن — فى قوله : « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » — قال : لم يكن سجودا ، لكنه سنة كانت فيهم ، يُومِئون برءوسهم إيماء ، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثّورى والضّحّاك وغيرهما : كان سجودا كالسجود المعهود عندنا ، وهو كان تحيتهم . وقيل : كان آنحناء كالركوع ، ولم يكن خرورا على الأرض ، وهكذا كان سلامهم بالتّكفِّى والآنحناء ، وقد نسخ الله ذلك كله فى شرعنا ، وجعل الكلام بدلا عن الآنحناء . وأجمع المفسّرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة ؛ قال قَتَادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

قلت : هذا الآنحناء والتّكفِّى الذى نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية ، وعند العجم ، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض ؛ حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد فى نفسه كأنه لا يُؤْبه به ، وأنه لا قدر له ؛ وكذلك إذا آلتقوا آنحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثة مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء . نَكَبوا عن السُّنَنِ ، وأعرضوا عن السُّنَن . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول ! أينحنى بعضنا إلى بعض إذا آلتقينا ؟ قال : "لا" ؛ قلنا : أفيعتَنِق بعضنا بعضا ؟ قال "لا" . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضا ؟ قال "نعم" . خرّجه أبو عمر فى « التمهيد » فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قوموا إلى سيّدكم وخَيْرِكم" — يعنى سعد بن معاذ — قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعيّنة ؛ وقد قيل : إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار ؛ وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثّر ذلك فى نفسه ، فإن أثّر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظا لم يجزعَوْنه على ذلك ؛

لقوله صلى الله عليه وسلم : "من سره أن يتمثّل له الناس قياما فليتبوّأ مقعده من النار". وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهٌ أكرَمَ عليهم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه، لما يعرفون من كراهته لذلك .

الثالثة — فإن قيل : فما تقول فى الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك جائز إذا بَعُد عنك ، لتعيّن له به وقت السلام ، فإن كان دانيًا فلا ؛ وقد قيل بالمنع فى القرب والبعد ؛ لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من تَشبَّه بغيرنا فليس منا" . وقال : "لا تُسلِّموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكُفّ والنّصارى بالإشارة" . وإذا سَلَّم فإنه لا يَنحنى، ولا أن يُقبِّل مع السّلام يده ، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغى إلا لله . وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أفعالهم التى أحدثوها تعظيما منهم لكبرائهم ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم : "لا تقوموا عند رأسى كما تقوم الأعاجم عند رءوس أكاسرتها" فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة؛ فقد صافح النبى صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبى طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال : "تصافحوا يذهب الغِلّ" وروى غالب التَّمّار عن الشّعبىّ أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا إذا التقوا تَصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تَعانقوا ؛ فإن قيل[1] : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة ، وذهب إلى هذا سُحْنون وغيره من أصحابنا ؛ وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة،وهو الذى يدلّ عليه معنى ما فى الموطأ ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف . قال ابن العربى : إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمراعاما فى الدِّين، ولا منقولا نقل السلام؛ ولو كانت منه[2] لاستوى معه.

قلت : قد جاء فى المصافحة حديث يدلّ على الترغيب فيها ،والدّأب عليها والمحافظة ؛ وهو ما رواه البَرَاء بن عازب قال :لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدى فقلت : يارسول الله ! أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم ؟ فقال : "نحن أحق بالمصافحة منهم مامن مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبُهما بينهما" .

---

(١) فى ا وع وك وى : الرابعة . ويلاحظ أن المسائل ثلاث . (٢) فى ع ، و ، ى : سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الجُبّ آستعمالا للكرم؛ لئلا يُذكِّر إخوته صنيعهم بعد عفوه [عنهم] (١) بقوله : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ » .

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذِكْرُ الجَفَاق وقت الصَّفا جَفا، وهو قول صحيح دَلَّ عليه الكتاب . وقيل : لأن فى دخوله السجن كان باختياره بقوله : «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » وكان فى الجبّ بإرداة الله تعالى له . وقيل: لأنه كان فى السجن مع اللصوص والعُصَاة ، وفى الجبّ مع الله تعالى؛ وأيضا فإن المِنّة فى النّجاة من السّجن كانت أكبر، لأنه دخله بسبب أمرٍ هَمَّ به؛ وأيضا دخله باختياره إذ قال : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » فكان الكَرْب فيه أكثر، وقال فيه أيضا : « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » فعوقب فيه . ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان، وكانوا أهل مواشٍ و بَرية؛ وقيل : كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسَكَنها ، وأن الله لم يبعث نبيا من أهل البادية . وقيل: إنه كان خرج إلى بَدَا ، وهو موضع ؛ وإياه عنى جَمِيل بقوله :

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَغْبًا (٢) إلى بَدَا * إليّ وأوطانِي بلادٌ سِواهُمَا

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل . يقال : بَدَا القومُ بَدْوًا إذا أَتَوا بَدا ، كما يقال : غَاروا غَوْرًا أى أَتَوا الغَوْر؛ والمعنى : وجاء بكم من مكان بَدا؛ ذكره القشيري، وحكاه الماوَرْدِي عن الضحّاك عن آبن عباس . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ بإيقاع الحسد؛ قاله آبن عباس . وقيل : أفسد ما بيني و بين إخوتي؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكرما منه . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أى رفيق بعباده . وقال الخَطّابي : اللطيف هو البَرّ بعباده الذى يَلطُف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبّب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ؛ كقوله : « اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ » (٣) . وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور؛ والمراد هنا الإكرام والرفق . قال قَتادة ، لطف بيوسف بإخراجه من السجن ، وجاءه بأهله من البدو ، ونزع عن قلبه نزغ الشيطان . و يروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشارَف أرض مصر وبلغ ذلك يوسف آستأذن فرعون — وآسمه الريان — أن يأذن له فى تلقِّى أبيه يعقوب ، وأخبره

(١) من ع وك .

(٢) شغب : موضع بين المدينة والشام . و(بدا) يروى منونا وغير منون .

(٣) راجع جـ ١٦ ص ١٦ .

بقدومه فأذن له، وأمر الملأ من أصحابه بالركوب معه؛ فخرج يوسف والملك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خَلْقٌ الله أعلم بهم؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب، فكان يعقوب يمشي متكئا على يد يهوذا؛ فنظر يعقوب إلى الخيل والناس والعساكر فقال: يا يهوذا ! هذا فرعون مصر؟ قال: لا، بل هذا ابنك يوسف؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمُنِع[1] من ذلك، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل؛ فابتدأ يعقوب بالسلام فقال: السلام عليك يا مُذْهِب الأحزان، وبكى وبكى معه يوسف؛ فبكى يعقوب فرحا، وبكى يوسف لما رأى بأبيه من الحزن؛ قال ابن عباس: فالبكاء أربعة، بكاءٌ من الخوف، وبكاءٌ من الجزع، وبكاء من الفرح، وبكاءُ رياءٍ. ثم قال يعقوب: الحمد لله الذي أقرّ عيني بعد الهموم والأحزان، ودخل مصر في اثنين وثمانين من أهل بيته؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام؛ رواه عِكْرِمة عن ابن عباس. وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة [ألف][2] وسبعون ألفا. وقال الربيع بن خُثَيْم: دخلوها وهم اثنان وسبعون ألفا، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف. وقال وهب: [بن منبه][2] دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة وصغير، وخرجوا منها مع موسى فرارا من فرعون، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين، سوى الذرية والهَرْمى والزَّمْنى؛ وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقاتلة. وقال أهل التواريخ: أقام يعقوب بمصر أربعا وعشرين سنة في أغبط حال ونعمة، ومات بمصر، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام ففعل، ثم انصرف إلى مصر. قال سعيد بن جُبير: نقل يعقوب صلى الله عليه وسلم في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يوم مات عِيصُو، فدفنا في قبر واحد؛ فمن ثَمّ تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس، مَنْ فَعَل ذلك منهم؛ ووُلِد يعقوب وعِيصُو في بطن واحد، ودفنا في قبر واحد وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا[3] وأربعين سنة.

---

(١) أي منعه يعقوب عليه السلام لأن القادم يسلم؛ قاله العيني في «عقد الجمان». وقال الألوسي: ليعلم أن يعقوب أكرم على الله منه. (٢) من ع. (٣) في ع وك وى: تسعا. والمشهور ما ذكر.

قوله تعالى : رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ قال قَتَادة : لم يتمنّ الموت أحدٌ، نبيّ ولا غيره إلّا يوسف عليه السلام؛ حين تكاملت عليه النِّعم وجمع له الشمل اشتاق إلى لقاء ربه عزّ وجلّ . وقيل : إن يوسف لم يتمنّ الموت ، و إنما تمنّى الوفاة على الإسلام ؛ أى إذا جاء أَجَلِي تَوَفَّنِي مسلما ؛ وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : لا يتمنى الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت، أو رجل يفرّ من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاء الله عزّ وجلّ . وثبت فى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يتمنّين أحدُكم الموت لضُرٍّ نزل به فإن كان لا بدّ متمنيا فليقل اللهم أَحْيِنى ما كانت الحياة خيرا لى وتَوفَّنى إذا كانت الوفاة خيرا لى " رواه مسلم . وفيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يتمنّى أحدُكم الموت ولا يَدْعُ[1] به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله و إنه لا يزيد المؤمنَ عُمُره إلا خيرا " .
و إذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تمنى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل ؟ هذا بعيد! إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزا فى شرعه؛ أَمَا أنه يجوز تمنّى الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها، وخوف ذهاب الدين، على ما بيّناه فى كتاب «التذكرة» .
و«مِنَ» من قوله : « مِنَ الْمُلْكِ » للتبعيض، وكذلك قوله : « وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » لأن مُلْك مصر ما كان كل المُلك، وعلم التعبير ما كان كلّ العلوم . وقيل : « مِنَ » للجنس كقوله : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ »[2] . وقيل : للتأكيد . أى آتيتنى الملك وعلمتنى تأويل الأحاديث .

---

(١) قيل : وجه صحة عطفه على النفى من حيث إنه بمعنى النهى . وقال ابن حجر : فيه إيماء إلى أن الأوّل نهى على بابه ، و يكون قد جمع بين لغتى حذف حرف العلة و إثباته .
(٢) راجع جـ ١٢ ص ٥٤ .

قوله تعـالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب على النعت للنداء، وهو ربّ، وهو نداء مضاف؛ والتقدير: ياربّ! ويجوز أن يكون نداء ثانيا . والفاطر الخالق؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات، أى خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء، ولامثال سبق؛ وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة» مستوفى[(١)]؛ عند قوله : «بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ» وزدناه بيانا فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى . ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي ﴾ أى ناصرى ومتولّى أمورى فى الدنيا والآخرة . ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يريد آباءه الثلاثة؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب، فتوفاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر، ودُفن فى النيل فى صندوق من رخام؛ وذلك أنه لمـا مات تَشاحّ الناس عليه؛ كلٌّ يحب أن يدفن فى محلّتهم، لِما يرجون من بركته؛ وٱجتمعوا على ذلك حتى همُّوا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه فى النِّيل من حيث مَفرِق المـاء بمصر، فيمرّ عليه المـاء، ثم يتفرق فى جميع مصر، فيكونوا فيه شَرَعا ففعلوا؛ فلما خرج موسى ببنى إسرائيل أخرجه من النيـل : ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه لدعوته : «وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام . وعن الحسن قال : أُلقِى يوسف فى الجبّ وهو ٱبن سبع عشرة سنة، وكان فى العبودية والسّجن والملك ثمانين سنة ، ثم جُمع له شمله فعاش بعـد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؛ وكان له من الولد إفرائيم، ومنشا، ورحمة، زوجة أيوب؛ فى قول ٱبن لَهيعة . قال الزّهرىّ : وولد لإفرائيم — بن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ؛ فهو يوشع بن نون، وهو فتى موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونبأه الله فى زمن موسى عليه السلام؛ فكان بعده نبيا، وهو الذى ٱفتتح أرِيحا، وقتل من كان بها من الجبابرة، وٱستوقفت له الشمس حسب ما تقدّم فى «المـائدة»[(٢)] . وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا ، قبل موسى بن عمران . وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه ، والعالم هو الذى خرق

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ٦ ص ١٣٠ فما بعد .

السفينة، وقتل الغلام، وبنى الجدار، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ؛ وكان ابن عباس ينكر ذلك؛ والحق الذي قاله ابن عباس؛ وكذلك في القرآن . ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون ، وكان فيما بينهما شعيب ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبر ثان . قال الزجاج : ويجوز أن يكون « ذَٰلِكَ » بمعنى الذي، « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » خبره؛ أي الذي من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعني هو الذي قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » أي نعلمك بوحي هذا إليك . ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي مع إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ في إلقاء يوسف في الجب . ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أي بيوسف في إلقائه في الجب . وقيل : « يَمْكُرُونَ » بيعقوب حين جاءوه بالقميص ملطخا بالدم ؛ أي ماشاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ظن أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون ، فلم يؤمنوا ؛ فنزلت الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم؛ أي ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول : حَرَص يحرِص، مثل: ضَرَب يضرِب . وفي لغة ضعيفة حَرِص يحرَص مثل حَمِد يحمَد . والحِرص طلب الشيء باختيار .(١)

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ « مِنْ » صلة؛ أي ما تسألهم جُعْلا . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما هو ؛ يعني القرآن والوحي . ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي عظة وتذكرة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) قال الراغب في مفردات القرآن : الحرص فرط الشره وفرط الإرادة.

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال الخليل وسيبويه : هي « أيّ » دخل عليها كاف التشبيه وبُنيت معها ، فصار فى الكلام معنى كَمْ ، وقد مضى فى « آل عمران »(1) القول فيها مستوفى . ومضى القول فى آية «السَّمَوَاتِ والأَرْضِ» فى «البقرة»(2) . وقيل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة ؛ أى هم غافلون معرضون عن تأملها . وقرأ عِكرمة وعمرو بن فائد « وَالْأَرْضُ » رفعا ابتداء، وخبره، ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ . وقرأ السدّى « وَالْأَرْضَ » نصبًا بإضمار فعل، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرأ ابن مسعود : « يمشون عليها » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ نزلت فى قوم أقروا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وعامر والشّعبى وأكثر المفسرين . وقال عِكرمة هو قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »(3) ثم يصفونه بغير صفته ويجعلون له أندادا؛ وعن الحسن أيضا : أنهم أهل كتاب معهم شِرْكٌ و إيمان، آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ فلا يصح إيمانهم ؛ حكاه ابن الأنبارى . وقال ابن عباس : نزلت فى تلبية مشركى العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك . وعنه أيضا أنهم النصارى . وعنه أيضا أنهم المشبّهة ، آمنوا مجملا وأشركوا

---

(1) راجع ٤ ص ٢٢٨ فما بعد . (2) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ فما بعد .

(3) راجع جـ ١٦ ص ١٢٣ .

مُفَصَّلا . وقيل : نزلت فى المنافقين؛ المعنى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ » أى باللسان إلا وهو كافر بقلبه؛ ذكره الماوردىّ عن الحسن أيضا . وقال عطاء : هـذا فى الدعاء؛ وذلك أن الكفار يَنْسون ربهم فى الرّخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء؛ بيانه : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ »[1] الآية . وقوله : «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ»[1] الآية . وفى آية أخرى : « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ »[2] . وقيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللصّ ، ونحو هذا ؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : وقد يقع فى هذا القول والذى قبله كثير من عوامّ المسلمين ؛ ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم . وقيل : نزلت هـذه الآية فى قصة الدُّخان ؛ وذلك أن أهل مكة لمـا غشيهم الدُّخان فى سِنِىّ القَحْط قالوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ »[3] فذلك إيمـانهم ، وشركُهم عودُهم إلى الكفر بعد كشف العذاب؛ بيانه قوله : « إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » والعود لا يكون إلا بعـد ابتداء ؛ فيكون معنى : « إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أى إلا وهم عائدون [إلى الشرك][4] ، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : مُجَلِّلة[5] . وقال مجاهد : عذاب يغشاهم؛ نظيره . «يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ»[6] . وقال قَتَادة : وقيعـة تقع لهم . وقال الضحّاك : يعنى الصَّواعِق والقوارِع . ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ يعنى القيامة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ نصب على الحال؛ وأصله المصدر . وقال المبرد : جاء عن العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولهم : وقع أمر بغتة وفجاة؛ قال النحاس : ومعنى . « بَغْتَةً »[4] إصابة من حيث لم يتوقع . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وهو توكيد . وقوله : «بَغْتَةً» قال ابن عباس : تَصيح الصيحة بالناس وهم فى أسواقهم ومواضعهم ، كما قال : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتى[2] .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ وص ٣١٧ .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٧٣ وص ٣٨ .
(٣) راجع جـ ١٦ ص ١٣٢ .
(٤) من ع ، وفى ع : أصابهم .
(٥) مجللة : عامة التغطية .
(٦) راجع جـ ١٣ ص

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي ﴾ ابتداء وخبر؛ أى قل يا محمد هذه طريقى وسُنّتى ومِنْهَاجى؛ قاله ابن زيد . وقال الربيع : دعوتى . مقاتل : دينى ، والمعنى واحد ؛ أى الذى أنا عليه وأدعو إليه يؤدّى إلى الجنة . ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ أى على يقين وحقّ ؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا . ﴿ أَنَا ﴾ توكيد . ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ عطف على المضمر . ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أى قل يا محمد : « وَسُبْحَانَ اللَّهِ » . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين يتخذون من دون الله أندادا .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي(١) إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ هذا ردّ على القائلين : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ(٢) » أى أرسلنا رجالا ليس فيهم امرأة ولا جِنّىّ ولا مَلَك؛ وهذا يردّ ما يُروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن فى النّساء أربع نبيّات حوّاء وآسية وأمّ موسى ومريم " . وقد تقدّم فى « آل عمران(٣) » شىء من هذا . « مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » يريد المدائن ؛ ولم يبعث الله نبيّا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو ؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيّـا من أهل البادية قطّ ، ولا من النّساء ، ولا من الجنّ . وقال قتادة : « مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » أى من أهـل الأمصار ؛ لأنهم أعلم وأحلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميّا مدنيا ؛ وإنما قالوا آدميّا تحرّزا ؛ من قوله : « يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ(٤) » والله أعلم .

---

(١) وقراءة نافع والجمهور : يوحى . بالبناء للمجهول .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٩٣ .
(٣) راجع جـ ٤ ص ٨٢ فما بعد . وجـ ٦ ص ٢٥١ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٨ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذِّبة لأنبيائهم فيعتبروا . ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ابتداء وخبره . وزعم الفرّاء أن الدار هي الآخرة ، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ ، كيوم الخميس ، و بارحة الأولى ، قال الشاعر :

ولو أَقْوَتْ عليكَ دِيارُ عَبْسٍ[1] * عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ اليَقِينِ

أى عِرْفَانا يقينا ، واحتجّ الكسائى بقولهم : صلاة الأولى ، واحتجّ الأخفش بمسجد الجامع . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرّف به ؛ والأجود الصلاة الأولى ، ومن قال صلاة الأولى فمعناه : عند صلاة الفريضة الأولى ؛ وإنما سمّيت الأولى لأنها أوّل ما صُلِّى حين فُرضت الصّلاة ، وأوّل ما أظهر ؛ فلذلك قيل لها أيضا الظهر . والتقدير : ولدار الحال الآخرة خير ، وهذا قول البصريين ؛ والمراد بهذه الدار الجنة ؛ أى هى خير للمتقين . وقرئ : « وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ » . وقرأ نافع وعاصم و يعقوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾[2] تقدّم القراءة فيه ومعناه . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم . وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ، ينبغى الوقوف عليه لئلا يزِلّ الإنسان فيكون فى سواء الجحيم . المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب[3] . « حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ » أى يئسوا من إيمان قومهم . « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا » بالتشديد ؛ أى أيقنوا أن قومهم كذّبوهم . وقيل المعنى : حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذّبوهم ، لا أنّ القوم كذّبوا ، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسبوا أنهم يُكذّبونهم ؛ أى خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شكّ ؛ فيكون « وَظَنُّوا » على بابه فى هذا التأويل . وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو عبد الرحمن السُّلَمى وأبو جعفر بن القَعْقَاع والحسن وقَتَادة وأبو رَجَاء العُطَارِدى وعاصم وحمزة والكسائى ويحيى بن وَثّاب والأعمش وخَلَف « كُذِبُوا » بالتخفيف ؛ أى ظنّ القوم أن الرسل كَذَبوهم فيما أخبروا به من العذاب ،

---

(١) وفى رواية : « فإنك لو حللت ديار عبس » ، فى ع وك و ى : عرفت الدار .

(٢) راجع ص ٢٤١ من هذا الجزء .　　(٣) من ع و حـ الجمل عن القرطبي . وفى أ و حـ وك و ى : بالعقاب .

ولم يَصدُقوا. وقيل : المعنى ظنّ الأمم أن الرسل قد كَذَبوا فيما وعدوا به من نصرهم. وفى رواية عن ابن عباس ؛ ظنّ الرسلُ أن الله أخلف ما وعدهم . وقيل : لم تصح هذه الرواية ؛ لأنه لا يَظنّ بالرسلُ هذا الظنّ ، ومن ظنّ هذا الظنّ لا يستحقّ النّصر ؛ فكيف قال : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ؟ ! قال القُشَيرىّ أبو نصر : ولا يبعد إن صحّت الرواية أن المراد خطر بقلوب الرسل[1] هذا من غير أن يتحققوه فى نفوسهم ؛ وفى الخبر : "إن الله تعالى تجاوز لأمّتى عما حدّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تَعمل به" . ويجوز أن يقال : قربوا من ذلك الظنّ ؛ كقولك : بلغت المنزل ، أى قربت منه . وذكر الثعلبىّ والنحاس عن ابن عباس قال : كانوا بشرا فضَعُفوا من طول البلاء ، ونسوا وظنُّوا أنّهم أخلِفوا ؛ ثم تلا : « حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ[2] » . وقال الترمذىّ الحكيم : وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعد ما وعد الله النصر ، لا من تهمة لوعد الله ، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حَدَثا[1] يَنقُض ذلك الشرط والعهد الذى عهد إليهم ؛ فكانت إذا طالت [عليهم] المدّة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه . وقال المهدوىّ عن ابن عباس : ظنّت الرُّسل أنهم قد أُخلِفُوا على ما يلحق البشر ؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى[2] » الآية . والقراءة الأولى أولى . وقرأ مجاهد وحميد — « قَدْ كَذَبوا » بفتح الكاف والذال مُخَفّفا ، على معنى : وظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كَذَبوا ، لما رأوا من تفضّل الله عزّ وجلّ فى تأخير العذاب . ويجوز أن يكون المعنى : و[لما] أيقن الرسل أن قومهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم جاء الرسلَ نصرُنا . وفى البخارىّ عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزّ وجلّ : « حَتَّى إِذَا ٱسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ » قال قلت : أَكُذِبُوا أم كُذِّبُوا ؟ قالت عائشة : كُذِّبوا . قلت : فقد ٱستيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن ؟ قالت : أَجَلْ ! لعمرى ! لقد ٱستيقنوا بذلك ؛ فقلت لها : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا » قالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل [الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، وٱستأخر عنهم النصر حتى إذا ٱستيأس الرسل[3]]

(١) من ع . وهو الصواب ، وفى غيرها البشر . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٣ فما بعد ، وص ٢٧٣ .
(٣) الزيادة من صحيح البخارى .

ممن كذّبهم من قومهم، وظنّت الرسل أن أتباعهم [قد][1] كذبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك . وفى قوله تعالى : « جَاءَهُمْ نَصْرُنَا » قولان : أحدهما — جاء الرسلَ نصرُ الله؛ قاله مجاهد . الثانى — جاء قومهم عذاب الله؛ قاله ابن عباس . ﴿ فَنُنْجِي[2] مَنْ نَشَاءُ ﴾ قيل : الأنبياء ومن آمن معهم . وروى عن عاصم « فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ » بنون واحدة مفتوحة الياء، و « مَنْ » فى موضع رفع ، آسم ما لم يسم فاعله ؛ وآختار أبو عبيد هـذه القراءة لأنهـا فى مصحف عثمان ، وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة[3] . وقرأ آبن مُحَيْصِن « فَنَجَا » فعل ماض، و « مَنْ » فى موضع رفع لأنه الفاعل ، وعلى قراءة الباقين نصبا على المفعول . ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُـنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى الكافرين المشركين .

قوله تعـالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ أى فى قصة يوسف وأبيه وإخوته، أو فى قصص الأمم . ﴿ عِبْرَةٌ ﴾ أى فكرة وتذكرة وعظة . ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى العقول . وقال محمد بن إسحاق عن الزّهرىّ عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التّيْمىّ : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا وأربعين سـنة ، وتُوفّى أخوه عِيصُو معه فى يوم واحد ، وقُبِرا فى قبر واحد ؛ فذلك قوله : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » إلى آخر السورة . ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ أى ما كان القرآن حديثا يفترى، أو ما كانت هذه القصة حديثا يفترى . ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى [ولكن[4] كان تصديق ، ويجوز الرفـع بمعنى لكن هو تصديق الذى بين يديه أى] ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ؛ وهذا تأويل من زعم أنه القرآن . ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ممـا يحتاج العباد إليه من الحـلال والحرام ، والشرائع والأحكام . ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) من ع .
(٢) قراءة نافع وكذا باقى السبعة بنونين ما عدا عاصما كما يأتى .
(٣) يعنى فى الرسم .
(٤) من ع وك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سـورة الرعـد

مكية فى قول الحسن وعِكْرِمة وعطاء وجابر، ومدنيـة فى قول الكَلْبيّ ومقاتل . وقال ابن عباس وقَتَادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة ؛ وهما قوله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » [إلى آخرهما][1] .

قوله تعالى : الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ تقدّم القول فيها . ﴿ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى وهذا القرآن ٱلذى أنزل إليك . ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ لا كما يقول المشركون : إنك تأتى به من تلقاء نفسك ؛ فاعتصم به، وٱعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . « وَالَّذِى » فى موضع رفع عطفا على « آيَاتُ » أو على الابتداء ، و « الْحَقُّ » خبره ؛ ويجوز أن يكون موضـعه جرا على تقدير : وآيات الذى أنزل إليـك ، وارتفاع « الحقّ » على هذا على إضمار مبتدأ ، تقديره : ذلك الحق ؛ كقوله تعالى : « وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقَّ »[2] يعنى ذلك الحقّ . قال الفرّاء : و إن شئت جعلت « الَّذِى » خفضا نعتا للكتاب ، و إن كانت فيـه الواو كما يقال : أتانا هـذا الكتاب عن أبى حفص والفاروق ؛ ومنه قول الشـاعر :

إلى الملِكِ القَرْمِ وٱبنِ الهُمَامِ وليثِ الكَتِيبةِ فِى المُزْدَحَمْ[3]

يريد : إلى الملك ٱلقَرْم بن الهمام ، ليثِ الكَتيبة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) الزيادة من تفسير البحر . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٦٢ فما بعد .
(٣) القرم (بفتح القاف) : السيد ؛ والكتيبة : الجيش ؛ والمزدحم : محل الازدحام .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الآية . لمّا بيّن تعالى أن القرآن حقّ ، بين أن مَن أنزله قادر على الكمال؛ فانظروا فى مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته ؛ وقد تقدّم هذا المعنى . وفى قوله : « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » قولان : أحدهما — أنها مرفوعة بغير عمد ترونها ؛ قاله قتَادة وإيّاس بن معاوية وغيرهما . الثانى — لها عمد، ولكنا لا نراه ؛ قال آبن عباس : لهـا عمد على جبل قاف ؛ ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التى يُمسِك بها السموات والأرض ، وهى غير مرئية لنـا ؛ ذكره الزجّاج . وقال آبن عباس أيضا : هى توحيـد المؤمن . أعمـدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر ؛ ذكره الغَزْنَوِىّ . والعَمَد جمع عمود ؛ قال النابغة :

وخَيِّسِ الجنّ إنى قد أَذِنْتُ لهم ... يَبْنُـونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ (١)

﴿ ثُمَّ آسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدّم الكلام فيه (٢) . ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أى ذلّلهما لمنافع خلقه ومصالح عباده؛ وكل مخلوق مُذلّل للخالق . ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا ، وقيام الساعة آلتى عندها تُكوّر الشمس ، ويُخسَف القمر ، وتنكدر النّجوم ، وتنتثر الكواكب . وقال آبن عباس : أراد بالأجل المسمّى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها لا يجاوزانها . وقيل : معنى الأجل المسمّى أن القمر يقطع فَلَكه فى شهر، والشمس فى سنة . ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أى يصرفه على ما يريد . ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ ﴾ أى يُبيّنها ؛ أى من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة ؛ ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .

(١) ويروى : وخبر الجن . وخيس : ذلل ؛ وتدمر : بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام . والصفاح حجارة عراض رقاق . وعمد : جمع عمود . (٢) راجع ج ٧ ص ٢١٩ .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ لمـا بيّن آيات السّموات بيّن آيات الأرض ؛ أى بسط الأرض طولا وعرضا . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ ﴾ أى جبالا ثوابت ؛ واحدها راسية ؛ لأن الأرض ترسو بها ، أى تثبت ؛ والإرساء الثّبوت ؛ قال عَنْتَرة :

فَصَــبَرْتُ عَارِفَةً لذلك حُــرَّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجَبَـانِ تَطَلَّعُ(١)

وقال جميل :

أُحبهُّـا والذى أَرْسَى قواعِـدَهُ * حُبًّـا إذا ظَهَـرَت آياتُه بَطَنَا

وقال ابن عباس وعطاء : أوّل جبل وُضع على الأرض أبو قُبَيس(٢) .

مســئلة — فى هــذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة ، وردّ على من زعم أن الأرض تهوِى أبوابها عليها ؛ وزعم ابن الرّاوندى أن تحت الأرض جسما صَعّادا كالرِّيح الصعّادة ؛ وهى منحدرة فاعتدل الهاوى والصعادى فى الجِرْم والقوّة فتوافقا . وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين ، أحدهما منحدر ، والآخر مصعد ، فاعتدلا ، فلذلك وقفت . والذى عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدّها ، وأن حركتها إنمـا تكون فى العادة بزلزلة تصيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَـارًا ﴾ أى مياها جارية فى الأرض ، فيهـا منافع الخلق . ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ بمعنى صنفين . قال أبو عبيدة : الزوج واحد ، ويكون اثنين . الفراء : يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى ؛ وهــذا خلاف

---

(١) قبل البيت

وعرفت أن منيتى إن تأتنى * لا ينجنى منها الفرار الأسرع

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .

النص . وقيــل : معنى « زَوْجَيْنِ » نوعان ، كالحُـلْو والحامض ، والرطب واليـابس ، والأبيض والأسـود ، والصغير والكبير . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَـآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ في الكلام حذف ، المعنى : وفي الأرض قِطع متجاورات وغير متجاورات ؛ كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »[1] والمعنى : وتقيكم البَرْد ، ثم حذف لعلم السامع . والمتجاورات المـدن وما كان عامرا ، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر .

الثـانية ــ قوله تعـالى : « مُتَجَاوِرَاتٌ » أي قُرًى متدانيات ، ترابها واحد ، وماؤها واحد ، وفيهـا زروع وجنات ، ثم تتفاوت في الثمار والتَّمر ؛ فيكون البعض حُلْوا ، والبعض حامضا ؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم ، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفي هـذا أدلّ دليل على وحدانيته وعظم صمديته ، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته ؛ فإنه نبّه سبحانه بقوله : « تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقـدور بقدرته ؛ وهـذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالمـاء والتراب والفاعل له الطبيعة لمـا وقع الاختلاف . وقيـل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البِقاع ؛ فمن تربة عذبة ، ومن تربة سبِخة مـع تجاورهما ؛ وهـذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ جلّ وعزّ تعـالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٩ فما بعد .

الثالثـــة — ذهبت الكفرة — لعنهم الله — إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع؛ وادّعوا ذلك فى الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقرّوا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض . وقالت فرقة : بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلا؛ والدليل على أن الحادث لابدّ له من مُحدِث أنه يَحدُث فى وقت، ويَحدُث ما هو من جنسه فى وقت آخر؛ فلو كان حدوثه فى وقتــه لاختصاصه به لوجب أن يَحــدُث فى وقته كل ما هو من جنسه؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل مُخَصِّص خَصَّصه به، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه فى وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ وآستيفاء هذا فى علم الكلام .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ قـرأ الحسن « وَجَنَّاتٍ » بكسر التاء، على التقدير : وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله : « وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » . ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على « كل » التقدير : ومن كل الثمرات، ومن جنات . الباقون : «جَنَّاتٌ» بالرفع على تقدير : و بينهما جنات . ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع . آبن كثير وأبو عمرو وحفص عطفا على الجنات؛ أى على تقدير : وفى الأرض زرع ونخيل . وخفضها الباقون نَسَقا على الأعناب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجَنّات؛ و يجوز أن يكون معطوفا على « كُلّ » حسب ما تقدّم فى «وجنّات» . وقرأ مجاهد والسُّلَمِيّ وغيرهما «صُنْوَانٌ» بضم الصاد، الباقون بالكسر؛ وهما لغتـان؛ وهما جمع صِنْو، وهى النَّخَلات والنَّخلتان، يجمعهن أصلٌ واحد، وتتشعب منه رءوس فتصير نخيلا؛ نظيرها قِنْوان، واحدها قِنو وروى أبو إسحاق عن البَرَاء قال : الصِّنْوان المجتمع، وغير الصِّنْوان المتفرق؛ النحاس : وكذلك هو فى اللغـــة؛ يقال للنخلة إذا كانت فيها نخـلة أخرى أو أكثر صِنْوان . والصِّنو المِثل؛ ومنه قول النبي صلى الله عليــه وسلم : "عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه" . ولا فرق فيها بين التّثنية والجمع، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التّثنية؛ قال الشاعر :

العِـلمُ والحِلمُ خُلَّتَا كَـرَمٍ * للمرءِ زَيْنٌ إذا هُمَا آجتَمَعَا
صِنْوانِ لا يُستَتَمّ حُسنُهُمَا * إلّا بجمـعِ ذا وذاكَ مَعَـا

الخامســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ كصالح بنى آدم وخبيثهم ، أبوهم واحد؛ قاله النحاس والبخاري . وقرأ عاصم وابن عامر : «يُسْقَىٰ» بالياء، أى يُسقى ذلك كله . وقرأ الباقون بالتـاء، لقوله : « جَنَّاتٌ » واختاره أبو حاتم وأبو عبيـدة ؛ قال أبو عمرو : والتأنيث أحسن، لقوله : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ ولم يقـل بعضه . وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما « وَيُفَضِّلُ » بالياء ردًا على قوله : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » و « يُفَصِّلُ » و « يُغْشِي » الباقون بالنون على معنى : ونحن نفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعلي رضى الله عنه : " الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة " ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » حتى بلغ قوله : « يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ » و « الْأُكُلِ » الثمر . قال ابن عباس : يعنى الحلو والحامض والفارسي[1] والدقل[2] . وروى مرفوعا من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى قوله تعالى : «وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ» قال : " الفارسى والدَّقَل والحُلْو والحامض " ذكره الثعلبي . قال الحسن : المراد بهذه الآية المثل ؛ ضربه الله تعـالى لبنى آدم ، أصلهم واحد ، وهم مختلفون فى الخير والشر والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التى تسقى بماء واحد؛ ومنه قول الشاعر :

الناسُ كالنَّبتِ والنَّبْتُ ألوانٌ ＊ منها شجر الصَّندلِ والكافورِ والبانِ

＊ ومنها شجر يَنضحُ طول الدّهرِ قطران ＊

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى لعـلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعـالى : وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

(١) التمر الفارسى : نوع جيد نسبة إلى فارس .
(٢) الدقل : ردىء التمر .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ؛ والله تعالى لا يتعجّب ، ولا يجوز عليه التعجب ؛ لأنه تغيُّر النفس بما تخفى أسبابه[(1)] ، و إنما ذَكَرَ ذلك ليتعجّب منه نبيُّه والمؤمنون . وقيـل المعنى : أى إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مـع إقرارهم بأنى خالق السموات والأرض والثمـار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق ؛ لأن الإعادة فى معنى الابتداء . وقيل : الآية فى منكرى الصانع ؛ أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لابدّ له من مغيّر فهو محل التعجّب ؛ ونظم الآية يدلّ على الأوّل والثانى ؛ لقـوله : ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ أى أنبعث إذا كنا ترابا ؟ ! . ﴿ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقرئ « إِنَّا » . وَ﴿ الْأَغْلَالُ ﴾ جمع غلّ ؛ وهو طَوْق تشد به اليد إلى العنُق ، أى يُغلّون يوم القيامة ؛ بدليل قوله : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ[(2)] » إلى قوله : « ثُمَّ فِى النَّـارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم .

قوله تعـالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَـدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَـٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْـهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَـادٍ ﴿٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْـلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العـذاب ؛ قيل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ[(3)] » . قال قتادة : طلبوا العقوبة قبل العافية ؛ وقـد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هـذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيـل : « قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى قبل الإيمـان الذى يرجى به الأمان والحسنات . و﴿ الْمَثُـلَاتُ ﴾ العقوبات ، الواحدة مَثُـلَة . ورُوى عن الأعمش أنه قرأ « الْمُثْـلَات » بضم الميم وإسكان الثـاء ؛ وهذا جمع مُثْـلَة ، و يجوز

(١) فى حـ الجمل عن القرطبي : العجب تغير النفس بما تخفى أسبابه وذلك فى حق الله تعالى محال .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٢ . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ .

« المَثُلات » تبـدل من الضمة فتحة لثقلها ، وقيـل : يُؤْتى بالفتحة عِوضا من الهـاء . وروى عن ٱلأعمش أنه قرأ « ٱلمَثْلات » بفتح الميم وإسكان الثاء؛ فهذا جمع مُثْلة، ثم حَذف الضمة لثقلها؛ ذكره جميعه النحاس رحمـه الله . وعلى قراءة الجماعة واحده مَثُلة، نحو صَدُقة [وصُدُقة](١)؛ وتميم تضم الثاء والميم جميعا، واحدها على لغتهم مُثْلة، بضم الميم وجزم الثاء، مثل : غُرْفة وغُرُفات ؛ والفعل منه مَثَلْتُ به أَمْثُل مَثْلا، بفتح الميم وسكون الثاء . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِـرَةٍ ﴾ أى لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنـوا ، وعن المذنبـين إذا تابوا . وقال ٱبن عباس : أرجى آية فى كتاب الله تعالى « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِـمْ » . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ إذا أصرّوا على الكفر . ورَوى حمّاد بن سَلَمَة عن علىّ بن زيد عن سعيد بن المسيّب قال : لمـا نزلت : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لمـا هَنَأَ أحدا عيشٌ ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتّكل كل أحد “ .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْـهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . لمـا ٱقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّمَـا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ أى مُعْلِم . ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أى نبىّ يدعوهم إلى الله . وقيـل : الهادى الله ؛ أى عليك الإنذار، والله هادى كل قوم إن أراد هدايتهم .

قوله تعـالى : ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

فيـه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ﴾ أى من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح ؛ وقد تقدّم فى سـورة « الأنعام »(٢) أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده

(١) من ا . (٢) راجع جـ ٧ ص ١ فما بعد .

لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخارى عن آبن عمر أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مفاتيح الغيب خمس " الحديث . وفيــه " لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله " .
وآختلف العلمـاء فى تأويل قوله : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ فقـال قَتَادة : المعنى ما تُسقِط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة؛ وكذلك قال آبن عباس . وقال مجاهد : إذا حاضت آلمرأة فى حملها كان ذلك نقصانا فى ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تماما لمـا نقص؛ وعنه : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداد منه . وقيل : الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد ، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها . وقيل : الغيض آنقطاع دم الحيض . « وَمَا تَزْدَادُ » بدم النفاس بعد الوضع .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعى فى أحد قوليه . وقال عطاء والشعبي وغيرهما : لا تحيض؛ وبه قال أبو حنيفة؛ ودليله الآية . قال ابن عبـاس فى تأويلها : إنه حيض الحبالى ، وكذلك روى عن عِكْرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة ، وأنهـا كانت تفتى النساء الحوامل إذا حِضْن أن يتركن الصـلاة ؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون ، ولم ينكر منهم أحد عليهـا ، فصار كالإجماع ؛ قاله ابن القصّار[1] . وذكر أن رجلين تنازعا ولدا، فترافعا الى عمر رضى الله عنه فعرضه على القَافَة ، فألحقه القَافَة بهما ، فعلَاه عمر بالدرة، وسأل نِسوة من قريش فقال : آنظُرْن ما شأن هذا الولد؟ فقلن : إن الأول خلا بها وخلّاها ، فحاضت على الحمل، فظنّت أن عِدّتها انقضت ؛ فدخل بها الثانى، فانتعش الولد بمـاء الثانى؛ فقال عمر : الله أكبر ! وألحقه بالأول ، ولم يقل إن الحامل لا تحيض ، ولا قال ذلك أحد من الصحابة؛ فدلّ أنه إجماع، والله أعلم . احتجّ المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضا لمـا صَحّ استبراء الأمة بحيض؛ وهو إجماع . وروى عن مالك فى كتاب محمد ما يقتضى أنه ليس بحيض .

الثالثــة — فى هــذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر .

(١) فى الطبعة الأولى : قاله ابن عباس قال ابن القصار . وليست عبارة الأصول كذلك لهذا حذفناها .

الرابعـــة — وهذه الســـتة الأشهر هي بالأهلّة كسائر أشهر الشريعة ؛ ولذلك قد روى في المذهب عن بعض أصحاب مالك ، وأظنـه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها ؛ حكاه ابن عطية .

الخـامسة — وآختلف العلمـاء في أكثر الحمل ؛ فروى ابن جُرَيج عن جَمِيلة بنت سعد عن عائشـة قالت : لا يكون الحمـل أكثر من سنتين قدر ما يتحوّل ظِل المِغـزَل ؛ ذكره الدَّارَقُطْنِي . وقالت جَميلة بنت سعد — أخت عبيد بن سعد ، وعن الليث بن سعد — : إن أكثره ثلاث سنين . وعن الشافعي أربع سنين ؛ وروى عن مالك في إحدى روايتيه ، والمشهور عنه خمس سنين ؛ وروى عنه لا حدّ له ، ولو زاد على العشرة الأعوام ؛ وهي الرواية الثالثة عنه . وعن الزّهري ست وسبع . قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع ؛ والشافعي : مُدّة الغاية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : سنتان لا غير . ومحمد بن عبد الحكم يقول : سنة لا أكثر . وداود يقول : تسعة أشهر ، لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر : وهذه مسئلة لا أصل لهـا إلا الاجتهاد ، والرّد إلى ما عُرف من أمر النّساء و بالله التوفيق .

رَوى الدَّارَقُطْنِيّ عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمـالك بن أنس إني حدّثت عن عائشة أنها قالت : لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قَدر ظلّ المِغْزَل ، فقال : سبحان الله ! مَن يقول هذا؟ ! هذه جارتنا آمرأة محمد بن عَجْلان ، تحمل وتضع في أربع سنين ، آمرأة صدق ، وزوجها رجل صدق ؛ حملت ثلاثة أبطن في آثنتي عشرة سنة ، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره عن المبارك[1] ابنُ مجاهد قال : مشهور عندنا كانت آمرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سـنين ، وكانت تسمى حاملة الفيل . وروى أيضا قال : بينما مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقـال : يا أبا يحيى ! آدع لآمرأة حبلى منـذ أربع سنين قـد أصبحت في كرب شـديد ؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القـوم إلا أنّا أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هـذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنهـا الساعة ، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها [بها][1] غلاما ، فإنك تَمْحُو ماتشاء وتُثْبِت ، وعندك

(١) من أ . وفي و : ابن المبارك .

أم الكتاب، ورفع مالك يده، ورفع الناس أيديهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال : أدرك آمرأتك، فذهب الرجل؛ فما حطّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جَعْد قَطَط[1]، آبن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ما قُطعت سراره[2]؛ ورُوى أيضا أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إنى غبت عن آمرأتى سنتين فجئت وهى حبلى؛ فشاور عمر الناس فى رجمها، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما فى بطنها سبيل؛ فاتركها حتى تضع، فتركها، فوضعت غلاما قد خرجت ثنيتاه؛ فعرف الرجل الشبه فقال : ابنى وربّ الكعبة ! ؛ فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ؛ لولا معاذ لهلك عمر. وقال الضحّاك : وضعتنى أمى وقد حملت بى فى بطنها سنتين ، فولدتنى وقد خرجت سِنّى . ويذكر عن مالك أنه حمل به فى بطن أُمه سنتين، وقيل : ثلاث سنين . ويقال : إن محمد بن عجلان مكث فى بطن أُمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا، فشُقّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه . وقال حمّاد آبن سلمة : إنما سمى هَرِم بن حيان هَرِما لأنه بقى فى بطن أُمه أربع سنين. وذكر الغَزْنَوى أن الضحّاك وُلد لسنتين، وقد طلعت سِنّه فسُمّى ضحّاكا . عبّاد بن العوام : ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه، فمرّ به طير فقال : كش .

السادســة — قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد؛ لأن علم ذلك استأثر الله به ، فلا يجوز أن يحكم فى شيء منه إلا بقَدْرِ ما أظهره لنا، ووُجد ظاهرا فى النساء نادرا أو معتادا؛ ولمّا وجدنا آمرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك ، والنفاس والحيض لمّا لم نجد فيه أمرا مستقرا رجعنا فيه إلى ما يوجد فى النادر منهنّ[3] .

السابعـــة — قال ابن العربى : نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر؛ وهذا ما لم ينطق به قطّ إلا هالكىّ، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبّر الحمل

(١) جعد قطط : شديد الجعودة . (٢) سرر الصبى : ما تقطعه القابلة .

(٣) قال محققه : ورد فى الحديث أقل الحيض وأكثره ؛ روى الطبرانى عن أبى أمامة عنه صلى الله عليه وسلم "أقل الحيض ثلاث وأكثره عشرة" ورواه الربيع بن حبيب فى مسنده عن أنس .

فى الرَّحِم الكواكب السبعة، تأخذه شهرا شهرا، و يكون الشهر الرابع منهـا للشمس، ولذلك يتحرّك و يضطرب، و إذا تكامل التداول فى السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد فى الشهر الثامن إلى زُحل، فيُبْقِله بِبَرْده ؛ فياليتنى تمكنت من مناظرتهم أو مقاتلتهم ! مابال المرجع بعد تمـام الدّور يكون إلى زُحل دون غيره ؟ آلله أخبركم بهـذا أم على الله تفترون ؟ ! و إذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا ؟ ! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة ! .

الثامنـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ يعنى من النقصان والزيادة . و يقال : « بمقدار » قدر خروج الولد من بطن أمّه، وقَدْر مكثه فى بطنها إلى خروجه . وقال قَتَادة : فى الرزق والأجل . والمقدار القَدْر، وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم .

قلت : هذه الآية تمدّح الله سبحانه وتعالى بها بأنه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى هو عالم بما غاب عن الخلق ، و بمـا شهِدوه . فالغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى الشاهد ؛ فنبّه سـبحانه على آنفراده بعلم الغيب ، والإحاطة بالباطن الذى يخفى على الخلق ، فلا يجوز أن يشاركه فى ذلك أحد، فأما أهل الطبّ الذين يستدلّون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، و إن قالوا إنها تجربة تُرِكوا وماهم عليه، ولم يَقدَح ذلك فى الممدوح ؛ فإن العـادة يجوز آنكسارها، والعـلم لا يجوز تبـدّله . و﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذى كل شيء دونه . ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ عما يقول المشركون ، المستعلى على كل شيء بقدرته وقهره ؛ وقد ذكرناهما فى شرح الأسماء مستوفى ، والحمد لله .

قوله تعـالى : سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ من أَسَرَّ الْقَوْلَ ومَنْ جهر بِهِ ﴾ إسرار القول : ما حدّث به المرءُ نفسه ، والجهر ما حدّث به غيره ؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر. و «مِنْكُمْ» يحتمل أن يكون وصفا لـ «سواء» التقدير: سِرُّ مَن أَسَرَّ وجَهْرُ مَن جَهَر سواء منكم؛ ويجوز أن يتعلق «بسواء» على معنى: يستوى منكم، كقولك: مررت بزيد. ويجوز أن يكون على تقدير: سِرُّ من أَسَرَّ منكم وجَهْرُ من جَهَر منكم. ويجوز أن يكون التقدير: ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، كما تقول: عدل زيد وعمرو أى ذوا عدلٍ. وقيل: «سواء» أى مستوٍ، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أى يستوى فى علم الله السرّ والجهر، والظاهر فى الطرقات، والمستخفى فى الظلمات. وقال الأخفش وقُطْرُب: المستخفى بالليل الظاهر؛ ومنه خَفَيْتُ الشيء وأَخْفَيته أى أظهرتُه؛ وأخفيت الشيء أى آستخرجته؛ ومنه قيل للنبَّاش: المختفى. وقال آمرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِن أَنْفَاقِهِنّ(١) كَأَنَّمَا * خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِىٍّ مُجَلِّبِ

والسّارب المتوارى، أى الداخل سَرَبا؛ ومنه قولهم: آنْسَرَب الوحشىُّ إذا دخل فى كِنَاسه. وقال ابن عباس: «مُسْتَخْفٍ» مستتر، «وَسَارِبٌ» ظاهر. مجاهد: «مُسْتَخْفٍ» بالمعاصى، «وَسَارِبٌ» ظـاهر. وقيل: معنى «سَارِبٌ» ذاهب؛ [قال](٢) الكسائى: سَرَبَ يَسْرُبُ سَرْبا وسُرُوبًا إذا ذهب؛ وقال الشاعر(٣):

وكُلُّ أناسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ * ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ

أى ذاهب. وقال أبو رجاء: السّارب الذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشاعر(٤):

* أَنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقال القُتَبىّ: «سَارِبٌ بِالنَّهَارِ» أى منصرف فى حوائجه بسرعة؛ من قولهم: آنْسَرَب الماء. وقال الأصمعىّ: خَلِّ سِرْبَه أى طريقه.

---

(١) أنفاق (جمع نفق): وهو سرب فى الأرض إلى موضع آخر، واستعاره امرؤ القيس لجحرة الفئرة والودق: المطر. وغيث مجلب: مصوّت، ويروى مخلب (بالخاء). (٢) من أ و ح و و. (٣) هو الأخنس ابن شهاب التغلبى ويريد أن الناس أقاموا فى موضع واحد لا يجترئون على النقلة، وحبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعه إبلهم خوفا أن يغار عليها، ونحن أعزاء خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاء. (٤) هو قيس بن الخطيم، وتمام البيت: * وتقرب الأحلام غير قريب *

قوله تعالى : لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١)

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ أى لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . وقال : « مُعَقِّبَاتٌ » والملائكة ذُكْران لأنه جمع مُعَقِّبة ؛ يقال : مَلَك مُعقِّب ، وملائكة مُعقِّبة ، ثم مُعَقِّبات جمع الجمع . وقرأ بعضهم — « لَهُ مَعَاقِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » . ومعاقيب جمع مُعْقِب[1] ؛ وقيل للملائكة معقبة على لفظ الملائكة . وقيل : أنّث لكثرة ذلك منهم ؛ نحو نسّابة وعلّامة وراوية ؛ قاله الجوهرى وغيره . والتّعقب العود بعد البدء ؛ قال الله تعالى : « وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ[2] » أى لم يرجع ؛ وفى الحديث[3] : " مُعَقِّباتٌ لا يَخِيبُ قائِلُهنّ — أو — فاعِلُهنّ " فذكر التسبيح والتحميد والتكبير . قال أبو الهيثم : سُمّين « مُعقِّبات » لأنهن عادت مرّة بعد مرّة ، فِعْل من عَمِل عملًا ثم عاد إليه فقد عَقّب . والمعقّبات من الإبل اللواتى يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض ؛ فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى . وقوله : ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى المستخفى بالليل والسارب بالنهار . ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ اختلف فى [هذا[4]] الحفظ ؛ فقيل : يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرّة ، لطفا منه به ، فإذا جاء القَدَر خلّوا بينه وبينه ؛ قاله ابن عباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما . قال أبو مِجلَز : جاء رجل من مُراد[5] إلى على فقال : احترس فإن ناسا من مُراد يريدون قتلك ؛ فقال : إن مع كل

---

(١) قال الزمخشرى : جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيهما ، والياء عوض من حذف إحدى القافين فى التكسير . وقال ابن جنى : إنه تكسير معقب كمطعم ومطاعيم ، كأنه جمع على معاقبة ، ثم حذفت الهاء من الجمع وعوضت الياء عنها ؛ قال الألوسى : ولعله الأظهر . « روح المعانى » . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٦٠ .
(٣) الحديث فى الدعاء وهو بتمامه فى « صحيح مسلم » : "معقبات لا يخيب قائلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة" . سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة ، أو لأنها تقال عقب كل صلاة . (٤) من أ و ح و و . (٥) مراد (بالضم وآخره دال مهملة) : قبيلة من قبائل العرب سميت باسم أبيها .

رجل مَلَكين يحفظانه مالم يُقدّر، فإذا جاء القَدَر خَلّيا بينه و بين قَدَر الله ، و إن الأجل حِصن حصينة ؛ وعلى هذا، « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ » أى بأمر الله و بإذنه ؛ فـ « مِن » بمعنى الباء ؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض . وقيل : « مِنْ » بمعنى « عن » ؛ أى يحفظونه عن أمر الله ، وهذا قريب من الأول؛ أى حفظهم عن أمر الله لامن عند أنفسهم ؛ وهذا قول الحسن ؛ تقول : كسوته عن عُرْى ومن عُرْى ؛ ومنـه قوله عز وجل : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ »(١) أى عن جوع . وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لاتحلّ به عقوبة ؛ لأن الله لايغير ما بقوم من النّعمة والعافية حتى يُغيّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإن أصرّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النّقمة، وتزول عنهم الحَفَظة المعقبات . وقيل : يحفظونه من الجنّ ؛ قال كعب : لولا أن الله وَكّل بكم ملائكة يَذُبّون عنكم فى مَطْعَمكم وَمَشْرَبكم وعوراتكم لتخطّفتكم الجنّ . وملائكة العذاب من أمر الله ؛ وخصّهم بأن قال : « مِنْ أَمْرِ اللهِ » لأنهـم غير معاينين ؛ كما قال : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى »(٢) أى ليس ممـا تشاهدونه أنتم . وقال الفرّاء : فى الكلام تقديم وتأخير، تقديره ، له معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفـه يحفظونه ؛ وهـو مروىّ عن مجاهـد وآبن جُرَيج والنّخعىّ ؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجنّ من أمر الله لاتقديم فيه ولا تأخير . وقال آبن جريج : إن المعنى يحفظون عليه عمله ، فحذف المضاف . وقال قتادة : يكتبون أقواله وأفعاله . ويجوز إذا كانت المعقّبات الملائكة أن تكون الهاء فى « له » لله عز وجل ، كما ذكرنا ؛ ويجوز أن تكون للمستخفى ، فهذا قول . وقيل : « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » يعنى به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى أن الملائكة تحفظه من أعدائه ؛ وقد جرى ذكر الرسول فى قوله : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » أى سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به فى أنه لا يضرّ النبي صلى الله عليه وسلم ، بل له معقبات يحفظونه عليه السلام ؛ و يجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل ؛ لأنه قد قال : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » أى يحفظون الهادى من بين يديه ومن خلفه . وقول رابع — أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٠٩ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٣ .

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعِكْرِمة ؛ وكذلك قال الضّحاك : هو السّلطان المتحرّس من أمر الله، المشرِكُ . وقد قيل : إن في الكلام على هذا التأويل نفيا محذوفا، تقديره : لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره المـاوردىّ . قال المهدوىّ : ومن جعل المعقّبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه . وقيل : سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حرّاس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصى ، و يحفظونه من أن ينجع فيه وعظ ؛ قال القُشَيرِىّ : وهذا لا يمنع الربّ من الإمهال إلى أن يحقّ العذاب ؛ وهو إذا غيّر هـذا العاصى ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للعقوبة ؛ فكأنّه الذى يحلّ العقوبة بنفسه ؛ فقوله : « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى من آمتثال أمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد : المعقّبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه فى عباده ؛ قال المـاوردىّ : ومن قال بهذا القول ففى تأويل قوله : « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » وجهان : أحدهمـا — يحفظونه من الموت مالم يأت أجل ؛ قاله الضحاك . الثـانى — يحفظونه من الجنّ والهوام المؤذية ، ما لم يأت قَدَرٌ ؛ — قاله أبو أمامة وكعب الأحبار — فإذا جاء المقدور خلّوا عنه ؛ والصحيح أن المعقّبات الملائكة ، و به قال الحسن ومجاهـد وقتادة وآبن جريج ؛ ورُوى عن ابن عباس ، واختاره النحاس ، وآحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم : "يتعاقبون[1] فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار" الحديثَ ، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرأ — « معقّبات من بين يديه ورقباء من خلفه [من أمر الله][2] يحفظونه » فهذا قد بيّن المعنى . وقال كِنَانة العَدَوىّ : دخل عثمان رضى الله تعالى عنـه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسـول الله ! أخبرنى عن العبد كم معه من مَلَك ؟ قال : " مَلَك عن يمينك يكتب الحسـنات وآخر عن الشمال يكتب السـيئات والذى على اليمين أمير على الذى على الشمال فإذا عَملت حسـنة كُتبت عشرا و إذا عملت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين أأكتب قال لا لعـله يستغفر الله تعالى أو يتوب إليه فإذا قال ثلاثا قال نعم آكتب أراحنا الله تعالى منه

(١) الحديث فى ابن عطيـة : " يتعاقب فيكم ملائكة " والبحث فى رواية القرطبى سـندا ومتنا فى العسقلانى ج ٢ ص ٢٨ .
(٢) الزيادة من تفسير الطبرى .

فبئس القــرين هو ما أقلّ مراقبتــه لله عز وجل وأقل ٱستحياءه منا يقــول الله تعـالى «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ»(١) وملَكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» [وملَك قابض على ناصيتك فإذا تواضعتَ لله رفعــك و إذا تجبّرتَ على الله قصمكَ](٢) وملَكان على شَفَتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملَك قائم على فِيك لا يدع أن تدخل الحية فى فِيك وملَكان على عينيك فهــؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى يتــداولون ملائكة الليل على ملائكة النهــار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون مَلَكًا على كل آدمى و إبليس مع ٱبن آدم بالنهار وولده بالليل ” . ذكره الثعلبيّ . قال الحسن : المعقّبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر . وٱختيار الطّبرىّ : أن المعقّبات المواكب بين أيدى الأمراء وخَلْفهم ؛ والهاء فى « له » لهنّ ؛ على ما تقدّم . وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين : أحدهما — قضى حلوله ووقوعه بصاحبه ؛ فذلك لا يدفعــه أحد ولا يغيره . والآخر — قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه ، بل قضى صرفه بالتــو بة والدعاء والصدقة والحفــظ .

قوله تعــالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه لا يغــيرّ ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم ، أو ممن هو منهم بسبب ؛ كما غيرّ الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغيير الرّماة بأنفسهم ، إلى غير هــذا من أمثلة الشّريعة ؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير ؛ كما قال صلى الله عليه وســلم — وقد سُئل أَنَهلِك وفينا الصّالحون ؟ قال — ” نعم إذا كَثُر الخُبْثُ(٣) ” . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أى هلاكا وعذابا ، ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ . وقيل : إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه . وقيل : إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١ .
(٢) الزيادة من تفسير الطبرى وغيره .
(٣) المراد بالخبث الفسق والفجور .

أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يبحث أحدهم عن حتفة بكفه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ أى ملجأ ؛ وهو معنى قول السُّدى . وقيل : من ناصر يمنعهم من عذابه ؛ وقال الشاعر :

* ما فى السماء سوى الرحمنِ من وَالِ *

ووَالٍ ووَلِىّ كقادر وقدير .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أى بالمطر . « والسَّحاب » جمع ، والواحدة سَحابة ، وسُحُب وسَحائب فى الجمع أيضا . ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ قد مضى فى « البقرة »(١) القول فى الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ؛ وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛ أى يريكم البرق فى السماء خوفا للمسافر ، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق ؛ قال الله تعـالى : « أَذًى مِنْ مَطَرٍ »(٢) وطمعا للحاضر أن يكون عقبه مطر وخِصْب ؛ قال معناه قَتَادة ومجاهد وغيرهما . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق ، وطمعا فى غيثه المزيل للقحط . « وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » قال مجاهد : أى بالمـاء . « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » من قال إن الرعد صوت السحاب فيجوز أن يُسبِّح الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرعد ملكا لدخل فى جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك قال : معنى . « مِنْ خِيفَتِهِ » من خيفة الله ؛ قاله الطَّبَرِىّ وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٧٢ .

خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم ؛ لا يعـرف واحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره ، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب ؛ وعنه قال : الرّعد ملَك يَسوق السّحاب ، و إن بخار الماء لفى نُقْرة إبهامه ، وأنه مُوَكَّل بالسّحاب يصرفه حيث يؤمر ، وأنه يسبّح الله ؛ فإذا سبّح الرّعد لم يبق مَلَك فى السّماء إلا رفع صوته بالتّسبيح ، فعندها ينزل القَطْر ، وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الرّعد قال : سبحان الذى سَبَّحتَ له . وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صـوت الرّعد قال : سبحان الذى يُسَبِّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته ، ثم يقول : إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد . وقيل : إنه مَلَك جالس على كرسىّ بين السماء والأرض ، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك ، وعن يساره مثل ذلك ؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح سبّح الجميع من خوف الله ، و إذا أقبل على يساره وسَبّح سَبَّح الجميع من خوف الله .

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر المـاوردىّ عن ابن عباس وعلىّ بن أبى طالب ومجاهـد : نزلت فى يهودىّ قال للنبيّ صلى الله عليـه وسلم : أخبرنى ! مِن أىّ شئ ربّك ، أمِن لؤلؤ أم من ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأحرقته . وقيـل : نزلت فى بعض كفّار العرب ؛ قال الحسن : كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي صلى الله عليه وسلم نَفَرا يدعونه إلى الله ورســوله والإسلام فقال لهم : أخبرونى عن ربّ محمد ما هو ، ومِمّ هو ، أمِن فضة أم من حديد أم نحاس ؟ فاسـتعظم القوم مقالته ؛ فقال : أُجيبُ محمدا إلى ربّ لا يعـرفه ! فبعث النبي صلى الله عليـه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هـذا ؛ فبينـا النَّفَر ينازعونه و يدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم ، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة ، فأحرقت الكافر وهم جلوس ؛ فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : احترق صاحبكم ، فقـالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » . ذكره الثعلبي عن الحسن ؛ والقشيرى بمعناه عن أنس ، وسيأتى . وقيـل : نزلت الآية فى أربد بن ربيعة أخى لَبيد بن ربيعة ، وفى عامر بن الطُّفَيْل ؛ قال ابن عباس : أقبـل عامر بن الطُّفَيْل وأَرْبَد بن ربيعة

العامريان يريدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد جالس فى نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور، وكان من أجمل الناس؛ فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يارسول الله عامر بن الطُّفَيْل قد أقبل نحوك؛ فقال: "دَعْه فإن يُرِد الله به خيرا يَهْدِه" فأقبل حتى قام عليه فقال؛ يا محمد مالى إن أسلمت ؟ فقال: " لك ما للسلمين وعليك ما على المسلمين " . قال : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟ قال : " ليس ذاك إلى- إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء " . قال : أفتجعلنى على الوَبَر وأنت على المَدَر؟ قال : " لا " . قال : فما تجعل لى ؟ قال : " أجعل لك أَعِنّة الخيل تغزوا عليها فى سبيل الله " . قال : أو ليس لى أعنّة الخيل اليوم ؟ قم معى أكلمك؛ فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عامر أومأ إلى أَرْبَد : إذا رأيتنى أكلمه فدُرْ من خلفه وآضر به بالسيف ؛ فجعل يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم ويراجعه؛ فاخترط أَرْبَد من سيفه شبرا ثم حبسه الله، فلم يقدر على سَلّه ، ويَبِست يده على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقة فى يوم صائف صاحٍ فأحرقته، وولّى عامر هاربا وقال: يا محمد ! دعوت ربك على أربد حتى قتلته؛ والله لأملأنها عليك خيلا جُرْدا، وفتيانا مُرْدا؛ فقال عليه السلام: " يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة " يعنى الأوْس والخَزْرَج؛ فنزل عامر بيت آمرأة سَلُولية؛ وأصبح وهو يقول : والله لئن أَصْحَرَ[1] لى محمدٌ وصاحبه ـــ يريد مَلَك الموت ـــ لأنفذنّهما برمحى ؛ فأرسل الله مَلَكا فلطمه بجناحه فأذراه[2] فى التراب ؛ وخرجت على ركبته غُدّة عظيمة فى الوقت ؛ فعاد إلى بيت السّلولية وهو يقول : غُدّة كغدة البعير، وموت فى بيت سَلُولية ؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره . ورَثَى لَبِيد بن ربيعة أخاه أَرْبَد فقال :

يا عينُ هلّا بَكَيْتِ أَرْبَد إذْ قُمْـ * ـنَا وقَامَ الخُصُـــوم فى كَبَـد[3]
أَخْشَى على أَرْبَد الحُتُوفَ وَلَا * أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ وَالأَسَـد
فجَّعَنِي الرَّعْدُ والصَّـوَاعِقُ بالفا * رِسِ يَـوْمَ الْكَرِيهَـةِ النَّـجِدِ[4]

---

(١) أصحر الرجل : إذا خرج إلى الصحراء .
(٢) أذراه : قلعه ورمى به .
(٣) كبد : شـدة وعناء .
(٤) النجد : السريع الإجابة .

وفيـــه قال :

إن الرزيّة لا رزيّة مثلهـا * فقدان كلّ أخٍ كضوء الكوكب
يا أَرْبَدَ الخيرِ الكريمَ جُدُودُه * أفردتَني أمشى بقَـرْنٍ أعضبِ (١)

وأسلم لبيد بعد ذلك رضى الله عنه .

مسئلة — روى أَبَان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تأخذ الصاعقة ذاكرًا لله عزّ وجلّ " . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسـلم إذا سمع صوت الرعد يقول : " سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خِيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعلىّ ديتـه (٢) " . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس عن أبيـه عن جده قال : كنا مع عمر فى سفر فأصابنا رعد وبرد ، فقال لنـا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرّعد بحمده والملائكة من خِيفته ثلاثا عوفى ممـا يكون فى ذلك الرعد ؛ ففعلنا فعوفينا ؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإذا بَرَدَة (٣) قد أصابت أنفـه فأثّرت به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال بَرَدَة أصابت أنفى فأثرت ، فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنـا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عُوفى ممـا يكون فى ذلك الرعد ؛ فقلنا فعوفينا ؛ فقال عمر : أفلا قلتم لنـا حتى نقولها ؟ وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة (٤) » .

قوله تعـالى : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللّهِ ﴾ يعنى جدال اليهودىّ حين سأل عن الله تعالى : من أىّ شىء هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جُرَيج : جدال أَرْبَد فيما همّ به من قتل النبي صلى الله عليه وسلم . و يجوز أن يكون ، «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللّهِ » حالا ، و يجوز أن يكون منقطعا . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل ، فقال لرسول الله : أخبرنى عن إلهـك هذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحـاس ؟

---

(١) قرن أعضب : مكسور . (٢) فى العبارة سقط والذى فى تفسير البغوى : عن ابن عباس : من سمع صوت الرعد فقال . الحديث ثم قال : فإن أصابته صاعقة فعلى ديته . مححقه .

(٣) البرد (بالتحريك) : حب الغمام . (٤) راجع جـ ١ ص ٢١٦ فما بعد .

فاستعظم ذلك؛ فرجع إليه فأعلمه؛ فقال: "ارجع إليه فادعه" فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ». ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن الأعرابي: «المحال» المكر، والمكر من الله عزّ وجلّ التدبير بالحق. النحاس: المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» أي النقمة. وقال الأزهري: «المحال» أي القوة والشدّة. والمَحْل: الشدّة؛ الميم أصلية، وماحَلْتُ فلانا مِحَالًا أي قاويته حتى يتبين أينا أشدّ. وقال أبو عبيد: «المحال» العقوبة والمكروه. وقال ابن عَرَفة: «المحال» الجدال؛ يقال: ماحَلَ عن أمره أي جادل. وقال القُتَبِيّ: أي شديد الكيد؛ وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان؛ وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛ بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعال أوّله ميم مكسورة فهي أصلية؛ مثل: مِهاد ومِلاك ومِراس، وغير ذلك من الحروف. ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو مثل: مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر، وغيرها من الحروف[1]؛ وقال[2]: وقرأ الأعرج — «وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ» بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول؛ ذكر هذا كله أبو عبيد الهَرَوِيّ، إلا ما ذكرناه أوّلا عن ابن الأعرابيّ؛ وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها — شديد العداوة، قاله ابن عباس. وثانيها — شديد الحَوْل، قاله ابن عباس أيضا. وثالثها — شديد الأخذ، قاله عليّ بن أبي طالب. ورابعها — شديد الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها — شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها — شديد الغضب، قاله وهب بن مُنَبِّه. وسابعها — شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط؛ قاله الحسن أيضا. وثامنها — شديد الحيلة؛ قاله قَتَادة. وقال أبو عبيدة مَعْمَر: المحال والمماحلة المماكرة والمغالبة؛ وأنشد للأعشى:

فرع نَبْعٍ يهتزّ في غُصُنِ المجْـ * ـدِ كثير النَّدَى شديد المحال

(١) أي والياء في ذوات الياء كالمعير والمزيل . كما في اللسان .

(٢) أي الأزهري كما في اللسان مادة «محل» .

وقال آخر[1] :

وَلَبْسٍ بَيْنَ أقوامٍ فكُلٌّ * أَعَدَّ له الشَّغَازِبَ والمِحَالَا

وقال عبد المطلب :

لاهُمَّ إنّ المَرْءَ يَمْـ * ـنَعُ رَحْلَهُ فامْنَعْ حِلَالَك[2]

لا يَغْلِبَنّ صَلِيبُهُم وَمِحَا * لُهُمْ عَدْوًا مِحَالَك

قوله تعالى : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ﴾ أى لله دعوة الصدق . قال ابن عباس وقَتَادة وغيرهما : لا إله إلا الله . وقال الحسن: إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوة الحق. وقيل : إن الإخلاص فى الدعاء هو دعوة الحق ؛ قاله بعض المتأخرين . وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ؛ فإنه لايدعى فيه إلا إياه ، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ »[2] ؛ قال المَاوَرْدِىّ : وهو أشبه بسياق الآية ؛ لأنه قال : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾[3] يعنى الأصنام والأوثان. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىْءٍ﴾ أى لايستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء . ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلا ليأسهم من الإجابة لدعائهم ؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مَثَلا بالقابض الماء باليد ؛ قال :

فأصبحتُ فيما كان بَيْنِى وبينها * من الودّ مثلَ القابضِ الماء باليدِ

---

(١) هو ذو الرّمة ، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبى بردة بن أبى موسى . واللبس : الاختلاط . والشغازب ، قال الأصمعى : الشغزبية ضرب من الحيلة فى الصراع ؛ وهو أن يدخل الرجل بين رجلى صاحبه فيصرعه ؛ والمعنى : فكل رجل من القوم أعد له حجة وكيدا .

(٢) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون ؛ يريد بهم سكان الحرم . ويروى : غدوا : الغدو أصل الغدو وهو اليوم الذى يأتى بعد يومك فحذفت لامه . اللسان . ويروى : أبدا محالك . البحر .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٩١ .

وفى معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها — أن الذى يدعو إلهـا من دون الله كالظمآن الذى يدعو المـاء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا، لأن المـاء لا يستجيب، وما المـاء ببالغ إليه؛ قاله مجاهد . الثانى — أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى المـاء وقد بسط كفّه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه، لكذب ظنه، وفساد توهمه؛ قاله ابن عباس . الثالث — أنه كباسط كفه إلى المـاء ليقبض عليه فلا يجد فى كفه شىء منه . وزعم الفراء أن المراد بالمـاء ها هنا البئر؛ لأنها معدن للمـاء، وأن المثل كمن مدّ يده إلى البئر بغير رشاء؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن المـاءَ ماءُ أَبِي وجَـدِّى　*　وبِئرى ذُو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

قال على رضى الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر، فلا يبلغ قعر البئر، ولا المـاء يرتفع إليه؛ ومعنى «إِلَّا كَبَاسِطِ» إلا كاستجابة باسط كفيه «إِلَى الْمَاءِ» فالمصدر مضاف إلى الباسط، ثم حذف المضاف؛ وفاعل المصدر المضاف مراد فى المعنى وهو المـاء؛ والمعنى : إلا كإجابة باسط كفيه إلى المـاء؛ واللام فى قوله : «لِيَبْلُغَ فَاهُ» متعلقة بالبسط؛ وقوله : «وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ» كناية عن المـاء؛ أى وما المـاء ببالغ فاه . ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم؛ أى ما الفم ببالغ المـاء . ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أى ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال، لأنها شرك . وقيل : إلا فى ضلال أى يضلّ عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه سبيلا؛ كما قال : «أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا [(١)]» وقال ابن عباس : أى أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعا، والكافر يسجد كَرها بالسيف . وعن قتادة أيضا : يسجد الكافر كارها حين لا ينفعه الإيمان . وقال الزجاج : سجود الكافر كَرها مافيه من الخضوع وأثر الصّنعة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٣ .

وقال ابن زيد: «طَوْعًا» من دخل فى الإسلام رغبة، و «كَرها» من دخل فيه رهبة بالسيف . وقيل : « طوعا » من طالت مدة إسلامه فألف السجود، و « كَرها » من يكره نفسه لله تعالى ؛ فالآية فى المؤمنين ، وعلى هـذا يكون معنى « وَالْأَرْض » و بعض من فى الأرض . قال القُشَيْرى : وفى الآية مسلكان : أحدهما — أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد طوعا ، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمنافقين ؛ فالآية محمولة على هؤلاء ، ذكره الفرّاء . وقيل على هذا القول : الآية فى المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقّة، ولكنهم يتحملون المشقّة إخلاصا و إيمـانا، إلى أن يألفوا الحق و يمْرُنوا عليه . والمسلك الثانى — وهو الصحيح — إجراء الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان : أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعا، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذ به . والثانى — وهو الحق — أن المؤمن يسجد ببدنه طوعا، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهـذا كقوله : « وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْـدِهِ »[1] وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة . ﴿ وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى ظلال الخلق ساجدة لله تعـالى بالغدوّ والآصال؛ لأنها تبين فى هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصريف الله إياها على مايشاء؛ وهو كقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَاخَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ » قاله ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : ظِل المؤمن يسـجد طوعا وهو طائع؛ وظل الكافر يسجد كرها وهو كاره . وقال ابن الأنبارىّ : يجعل للظلال عقول تسـجد بها وتخشع بها، كما جعل للجبـال أفهام حتى خاطبت وخوطبت . قال القُشَيرى : فى هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحيـاة ، وأما الظلال فآثار وأعراض ، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال : سجدت النخلة أى مالت . و « الآصال » جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب، ثم أصائِل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلىّ :

لَعَمْرِى لَأَنْتَ البيتُ أُكرِمُ أَهلَهُ ✱ وأَقعـدُ فى أَفْيـائِهِ بالأَصَـائِل

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ وص ١١١ .

و « ظِلَالُهُمْ » يجوز أن يكون معطوفا على « مَنْ » ويجوز أن يكون ٱرتفع بالابتـداء والخبر محذوف؛ التقدير : وظلالهم سُجَّـدٌ بالغدو والآصال و « بالغدو » يجـوز أن يكون مصدرا، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوى كونه جمعا مقابلة الجمع الذى هو الآصال به .

قوله تعـالى : ﴿ قُـلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُـلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَـلْ يَسْـتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِـيرُ أَمْ هَلْ تَسْـتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَـلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِـمْ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للشركين : « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ » ثم أمره أن يقول[لهم](١) : هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك ، وجهلوا مَن هو . ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ هذا يدل على ٱعترافهم بأن الله هو الخالق [و إلا] لم يكن للاحتجاج بقوله : « قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » معنى؛ دليله قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ »(٢) أى فإذا ٱعترفتم فلِمَ تعبدون غيره؟ ! وذلك الغـير لا ينفع ولا يضرّ؛ وهو إلزام صحيح . ثم ضرب لهـم مثلا فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ فكذلك لا يستوى المؤمن الذى يبصر الحق، والمشرك الذى لا يبصر الحق . وقيل : الأعمى مَثَلٌ لمـا عبدوه من دون الله، والبصير مَثَلُ الله تعالى : ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ أى الشرك والإيمـان . وقرأ ٱبن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائى « يستوى » بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث « الظلمات » ليس بحقيقى . الباقون بالتاء؛ واختاره أبو عبيد، قال : لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل . و « الظلمات والنور » مثـل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك . ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا من تمام الاحتجاج؛ أى خَلَق غيرُالله مثل

---

(١) من ا و و و ى . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٨ .

خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم . ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى قل لهم يا محمد : « اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ »، فلزم لذلك أن يعبده كل شيء . والآية ردّ على المشركين والقَدَرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ قبل كل شيء . ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب لكل شيء، الذى يغلب فى مراده كل مريد . قال القُشَيرىّ أبو نصر : ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع؛ أى سَلْهم عن خالق السموات والأرض ، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم ، ويقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن عجزْ الجماد وعجْز كل مخلوق عن خلق السموات والأرض معلوم؛ و إذا تقرر هذا و بانَ أن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداد الشريك له ؟ ! وبيّن فى أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟ ! .

قوله تعالى : أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ ضرب مثلا للحق والباطل؛ فشبّه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء، فإنه يضمحلّ و يعلق بجنبات الأودية ، وتدفعه الرياح؛ فكذلك يذهب الكفر و يضمحل ، على ما نبينه . قال مجاهد

« فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » قال : بقدر ملئها. وقال ابن جُرَيج : بقدر صغرها وكبرها . وقرأ الأشهب العُقَيلي والحسن « بِقَدْرِهَا » بسكون الدال، والمعنى واحد. وقيل : معناها بما قدّر لها . والأودية جمع الوادي ؛ وسمّي واديا لخروجه وسيلانه ؛ فالوادي على هـذا اسم للماء السائل. وقال أبو علي : «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ» توسع؛ أي سال ماؤها فحذف، قال : ومعنى «بِقَدَرِهَا» بقدر مياهها ؛ لأن الأودية ماسالت بقدر أنفسها . «فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا» أي طالعا عاليا مرتفعا فوق المـاء، وتمّ الكلام؛ قاله مجاهد . ثم قال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ وهو المثل الثاني . ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴾ أي حلية الذهب والفضة . ﴿ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ قال مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زَبَدٌ مِثْلُهُ » أي يعلو هذه الأشياء زبـد كما يعلو السيل؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن المـاء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا، كذلك ما يوقد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يَنبتّ في الأرض من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله تراب الأرض. وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ قال مجاهد: جمودا. وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو ابن العلاء : أَجْفَأَتِ الْقِدْرُ إذا غلت حتى ينصبّ[(1)] زَبَدُها ، وإذا جَمَـد في أسفلها . والجُفاء ما أجفاه الوادي أي رمى به. وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤبة يقرأ «جُفَالًا» قال أبو عبيدة : يقال أَجْفَلَت القِدْرُ إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته . ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال مجـاهد : هو المـاء الخالص الصّـافي . وقيل : المـاء وما خلص من الذهب والفضـة والحديد والنحاس والرصاص ؛ وهو أن المثلين ضربهما الله للحقّ في ثباته ، والباطـل في اضمحلاله ؛ فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يضمحلّ كاضمحلال الزّبد والخَبَث . وقيل : المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ؛ فَشبَّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه، وشَبَّه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقها . قال ابن عباس : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » قال : قـرآنا ؛ « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » قال : الأودية قـلوب العباد . قال صـاحب

(1) في ز و ى : ينضب ، بالمعجمة .

«سوق العروس»[١] إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثّل القرآن بالمـاء، ومثّل القلوب بالأودية، ومثل المُحْكَم بالصّافى، ومثل المتشابه بالزّبد . وقيل : الزبد مخايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث مافيها فتضطرب من سلطان تِلعها، كما أن ماء السّيل يجرى صافيا فيرفع مايجد فى الوادى باقيا، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السّنية. والأخلاق الزّكية؛ التى بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذّهب والفضّة زينة النّساء، وبهما قيمة الأشياء. وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى وحفص «يُوقِدُونَ» بالياء واختاره أبو عبيد؛ لقوله : « يَنْفَعُ النَّاس » فأخبر ، ولا مخاطبة ها هنا . الباقون بالتاء لقوله فى أول الكلام : « أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» الآية . وقوله : « فِى النَّارِ » متعلق بمحذوف، وهو فى موضع الحال ، وذو الحال الهاء التى فى « عَلَيْهِ » التقدير : ومما توقدون عليــه ثابتـا فى النار أو كائنا . وفى قوله : «فِى النَّارِ» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التى هى اسم ذى الحال ولا يستقيم أن يتعلق « فِى النَّارِ » بـ « يوقدون » من حيث لا يستقيم أوقدتُ عليه فى النار؛ لأن الموقَد عليه يكون فى النّار، فيصير قوله : «فِى النارِ» غير مفيد . وقوله : « ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » مفعول له . « زَبَدٌ مِثْلُهُ » ابتداء وخبر؛ أى زبد مثل زبد السّيل . وقيل: إن خبر « زبد » قوله : « فِى النَّارِ » الكسائى : « زَبَدٌ » ابتداء ، و « مِثْلُهُ » نعت له ، والخبر فى الجمـلة التى قبله ، وهو «مِمَّا يُوقِدُونَ» . ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أى كما بيّن لكم هذه الأمثال فكذلك يضربهـا بيّنات . تم الكلام، ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾ أى أجابوا ؛ واستجاب بمعنى أجاب ؛ قال[٢] :

فلمْ يَستجِبْه عند ذاكَ مُجيب

وقد تقــدم؛ أى أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات . ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ لأنها فى نهاية الحسن . وقيل : من الحسنى النصر فى الدنيا، والنعيم المقيم غدا . ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾

---

(١) هو : أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبرى ، نزيل مكة المكرمة ، المتوفى بها سنة ٤٧٨ وكتابه « سوق العروس » فى علم القراءات . (كشف الظنون) .

(٢) هو : كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا [illegible]ار ، وصدر البيت : وداع دعا يا من يجيب إلى الندى .

أى لم يجيبوا إلى الإيمان به . ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أى من الأموال . ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ ملك لهم . ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ من عذاب يوم القيامة ؛ نظيره فى « آل عمران » « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا »(١) ، « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ » حسب ماتقدم بيانه هناك . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أى لا يقبل لهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة . وقال فَرْقَد السَّبَخِيّ(٢) قال [لى] (٣) إبراهيم النَّخعِيّ : يافَرْقَد ! أتدرى ماسوء الحساب ؟ قلت لا ! قال أن يحاسَب الرجل بذنبه كلّه لايفقد منه شىء . ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أى مسكنهم ومقامهم . ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى الفراش الذى مهدوا لأنفسهم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ هذا مَثَل ضربه الله للمؤمن والكافر ، ورُوى أنها نزلت فى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وأبى جهل لعنه الله . والمراد بالعَمَى عَمَى القلب ، والجاهل بالدين أعمى القلب . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ هذا من صفة ذوى الألباب ، أى إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله . والعهد آسم للجنس ؛ أى بجميع عهود الله ، وهى أوامره ونواهيه التى وصّى بها عَبيده ؛ ويدخل فى هذه الألفاظ التزامُ جميع الفروض ، وتجنبُ جميع المعاصى . وقوله : ﴿ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق ، أى إذا عقدوا فى طاعة الله عهدا لم ينقضوه . قال قَتَادة : تقدم الله إلى عباده فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية ؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه ، وهو الذى أخذه

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١ فما بعد . وص ١٣١ فما بعد .
(٢) السبخى : (بفتحتين) نسبة إلى السبخة موضع بالبصرة .
(٣) من ى .

الله على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم . وقال القفّال : هو ماركب فى عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات .

الثـانية — روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سـبعة أو ثمـانية أو تسعة فقال : " ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم " وكنا حديث عهد ببيعـة[1] فقلنا : قد بايعناك [حتى قالها ثلاثا ؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه ، فقال قائل : يارسول الله ! إنا قد بايعناك[2]] فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : " أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتُصلّوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتُطيعوا — وأسرّ كلمةً خفية — قال لا تسألوا الناس شيئا " . قال : ولقد كان بعض أولئك النفر يسقط سَوْطه فما يسأل أحدا أن يناوله إيّاه . قال ابن العـربى : من أعظم المواثيق فى الذكر ألّا يُسأل سـواه ؛ فقد كان أبو حمزة الخراسانى من كبار العبّاد سمع أن أناسا بايعوا رسـول الله صلى الله عليه وسلم ألّا يسألوا أحدا شيئا ، الحديث ؛ فقال أبو حمزة : ربِّ ! إن هؤلاء عاهدوا نبيّـك إذ رأوه ، وأنا أعاهدك ألّا أسأل أحدا شيئا ؛ قال : فخرج حاجًّا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشى فى الطريق من الليـل إذ بقى عن أصحابه لعـذر ثم أتبعهم ، فبينما هو يمشى إليهم إذ سقط فى بئر على حاشية الطريق ؛ فلما حلّ فى قعره قال : أستغيث لعل أحدا يسمعنى . ثم قال : إن الذى عاهدته يرانى ويسمعنى ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مرّ بذلك البئر نفر، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبغى سدّ هذا البئر؛ ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البـئر وغطّوها بالتراب؛ فلمـا رأى ذلك أبو حمـزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث بهـم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ؛ ثم رجع إلى نفسه فقـال : أليس قد عاهدت من يراك ؟ فسكَتَ وتوكّل ، ثم آستند فى قعر البئر مفكرا فى أمره فإذا بالتراب يقع عليه ، والخشب يرفع عنه ، وسمع فى أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطيته يدى فأقلّنى فى مرة واحدة إلى فم البـئر ، فخرجت فـلم أر أحدا ؛ فسمعت هاتفا يقول : كيف رأيت ثمـرة التوكل ؛ وأنشد

---

(١) فى و : بيعته . (٢) الزيادة من كتب الحديث .

نَهانِي حَيائِي منكَ أن أكشفَ الهوى * فأغنيتَني بالعِلْم منـكَ عن الكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ فى أمرى فأبديت شاهـدى * إلى غائبى واللّطفُ يُـدرَكُ باللُّطْف
تَراءيتَ لى بالعِـلم حتّى كأنمـا * تُخَـبِّرُنى بالغيب أنّـكَ فى كفِّ
أَرانِي وبى من هَيْبتى لَكَ وَحْشَةٌ * فتؤنِسُنى باللُّطف مِنـكَ و بالعطف
وتُحيِي مُحِبًّا أنت فى الحبِّ حَتْفُـهُ * وذا عَجَبٌ كيف الحياةُ مَعَ الحَتْفِ

قال آبن العربى : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا . قال أبو الفرج الجوزىّ : سكوت هـذا الرجل فى هـذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسـه ، وذلك لا يحلّ ؛ ولو فهم معنى التوكل لعـلم أنه لا ينـافى آستغاثته فى تلك الحالة ؛ كما لم يخرج رسـول الله صلى الله عليـه وسلم من التوكل بإخفائه الخروجَ من مكة ، وآستئجاره دليـلا ، وآستكتامه ذلك الأمر ، وآستتاره فى الغـار ، وقـوله لسُرَاقة : " اخْفِ عنّا " . فالتوكل الممدوح لا يُنال بفعل محظور ؛ وسكوت هذا الواقع فى البئر محظور عليـه ، وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمى آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتلب بها النفع ، فإذا عطلها مدّعيا للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل ، وردّا لحكمة التواضع ؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى ، وليس من ضرورته قطع الأسباب ؛ ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار ؛ قاله سفيان الثّورى وغيره ، لأنه قد دلّ على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسـه . وقال أبو الفـرج : ولا التفات إلى قول أبى حمـزة : « بجاء أسد فأخرجنى » فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله آتفاقا ، وقد يكون لطفا من الله تعالى بالعبد الجاهل ، ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به ، إنمـا ينكر فعله الذى هو كَسْبه ، وهو إعانته على نفسه التى هى وديعة لله تعالى عنده ، وقد أمره بحفظها .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَـلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّـا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَـةً وَيَدْرَءُونَ

بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ظاهر فى صلة الأرحام، وهو قول قَتَادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات . ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ قيل : فى قطع الرَّحم . وقيل : فى جميع المعاصى . ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ . سوء الحساب الاستقصاء فيه والمناقشة ؛ ومن نوقش الحساب عُذّب . وقال ابن عباس وسعيد بن جُبَير : معنى . « يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ » الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم . الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم . ويحتمل رابعا : أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح ؛ « وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » فيما أمرهم بوصله ، « وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » فى تركه ؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا ، وبالله توفيقنا .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ قيل : « الَّذِينَ » مستأنف ؛ لأن « صَبَرُوا » ماض فلا ينعطف على « يُوفُونَ » . وقيل : هو من وصف مَن تقدّم ، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضى ، وتارة بلفظ المستقبل ؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا ؛ ولما كان « الَّذِينَ » يتضمن الشرط [و] الماضى فى الشرط كالمستقبل جاز ذلك ؛ ولهذا قال : « الَّذِينَ يُوفُونَ » ثم قال : « وَالَّذِينَ صَبَرُوا » ثم عطف عليه فقال : « وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » قال ابن زيد : صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصية الله . وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب ، والحوادث والنوائب . وقال أبو عِمْران الجَوْنى : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله . (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) أدّوها بفروضها وخشوعها فى مواقيتها . ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ يعنى الزكاة المفروضة ؛ عن ابن عباس ، وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة »[1] وغيرها . ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى يدفعون بالعمل

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٩ .

الصالح السيء من الأعمال؛ قاله ابن عباس. ابن زيد: يدفعون الشر بالخير. سعيد بن جُبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضّحاك: يدفعون الفحش بالسلام. جُوَيبر: يدفعون الظلم بالعفو. ابن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القُتَبي: يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسّفه السّيئة، والحلم الحسنة. وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »(١) ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: " وأَتْبِعِ السيّئة الحَسَنَةَ تَمحُها وخَالِق الناسَ بِخُلُق حَسَن ". قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أي عاقبة الآخرة، وهي الجنة بدل النار، والدار غدا داران: الجنة للطيع، والنار للعاصي؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لامحالة. وقيل: عنى بالدار دار الدنيا؛ أي لهم جزاء ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي لهم جنات عدن؛ فـ « جَنَّاتُ عَدْنٍ » بدل من « عُقْبَى » ويجوز أن تكون تفسيرا لـ « عُقْبَى الدَّارِ » أي لهم دخول جنات عدن؛ لأن « عُقْبَى الدَّارِ » حَدَث و « جَنَّاتُ عَدْنٍ » عين، والحدث إنما يفسر بحَدَث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون « جَنَّاتُ عَدْنٍ » خبر ابتداء محذوف. و « جَنَّاتُ عَدْنٍ » وسط الجنة وقَصَبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القُشَيري أبو نصر عبد الملك. وفي صحيح البخاري: " إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تُفَجّر أنهار الجنة " فيحتمل أن يكون « جنات » كذلك إن صح فذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن في الجنة قصرا يقال له عَدْن(٢)، حوله البُرُوج والمروج؛ فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبَرة(٣) لايدخله إلا نبي أو صدّيق أو شهيد. و « عدن » مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيه؛ على مايأتي بيانه في سورة « الكهف »(٤) إن شاء الله تعالى. ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ يجوز أن

(١) راجع ص ١١٠ من هذا الجزء. (٢) في ى: خير. (٣) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها): ضروب من البرود اليمنية المخطط. (٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٥ فما بعد.

يكون معطوفا على « أُولَئِكَ » المعنى : أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار. ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير المرفوع فى « يَدْخُلُونَهَا » وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما . ويجـوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم؛ أى من كان صالحا، لا يدخلونها بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « مَنْ » نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آبائهم، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامة لهم . وقال آبن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول ، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهـم لا على وجه التبعيّة . قال القُشَيرى : وفى هذا نظر ؛ لأنه لابد من الإيمان، فالقول فى آشتراط العمل الصالح كالقول فى آشتراط الإيمان . فالأظهر أن هـذا الصلاح فى جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غَدًا تَتِمّ عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم فى الجنة ، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ؛ بل برحمة الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ أى بالتحف والهدايا من عند الله تكرمة لهم . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى يقولون : سلام عليكم؛ فأضمر القول، أى قد سلمتم من الآفات والمحن . وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أى سلمكم الله ، فهو خبر معناه الدعاء؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية . ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أى بصبركم ؛ فـ«ـما» مع الفعل بمعنى المصدر، والباء فى « بما » متعلقة بمعنى . « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أى هذه الكرامة بصبركم، أى على أمر الله تعالى ونهيه ؛ قاله سعيد بن جُبَير. وقيل: على الفقر فى الدنيا؛ قاله أبو عِمران الجونى . وقيل : على الجهاد فى سبيل الله ؛ كما روى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله"؟ قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : "المجاهدون الذين تُسدّ بهم الثغور وتُتّقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبى صلى الله عليه وسلم يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : "السلام عليكم بما صبرتم فنعم

عقبى الدار" وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره البَيْهَقِيّ عن أبي هُرَيرة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الشهداء، فإذا أتى فُرْضَةَ الشِّعْب[1] يقول: "السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار". ثم كان أبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم يفعله، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله، وكان عثمان بعد عمر يفعله. وقال الحسن البصري رحمه الله: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عن فضول الدنيا. وقيل: «بِمَا صَبَرْتُمْ» على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية؛ قال معناه الفُضَيل بن عِيَاض. ابن زيد: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عما تحبونه إذا فقدتموه. ويحتمل سابعا — «بِمَا صَبَرْتُمْ» عن اتباع الشهوات. وعن عبد الله بن سَلَام وعلي بن الحسين رضي الله عنهم [أنهما قالا][2]: إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقم أهل الصبر؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: ٱنطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ قالوا: قبل الحساب؟ قالوا نعم! فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبّرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبّرناها عن معاصي الله وصبّرناها على البلاء والمحن في الدنيا. قال علي بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: ٱدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وقال ٱبن سَلَام: فتقول لهم الملائكة: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ». «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» أي نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه؛ فالعقبى على هذا ٱسم؛ و «الدار» هي الدنيا. وقال أبو عِمران الجَوْني: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن النار. وعنه: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن الدنيا.

قوله تعالى: وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾

(١) فرضة الشعب: فوهته. والشعب: ما انفرج بين جبلين. والشهداء كانوا بجبل أحد.
(٢) في الأصل: «أنه قال».

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ لما ذكر الموفين بعهده ، والمواصلين لأمره ، وذكر مالهم ذكر عكسهم . نقض الميثاق : ترك أمره . وقيل : إهمال عقولهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ أي من الأرحام . والإيمان بجميع الأنبياء . ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بالكفر وآرتكاب المعاصي ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أي الطرد والإبعاد من الرحمة . ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أي سوء المنقلب ، وهو جهنم . وقال سعد بن أبي وقاص : والله الذي لا إله إلا هو ! إنهم الحَرُورية .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بيّن أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا ، لأنها دار آمتحان . فبسْط الرزق على الكافر لا يدلّ على كرامته ، والتّقتير على بعض المؤمنين لا يدلّ على إهانتهم . « وَيَقْدِرُ » أي يضيق ؛ ومنه . « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » [1] أي ضيّق . وقيل : « يقدر » يعطي بقدر الكفاية . ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني مشركي مكة ؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ، وجهلوا ماعند الله ؛ وهو معطوف على « وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » . وفي الآية تقديم وتأخير ؛ التقدير : والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا . ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي في جنبها . ﴿ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ أي متاع من الأمتعة ، كالقَصْعة والسُّكُرُّجة [2] . وقال مجاهد : شيء قليل ذاهب ؛ من مَتَعَ النهارُ إذا ارتفع ، فلابدّ له من زوال . آبن عباس : زادٌ كزاد الراعي . وقيل : متاع الحياة الدنيا مايُستمتع بها منها . وقيل : مايتزود منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ، « وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » ثم آبتدأ . « اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أي يوسّع ويضيّق .

قوله تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

---

(1) راجع جـ ١٨ ص ١٧٠ . (2) السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم ، وهي فارسية .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ بين في مواضع أن ٱقتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدلّ على الصدق ، والقائل عبد الله ابن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات. ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ ﴾ عزّ وجلّ ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها يضلّكم عند نزول غيرها. ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي من رجع . والهاء في « إليه » للحق ،أو للإسلام، أو لله عزّ وجلّ، على تقدير: ويهدى إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه . وقيل : هي للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ « الذين » في موضع نصب ، لأنه مفعول ، أي يهدى الله الذين آمنوا . وقيل بدل من قوله : « مَنْ أَنَابَ » فهو في محل نصب أيضا . ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي تسكن وتستأنس بتوحيـد الله فتطمئن ؛ قال : أي وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم؛ قاله قَتَادة : وقال مجاهد وقَتَادة وغيرهما : بالقرآن . وقال سفيان بن عيينة : بأمره . مقاتل : بوعده ٱبن عباس: بالحلف باسمه ، أوتطمئن بذكر فضله وإنعامه؛ كما توْجل بذكر عدله وٱنتقامه وقضائه . وقيل : « بِذِكْرِ اللَّهِ » أي يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة . ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أي قلوب المؤمنين . قال ٱبن عباس : هـذا في الحلف؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : « بِذِكْرِ اللَّهِ » أي بطاعة الله . وقيل : بثواب الله . وقيل : بوعد الله . وقال مجاهد : هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ ﴾ ٱبتداء وخبره. وقيل : معناه لهم طُوبَى ، فـ« طُوبَى » رفع بالابتداء ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : جعل

لهم طُوبى، ويعطف عليه «وَحُسْنُ مَآبٍ» على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب .
وذكر عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر عن يحيى بن أبي كَثير عن عمرو بن أبي يزيد البِكَالِي عن عُتْبة ابن عَبْد السُّلَمى قال: جاء أعرابى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض فقال : فيها فاكهة ؟ قال : " نعم شجرة تدعى طوبى " قال : يا رسول الله ! أى شجرة أرضنا تشبه ؟ قال " لا تشبه شيئا من شجر أرضك أأتيت الشام هنالك شجرة تدعى الجوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها " . قال : يا رسول الله ! فما عِظم أصلها ! قال : لو ٱرْتَحَلْتَ جَذَعة من إبل أهلك ما أَحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتها هَرَما " . وذكر الحديث، وقد كَتَبْنَاه بكماله فى أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»، والحمد لله. وذكر ٱبن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن الأشعث عن عبد الله عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال : فى الجنة شجرة يقال لها طوبى؛ يقول الله تعالى لها : تفتّق لعبدى عما شاء؛ فَتَفَتَّق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، وتَفَتّق عن الراحلة بِرحلها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النّجائب والثّياب .
وذكر ٱبن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبي أُمامة الباهلىّ قال : « طُوبَى » شجرة فى الجنة ليس منها دار إلا وفيها غصن منها، ولا طير حسن إلا هو فيها، ولا ثمرة إلا هى منها؛ وقد قيل : إن أصلها فى قصر النبي صلى الله عليه وسلم فى الجنة، ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة، كما ٱنتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا . وقال ٱبن عباس : « طُوبَى لَهُمْ» فرح لهم وقرة عين؛ وعنه أيضا أن «طوبى» ٱسم الجنة بالحبشية؛ وقاله سعيد بن جُبير. الربيع بن أنس : هو البستان بلغة الهند؛ قال القُشَيْرى : إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين.
وقال قَتَادة : « طُوبَى لَهُمْ » حسنى لهم . عِكْرِمة : نعمى لهم . إبراهيم النَّخَعىّ : خير لهم ؛ وعنه أيضا كرامة من الله لهم . الضّحاك : غبطة لهم . النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطّيب؛ أى العيش الطّيب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطّيب.
وقال الزّجاج: طُوبَى فُعْلى من الطِّيب، وهى الحالة المستطابة لهم؛ والأصل طُيْبَى، فصارت الياء واوا لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا : موسِر وموقِن .

قلت : والصحيح أنها شجرة؛ للحديث المرفوع الذى ذكرناه، وهو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلى؛ ذكره أبو عمر فى التمهيد، ومنه نقلناه؛ وذكره أيضا الثعلبى فى تفسيره ؛ وذكر أيضا المهدوى والقُشَيْرى عن معاوية بن قُرَّة عن أبيـه أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " طوبى شجرة فى الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبت الحلىّ والحُلَل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة " ومن أراد زيادة على هـذه الأخبار فليطالع الثعلبىّ . وقال ٱبن عباس : « طُـوبَى » شجرة فى الجنـة أصلها فى دار علىّ ، وفى دار كل مؤمن منهـا غُصْن . وقال أبو جعفر محمد بن على : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : «طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ» قال : " شجرة أصلها فى دارى وفروعها فى الجنة " ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : " شجرة أصلها فى دار علىّ وفروعها فى الجنـة " . فقيل له : يا رســول الله ! سئلت عنها فقلت : " أصلها فى دارى وفروعها فى الجنـة " ثم سئلت عنها فقلت : " أصلها فى دار على وفروعها فى الجنة " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن دارى ودار علىّ غدا فى الجنة واحدة فى مكان واحد " وعنه صلى الله عليه وسلم : " هى شجرة أصلها فى دارى وما من دار من دوركم إلا مُدَلًّى فيها غُصن منها " ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ آب إذا رجع . وقيـل : تقدير الكلام الَّذِينَ آمَنُـوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعـالى : كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أى أرسلناك كما أرسلنا الأنبيـاء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شبّه الإنعام على من أُرسل إليه محمد عليه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ ﴾ قال مقـاتل وٱبن جُريج : نزلت فى صُلح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصُّلح، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلىّ: "آكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سُهَيل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون مُسَيْلِمة الكذاب؛ آكتب باسمك اللهـم، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلىّ: "آكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك؛ ولكن آكتب: هـذا ما صالح عليه محمد آبن عبد الله؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: دعنا نقاتلهم؛ فقال: "لا ولكن آكتب ما يريدون" فنزلت. وقال آبن عباس: نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "آسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ" قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟[1] فنزلت. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: الذى أنكرتم. ﴿هُوَ رَبِّى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه، هو واحد بذاته، وإن اختلفت أسماء صفاته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وآعتمدت ووثقت. ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أى مرجعى غدا، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت، رِضًا بقضائه، وتسليما لأمره. وقيل: سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فى الحِجْر ويقول: "يا الله يا رحمن" فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين؛ فنزلت هـذه الآية، ونزل. «قُلِ آدْعُوا اللهَ أَوِ آدْعُوا الرَّحْمَنَ»[2].

قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١)

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ هذا متصل بقوله: «لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ». وذلك أن نفرا من مشركى مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية المخزوميّان

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٤٢. (٢) راجع ج ١٣ ص ٦٤.

جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم؛ فقال له عبد الله : إن سرّك أن نتبعك فسَيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذْهبها عنّا حتى تنفسح ؛ فإنها أرض ضيّقة ، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا، حتى نغرس ونزرع ؛ فلستَ كما زعمتَ بأهون على ربك من داود حين سخّر له الجبال تسير معه ، وسَخِّر لنا الريح فنركبها إلى الشام تقضى عليها ميرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ؛ فقد كان سليمان سخّرت له الريح كما زعمتَ ؛ فلستَ بأهون على ربك من سليمان بن داود ، وأَحْيِ لنا قُصَيّاً[(١)] جدّك ، أو من شئتَ أنت من موتانا نسأله ؛ أحقٌّ ماتقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى ، ولست بأهون على الله منه ؛ فأنزل الله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » الآية ؛ قال معناه الزّبير بن العوام ومجاهد وقَتَادة والضّحاك ؛ والجواب محذوف تقديره : لـكان هذا القرآن ، لـكن حذف إيجازا ، لما فى ظاهر الـكلام من الدلالة عليه ؛ كما قال آمرؤ القيس :

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَموتُ جَمِيعَةً　＊　ولـكِنَّها نفسٌ تَساقَطُ أَنْفُسَا

يعنى لهـان علىّ ؛ هذا معنى قول قَتَادة؛ قال: لو فَعَل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم . وقيل : الجواب متقدم، وفى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا . الفراء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هـذا لكفروا بالرحمن . الزّجاج : « ولَوْ أَنَّ قُرْآناً » إلى قوله : « الْمَوْتَى » لما آمنوا ، والجواب المضمر هنا ما أظهر فى قوله : « ولَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ » إلى قوله : « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »[(٢)] . ﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أى هو المالك لجميع الأمور ، الفاعل لما يشاء منها ، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن ، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال الفراء قال الكَلْبى : « ييئس » بمعنى يعلم، لغة النَّخَع ؛ وحكاه القُشَيْرى عن ابن عباس ؛ أى أفلم يعلموا ؛وقاله الجوهرى فى الصحاح.

---

(١) هو قصى بن كلاب .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٦٦ .

وقيـل : هو لغـة هَوَازِن ؛ أى أفلم يعلم ؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن . وقال أبو عبيدة : أفلم يعلموا ويتبيّنوا ، وأنشد فى ذلك أبو عبيدة لمـالك بن عوف النَّصْرى[1] :

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إذْ يَيْسِرُونَنِي * أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ٱبْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

يَيْسرونني من المَيْسر ، وقـد تقدم فى « البقرة »[2] ويروى يأسرونني من الأَسْر . وقال رَبَاح بن عدىّ :

أَلَمْ يَيْئَسِ الأقـوامُ أَنِّى [أنا][3] ٱبنُهُ * وإنْ كنتُ عن أرضِ العَشِيرةِ نائيا

فى كتاب الردّ « أنى أنا آبنه » وكذا ذكره الغزنوى : ألم يعلم ؛ والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس المعروف ؛ أى أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمـان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعـالى لو أراد هدايتهم لهداهم ؛ لأن المؤمنين تَمَنَّوا نزول الآيات طمعا فى إيمـان الكفار . وقرأ علىّ وابن عباس : « أَفَلَمْ يَتَبَيَّن الَّذِينَ آمَنُوا » من البيان . قال القُشَيْرى : وقيل لابن عباس المكتوب « أَفَلَمْ يَيْئَسِ » قال : أظن الـكاتب كتبها وهـو ناعس ؛ أى زاد بعض الحروف حتى صار « ييئس » . قال أبو بكر الأنبـارىّ : روى عن عِكرمة عن آبن أبى نَجيح أنه قرأ — « أفلم يتبين الذين آمنوا » وبها آحتجّ من زعم أنه الصواب فى التلاوة ؛ وهو باطل عن آبن عباس ، لأن مجاهدا وسعيد بن جُبَير حكيا الحرف عن ابن عباس ، على ماهو فى المصحف بقراءة أبى عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جُبَير عن ابن عباس ؛ ثم إن معناه : أفلم يتبين ؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التى خالفوا بهـا الإجماع فقراءتنا تقع عليها ، وتأتى بتأويلها ، وإن أراد الله المعنى الآخر الذى اليأس فيـه ليس من طريق العلم فقـد سقط ممـا أوردوا ؛

---

(١) ذكر فى «لسان العرب» أن قائل البيت هو سحيم بن وثيل اليربوعى ؛ وذكر بعض العلماء أنه قال لولده جابر ابن سحيم بدليل قوله فيه : « أنى ابن فارس زهدم » وزهدم : فرس سحيم . وقوله : ييسرونني من إيسار الجزور ؛ أى يجتزرونني و يقتسمونني ؛ وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه سباء فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قسمة فدائه .

(٢) راجع ج ٣ ص ٥٣ .

(٣) من البحر لأبى حيان ، وكتاب الرد .

وأمّا سقوطه يبطل القرآن ، ولزوم أصحابه البهتان . ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ « أَنْ » مخففة من الثقيلة ، أى أنه لو يشاء الله ﴿ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وهو يردّ على القَدَرية وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ أى داهيــة تفجؤهم بكفرهم وعتوّهم ؛ ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمع قَوارِع ؛ والأصــل فى القرع الضرب ؛ قال[1] :

أَفْنَى تِلَادِى وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبٍ * قَــرْعُ الْقَوَاقِـيزِ أَفْوَاهَ الأَبَارِيق

أى لا يزال الكافرون تصيبهم داهيــة مهلكة من صاعقــة كما أصاب أَرْبَد أو من قتل أو من أسر أو جدب ، أو غير ذلك من العــذاب والبلاء ؛ كما نزل بالمستهزئين ، وهم رؤساء المشركين . وقال عِكرِمة عن ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضا وعكرمة : القارعة الطلائع والسرايا التى كان يُنفِذها رسول الله صلى الله عليه وســلم لهم . ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ أى القارعة . ﴿ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ﴾ قاله قتادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تَحُل أنت قريبا من دارهم . وقيــل : نزلت الآية بالمدينة ؛ أى لا تزال تصيبهم القوارع فتنزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقُرى المدينــة ومكة . ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ فى فتح مكة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : نزلت بمكة ؛ أى تصيبهم القوارع ، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد ، فتحلّ قريبــا من دارهم ، أو تحلّ بهم محاصرا لهم ؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولقِلاع خَيْبَر ، ويأتِى وعد الله بالإذن لك فى قتالهم وقهرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

قوله تعــالى : وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا

(١) هو الأقيشر الأسدى ، واسمه المغيرة بن عبد الله . والتلاد : المال القديم الموروث . والنشب : الضياع والبساتين وما جدده بعمله . والقوافيز (جمع قاقوزة) وهى أوان يشرب بها الخمر .

عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ تقدم معنى الاستهزاء فى « البقرة » (١) ومعنى الإملاء فى « آل عمران » (٢) أى سُخِر بهم، وأُزْرِى عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان فى علمى أنه يؤمن منهم؛ فلما حقّ القضاء أخذتهم بالعقوبة . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى فكيف رأيت ماصنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركى قومك .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ليس هذا القيام القيام الذى هو ضدّ القعود، بل هو بمعنى التولّى لأمور الخلق؛ كما يقال : قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أى يقدرها على الكسب ، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها ؛ فالمعنى : أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف ؛ والمعنى : أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل . وقيل : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ » أى عالم ؛ قاله الأعمش . قال الشاعر :

فلولا رِجالٌ من قريشٍ أَعِزّةٌ * سرقتُمْ ثيابَ البيتِ واللهُ قائمُ

أى عالم؛ فالله عالم بكسب كل نفس . وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكلون ببنى آدم ، عن الضحاك . ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ حال؛ أى أو قد جعلوا ، أو عطف على « ٱسْتُهْزِئَ » أى ٱستهزءوا وجعلوا ، أى سمّوا ﴿ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ يعنى أصناما جعلوها آلهة . ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أى قل لهم يامحمد : « سَمُّوهُمْ » أى بيّنوا أسماءهم ، على جهة التهديد ؛ أى إنما يسمّون : اللّات والعُزّى ومَنَاة وهُبَل . ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ ﴾ « أم » استفهام توبيخ ، أى أتنبئونه ؛ وهو على التحقيق عطف على ٱستفهام متقدم فى المعنى ؛ لأن قوله : « سَمُّوهُمْ » معناه : أَلَهُمْ أسماء الخالقين . «أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ»؟ . وقيل : المعنى قل لهم أتنبئون الله

بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ؛ فإذا سموهم اللّات والعُزّى فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكا . وقيل : « أم تُنبئونه » عطف على قوله : « أفمن هو قائم » أى أفمن هو قائم ، أم تنبئون الله بما لا يعلم ؛ أى أنتم تدعون لله شريكا ، والله لا يعلم لنفسه شريكا ؛ أفتنبئونه بشريك له فى الأرض وهو لا يعلمه ! وإنما خصّ الأرض بنفى الشريك عنها وإن لم يكن له شريك فى غير الأرض لأنهم ٱدّعوا له شركاء فى الأرض . ومعنى . ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ : الذى أنزل الله على أنبيائه . وقال قَتادة : معناه بباطل من القول ؛ ومنه قول الشاعر :

أَعَيَّرْتَنَا أَلْبَانَهَا ولُحُومَهَا * وذلك عارٌ يابن رَيْطَةَ ظاهرُ

أى باطل . وقال الضّحاك : بكذب من القول . ويحتمل خامسا[1] — أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم ؛ ويكون معنى الكلام : أتخبرونه بذلك مشاهدين ، أم تقولون محتجين .

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ أى دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكرهم ؛ قيل : ٱستدراك على هذا الوجه ، أى ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكرهم . وقرأ ٱبن عباس ومجاهد — « بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ » مسمّى الفاعل ؛ وعلى قراءة الجماعة فالذى زيّن للكافرين مكرهم الله تعالى ، وقيل : الشيطان . ويجوز أن يسمى الكفر مكرا ؛ لأن مكرهم بالرسول كان كفرا . ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أى صدّهم الله ؛ وهى قراءة حمزة والكسائى . الباقون بالفتح ؛ أى صدّوا غيرهم ؛ واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ »[2] وقوله : « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ »[3] . وقراءة الضم أيضا حسنة فى « زين » و « صدّوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك فى مذهب أهل السنة ؛ ففيه إثبات القَدَر ، وهو اختيار أبى عبيد . وقرأ يحيى بن وثّاب وعلقمة — « وصِدّوا » بكسر الصاد ؛ وكذلك . « هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا »[4] بكسر الراء أيضا على مالم يسم فاعله ؛ وأصلها صدِدوا وردِدت ، فلما أدغمت الدال الأولى فى الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر . ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بخذلانه . ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أى موفّق ؛ وفى هذا إثبات قراءة الكوفيين

(١) كذا فى الأصول . ويبدو أن فى العبارة نقصا ، ولعل الرابع ما فى البحر : وقيل . . أم متصلة والتقدير أم تنبؤنه بظاهر من القول لا حقيقة له .
(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٥ .
(٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٣ .
(٤) راجع ص ٢٢٣ من هذا الجزء .

ومن تابعهم؛ لقـوله : « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ »، فكذلك قوله : « وَصَدُّوا » . ومعظم القراء يقفون على الدال من غير الياء، وكذلك « والٍ » و « واقٍ » ؛ لأنك تقول فى الرجل : هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين . وقرئ « فَمَا لَهُ مِنْ هَادِى »، و « وَالِى » و « وَاقِى » باليـاء؛ وهو على لغة من يقول : هذا داعى ووالى وواقى باليـاء؛ لأن حذف الياء فى حالة الوصل لالتقائها مع التنوين، وقد أمنا هذا فى الوقف؛ فردّت الياء فصار هادى ووالى وواقى . وقال الخليل فى نِداء قاضٍ : يا قاضى بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النداء، كما لا تنوين فى نحو الداعى والمتعالى .

قوله تعـالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَـا ﴾ أى للشركين الصادّين، بالقتل والسَّبْى والإسار، وغير ذلك من الأسقام والمصائب . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أى أشـدّ؛ من قولك : شَـقّ علىّ كذا يَشُـقّ . ﴿ وَمَا لَهُـمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ أى مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع . و « مِن » زائدة .

قوله تعـالى : مَّثَـلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَـا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَـا دَآئِمٌ وَظِلُّهَـا تِـلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّـارُ ﴿٣٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُـتَّقُونَ ﴾ آختلف النحاة فى رفع « مَثَلُ » فقال سيبويه : آرتفع بالابتـداء والخبر محذوف؛ والتقدير : وفيما يتـلى عليكم مَثَلُ الجنـة . وقال الخليل : آرتفع بالابتداء وخبره « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى صفة الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ كقولك : قولى يقوم زيد؛ فقولى مبتدأ، ويقوم زيد خبره؛ والمثل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ »[1] وقال : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى »[2] أى الصفة العليا؛ وأنكره أبو على وقال : لم يسمع مَثَل بمعنى الصفة؛ إنمـا معناه الشبه ؛ ألا تراه يجرى مجـراه فى مواضعه ومتصرفاته ، كقولهم : مررت برجل مثلك ؛ كما تقول : مررت برجل شبهك؛ قال : ويفسد أيضا من جهة المعـنى؛ لأن مثلا

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٩٢ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٩ .

إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام : صفة الجنة التي فيها أنهار، وذلك غير مستقيم ؛ لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها . وقال الزجاج: مَثّل الله عزّ وجلّ لنا ما غاب عنا بمـا نراه؛ والمعنى : مَثَلُ الجنّة جَنّـةٌ تجرى من تحتها الأنهار؛ وأنكره أبو علىّ فقال : لا يخلوا المثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله ؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح، لأنك إذا قلت : صفة الجنّة جنّة، فجعلت الجنة خبرا لم يسـتقم ذلك ؛ لأن الجنة لا تكون الصفة، وكذلك أيضا شبه الجنة جنة؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حَدَث ؛ والجنّة غير حَدَث ؛ فلا يكون الأول الثاني . وقال الفـرّاء : المثل مقحم للتأكيد؛ والمعنى : الجنّة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ والعرب تفعل ذلك كثيرا بالمثل ؛ كقوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »[(١)] ؛ أى ليس هو كشيء[(٢)] . وقيل التقدير : صفة الجنة التي وعد المتقون صفة جنّة «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» . وقيل معناه: شبه الجنة التي وعد المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النـار في العذاب والشـدّة والخلود؛ قاله مقاتل .

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ لا ينقطع؛ وفي الخـبر : "إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى" وقد بيناه في «التذكرة» . ﴿وَظِلُّهَا﴾ أى وظلها كذلك؛ فحذف؛ أى ثمرها لا ينقطع، وظلّها لا يزول؛ وهذا ردّ على الجَهْمِيّة في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى . ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أى عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها .

قوله تعـالى : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى بعض من أوتى الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سَلَام وسَلْمان، والذين جاءوا من الحبشة؛ فاللفظ عام، والمراد الخصوص. وقال قَتَادة: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن؛ وقاله مجاهد

(١) راجع جـ ١٦ ص ٨ .　　(٢) فى ى : ليس كهو شىء .

وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم . وقال أكثر العلماء : كان ذكر الرحمن فى القرآن قليلا فى أول ما أنزل ، فلما أسلم عبد الله بن سَلَّام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة؛ فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى: « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ »[1] فقالت قريش : ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب ؛ فنزلت : « وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ »[2] « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ » ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : « وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » . ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ يعنى مشركى مكة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : ومن أعداء المسلمين من ينكر بعض ما فى القرآن ؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرأ أبو خالد[3] بالرفع على الاستئناف أى أفرده بالعبادة وحده لا شريك له ، وأتبرأ عن المشركين ، ومن قال : المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، ومن اعتقد التشبيه كاليهود . ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أى إلى عبادته أدعو الناس . ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أى أرجع فى أمورى كلها .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو عربى، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الآية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا، أى بلسان العرب؛ ويريد بالحكم ما فيه

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٢ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٧ .
(٣) فى حـ وا وى : أبو خليد : وهو عتبة بن حماد الحكمى روى عن نافع . غاية النهاية .

من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم. ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى أهواء المشركين فى عبادة ما دون الله ، وفى التوجيه إلى غير الكعبة . ﴿ بَعْدَ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى ناصر ينصرك . ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يمنعك من عذابه ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد الأمة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)

فيه مسئلتان :

الأولى — قيل : إن اليهود عابوا على النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج ، وعيرته بذلك وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن النساء؛ فأنزل الله هذه الآية، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أى جعلناهم بشرا يقضون ما أحلّ الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص فى الوحى .

الثانيــة — هذه الآية تدلّ على الترغيب فى النكاح والحض عليه ، وتنهى عن التّبتّل ، وهو ترك النكاح ، وهذه سنّة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية ، والسنّة واردة بمعناها ؛ قال صلى الله عليه وسلم: " تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم " الحديث. وقد تقدم فى «آل عمران»[(١)] وقال : " من تزوج فقد استكمل نصف الدّين فليتقِ الله فى النصف الثانى "[(٢)] . ومعنى ذلك أن النكاح يعفّ عن الزنى، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما الجنة فقال : " من وقاه الله شر اثنتين ولج الجنّة ما بين لحييه وما بين رجليه " خرجه الموطأ وغيره . وفى صحيح البخارى عن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبيّ

(١) راجع ج ٤ ص ٧٢ فما بعد . (٢) روى ابن الجوزى فى العلل " من تزوّج فقد أحرز نصف دينه فليتق الله فى النصف الباقى " وراجع الحديث بطرقه فى ج ٢ كشف الخفا ص ٢٢٩ ففيه بحث .

صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهـم تقالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ماتقدّم من ذنبه وما تأخّر . فقال أحدهم : أمّا أنا فإنى أُصلّى الليل أبدا ، وقال الآخر : إنى أصـوم الدهر فلا أُفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم [إليهم][1] فقال : "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأُفطر وأصلّى وأرقد وأتزوّج النساء فمن رغب عن سنّتى فليس منى". خرجه مسلم بمعناه؛ وهذا أبين . وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقّاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولو أجاز له ذلك لٱخْتَصَيْنَا ، وقد تقدم فى « آل عمران »[2] الحضّ على طلب الولد والرّدّ على من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : إنى لأتزوج المرأة ومالى فيها من حاجة ، وأطؤها وما أشتهيها ؛ قيل له : وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : حبّ أن يخرج الله مِنّى من يكاثر به النبي صلى الله عليه وسلم النبيّين يوم القيامة ؛ وإنى سمعته يقـول : " عليكم بالأبكار فإنهنّ أعذب أفواهًا وأحسن أخلاقًا وأنتـق أرحاما وإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة " يعنى بقوله : " أنتق أرحاما" أقبل للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق ؛ لأنها ترمى بالأولاد رميا . وخرج أبو داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أصبت ٱمرأة ذات حسب وجمـال ، وأنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال "لا" ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال : "تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم " . صححه أبو محمد عبد الحق وحَسْبك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ عاد الكلام إلى ما ٱقترحوا من الآيات — ماتقدّم ذكره فى هذه السورة — فأنزل [الله][3] ذلك فيهم؛ وظاهر الكلام حَظْر ومعناه النفى؛ لأنه لايحظر على أحدٍ مالا يقدر عليه . ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أى لكل أمر قضاه الله كتاب عندالله؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، المعنى : لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء

---

(١) من ى . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٢ ، و جـ ٦ ص ٢٦٠ فما بعد . (٣) من ع .

والضّحاك؛ أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت، ووقت معلوم؛ نظيره. «لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ»[1]؛ بيّن أن المراد ليس على اقتراح الأمم فى نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب . وقيل : المعنى لكل مدة كتاب مكتوب ، وأمر مقدّر لا تقف عليه الملائكة . وذكر الترمذيّ الحكيم فى «نوادر الأصول» عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبى هريرة قال: لما ٱرتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طور سيناء رأى الجبّارَ فى إصبعه خاتما، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قال : شىء من حُلىّ الرجال، قال : فهل عليه شىء من أسمائى مكتوب أو كلامى؟ قال: لا، قال : فاكتب عليه « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » .

قوله تعالى : يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتى به . «وَيُثْبِتُ» ما يشاء ؛ أى يؤخره إلى وقته؛ يقال : محوت الكتاب محوا ، أى أذهبت أثره . « وَيُثْبِتُ » أى ويثبته؛ كقوله : «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»[2] أى والذاكرات الله .

وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو وعاصم « وَيُثْبِتُ » بالتخفيف ، وشدّد الباقون؛ وهى قراءة ٱبن عباس، وٱختيار أبى حاتم وأبى عبيد لكثرة من قرأ بها؛ لقوله : «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا»[3] . وقال ٱبن عمر : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت" . وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء[4]؛ الخَلق والخُلُق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة؛ وعنه: هما كتابان سوى أمّ الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الذى لا يتغيّر منه شىء. قال القُشَيْرىّ: وقيل السعادة والشقاوة والخَلق والخُلُق والرزق لا تتغير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفى هذا القول نوع تحكّم .

قلت : مثل هذا لا يدرك بالرأى والٱجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفا، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة فى جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا

(١) راجع جـ ٧ ص ١١ .
(٢) راجع جـ ١٤ ص ١٨٥ .
(٣) راجع ص ٣٦٢ من هذا الجزء .
(٤) فى أ و و : إلا ستا .

يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وآبن مسعود وأبى وائل وكعب الأحبار وغيرهم ، وهو قول الكَلْبِىّ . وعن أبى عثمان النَّهْدِىّ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول : اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها ، و إن كنت كتبتنى فى أهل الشقاوة والذنب فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتنى فى السعداء فأثبتنى فيهم ، و إن كنت كتبتنى فى الأشـقياء فآمحنى من الأشقياء وآكتبنى فى السعداء ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ؛ وعنـدك أمّ الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت كتبتنا أشـقياء فامح وآكتبنا سعداء ، و إن كنت كتبتنا سـعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبِت وعندك أمّ الكتاب . وقال كعب لعمر بن الخطاب : لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة . « يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » . وقال مالك ابن دينار فى المـرأة التى دعا لهـا : اللهم إن كان فى بطنها جارية فأبدِلهـا غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب . وقد تقدّم فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : "من سَرّه أن يُبْسَط له فى رزقه ويُنْسأَ له فى أَثَرِه[(١)] فلْيَصِلْ رَحِمَه". ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ أَحَبَّ" فذكره بلفظه سواء ؛ وفيـه تأويلان : أحدهما — معنوى ، وهو ما يبقى بعـده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكأنه لم يمت . والآخر — يؤخر أجله المكتوب فى اللوح المحفوظ ؛ والذى فى علم الله ثابت لاتبدّل له ، كما قال : «يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ». وقيل لآبن عباس لمـا روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أحبّ أن يمد الله فى عمره وأجله ويبسط له فى رزقه فليتق الله ولْيَصِلْ رَحِمَه" كيف يزاد فى العمر والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَه »[(٢)] . فالأجل الأوّل أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل

(١) الأثر : الأجل . سمى به لأنه يتبع العمر . وأصله من أثر مشيه فى الأرض فإن مات لا يبـقى له أثر ولا يرى لأقدامه فى الأرض أثر النهاية .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ .

الثاني — يعني المسمى عنده — من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البَرْزخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البَرْزخ ماشاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أَجَل عمره في الدنيا ماشاء، فيزيده في أجل البَرْزَخ؛ فإذاتحتم الأَجل في علمه السابق آمتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى: « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (١) » فتوافق الخبر والآية ؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأَجَل على ظاهر اللفظ، في آختيار حبر الأمة، والله أعلم. وقال مجاهد: يُحكم الله أمر السَّنَة في رمضان فيمحو مايشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه. وقال الضّحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحَفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن آبن عباس. وقال الكَلْبي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه؛ ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم. ثم سئل الكَلْبي عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويثبت مافيه الثواب والعقاب. وقال قَتَادة وآبن زيد وسعيد بن جُبَيْر: يمحو الله مايشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحدّثنا بكر بن سهل، قال حدّثنا أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، «يَمْحُو اللهُ مَايَشَاءُ» يقول: يبدل الله من القرآن مايشاء فينسخه، «ويثبت» ما يشاء فلا يبدله، « وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » يقول: جملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ والمنسوخ. وقال سعيد بن جُبَير أيضا: يغفر ما يشاء — يعني — من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره. وقال عِكرِمة: يمحو ما يشاء — يعني بالتوبة — جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [قال تعالى (٢)]: « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا (٣) » الآية. وقال

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠١. (٢) الزيادة من « البحر المحيط ».
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٧٧.

الحسن : « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ » من جاء أجله ، « وَيُثْبِتُ » من لم يأت أجله . وقال الحسن : يمحو الآباء، ويثبت الأبناء . وعنه أيضا : يُنْسى الحفظة من الذنوب ولا يُنْسى . وقال السدّى : « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ » يعنى : القمر ، « وَيُثْبِتُ » يعنى : الشمس ؛ بيانه قوله : فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْـلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً (1) » وقال الربيع بن أنس : هــذا فى الأرواح حالة النوم ؛ يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته بغتة أمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه؛ بيانه قوله: « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (2) » الآية . وقال علىّ بن أبى طالب يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (2) » ويثبت ما يشاء منها ، كقوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (3) » فيمحو قرنًا ، ويثبت قرنًا . وقيــل : هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله ؛ فهو الذى يمحــو ، والذى يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من ديوان السيئات ، ويثبته فى ديوان الحسنات ؛ ذكره الثعلبىّ والمــاوردىّ عن ابن عباس . وقيــل : يمحو الله ما يشاء — يعنى الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال قيس بن عُبَــاد فى اليوم العاشر من رجب : هو اليوم الذى يمحو الله فيه ما يشاء، ويثبت فيه ما يشاء ؛ وقد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون فى رمضان . وقال ابن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام، من درّة بيضاء، لهــا دفّتان من ياقوتة (4) حمراء، لله فيه كل يوم ثلاثمــائة وستون نظرة، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبى صــلى الله عليه وســلم قال : " إن الله سبحانه يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء " . والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله ؛ وهذا المحو والإثبات ممــا سبق به القضاء ، وقد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعا محتوما ، وهو الثابت ؛ ومنــه ما يكون مصروفا بأسباب ، وهو المحوّ ، والله أعلم . الغزنوىّ : وعندى أن ما فى اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة ؛ فيحتمل التبديل ؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال ؛ وما فى علمه من تقدير الأشياء لا يبدّل . « وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » أى أصل ما كتب من الآجال

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٧ . (2) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٥ وص ٢٢ .
(3) راجع جـ ١٢ ص ١٢٠ فما بعد . (4) من ى .

وغيرها . وقيل : أمّ الكتاب اللوح المحفوظ الذى لا يبدّل ولا يغير . وقد قيل : إنه يجرى فيه التبديل . وقيل : إنما يجرى فى الجرائد الأخر . وسئل ٱبن عباس عن أمّ الكتاب فقال : عِلْم الله ماهو خالق، وما خلقُه عاملون، فقال لعلمه : كن كتابا، ولا تبديل فى علم الله، وعنه أنه الذِّكْر، دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ »[1] وهذا يرجع معناه إلى الأوّل، وهو معنى قول كعب . قال كعب الأحبار : أمّ الكتاب عِلم الله تعالى بما خَلَق وبما هو خالق .

قوله تعالى : وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ « ما » زائدة ، والتقدير : وإن نرينك بعض الذى نعدهم، أى من العذاب لقوله : « لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ فليس عليك إلا البلاغ، أى التبليغ، ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أى الجزاء والعقوبة .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعنى أهل مكة، ﴿ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ ﴾ أى نقصدها . ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » موت علمائها وصلحائها . قال القُشَيرى : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال ٱبن الأعرابى : الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم ؛ ولكن هذا القول بعيد ، لأن مقصود الآية : أنا أريناهم النقصان فى أمورهم ، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز ؛ إلا أن يحمل قول ٱبن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى . وقال مجاهد أيضا

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤٩ .

وقتـادة والحسن : هو مايغلب عليـه المسلمون ممـا فى أيدى المشركين ؛ وروى ذلك عن آبن عباس، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران فى ناحية منها ؛ وعن مجاهد : نقصانها خرابها وموت أهلها . وذكر وكيع بن الجرّاح عن طلحة بن عُمَير عن عطاء بن أبى رَبَاح فى قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهاب فقهائها وخيار أهلها . قال أبو عمـر بن عبد البر : قول عطاء فى تأويل الآية حسن جدّا ؛ تلقاه أهل العلم بالقبول .

قلت : وحكاه المهدوىّ عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأوّل نفسه ؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد، « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلمـاء ؛ ومعروف فى اللغـة أن الطَّرف الكريمُ من كل شىء ؛ وهـذا خلاف ما آرتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبـد الكريم من قول آبن عباس . وقال عِكْرِمة والشّعبىّ : هو النقصان وقبض الأنفس . قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حَشّك[1] . وقال الآخر : لضاق عليك حشٌّ تتبرز فيه . قيـل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبـل قريش وهلاك أرضهم بعدهم ؛ والمعنى : أو لم تر قريش هلاك من قبلهم، وخراب أرضهم بعدهم ؟ ! أفلا يخافون أن يحلّ بهم مثل ذلك ؛ وروى ذلك أيضا عن آبن عباس ومجاهد وآبن جُرَيج . وعن آبن عباس أيضا أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها . وقيل : [نقصها][2] بِجَوْر وُلَاتها .

قلت : وهذا صحيح معنى ؛ فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وآنجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة ، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أى ليس يتعقب حكمـه أحد بنقص ولا تغيير . ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى الانتقام من الكافريـن ، سريع الثواب للؤمن . وقيل : لا يحتاج فى حسابه إلى رَوِيّة قلب ، ولا عقد بنَان ؛ حسب ما تقدّم فى « البقرة »[3] بيـانه .

---

(١) الحش : موضع قضاء الحاجة . (٢) من ى . (٣) جـ ٢ ص ٤٣٢ فما بعد .

قوله تعالى : وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى من قبـل مشركى مكة ، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم . ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ أى هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضرّ إلا بإذنه. وقيل: فلله خير المكر، أى يجازيهم به. ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من خير وشر، فيجازى عليه . ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ ﴾ كذا قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو . الباقون: «الْكُفَّارُ» على الجمع . وقيـل : عنى [به](١) أبو جهل . ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أى عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا ، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ؛ وهذا تهديد ووعيد .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ قال قتادة : هم مشركو العرب؛ أى لست بنبىّ ولا رسول، وإنمـا أنت متقوّل؛ أى لمـا لم يأتهم بمـا اقترحوا قالوا ذلك . ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ ﴾ أى قـل لهم يا محمد : « كَفَى بِاللَّهِ » أى كفى الله ﴿ شَهِيـداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بصدقى وكذبكم . ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ وهذا احتجاج على مشركى العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — فى التفاسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم ؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سَلَام وسلمان الفارسىّ وتميم الدارىّ والنجاشىّ وأصحابه ؛ قاله قتادة وسعيد بن جُبَيْر . وروى الترمذىّ عن ابن أخى عبـد الله بن سَلَام قال : لمـا أريد [قتل](١) عثمان جاء عبد الله بن سَلَام فقال له عثمان : ماجاء بك؟ قال: جئت فى نصرتك؛ قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عنى، فإنك خارج خير لى من داخل؛ [قال](٢) فخرج عبد الله بن سَلَام الى الناس فقال : أيها الناس ! إنه كان اسمى فى الجاهلية فلان، فسمّا

(١) من ى .   (٢) فى ى : سفين ، ولعله تحريف عن حصين .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، ونزلت فيّ آيات من كتاب الله؛ فنزلت فيّ . « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[1] » ونزلت فيّ . « قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بكماله في كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جُبَيْر « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » ؟ قال : هو عبد الله بن سَلَام .

قلت : وكيف يكون عبد الله بن سَلَام وهذه السورة مكية[1] وابن سَلَام ما أسلم إلا بالمدينة ؟ ! ذكره الثعلبي . وقال القُشَيري : وقال ابن جُبَير السورة مكية وابن سَلَام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سَلَام؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول ابن عباس . وقال الحسن ومجاهد والضّحاك : هو الله تعالى؛ وكانوا يقرءون « وِمِن عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سَلَام وسَلْمان؛ لأنهم يَرَوْن أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة . ورُوِي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « وِمِن عِنْدِهِ عِلم الكتابِ » وإن كان في الرواية ضعف ، وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وروى محبوب عن إسمعيل بن محمد اليمانيّ أنه قرأ كذلك — « وِمِن عِنْدِهِ » بكسر الميم والعين والدال « عُلِمَ الكِتابُ » بضم العين ورفع الكتاب . وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سَلَام فقال : إنما ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين، والله أعلم .

قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه عليّ فعوّل على أحد وجهين : إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه . ولقول النبي صلى الله عليه وسلم . " أنا مدينة العلم وعلى بابها " وهو حديث باطل[2] ؛ النبيّ صلى الله عليه وسلم مدينة علم وأصحابه أبوابها ؛ فمنهم الباب المنفسح، ومنهم المتوسط ، على قدر منازلهم في العلوم . وأما من قال

---

(١) قيل : السورة مدنية إلا « ولو أن قرآنا » الآيتين . قاله قتادة . وفيها مدني كثير كقصة ابن الطفيل وأربد . ابن عطية .

(٢) في كشف الخفا بحث، قيم في هذا الحديث جـ ١ ص ٢٠٣ فما بعد . وجزم ابن تيمية بأنه من وضع الشيعة .

إنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يَعْلَم الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال هو عبد الله بن سَلَام فعوّل على حديث الترمذيّ؛ وليس يمتنع أن ينزل في عبد الله بن سَلَام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لفظا ؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعني قريشا؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفة النبوّة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سَلَام وغيره يحتمل أيضا؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

بسم الله الرحمن الرحيم

[صلى الله على محمد وآله وسلم تسليما](١)

تفسير سورة إبراهيم

مكية كلها فى قول الحسن وعِكرمة وجابر . وقال ٱبن عباس وقَتادة : إلا آيتين منها مدنيتين وقيل : ثلاث ، نزلت فى الذين حاربوا الله ورسوله وهى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً » إلى قوله : « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » .

قوله تعالى : الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ تقدّم معناه . ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ أى بالكتاب ، وهو القرآن ، أى بدعائك إليه . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم؛ وهذا على التمثيل؛ لأن الكفر بمنزلة الظلمة؛ والإسلام بمنزلة النور . وقيل : من البدعة إلى السُّنة ، ومن الشك إلى اليقين ؛ والمعنى متقارب . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، والباء فى « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » متعلقة بـ«ـتخرج» وأضيف الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعى والمنذر الهادى . ﴿ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقلِ الفاضلِ من غير واو ، لأنهما شيء واحد؛ والله هو العزيز الذى لا مثل له ولا شبيه . وقيل: « الْعَزِيزِ » الذى لا يغلبه غالب . وقيل : « الْعَزِيزِ » المنيع فى ملكه وسلطانه . « الْحَمِيدِ » أى المحمود بكل لسان ، والممجد فى كل مكان على كل حال . وروى مِقْسَم عن ٱبن عباس قال : كان قوم آمنوا بعيسى بن مريم ، وقوم كفروا به ، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعيسى ، وكفر الذين آمنوا بعيسى ؛ فنزلت هذه الآية ، ذكره الماوردىّ .

---

(١) فى و ى .

قوله تعالى : ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى ملكا وعبيدا واختراعا وخلقا. وقرأ نافع وابن عامر وغيرهما : «اللَّهُ» بالرفع على الابتداء «الَّذِى» خبره . وقيل : «الَّذِى» صفة ، والخبر مضمر؛ أى الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض قادر على كل شىء . الباقون بالخفض نعتا للعزيز الحميد فقدم النعت على المنعوت ؛ كقولك : مررت بالظريف زيد . وقيل : على البدل من « الْحَمِيد » وليس صفة؛ لأن اسم الله صار كالعلم فلا يوصف؛ كما لا يوصف بزيد وعمرو، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأن معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد . وقال أبو عمرو : والخفض على التقديم والتأخير، مجازه : إلى صراط الله العزيز الحميد الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . وكان يعقوب إذا وقف على «الْحَمِيد» رفع ، وإذا وصل خفض على النعت . قال ابن الأنبارى : من خفض وقف على « وَمَا فِي الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قد تقدم معنى الويل فى «البقرة»(1) وقال الزجاج : هى كلمة تقال للعذاب والهلكة . « مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » أى فى جهنم . ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى يختارونها على الآخرة ، والكافرون يفعلون ذلك . فـ«الَّذِينَ» فى موضع خفض صفة لهم . وقيل : فى موضع رفع خبر ابتداء مضمر ؛ أى هم الذين . وقيل : « الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ » مبتدأ وخبره . «أُولَئِكَ» . وكل من آثر الدنيا وزهرتها ، واستحب

(1) راجع جـ ٢ ص ٧ فما بعد .

البقاء فى نعيمها على النعيم فى الآخرة، وصدّ عن سبيل الله — أى صرف الناس عنه وهو دين الله، الذى جاءت به الرســل، فى قول ابن عباس وغيره — فهو داخل فى هذه الآية؛ وقد قال صلى الله عليه وســلم : " إنّ أخوف ما أخاف على أمتى الأئمــة المضلّون " وهو حديث صحيح . وما أكثر ما هم فى هذه الأزمان، والله المستعان . وقيل : «يَسْتَحِبُّونَ» أى يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته . ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى يطلبون لها زَيْغا وميلا لموافقة أهوائهــم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم . والسبيل تذكّر وتؤنّث . والعِوج بكسر العين فى الدّين والأمر والأرض، وفى كل ما لم يكن قائمــا؛ وبفتح العين فى كل ما كان قائمــا، كالحائط والرُّمح ونحوه؛ وقــد تقدم فى « آل عمران »(1) وغيرها . ﴿ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أى ذهاب عن الحق بعيد عنه .

قوله تعـالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ ﴾ أى قبلك يا محمد ﴿ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ أى بلغتهم، ليبيّنوا لهم أمر دينهم؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة؛ فهى اسم جنس يقع على القليل والكثير؛ ولا حجــة للعجم وغيرهم فى هــذه الآية؛ لأن كل من تُرجِم له ما جاء به النبي صلى الله عليــه وسلم ترجمــة يفهمها لزمته الحجــة؛ وقد قال الله تعــالى : «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا»(2) . وقال صلى الله عليه وسلم : " أُرسِل كلُّ نبيّ إلى أمته بلسانها وأرسلنى الله إلى كلّ أحمرَ وأسودَ من خَلْقه " . وقال صلى الله عليــه وسلم : " والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىّ ولا نصرانىّ ثم لم يؤمن بالذى أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النــار " . خرجه مسلم، وقد تقدّم . ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ردّ على القَدَرية فى نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس بمعطوف على

(1) راجع ج ٤ ص ١٥٤ . (2) راجع ج ١٤ ص ٣٠٠ .

« لِيُبَيِّنَ » لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال . ويجوز النصب فى « يضل » لأن الإرسال صار سببا للإضلال؛ فيكون كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا »(١) وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم ؛ فصار كأنه سبب لكفرهم . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ أى بحجتنا و براهيننا؛ أى بالمعجزات الدالة على صدقه . قال مجاهد : هى التسع الآيات(٢) . ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » نظيره قوله تعالى لنبينا عليه السلام أول السورة : « لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ . وقيل : « أَنْ » هنا بمعنى أى ، كقوله تعالى : « وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا »(٣) أى امشوا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ أى قل لهم قولا يتذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بنعم الله عليهم ؛ وقاله أبيّ بن كعب ورواه مرفوعا ؛ أى بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التيه إلى سائر النعم ، وقد تسمى النعم الأيام ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم(٤) :

* وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ *

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٥٢ . (٢) الآيات التسع هى : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا و يده والسنين ونقص من الثمرات . (٣) راجع جـ ١٥ ص ١٥١ .

(٤) البيت من معلقته وتمامه :

* عصينا الملك فيها أن ندينا *

وقد يكون تسميتها غرا لعلوهم على الملك وامتناعهم منه ، فأيامهم غر لهم ، وطوال على أعدائهم ؛ وعليه فلا دليل فى البيت على أن الأيام بمعنى النعم . وأيام بالجر عطف على (بأنا) فى البيت قبله ، و يجوز أن تجعل الواو بدلا من رب .

وعن ٱبن عباس أيضـا ومقاتل : بوقائع الله فى الأمم السالفة ؛ يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أى بوقائعها . قال ٱبن زيد : يعنى الأيام التى انتقم فيها من الأمم الخالية ؛ وكذلك روى ٱبن وهب عن مالك قال : بلاؤه . وقال الطبرىّ : وعظهم بمـا سلف فى الأيام المـاضية لهم ؛ أى بمـا كان فى أيام الله من النعمة[1] والمحنة ؛ وقد كانوا عبيدا مستذلين ؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنهـا كانت معلومة عندهم . وروى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بينا موسى عليـه السلام فى قومه يذكرهم بأيام الله وأيامُ الله بَلاؤه ونِعماؤه " وذكر حديث الخضر ؛ ودلّ هـذا على جواز الوعظ المرقّق للقـلوب ، المقوّى لليقين ، الخالى من كل بدعة ، والمنزه عن كل ضلالة وشـبهة . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أى فى التذكير بأيام الله ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات . ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أى كثير الصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه . ﴿ شَكُورٍ ﴾ لنعم الله . وقال قـتادة : هو العبد ؛ إذا أُعطِى شـكر ، وإذا ٱبتُـلِىَ صَبر . وروى عن النبى صلى الله عليـه وسـلم أنه قال : " الإيمـان نصفان نصف صـبر ونصف شكر ـــ ثم تلا هـذه الآية ـــ « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » " . ونحوه عن الشعبىّ موقوفا . وتوارى الحسن البصرىّ عن الحجّاج سبعَ سنين ، فلما بلغه موته قال : اللهـم قد أمتّه فأمِت سُنَّته ، وسجـد شكرا ، وقرأ : « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » . وإنمـا خص بالآيات كل صبار شكور ؛ لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها ؛ كما قال : « إِنَّمَـا أَنْتَ مُنْـذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا[2] » وإن كان منذرا للجميع .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

(١) فى أ و و : النقمة والمحنة . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٠٧ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ تقدم فى « البقرة »(١) مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ قيل : هو من قول موسى لقومه . وقيل : هو من قول الله ؛ أى واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . و « تَأَذَّنَ » وأذَن بمعنى أَعْلَمَ ؛ مثل أَوْعَد وتَوَعَّد ؛ روى معنى ذلك عن الحسن وغيره . ومنه الأذان ، لأنه إعلام ؛ قال الشاعر :

فَلَمْ نَشْعُرْ بضوءِ الصّبح حتّى * سمِعنا فى مجالِسنا الأَذِينَا

وكان ابن مسعود يقرأ : «وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ» والمعنى واحد . ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أى لئن شكرتم إنعامى لأزيدنكم من فضلى . الحسن : لئن شكرتم نعمتى لأزيدنكم من طاعتى . ٱبن عباس : لئن وَحَّدتم وأطعتم لأزيدنّكم من الثواب ، والمعنى متقارب فى هذه الأقوال ؛ والآية نصٌّ فى أن الشكر سبب المزيد ؛ وقد تقدم فى « البقرة »(٢) ما للعلماء فى معنى الشكر . وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال : ألّا تَتَقوّى بنعمه على معاصيه . وحكى عن داود عليه السلام أنه قال : أى رب كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة مجدّدة منك علىّ . قال : يا داود الآن شكرتنى .

قلت : فحقيقة الشكر على هذا الٱعترافُ بالنعمة للنعم ، وألّا يصرفها فى غير طاعته ؛ وأنشد الهادى وهو يأكل :

أَنالَكَ رِزقَه لتقومَ فيـه * بطاعتِه وتَشكرَ بعض حقِّه

فلم تشكُر لِنعمتِه ولكِنْ * قَوِيتَ على معاصِيه برزقه

فغُصّ باللقمة ، وخنقته العَبْرة . وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للمزيد . ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أى جحدتم حقّى . وقيل : نِعَمِى ؛ وَعَد بالعذاب على الكفر ، كما وَعَد بالزيادة على الشكر ، وحذفت الفاء التى فى جواب الشرط من «إن» للشهرة .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٣١ فما بعد .

(٢) راجع جـ ٢ ص ١٧١ فما بعد .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أى لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغنى . «الْحَمِيدُ» أى المحمود .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ النبأ الخبر، والجمع الأنباء ؛ قال[1] :

* أَلَمْ يَأْتِيكَ وَٱلأنبـاءُ تَنْمِى *

ثم قيل : هو من قول موسى . وقيل : من قول الله ؛ أى وآذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . وقيـل : هو آبتـداء خطاب من الله تعـالى . وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله فى كتابه . وقوله : ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أى لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يعرف نسبهم إلا الله ؛ والنّسابون و إن نَسَبو إلى آدم فلا يدّعون إحصاء جميع الأمم ، و إنمـا ينسبون البعض ، و يمسكون عن نسب البعض ؛ وقد روى عن النبي صلى الله عليـه وسـلم لمـا سمع النّسابين ينسـبون إلى معدّ بن عدنان ثم زادوا فقـال : "كذب النسابون إن الله يقول : «لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ»" . وقد رُوى عن عُروة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا أحدا يعرف ما بين عدنان و إسمعيل . وقال آبن عبـاس : بين عدنان و إسمعيل ثلاثون

(١) القائل هو : قيس بن زهير، وتمـام البيت : * بمـا لاقت لبون بنى زياد * . وبعده :

ومحبسها على القرشى تشرى * بأدراع وأسـياف حـداد

و بنو زياد : الربيع بن زياد و إخوته ، أخذ لقيس درعا فاستاق قيس إبل الربيع لمكة و باعها لعبد الله بن جدعان ـ وهو مراده بالقرشى ـ بدروع وسيوف .

أبا لا يعرفون . وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ : « لَا يَعلمهُمْ إِلَّا اللهُ » : كذب النسابون .
﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالحجج والدلالات . ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى جعل أولئك القوم أيدى أنفسهم فى أفواههم ليَعضُّوها (١) غيظا ممـا جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم؛ قاله ابن مسعود، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ: «عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ (٢)» . وقال ابن عباس : لمـا سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . وقال أبو صالح : كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم : أَنِ اسكت، تكذيبا له، وردًّا لقوله؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . والضميران للكفار؛ والقول الأول أصحها إسنادا؛ قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن أبى إسحق عن أبى الأحوص [عن] (٣) عبد الله فى قوله تعـالى « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ » قال : عَضُّوا عليها غيظا؛ وقال الشاعر :

لو أنّ سَـلْمَى أَبْصَرتْ تَخَدُّدِى (٤)　*　ودِقَّةً فى عظـم سـاقى ويَدى
وبُعْدَ أَهْـلِى وجَفَاءَ عُوَّدِى　*　عَضَّتْ من الوَجْدِ بأطرافِ اليدِ

وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران (٢) » مجوّدا، والحمد لله . وقال مجاهد وقَتَادة : ردّوا على الرسل قولهم وكذّبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأول للرسل، والثـانى للكفار . وقال الحسن وغيره : جعلوا أيديهم فى أفواه الرسـل ردًّا لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار، والثانى للرسل . وقيـل معناه : أَوْمأوا للرسل أن يسكتوا . وقال مقاتل : أخذوا أيدى الرسـل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : ردّ الرسل أيدى القوم فى أفواههم . وقيل : إن الأيدى هنا النِّعم؛ أى ردّوا نِعم الرسل بأفواههم، أى بالنطق والتكذيب؛ ومجىء الرسل بالشرائع نِعَمٌ؛ والمعنى : كذّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسـل . و « فى » بمعنى الباء؛ يقـال : جلست فى البيت وبالبيت؛ وحروف الصـفات يقام بعضها مقـام بعض . وقال أبو عبيدة : هو ضرب مَثَل؛ أى لم يُؤْمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن

(١) من ى ، وهى رواية ابن عباس . وفى ا و ح و و : عضا .　(٢) راجع ج ٤ ص ١٨٢ .
(٣) من ى .　(٤) التخدد : أن يضطرب اللحم من الهزال .

الجواب وسكت : قد ردّ يده فى فيه؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال القُتَبيّ : لم نسمع أحدا من العرب يقول : ردّ يده فى فيه إذا ترك ما أمر به، و إنما المعنى : عضوا على الأيدى حنقا وغيظا ؛ لقول الشاعر :

تَرُدُّون فى فِيه غِشَّ الحَسُو * دِ حتى يَعَضّ علىّ الأكُفَّا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه وكفّيه . وقال آخر :

قَد أَفْنَى أَنَامِلَهُ أَزْمَةٌ(١) * فأضحَى يَعَضُّ علىّ الوَظِيفَا

وقالو : — يعنى الأمم للرسل — ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أى بالإرسال على زعمكم، لا أنهم أقروا أنهم أُرسلوا . ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ ﴾ أى فى ريب ومِرية . ﴿ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى موجب للتريبة ؛ يقال : أربته إذ فعلت أمرا أوجب ريبة وشكًّا؛ أى نظنّ أنكم تطلبون الملك والدنيا .

قوله تعالى : قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ ﴾ آستفهام معناه الإنكار؛ أى لا شك فى الله، أى فى توحيده؛ قاله قَتَادة . وقيل : فى طاعته . ويحتمل وجها ثالثا : أفى قدرة الله شك؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها ؛ يدلّ عليه قوله : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم ، لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له . ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ أى إلى طاعته بالرسل والكتب . ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ قال أبو عبيد : « مِنْ » زائدة . وقال سيبويه : هى للتبعيض؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع .

(١) أزمة : عضا؛ والوظيف لكل ذى أربع : ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق .

وقيل : « من » للبدل وليست بزائدة ولا مبعّضة؛ أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب . ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ يعنى الموت ، فلا يعذبكم فى الدنيا . ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ ﴾ أى ما أنتم . ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ فى الهيئة والصورة ؛ تأكلون مما نأكل ، وتشربون مما نشرب ، ولستم ملائكة . ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة ظاهرة؛ وكان هذا محالا منهم؛ فإن الرسل مادعوا إلا ومعهم المعجزات .

قوله تعالى : قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى فى الصورة والهيئة كما قلتم . ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى يتفضّل عليه بالنبوّة . وقيل؛ بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية . وقال سهل بن عبد الله : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه .

قلت: وهذا قول حسن؛ وقد خرّج الطبريّ من حديث ابن عمر قال قلت لأبى ذر: ياعمّ أوصنى؛ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال : "ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمنّ بها على من يشاء من عباده وما منّ الله تعالى على عباده بمثل أن يلهمهم ذكره" . ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ ﴾ أى بحجة وآية . ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بمشيئته ، وليس ذلك فى قدرتنا ؛ أى لا نستطيع أن نأتى بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته ؛ فلفظه لفظ الخبر ، ومعناه النفى ، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه .

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ « ما » استفهام فى موضع رفع بالابتداء ، و « لَنَا » الخبر، وما بعدها فى موضع الحال؛ التقدير: أىّ شىء لنا فى ترك التوكل على الله . ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته ، وينجى من سخطه ونقمته . ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ لام قسم ؛ مجازه : والله لنصبرن ﴿عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ به ، أى من الإهانة والضرب ، والتكذيب والقتل ، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا . ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ اللام لام قسم ؛ أى والله لنخرجنكم . ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أى حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا ؛ قاله الطبرىّ وغيره . قال ابن العربى : وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير ؛ فإنّ « أو » على بابها من التخيير ؛ خيّر الكفار الرسل بين أن يعودوا فى ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم ؛ وهذه سيرة الله تعالى فى رسله وعباده ؛ ألا ترى إلى قوله : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا »[1] وقد تقدم هذا المعنى فى «الأعراف»[2] وغيرها . ﴿فِى مِلَّتِنَا﴾ أى إلى ديننا ، ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أى مقامه بين يدىّ يوم القيامة ؛ فأضيف المصدر إلى الفاعل . والمقام مصدر كالقيام ؛ يقال : قام قياما ومقاما ؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به . والمقام بفتح الميم مكان الإقامة ، وبالضم فعل الإقامة ؛ و « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى » أى قيامى عليه ، ومراقبتى له ؛ قال الله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ »[3] . وقال الأخفش : « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى » أى عذابى ، « وَخَافَ وَعِيدِ » أى القرآن وزواجره . وقيل : إنه العذاب . والوعيد الاسم من الوعد .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٠١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٠ . (٣) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء .

قوله تعالى : وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا ﴾ أى واستنصروا ؛ أى أذن للرسل فى الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم ؛ قاله ابن عباس وغيره، وقد مضى فى « البقرة »[1] . ومنه الحديث : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين ، أى يستنصر . وقال ابن زيد : استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ »[2] الآية . وروى عن ابن عباس . وقيل قال الرسول : " إنهم كذبونى فافتح بيني و بينهم فتحا " وقالت الأمم : إن كان هؤلاء صادقين فعذّبنا ، عن ابن عباس أيضا ؛ نظيره « ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »[3] « ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ »[4] . ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ الجبار المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا ؛ هكذا هو عند أهل اللغة ، ذكره النحاس . والعنيد المعاند للحق والمجانب له ، عن ابن عباس وغيره ؛ يقال : عَنَد عن قومه أى تباعد عنهم . وقيل : هو من العَنَد ، وهو الناحية وعاند فلان أى أخذ فى ناحية مُعرِضا ؛ قال الشاعر :

إذا نزلتُ فاجعلونى وَسَطا * إنّى كبيرٌ لا أُطيقُ العُنَّدَا

وقال الهروى قوله تعالى : «جَبَّارٍ عَنِيدٍ» أى جائر عن القصد ؛ وهو العَنُود والعَنِيد والعاند ؛ وفى حديث ابن عباس وسئل عن المستحاضة فقال : إنه عِرْقٌ عانِدٌ . قال أبو عبيد : هو الذى عَنَد وبَغَى كالإنسان يعانِد ؛ فهذا العرق فى كثرة ما يخرج منه بمنزلته . وقال شَمِر : العاند الذى لا يرقأ . وقال عمر يذكر سيرته : أَضُمُّ العَنُود ؛ قال الليث : العنود من الإبل الذى لا يخالطها إنما هو فى ناحية أبدا ؛ أراد من هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها . وقال مقاتل : العنيد المتكبر . وقال ابن كَيْسان : هو الشامخ بأنفه . وقيل : العَنُود والعَنِيد الذى

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٤١ .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٤٠ .

يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها ؛ تقول العرب : شر الإبل العنود الذى يخرج عن الطريق . وقيل : العنيد العاصى . وقال قتادة : العنيد الذى أبى أن يقول لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفا ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أى متكبر . وقيل : إن المراد به فى الآية أبو جهل ؛ ذكره المهدوىّ . وحكى الماوردىّ فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله عز وجل : « وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » فمزق المصحف وأنشأ يقول :

أتُوعِـدُ كلَّ جَبَّارٍ عَنِيـدِ * فها أنا ذاكَ جبَّـارٌ عَنيدُ
إذا ما جِئتَ ربَّكَ يوم حَشْرٍ * فَقُلْ يارَبِّ مزَّقنِي الوليدُ

فلم يلبث [إلا][1] أياما حتى قُتل شرّ قِتلةٍ ، وصُلِب رأسه على قصره ، ثم على سُور بلده .

قوله تعالى : ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أى من وراء ذلك الكافر جهنم ، أى من بعد هلاكه . ووراء بمعنى بعدُ ؛ قال النابغة :

حَلَفتُ فلم أترك لِنفسكَ رِيبةً * وليس وراءَ اللهِ للمـرء مذهبُ[2]

أى بعد الله جلّ جلالُه ، وكذلك قوله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى من بعده ، وقوله تعالى : « وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ »[3] أى بما سواه ؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيد : بما بعده . وقيل : « مِنْ وَرَائِهِ » أى من أمامه ، ومنه قول الشاعر :

ومِنْ ورائِكَ يومٌ أنتَ بالِغُه * لاحاضرٌ مُعجِزٌ عنـه ولا بادِى

وقال آخر :

أتَرْجُو بنو مروانَ سمعِى وطاعتِى * وقومى تميـمٌ والفـلاةُ ورائيـا

وقال لبيد :

أليس ورائِى إنْ [تَراخَتْ][4] مَنِيَّتِى * لُزومُ العَصَا تُحنَى عليها الأصابعُ

(١) من و . (٢) ويروى : مهرب . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٩ . (٤) كذا فى ديوانه واللسان ، وفى الأصل : « إن بلغت منيتى » .

يريد أمامي . وفى التنزيل: «كَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ»[1] أى أمامهم؛ و إلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو علي قُطرُب وغيرهما . وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من ورائك، أى سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان أى فى طلبه وسأصل إليه . وقال النحاس : فى قوله «مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ» أى من أمامه، وليس من الأضداد ولكنه من توارى؛ أى آستتر . وقال الأزهرى : إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد ، وقاله أبو عبيدة أيضا ، واشتقاقهما مما توارى واستتر، فجهنم تَوَارَى ولا تظهر، فصارت من وراء لأنها لا ترى ؛ حكاه ابن الأنبارى وهو حسن .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أى من ماء مثل الصديد ، كما يقال للرجل الشجاع أسد ، أى مثل الأسد ، وهو تمثيل وتشبيه . وقيل : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم . وقال محمد بن كعب القُرَظيّ والربيع بن أنس : هو غَسالة أهل النار، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزوانى . وقيل : هو من ماء كرهته تَصدّ عنه ، فيكون الصديد مأخوذا من الصدّ . وذكر ابن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عُبيد الله بن بُسْر عن أبى أُمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : «وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ» قال : "يُقرَّب إلى فِيهِ فيكرهه فإذا أدنى منه شَوَى وجهه ووقعت فَرْوة رأسه فإذا شرب به قطّع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله : «وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ»[2] و يقول الله : «وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ»[3]" خرجه الترمذى ، وقال : حديث غريب ، وعُبيد الله بن بُسْر الذى روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبى أمامة لعله أن يكون أخا عبد الله ابن بُسْر . ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أى يتحسّاه جُرَعا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته . ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أى يبتلعه؛ يقال : جرع الماء وآجترعه وتجرعه بمعنى . وساغ الشرابُ فى الحلق يسوغ سَوْغا إذا كان سَلِسا سهلا ، وأساغه اللهُ إساغةً . و « يَكَادُ » صلة ؛ أى يسيغه بعد إبطاء ، قال الله تعالى : « وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ »[4] أى فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال : «يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ»[5] فهذا يدلّ على الإساغة . وقال ابن عباس : يجيزه ولا يمر به[6] . ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٧ . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٩ .
(٤) راجع جـ ١ ص ٤٥٥ . (٥) راجع جـ ١٢ ص ٢٧ . (٦) كذا فى الأصل ؛ ولعله «لا يجيزه ولا يمر به» .

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أى يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ومن قدّامه وخلفه ، كقوله : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ (١) » . وقال إبراهيم التيمى : يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره ؛ للآلام التى فى كل مكان من جسده . وقال الضحّاك : إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجليه . وقال الأخفش : يعنى البلايا التى تصيب الكافر فى النار سماها موتا ، وهى من أعظم الموت . وقيل : إنه لايبقى عضو من أعضائه إلا وكّل به نوع من العذاب ؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها فى فرد لحظة ؛ إما حية تنهشه ، أو عقرب تلسبه (٢) ، أو نار تسفعه ، أو قيد برجليه ، أو غُلّ فى عنقه ، أو سلسلة يقرن بها ، أو تابوت يكون فيه ، أو زقّوم أوحميم ، أو غير ذلك من العذاب . وقال محمد بن كعب : إذا دعا الكافر فى جهنم بالشراب فرآه مات موتاتٍ ، فإذا دنا منه مات موتاتٍ ، فإذا شرب منه مات موتاتٍ ؛ فذلك قوله : « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . قال الضحّاك : لايموت فيستريح . وقال ابن جريج : تعلق رُوحه فى حنجرته فلا تخرج من فِيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ؛ ونظيره قوله : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (٣) » . وقيل : يخلق الله فى جسده آلاما كل واحد منها كألم الموت . وقيل : « وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » لتطاول شدائد الموت به ، وآمتداد سكراته عليه ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابه .

قلت : ويظهر من هذا أنه يموت ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا (٤) » وبذلك وردت السنة ؛ فأحوال الكفار أحوال من آستولى عليه سكرات الموت دائما ، والله أعلم . ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ ﴾ أى من أمامه . ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ (٥) ﴾ أى شديد متواصل الآلام من غير فتور ؛ ومنه قوله : « وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » أى شدة وقوة . وقال فُضَيل بن عِياض فى قول الله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » قال : حبس الأنفاس .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٢ . (٢) تلسبه : تلدغه ، وتسفعه تسود وجهه . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٢٥ . (٤) راجع جـ ١٤ ص (٥) راجع جـ ٨ ص ٢٩٨ فما بعد .

قوله تعالى : مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النحويون في رفع «مَثَلُ» فقال سيبويه : ارتفع بالابتداء والخبر مضمر؛ التقدير : وفيما يُتلى عليكم أو يُقَصّ «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» ثم ابتدأ فقال : «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ» أى كمثل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾. وقال الزجاج : أى مَثَل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالُهم كرماد، وهو عند الفراء على إلغاء المَثَل، التقدير : والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد . وعنه أيضا أنه على حذف مضاف ؛ التقدير : مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد؛ وذكر الأول عنه المهدوى، والثانى القُشَيرى والثعلبى ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال: صفة فلان أسمر؛ فـ« مَثَلُ » بمعنى صفة. ويجوز فى الكلام جر «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الَّذِينَ» واتصل هذا بقوله : «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» والمعنى : أعمالهم مُحْبَطة غير مقبولة . والرماد مابقى بعد احتراق الشيء؛ فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفّار فى أنه يمحقها كما تمحق الرّيحُ الشديدة الرّمادَ فى يوم عاصف . والعَصْفُ شدة الريح؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفى وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثة أقاويل : أحدها — أن العُصُوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به ؛ لأن الريح تكون فيه، فجاز أن يقال : يوم عاصف، كما يقال: يوم حارّ ويوم بارد، والبرد والحرّ فيهما . والثانى — أن يريد «فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ» الرّيح ؛ لأنها ذكرت فى أول الكلمة، كما قال الشاعر:

* إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمسِ كاسِفُ *

يريد كاسف الشمس فحذف؛ لأنه قد مرّ ذكره؛ ذكرهما الهَرَوى . والثالث — أنه من نعت الريح ؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ ؛ ذكره

الثعلبيّ والماورديّ . وقرأ ٱبن [أبي] (١) إسحق وإبراهيم بن أبي بكر « في يومِ عاصِفٍ » (٢) .
﴿ لَا يَقْدِرُونَ ﴾ يعني الكفار . ﴿ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ يريد في الآخرة ؛ أي من ثواب ما عملوا من البرّ في الدنيا ، لإحباطه بالكفر . ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ أي الخسران الكبير ؛ وإنما جعله كبيرا بعيدا لفوات ٱستدراكه بالموت .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ الرؤية هنا رؤية القلب ؛ لأن المعنى : ألم ينته علمك إليه ؟ . وقرأ حمزة والكسائي — « خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » . ومعنى « بِالْحَقِّ » ليستدلّ بها على قدرته . ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أيها الناس؛ أي هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء؛ فلا تعصوه فإنكم إن عصيتموه ﴿ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبدال .
﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي منيع متعذر .

قوله تعالى : وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

(١) من ا و ز و و ى والبحر . (٢) هذه القراءة بإضافة يوم إلى عاصف ، ومن قرأ بها أقام الصفة مقام الموصوف ؛ أي في يوم ريح عاصف . وقراءة نافع وابن جعفر : الرياح . على الجمع

قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أى برزوا من قبورهم ، يعنى يوم القيامة . والبُرُوز الظهور . والبَرَاز المكان الواسع لظهوره ؛ ومنه امرأة بَرْزة[1] أى تظهر للناس ؛ فمعنى « بَرَزُوا » ظهروا من قبورهم . وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال ، واتصل هذا بقوله : « وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أى وقاربوا لما استفتحوا فأهلكوا ، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعا لا يسترهم عنه ساتر . « لِلَّهِ » لأجل أمر الله إياهم بالبروز . ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾ يعنى الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة . ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ يجوز أن يكون تَبَعٌ مصدرا ؛ التقدير : ذوى تبع . ويجوز أن يكون جمع تابع ؛ مثل حارس وحَرَس ، وخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد ، وباقر وبَقَر[2] . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أى دافعون ﴿ عنا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا ، و« مِن » صلة ؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع . ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أى لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل ؛ لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ هذا ابتداء خبره « أَجَزِعْنَا » أى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أى من مهرب وملجأ . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى الأسم ؛ يقال : حَاصَ فلان عن كذا أى فر وزاغ يَحِيص حَيْصًا وحُيُوصًا وحَيَصَانًا ؛ والمعنى : مالنا وجه نتباعد به عن النار . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقول أهل النار إذا اشتد بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمَّ فلنجزع فيجزعون و يصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ» " . وقال محمد بن كعب القُرَظى : ذُكِر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون ؛ فهلم فلنصبر ؛ فلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا ؛ فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا ، فطال صبرهم فجزعوا ، فنادوا : «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا

---

(١) قال فى المصباح : امرأة برزة عفيفة تبرز للرجال وتتحدث معهم وهى المرأة التى أسنت وخرجت عن حد المحجوبات . اهـ وامرأة برزة بارزة المحاسن . قال الراغب : لأن رفعها بالعفة لا إن اللفظة اقتضت ذلك .

(٢) بقر : شق ووسع

مَالَنَـا مِنْ مَحِيص » أى مَنجًى ، فقام إبليس عند ذلك فقال : « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَـقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ » يقول : لست بمغنٍ عنكم شيئا « وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ » الحديث بطوله ، وقد كتبناه فى كتاب « التذكرة » بكماله .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ قال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيبا فى جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعا . ومعنى : « لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ » أى حُصِّل أهـل الجنة فى الجنة وأهل النـار فى النـار ، على ما يأتى بيانه فى « مريم »[1] عليها السـلام . ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَـقِّ ﴾ يعنى البعث والجنة والنـار وثواب المطيع وعقاب العـاصى فصـدَّقكم وعدَه ، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنـة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم . وروى ابن المبـارك من حديث عُقْبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى حديث الشفاعة قال : " فيقول عيسى أدلّكم على النبي الأمى فيأتونى فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب ريح شمّهـا أحدٌ حتى آتى ربى فيشفِّعنى ويجعل لى نورا من شـعر رأسى إلى ظفر قدمى ثم يقول الكافرون قـد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنـا فيقولون ماهو غير إبليس هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قـد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنـا فإنك أضللتنا فيثُور مجلسُه من أنتن ريح شمّها أحدٌ ثم يعظُم نَحِيبهم ويقول عند ذلك : « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ » الآية[2] . « وَعْدَ الْحَقِّ » هو إضافة الشيء إلى نعته كقولهم : مسجد الجامع ؛ قال الفرّاء قال البصريون : وعدكم وعد اليوم الحقّ أو وعدكم وعد الوعد الحقّ فصدَّقكم ؛ فحذف المصدر لدلالة الحال . ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة وبيان ؛ أى ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزيّنته لكم فى الدنيا ، ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أى أغويتكم فتابعتمونى . وقيـل : لم أقهركم على ما دعوتكم إليه . « إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ » هو آستثناء منقطع ؛ أى لكن دعوتكم بالوسواس فآستجبتم لى باختياركم ، « فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » . وقيل . « وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » أى على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٥ ١ (٢) كذا فى الأصول .

دعوتكم فاستجبتم لى ؛ وهذا على أنه خَطَب العاصىَ المؤمنَ والكافرَ الجاحد ؛ وفيه نظر ؛ لقوله : « لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ » فإنه يدلّ على أنه خَطَب الكفّار دون العاصين الموحِّدين ؛ والله أعلم . ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إذا جِئتمونى من غير حجة . ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أى بمغيثكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أى بمغيثىّ . والصّارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النُّصرة والمعاونة ، والمُصْرِخ هو المغيث . قال سَلَامة بن جَنْدَل :

كنّا إذا ما أتانا صارِخٌ فَزِعٌ　＊　كان الصُّراخُ له قَرْعُ الظَّنَابِيب (١)

وقال أُميّة بن أبى الصَّلْت :

ولا تجزَعوا إنّى لكم غيرُ مُصْرِخٍ　＊　وليس لكم عندى غَنَاءٌ ولا نَصْرُ

يقال : صَرَخ فلان أى آستغاث يَصْرُخ صَرْخا وصُرَاخا وصَرْخة . وآصطرخ بمعنى صَرَخ . والتَّصرخ تَكلُّف الصُّراخ . والمُصْرِخ المُغِيث ، والمستصرِخ المستغيث ؛ تقول منه : آستصرخنى فأصرخته . والصَّرِيخ صوت المستصِرخ . والصّرِيخ أيضا الصارِخ ، وهو المغِيث والمستغِيث ، وهو من الأضداد ؛ قاله الجوهرى . وقراءة العامة « بِمُصْرِخِيَّ » بفتح الياء . وقرأ الأعمش وحمزة « بمصرِخِي » بكسر الياء . والأصل فيها بمصرخيين فذهبت النون للإضافة ، وأدغمت ياء الجماعة فى ياء الإضافة ، فمن نصب فلأجل التضعيف ، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ماقبلها تعيّن فيها الفتح مثل : هَوايَ وعَصايَ ، فإن تحرك ماقبلها جاز الفتح والإسكان ، مثل : غلامِيَ وغلامِي ، ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر ، لأن الياء أخت الكسرة . وقال الفرّاء : قراءة حمزة وَهْمٌ منه ، وقلّ مَن سلِم منهم (٢) عن خطأ . وقال الزجّاج : هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف . وقال قُطْرُب : هذه لغة بنى يَرْبُوع يزيدون على ياء الإضافة ياء . القُشَيرىّ : والذى يغنى عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيحٌ أو ردىءٌ ، بل هو فى القرآن فصيح ، وفيه ماهو أفصح منه ، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذى قرأ به حمزة أفصح . ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي

---

(١) الظنابيب (جمع) ظنبوب ؛ وهو حرف الساق اليابس من قدم . وقرع الظنبوب أن يقرع الرجل ظنبوب البعير لينوخ له فيركبه ، والمراد هنا سرعة الإجابة .　(٢) أى من القراء .

مِنْ قَبْلُ ﴾ أى كفرت بإشراككم إياى مع الله تعالى فى الطاعة؛ فـ « ما » بمعنى المصدر . وقال ابن جريج[1] : إنى كفرت اليوم بما كنتم تدعونه فى الدنيا من الشّرك بالله تعالى . قتادة : إنى عصيت الله . الثورى : كفرت بطاعتكم إياى فى الدنيا . ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وفى هـذه الآيات ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم؛ انظر إلى قول المتبوعين : « لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ » وقول إبليس : « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ » كيف اعترفوا بالحق فى صفات الله تعالى وهم فى دركات النار؛ كما قال فى موضع آخر : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا » إلى قوله : « فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ[2] » واعترافهم فى دركات لظى بالحق ليس بنافع ، وإنما ينفع الاعتراف صاحبه فى الدنيا؛ قال الله عز وجل : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ[3] » و « عسى » من الله واجبة[4] .

قوله تعالى : وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أى فى جنات لأن دخلت لا يتعدى ، كما لا يتعدى نقيضه وهو خرجت ، ولا يقاس عليه؛ قاله المهدوى . ولما أخبر تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة أيضا . وقراءة الجماعة « أُدْخِلَ » على أنه فعل مبنى للفعول . وقرأ الحسن « وَأُدْخِلُ » على الاستقبال والاستئناف . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى بأمره . وقيل : بمشيئته وتيسيره . وقال : « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » ولم يقل : بإذنى تعظيما وتفخيما . ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ تقدم فى « يونس[3] » . والحمد لله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

(١) كذا فى ع ، وفى ا و جـ و و : ابن بحر .
(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢١٢ .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٤١ وص ٣١٣ .
(٤) أى ما دلت عليه محقق الحصول من الله .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ لما ذكر تعالى مَثَل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدّت به الريح فى يوم عاصف، ذكر مَثَل أقوال المؤمنين وغيرها، ثم فسّر ذلك المَثَل فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثمر، فحذف لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن . وقال مجاهد وابن جريج : الكلمة الطيبة الإيمان . عطية العَوْفى والربيع بن أنَس : هى المؤمن نفسه . وقال مجاهد أيضا وعِكْرمة : الشّجرة النّخلة؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة فى قلب المؤمن — وهو الإيمان — شبّهه بالنخلة فى المَنْبِت، وشبّه ارتفاع عمله فى السماء بارتفاع فروع النّخلة، وثواب الله له بالثّمر . وروى من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن مَثَل الإيمان كمثل شجرة ثابتةٍ الإيمان عُروقُها والصلاةُ أصلُها والزكاةُ فروعُها والصيامُ أغصانُها والتأذى فى الله نباتُها وحسنُ الخُلُق ورقُها والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها". ويجوز أن يكون المعنى: أصل النّخلة ثابت فى الأرض؛ أى عروقُها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها، فهى زاكية نامية. وخرّج الترمذىّ من حديث أَنَس بن مالك قال : أُتِى رسول الله صلى الله عليه وسلم بِقِناع[1] فيه رُطَب، فقال : "﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ — قال — هى النخلة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ — قال — هى الحنظل" . وروى عن أنس قوله [وقال[2]] : وهو أصح . وخرّج الدّار قُطْنىّ عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتدرون ما هى" فوقع فى نفسى أنها النّخلة . قال السُّهَيلىّ ولا يصح فيها ما روى عن علىّ بن أبى طالب أنها جَوْزة الهند؛ لِما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر " إنّ من الشجرة شجرةً لا يسقط ورقها وهى مِثْلُ المؤمن خبِّرونى ماهى — ثم قال — هى النخلة " خرّجه مالك فى « الموطأ » من رواية ابن القاسم وغيره إلّا يحيى فإنه أسقطه من روايته . وخرجه أهل الصحيح و زاد

(١) القناع : الطبق من عسب النخل يوضع فيه الطعام والفاكهة . (٢) أى قال الترمذى : والحديث الموقوف أصح.

فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوى رِحلة[١]؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "وهى النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة" . فبيّن معنى الحديث والمماثلة .

قلت : وذكر الغَزْنَوِيّ عنه عليه السلام "مَثَلُ المؤمن كالنّخلة إن صاحبتَه نفعك وإن جالستَه نفعَك وإن شاورتَه نفعك كالنخلة كل شئ منها ينتفع به" . وقال : "كُلُوا من عَمَّتكم" يعنى النخلة خلقت من فَضْلة طينة آدم عليه السلام ، وكذلك أنها برأسها تَبقى ، وبقلبها تَحيا ، وثمرها بامتزاج الذّكر والأنثى . وقد قيل : إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبّهت به ؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها ، والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلا ، ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان فى الالتقاح لأنها لا تحمل حتى تُلَقَّح قال النبي صلى الله عليه وسلم : "خير المال سِكّة مَأْبُورَة ومُهْرَة مأمورة"[٢] . والإبّار اللقاح وسيأتى فى سورة « الحجر »[٣] بيانه . ولأنها من فضلة طينة آدم . ويقال : إن الله عز وجل لما صوّر آدم من الطّين فَضَلت قطعة طين فصوّرها بيده وغرسها فى جنّة عَدْن . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أكرموا عَمّتكم" قالوا : ومن عمتنا يارسول الله؟ قال : "النخلة" . ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ قال الربيع : « كُلَّ حِينٍ » غدوة وعشية كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره ؛ وقاله ابن عباس . وعنه « تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ » قال : هو شجرة [جوزة][٤] الهند لا تتعطل من ثمرة ، تحمل فى كل شهر ؛ شبه عمل المؤمن لله عز وجل فى كل وقت بالنخلة التى تؤتى أكلها فى أوقات مختلفة . وقال الضحاك : كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل فى جميع الأوقات ، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير فى الأوقات كلها . وقال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة ، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره ، وأنشد الأصمعيّ بيت النّابغة :

تَنَاذَرهـا الرَّاقُونَ مِن سُوءِ سَمِّها * تُطَلِّقُه حِينًـا وحِينًـا تُرَاجِـعُ[٥]

---

(١) أى يجب أن يرحل إليها لروايتها . (٢) السكة : الطريقة المصطفة من النخل ، والمهرة المأمورة الكثيرة النسل والنتاج ؛ أراد خير المال نتاج أو زرع . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٥ . (٤) من ى .

(٥) البيت فى وصف حية ؛ و « تناذرها الراقون » أى أنذر بعضهم بعضا ألا يتعرضوا لها . ومعنى : « تطلقه حينا وحينا تراجع » أنها تخفى الأوجاع عن السليم تارة ، وتارة تشتد عليه . و يروى : « من سوء سمعها » أى أنها لا تجيب الراقى لا أنها صماء ؛ لقولهم : أسمع من حية .

فهذا يبيّن لك أن الحين بمعنى الوقت ، فالإيمان ثابت فى قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع فى السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النّخلة فى أوقات السنة كلها ، من الرطب والبُسْر والبلح والزّهْو[1] والتّمر والطّلع . وفى رواية عن ابن عباس : إن الشجرة شجرة فى الجنة تثمر فى كل وقت . و «مَثَلًا» مفعول بـ«ضَرَبَ »، « وكَلِمَةً » بدل منه، والكاف فى قوله : « كَشَجَرَةٍ » فى موضع نصب على الحال من « كَلِمَة » التقدير : كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة .

الثانيـة ـ قوله تعالى : " تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ " لما كانت الأشجار تؤتى أكلها كل سنة مرة كان فى ذلك بيان حكم الحين ؛ ولهذا قلنا : من حلف ألّا يكلّم فلانا حينا، ولا يقول كذا حينا إن الحين سنة . وقد ورد الحين فى موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »[2] قيل فى « التفسير » : أربعون عاما . وحكى عِكرمة أن رجلا قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حُرٌّ، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله ، فسألنى عنها فقلت : إن من الحين حينا لا يدرك ، قوله : « وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ»[3] فأرى أن تُمسك ما بين صِرام[4] النّخلة إلى حَمْلها ، فكأنه أعجبه ؛ وهو قول أبى حنيفة فى الحين أنه ستة أشهر اتباعا لعكرمة وغيره . وقد مضى ما للعلماء فى الحين فى « البقرة »[5] مستوفى والحمد لله . ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى الأشباه ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ويعتبرون ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الكلمة الخبيثة كلمة الكفر . وقيل: الكافر نفسه . والشجرة الخبيثة شجرة الحَنظَل كما فى حديث أنس ، وهو قول ابن عباس ومجاهد

---

(١) الزهو : البسر الملون . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١١٩ . (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٥٠
(٤) صرام النخلة : حين يقطع ثمرها . (٥) راجع جـ ١ ص ٣٢١ فما بعد .

وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا : أنها شجرة لم تخلق على الأرض . وقيل : هى شجرة الثوم؛ عن ابن عباس أيضا . وقيل : الكَمْأَةُ أو الطّحلبة . وقيل : الْكَشُوث، وهى شجرة لا ورق لها ولا عروق فى الأرض ؛ قال الشاعر :

* وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصلٌ ولا ورقٌ (١) *

﴿ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ﴾ اقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط (٢) :

هــو الجلاءُ الذى يَجتثُّ أصـلَكُمُ * فمن رأى مثلَ ذا يومًا ومن سَمِعَـا

وقال المؤرج : أُخِذَت جثّتها وهى نفسها، والجثّـة شخص الإنسان قاعدا أو قائمـا . وَجَثّه قَلَعـه ، واجتثه اقتلعه من فوق الأرض ؛ أى ليس لهـا أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض . ﴿ مَالَهَـا مِنْ قَرَارٍ ﴾ أى من أصل فى الأرض . وقيل: من ثبات ؛ فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد له قولٌ طيّب ولا عملٌ صالح . وروى معاوية ابن صالح عن علىّ بن أبى طلحة فى قوله تعالى : «ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً» قال: لا إله إلا الله «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَـةٍ » قال : المؤمن؛ « أَصْلُهَـا ثَابِتٌ » لا إله إلا الله ثابتة فى قلب المؤمن؛ « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ» قال : الشرك، « كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ » قال : المشرك؛ «ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ» أى ليس للشرك أصل يعمل عليه . وقيل : يرجع المَثَل إلى الدعاء إلى الإيمان، والدعاء إلى الشرك؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشىء .

قوله تعـالى : يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ قال ابن عباس : هـو لا إله إلا الله . وروى النسائى عن البَرَاء قال قال : « يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ

(١) تمـامه :

* ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر *

يريد أنهم لا حسب لهم ولا نسب . رواية اللسان والتاج : هو الكشوث .

(٢) هو لقيط بن معمر الأيادى، والبيت من قصيدة بعث بها إلى قومه يحذرهم كسرى وجيشه ؛ فلم يلتفتوا إلى قوله ، فظفر بهم كسرى وهزمهم .

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » نزلت في عذاب القبر ؛ يقال : مَن ربك ؟ فيقول : ربيَ الله وديني دين محمد ، فذلك قوله : « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » .

قلت : وقد جاء هكذا موقوفا في بعض طرق مسلم عن البَرَاء [أنه][1] قوله ، والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النَّسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم ، عن البَرَاء عن النبيّ[2] صلى الله عليه وسلم ؛ وذكر البخاريّ ؛ حدّثنا جعفر بن عمر ، قال حدّثنا شُعْبة عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن سعد بن عبيدة عن البَرَاء بن عازب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أقعد المؤمنُ في قبره أتاه آتٍ ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » " . وقد بيّنا هذا الباب في كتاب « التذكرة » وبيّنا هناك من يُفتَن في قبره ويُسأل ، فمن أراد الوقوف عليه تأمّله هناك . وقال سهل بن عمّار : رأيت يزيد بن هرون في المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله بك؟ فقال : أتاني في قبري مَلَكان فظّان غليظان ، فقالا : ما دينك ومن ربك ومن نبيّك ؟ فأخذت بلحيتي البيضاء وقلت : ألمثلي يقال هذا وقد علّمتُ الناسَ جوابكما ثمانين سَنَة ؟ ! فذهبا وقالا[3] : أكَتبتَ عن حَرِيز بن عثمان ؟ قلت نعم ! فقالا : إنه كان يبغض [عليا][4] فأبغضه الله . وقيل : معنى ، « يُثَبِّتُ اللَّهُ » يُديمهم الله على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رَوَاحة :

يُثَبِّتُ اللهُ ما آتاكَ مِن حَسَنٍ * تثبيتَ موسى ونَصرًا كالذى نُصِرَا

وقيل : يثبتهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت . وقال القفّال وجماعة : « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أي في القبر ؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يبعثوا ، «وَفِي الْآخِرَةِ» أي عند الحساب ؛ وحكاه الماورديّ عن البَرَاء قال : المراد بالحياة الدنيا المُساءلة في القبر ، وبالآخرة المُساءلة في القيامة : ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي عن حجتهم في قبورهم كما ضَلّوا في الدنيا

---

(١) أي قول البراء . (٢) في ى : قال البراء . (٣) في التهذيب غير هذا فليراجع .
(٤) في الأصول « عثمان » ومثله في كتاب « التذكرة » للمؤلف . والذى في « تهذيب التهذيب » أنه كان يبغض عليا .

بكفرهم فلا يُلقِّنهم كلمة الحق ، فإذا سئلوا فى قبورهم قالوا : لاندرى ؛ فيقول : لادَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ(١) ؛ وعند ذلك يُضرَب بالمقامِع(٢) على ما ثبت فى الأخبار ؛ وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » . وقيل : يمهلهم حتى يزدادوا ضلالا فى الدنيا . ﴿ وَيَفْعَلُ اللهُ مَايَشَاءُ ﴾ من عذاب قوم وإضلال قوم . وقيل : إن سبب نزول هذه الآية ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف مُسَاءلة مُنْكَرونكِير وما يكون من جواب الميت قال عمر: يارسول الله أيكون معى عقلى ؟ قال : " نعم " قال : كُفيتُ إذًا ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا ﴾ أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر فى تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم ؛ عن ابن عباس وعلىّ وغيرهما . وقيل : نزلت فى المشركين الذين قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر . قال أبو الطُّفَيل : سمعت عليّا رضى الله عنه يقول : هم قريش الذين نُحِروا يوم بدر . وقيل : نزلت فى الأفْجَرَيْن من قريش بنى مخزوم و بنى أمية ، فأما بنو أمية فمتِّعوا إلى حين ؛ وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بَدْر ؛ قاله على بن أبى طالب وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما . وقول رابع : أنهم مُتنصِّرة العرب جَبَلة بن الأَيْهَم وأصحابه حين لَطَم فجعل له عمر القصاص بمثلها ، فلم يرض وأَنِف فارتدّ مُتنصرا ولَحِق بالروم فى جماعة من قومه ؛ عن ابن عباس وقتادة . ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال :

(١) قيل فى معنى « ولا تليت » : ولا تلوت ؛ أى لا قرأت ؛ من تلا يتلو ، وقالوا تليت بالياء ليعاقب بها الياء فى دريت .

(٢) المقامع : سياط من حديد رءوسها معوجة .

تَنصَّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تَكنَّفنِي منها لَجَاجٌ ونَخْوةٌ * وبِعتُ لها العينَ الصحيحة بالْعَوَرْ
فياليتنى أَرعَى المَخَاضَ ببلدةٍ * ولم أنكر القولَ الذى قاله عُمَرْ

وقال الحسن : إنها عامة فى جميع المشركين . ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ ﴾ أى أنزلوهم . قال ابن عباس : هم قادة المشركين يوم بدر . «أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ» أى الذين اتبعوهم . ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قيل : جهنم ؛ قاله ابن زيد . وقيل : يوم بدر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب ومجاهد . والبوار الهلاك؛ ومنه قول الشاعر :

فلم أَرَ مثلَهم أبطالَ حَرْبٍ * غداةَ الحرب إذْ خِيفَ البَوَارُ

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ بيّن أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد، وعلى هذا لا يجوز الوقف على « دَارَ الْبَوَارِ » لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن « دَارَ الْبَوَارِ » فلو رفعها رافع بإضمار، على معنى: هى جهنم ، أو بما عاد من الضمير فى «يَصْلَوْنَهَا» لحسن الوقف على «دَارَ الْبَوَارِ» . ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أى المستقر . قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أصناما عبدوها ؛ وقد تقدم فى « البقرة »[(1)] . ﴿ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى عن دينه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك فى الحج[(2)] « لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ »ومثله فى « لقمان »[(2)] و « الزمر »[(2)] وضمها الباقون على معنى ليُضلوا الناس عن سبيله ،وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضلّون عن سبيل الله على اللزوم، أى عاقبتهم إلى الإضلال والضلال؛ فهذه لام العاقبة. ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ وعيد لهم، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع . ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى مردّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم .

قوله تعالى : قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٠ فما بعدها .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٦ ، وجـ ١٤ ص ٥٦ ، وجـ ١٥ ص ٢٣٧ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى إن أهـل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقّق عبوديته أن ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعنى الصلوات الخمس، أى قل لهم أقيموا، والأمر معه شرط مقدّر، تقول : أطع الله يُدخلك الجنة ؛ أى إن أطعته يدخلك الجنة ؛ هذا قول الفراء . وقال الزجّاج : « يُقِيمُوا » مجزوم بمعنى اللام، أى ليقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دلّ على الغائب بـ « قل » . قال : ويحتمل أن يقال : «يُقِيمُوا» جواب أمر محذوف ؛ أى قل لهم أقيموا الصـلاة يقيموا الصلاة . ﴿ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ يعنى الزكاة؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الجمهور . السرّ ما خفى والعلانية ما ظهر . وقال القاسم ابن يحيى : إن السرّ التطوع والعلانية الفرض، وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة»[1] مجوّدا عند قوله : « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ » . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ تقدم فى « البقرة »[1] أيضا . و « خِلَالٌ » جمع خلة كقُلّة وقلال . قال[2] :

* فلستُ بمَقْلِيِّ الخِـلَالِ ولا قَالِي *

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى أبدعها واخترعها على غير مثال سبق . ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أى من السّحاب . ﴿ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أى من الشجر

(١) راجع ج ٣ ص ٣٣٢ فما بعد وص ٢٦٦ فما بعد

(٢) قاله امرؤ القيس ، وصدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

ثمرات ﴿ رِزْقًا لَكُمْ ﴾[1] . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ تقدم معناه فى «البقرة» .
﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ يعنى البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أى فى إصلاح مايصلحانه من النبات وغيره ، والدُّؤوب مرور الشيء فى العمل على عادة جارية . وقيل : دائبين فى السير امتثالا لأمر الله ، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران ؛ روى معناه عن ابن عباس . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا من فضله فى النهار ، كما قال : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أى أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا ؛ فحذف ؛ عن الأخفش . وقيل : المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه ، ومن كل ما لم تسألوه فحذف ، فلم نسأله شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه التى ابتدأنا بها . وهذا كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »[3] على ما يأتى . وقيل : « مِن » زائدة ؛ أى آتاكم كلّ ما سألتموه . وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما « وَآتَاكُمْ مِنْ كُلٍّ » بالتنوين « مَا سَأَلْتُمُوهُ » وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة ؛ هى على النفى أى من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شيء ماسألتموه أى الذى ماسألتموه . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ أى نعم الله . ﴿ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ولا تطيقوا عدّها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسّمع والبصر وتقويم الصّور إلى غير ذلك من العافية والرزق ؛ [نعم لا تحصى][4] وهذه النّعم من الله ، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر؟! وهلا استعنتم بها على الطاعة؟! ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص ؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل . وقيل : جميع الكفار .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٤ . (٢) راجع ج ١٣ ص ١٠٨ . (٣) راجع ج ١٠ ص ١٦٠ .
(٤) من ا و ج و و و ى .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا الْبَـلَدَ آمِنًا ﴾ يعنى مكة وقـد مضى فى « البقرة »[1] . ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ أى ٱجعلنى جانبا عن عبادتها، وأراد بقوله : « بنىّ » بنيه من صُلْبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنما . وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له . وقرأ الجَحْـدَرىّ وعيسى « وَأَجْنِبْنِي » بقطـع الألف والمعنى واحد ؛ يقال : جَنَبْتُ ذلك الأمر، وأجنبته وجَنَّبته إياه فتجانبـه وٱجتنبه أى تركه . وكان إبراهيم التَّيْمىّ يقول فى قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول « وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُـدَ الأَصْنَامَ » كما عبدها أبى وقومى .

قوله تعـالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ لمـا كانت سببا للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازا؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعل[2] . ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ فى التوحيد . ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى من أهـل دينى . ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ أى أصرّ على الشرك . ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قيل : قال هـذا قبل أن يعرّفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به . وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت . وقال مقاتل بن حيان : « وَمَنْ عَصَانِي » فيما دون الشرك .

قوله تعـالى : رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ روى البخارى عن ابن عباس : أول ما ٱتخذ النِّساء المِنْطَق[3] من قِبل أم إسمعيل؛ ٱتخـذت مِنْطَقا لتُعفِّى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسمعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة فوق زمزم فى أعلى المسجد؛ وليس بمكة يومئذ أحد، وليس

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١١٧ فما بعد . (٢) ف ى : لا تعقل . (٣) المنطق : النطاق وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشىء، وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها

بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيمُ منطلقا فتبعته أمّ إسمعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنسٌ[1] ولاشيء، فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت إذا لا يُضيّعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِية حيث لا يرونه، آستقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: «ربِّ إنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ» حتى بلغ «يَشْكُرُونَ» وجعلت أمّ إسمعيل تُرضع إسمعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفِد ما فى السّقاء عطِشت وعطِش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى — أو قال يتلبّط[2] — فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصّفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم آستقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصّفا، حتى إذا بلغت الوادى، رفعت طَرَف دِرْعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادى، ثم أتت المَرْوة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فذلك سعى الناس بينهما" فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صهٍ! تريد نفسها، ثم تسمّعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواث[3]! فإذا هى بالمَلَك عند موضع زمزم فبَحَث بعقِبه — أو قال بجناحه — حتى ظهر الماء، فجعلت تُحوِّضه وتقول[4] بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سِقائها وهو يفور بعد ما تغرف؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله أمّ إسماعيل لو تركت زمزم — أو قال: لو لم تغرف من الماء — لكانت زمزم عينا مَعِينا" قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها المَلَك: لا تخافى الضَّيْعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيِّع أهله؛ وذكر الحديث بطوله.

---

(١) فى ى و و: أنيس. (٢) يتلبط: يتمرغ.

(٣) غواث: (بالفتح) كالغياث (بالكسر) من الإغاثة وهى الإعانة.

(٤) «وتقول بيدها هكذا»: هو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل. (قسطلانى).

مسئلة — لايجوز لأحد أن يتعلق بهـذا فى طرح ولده وعياله بأرض مَضيعة آتكالا على العزيز الرحيم، وآقتداء بفعل إبراهيم الخليل ، كما تقول غُلَاة الصُّوفية فى حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله فى الحديث : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . وقـد روى أن سارة لمـا غارت من هاجر بعـد أن ولدت إسمعيل خرج بهـا إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، فروى أنه ركب البراق هو وهاجر والطّفل فجـاء فى يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك آبنه وأمته هنالك وركب منصرفا من يومه ، فكان ذلك كله بوحى من الله تعالى، فلما ولّى دعا بضمن هذه الآية .

الثانيـــة — لمـا أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخطّ الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل المَلَك فبحث عن المـاء وأقامه مقام الغذاء ، وفى الصحيح : أن أبا ذر رضى الله عنه آجتزأ به ثلاثين بين يوم وليـلة ، قال أبو ذر : ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمِنت حتى تَكَسَّرت عُكَنى(١)،وما أجد على كبـدى سَخْفَة(٢) جوع ؛ وذكر الحـديث . وروى الدَّارَقُطْنى عن ابن عباس قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : " ماء زمزم لِمـا شُرِب له إن شربتَه تشتفى به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربتَه لقطع ظمئك قطعه وهى هَزْمة(٣) جبريل وسُقيا الله إسمعيل ". وروى أيضا عن عِكرمة قال : كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إنى أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء. قال ابن العربى : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحّت نيّته ،وسلمت طويته، ولم يكن به مكذّبا، ولا يشربه مجرِّبا ، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرِّبين . وقال أبو عبدالله محمد بن علىّ الترمذى وحدثنى أبى رحمه الله قال : دخلت الطّواف فى ليلة ظلماء فأخذنى من البول ما شغلنى ، فجعلت أعتصر(٤) حتى آذانى، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام، وذلك أيام الحج ؛ فذكرت هذا الحديث ، فدخلت زمزم فتضلّعتُ(٥) منه ، فذهب عنى إلى الصباح . وروى عن عبدالله بن عمرو : إن فى زمزم عينا فى الجنة من قِبل الركن .

(١) جمع عكنة . وهى ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا .
(٢) سخفة الجوع : رقته وهزاله .
(٣) هزمة جبريل : أى ضربها برجله فنبع المـاء .
(٤) العصر: المنع والحبس .
(٥) تضلع : أكثر من الشرب حتى تمدد جنبه وأضلاعه .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ « مِنْ » فى قوله تعالى : « مِنْ ذُرِّيَّتِي » للتبعيض أى أسكنت بعض ذريتى ؛ يعنى إسمعيل وأمه ، لأن إسحق كان بالشام . وقيل : هى صلة ؛ أى أسكنت ذريتى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ يدلّ على أن البيت كان قديما على ما روى قبل الطّوفان، وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »(١) . وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرّم، أى يحرم فيه مايستباح فى غيره من جماع وآستحلال . وقيل : محرّم على الجبابرة، وأن تنتهك حرمته ، ويستخفّ بحقّه؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى القول فى هذا فى « المائدة »(٢) .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ خَصَّها من جملة الدِّين لفضلها فيه، ومكانها منه، وهى عهد الله عند العباد؛ قال صلى الله عليه وسلم : "خمس صلوات كتبهن الله على العباد". الحديث . واللام فى « لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ» لام كى؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة بـ « أَسْكَنْتُ » ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رغب إلى الله [أن يأتمهم و](٣) أن يوفقهم لإقامة الصلاة .

السادسة — تضمّنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى « رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه . وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بمائة صلاة، وآحتجوا بحديث عبد الله بن الزّبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة". قال الإمام الحافظ أبو عمر : وأسند هذا الحديث حبيبٌ المعلّم عن عطاء بن أبى رَبَاح عن عبد الله ابن الزّبير وجوّده ، ولم يخلّط فى لفظه ولا فى معناه ، وكان ثقة . قال ابن أبى خَيْثَمة سمعت

(١) راجع جـ ٢ ص ١٢٠ فما بعد .	راجع جـ ٦ ص ٣٢٥ .	(٣) من ى .

يحيي بن مَعين يقول : حبيبُ المعلّم ثقة . وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبي يقول : حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثَه ! وسئل أبو زُرْعة الرازيّ عن حبيب المعلم فقال : بصرى ثقة.

قلت — وقد خرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبي رَبَاح عن عبد الله بن الزبير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الحافظُ أبو حاتم محمد ابن حاتم التميمى البُستِي فى المسند الصحيح له ، فالحديث صحيح وهو الحجة عند التنازع والاختلاف . والحمدلله . قال أبو عمر : وقد روى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير؛ رواه موسى الجُهَنى عن نافع عن ابن عمر؛ وموسى الجهنيّ [الكوفى](1) ثقة، أثنى عليه القَطّان وأحمد ويحيي وجماعتهم، وروى عنه شعبة والثوريّ ويحيي بن سعيد. وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه". وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرِّقة قد روى عنه أبو زُرْعة الرازيّ ، وأخذ عنه ابن وضّاح، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به . فإن كان حفِظ فهُما(2) حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المعلم . وروى محمد بن وضّاح، حدثنا يوسف بن عديّ عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل ". قال أبو عمر : وهذا كله نصٌّ فى موضع الخلاف قاطع له عند من أُلْهِمَ رشدَه، ولم تَمِل به عصبيّته. وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف وعن أَصْبَغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة فى المسجد الحرام على الصلاة فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم على ما فى هذا الباب . وقد ٱتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لها فى كل بلد إلا مكة فإنها تُصلَّى فى المسجد الحرام . وكان عمر وعلى وٱبن مسعود وأبو الدَّرْدَاء وجابر يفضّلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم؛ وإلى هذا ذهب الشافعى، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين، وروى مثله عن مالك؛ ذكر ابن وهب فى جامعه عن مالك أن

(1) من ى . هو موسى بن عبد الله الجهنى الكوفى . (2) فى ى : حفظ فيهما حديثان

آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض قال : ياربّ هذه أحب إليك أن تُعبَد فيها ؟ قال : بل مكة. والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة، وآختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك؛ فطائفة تقول مكة، وطائفة تقول المدينة .

قوله تعالى : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهي القلوب، وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر :

وإن فؤاداً قادني بصَبَابَةٍ * إليكِ على طولِ المَدَى لَصَبُورُ

وقيل : جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فقدّمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هي، فكأنه قال : واجعل وفودا من الناس تَهْوِي إليهم ؛ أي تنزع؛ يقال : هوِي نحوه إذا مال ، وهوت الناقة تَهوِي هُوِيًا فهي هاوية إذا عَدَت عَدْوا شديدا كأنها في هواء بئر، وقوله : « تَهْوِي إِلَيْهِمْ » مأخوذ منه . قال ابن عباس ومجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال : « مِنَ النَّاسِ » فهم المسلمون ؛ فقوله : « تَهْوِي إِلَيْهِمْ » أي تحنّ إليهم، وتحنّ إلى زيارة البيت. وقرأ مجاهد « تَهْوَى إليهم »[1] أي تهواهم وتجلّهم. ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : "جاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكَته فلم يجد إسمعيل، فسأل آمرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة ؛ فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عَتَبة بابه ، فلما جاء إسمعيل كأنه آنس شيئا[2] فقال : هل جاءكم من أحد! قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا في جهد وشدة، قال : فهل أوصاكِ بشيء : قالت : أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول : غيّر عَتَبة بابك ؛ قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الْحَقِي بأهلك ؛ فطلقها وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده ، ودخل على آمرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا . قال :

(١) قال الألوسي : مضارع هوى بمعنى أحب عدى بإلى . (٢) أي كأنه أبصر ورأى شيئا لم يعهده .

كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله . قال : ما طعامكم؟ قالت : اللحم . قال فما شرابكم؟ قالت : الماء. قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه " . قال : فهما لا يخلو عليهما[1] أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ؛ وذكر الحديث . وقال ابن عباس : قول ابراهيم «فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ» سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكنى بمكة ، فيصير بيتا محرما ، وكل ذلك كان والحمد لله . وأول من سكنه جُرْهُم . ففى البخارىّ — بعد قوله : و إن الله لا يُضيّع أهلَه — وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، وكذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرْهُم قافلين من طريق كُدًا ، فنزلوا بأسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا[2] فقالوا : إن هـذا الطائر ليَدُور على ماء ! لَعهدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء ؛ فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّين[3] فإذا هُم بالماء ، فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأمّ إسمعيل عند الماء ؛ فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حقّ لكم فى الماء. قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : "[فألفى[4]] ذلك أمّ إسمعيل وهى تحب الأنس" فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، شبّ الغلامُ ، وماتت أم إسمعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوّج إسمعيل يطالع تَرِكَته ؛ الحديث .

قوله تعالى : رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

(١) فى و : عنهما . (٢) العائف هنا هو الذى يتردد على الماء ولا يمضى . (٣) الجرى : الرسول .
(٤) ألفى أى وجد ذلك الحى الجرهمى أم إسمعيل ، أو ألفى استئذان جرهم بالنزول أم إسمعيل والحال أنها تحب الأنس ؛ ففاعل ألفى (ذلك) و(ذلك) إشارة إلى الاستئذان .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أى ليس يخفى عليك شىء من أحوالنا . وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسمعيل وأمه حيث أسكنا بواد غير ذى زرع . ﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ قيل : هو من قول إبراهيم . وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : « رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ » قال الله : « وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ﴾ أى على كبر سنى وسن امرأتى ؛ قال ابن عباس : ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة . وقال سعيد بن جُبَير : بُشّر إبراهيمُ بإسحق بعد عشر ومائة سنة . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ . قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أى من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه . ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أى واجعل من ذريتى من يقيمها . ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ أى عبادتى كما قال : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »[1] . وقال عليه السلام : "الدعاءُ مُخُّ العبادة" وقد تقدم فى « البقرة »[2] . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : استغفر إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله . قال القُشَيرىّ : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره فى استغفاره لأبيه دون أمه .

قلت : وعلى هذا قراءة سعيد بن جبير، « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي » يعنى أباه . وقيل : استغفر لهما طمعا فى إيمانهما . وقيل : استغفر لهما بشرط أن يُسلما . وقيل : أراد آدم وحوّاء . وقد رُوى أن العبد إذا قال : اللهم اغفر لى ولوالدى وكان أبواه قد ماتا كافرين انصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع . وقيل : إنه أراد ولديه إسمعيل وإسحق . وكان إبراهيم النخعى يقرأ : «وَلِوَلَدَيَّ» يعنى ابنيه، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر ؛ ذكره الماوَرْدى والنحاس . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : «لِلْمُؤْمِنِينَ» كلهم وهو أظهر . ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أى يوم يقوم الناس للحساب .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٦ . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٠٩ فما بعد .

قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين ابراهيم ؛ أى آصبر كما صبر إبراهيم، وأَعْلِمِ المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنّة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مِهْران : هـذا وعيد للظالم ، وتعزية للظلوم . ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعنى مشركى مكة يمهلهم و يؤخر عذابهم . وقراءة العامة « يُؤَخِّرُهُمْ » بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ » . وقرأ الحسن والسُّلَمى و روى عن أبى عمرو أيضا « نُؤَخِّرُهُمْ » بالنون للتعظيم . ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أى لاتغمض من هول ماتراه فى ذلك اليوم ، قاله الفراء . يقال : شَخَصَ الرجلُ بَصَرَه وشَخَص البصرُ نفسُه أى سَمَا وطَمَح من هـول مَا يرى . قال ابن عبـاس : تَشخص أبصار الخـلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحـيرة فلا يَرْمَضُون . ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أى مسرعين ؛ قاله الحسن وقَتَادة وسعيد بن جبير؛ مأخوذ من أهطع يُهطع إهطاعا إذا أسرع . ومنه قوله تعالى : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ »(١) أى مسرعين . قال الشاعر :

بدجْلة دارُهُمْ ولقد أراهُمْ * بدجْلةَ مُهطِعِينَ إلى السَّماعِ

وقيل : المهطع الذى ينظر فى ذل وخشوع ؛ أى ناظرين من غير أن يَطْرفوا ؛ قاله ابن عباس ، وقال مجاهد والضحّاك : « مُهْطِعِينَ » أى مديمى النظر . وقال النحاس : والمعروف فى اللغة أن يقال : أهطع إذا أسرع؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعا يعنى الإسراع مع إدامة النظر . وقال ابن زيد : المهطع الذى لايرفع رأسه . ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ أى رافعى رءوسهم ينظرون فى ذلّ . و إقناع الرأس رفعـه ؛ قاله ابن عباس ومجاهـد . قال ابن عرفة والقُتَبيّ وغيرهما(٢) : المقنع الذى يرفع رأسه و يقبل ببصره على مابين يديه ؛ ومنه الإقناع فى الصلاة

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٣٠ . (٢) الإقناع فى الصلاة أن يرفع المصلى رأسه حتى يكون أعلى من ظهره .

وأقنع صوته إذا رفعه . وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لاينظر أحد إلى أحد. وقيل : ناكسي رءوسهم ؛ قال المهدوى : و يقال أقنع إذا رفع رأسه ، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلة وخضوعا ، والآية محتملة الوجهين ، وقاله المبرّد ، والقول الأول أعرف فى اللغة ؛ قال الراجز :

أَنْغَضَ[1] نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا * كأنما أبصر شيئا أطْمَعا

وقال الشّماخ يصف إبلا :

يُبَاكِرْنَ العِضَاهَ[2] بمُقْنَعَاتٍ * نَوَاجِذُهُنَّ كالحِدَإِ الوَقِيعِ

يعنى : برءوس مرفوعات إليها لتناولهن . ومنه قيل : مِقْنَعة[3] لارتفاعها . ومنه قَنِع الرجل إذا رَضِى ؛ أى رفع رأسه عن السؤال . وقَنَع إذا سأل أى أتى ما يتقنّع منه ؛ عن النحاس . وفم مُقْنَع أى معطوفة أسنانه إلى داخل . ورجل مُقَنَّع بالتشديد ؛ أى عليه بَيْضة قاله الجوهرى . ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أى لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهى شاخصة النظر . يقال : طَرَف الرجلُ يَطْرِف طَرْفا إذا أطبق جَفْنه على الآخر، فسمّى النظر طَرْفا لأنه به يكون . والطَّرْف العين . قال عَنْتَرة :

وَأَغُضُّ طَرْفِي مابَدَتْ لِي جارتِي * حتّى يُوَارِي جارتِي مَأْوَاهَا

وقال جَميل :

وَأَقْصِر طَرْفِي دُونَ جُمْلٍ كَرَامَةً * لِجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الذى أنَا قاصِرُهْ

﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أى لاتغنى شيئا من شدّة الخوف . ابن عباس : خاليةٌ من كل خير . السُّدى : خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت فى حلوقهم ؛ وقال مجاهد ومُرّة وابن زيد : خاوية خربة مُتخرقة[4] ليس فيها خير ولا عقل ؛ كقولك فى البيت الذى ليس فيه شيء : إنما هو هَوَاءٌ ؛ وقاله ابن عباس . والهواء فى اللغة المجوّف الخالى ؛ ومنه قول حسان :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي * فأنتَ مُجَوَّفٌ[5] نَخِبٌ هَوَاءُ

---

(١) أنغض رأسه : حركه . (٢) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك . والحدأ (بفتح الحاء) وقيل : (بكسرها) جمع حدأة ، وهى الفأس ذات الرأسين ؛ والوقيع : المحدّد . شبه الشاعر أسنان الإبل بالفؤس فى الحدة .

(٣) أى على الرأس من المرأة . (٤) فى و : محترقة . (٥) المجوف والمجوّف : الجبان الذى لا قلب له . والنخب : من النخب بمعنى النزع . يقال : رجل نخب أى جبان ؛ كأنه منتزع الفؤاد .

وقال زهير يصف ناقة صغيرة الرأس :

كأن الرحل منها فوق صعلٍ (١) * من الظلمان جؤجؤه هـواء

فارغ أى خال ؛ وفى التنزيل : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا (٢) » أى من كل شىء إلا من هم موسى . وقيل : فى الكلام إضمار ؛ أى ذات هواء وخلاء .

قوله تعالى : وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ قال ابن عباس : أراد أهل مكة . ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة ؛ أى خوفهم ذلك اليوم . وإنما خصّهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثّواب ، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصى . ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى فى ذلك اليوم ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ أى أمهلنا . ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة . ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أى إلى الإسلام . ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ . فيجابوا : ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعنى فى دار الدنيا . ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ قال مجاهـد : هو قسم قريش أنهم لا يبعثون . ابن جريج : هو ما حكاه عنهم فى قوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ (٣) » . « مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ » فيه تأويلان : أحدهما ــ مالكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أى لا تبعثون ولا تحشرون ؛ وهذا قول مجاهد . الثانى ــ « مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ » أى من العـذاب . وذكر البَيْهَقِىّ عن محمـد بن كعب القُرَظِىّ قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربعة ، فإذا كان فى الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا ، يقولون : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (٤) » فيجيبهم الله « ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » .

---

(١) "فوق صعل" شبه الناقة فى سرعتها بالظليم وهو ذكر النعام ، فكأن رحلها فوقه . والصعل : الصغير الرأس ، وبذلك يوصف الظليم والجؤجؤ الصدر . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٥٤ . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٠٥ .

(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٦ .

ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ »(١) فيجيبهم الله تعالى : « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ » فيجيبهم الله تعالى « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» فيجيبهم الله تعالى : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ »(١) . ويقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ فيجيبهم الله تعالى : «اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ»(٢) فلا يتكلمون بعدها أبدا ؛ خرجه ابن المبارك فى « دقائقه » بأطول من هذا — وقد كتبناه فى كتاب « التذكرة » — وزاد فى الحديث « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ. وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» قال هذه الثالثة، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : «اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ» فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم فى وجه بعض، وأطبقت عليهم؛ قال: فحدثنى الأزهر ابن أبى الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله : «هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ»(٣) .

قوله تعالى : وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أى فى بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم، بعد ما تبيّن لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال فى القرآن . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمى « وَنُبَيِّنْ لَكُمْ » بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضى؛ وليناسب قوله : « كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » . وقراءة الجماعة، «وَتَبَيَّنَ» وهى مثلها فى المعنى ؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم .

(١) راجع جـ ١٤ ص ٩٥ ، وص ٣٥١ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ . (٣) راجع جـ ١٩ ص ١٦٤ .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أى بالشرك بالله وتكذيب الرسـل والمعـاندة؛ عن ٱبن عباس وغيره . ﴿وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ « إن » بمعنى «ما» أى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه؛ «وإن» بمعنى «ما» فى القرآن فى مواضع خمسة : أحدها هذا . الثانى — « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ »[1] . الثالث — «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا»[2] أى ما كنا . الرابع — « قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ »[3] . الخامس — « وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ »[3] . وقرأ الجماعة « وإن كان » بالنون . وقرأ عمرو بن علىّ وابن مسعود وأُبَىّ «وإن كاد» بالدال، والعامة على كسر اللام فى «لتزول» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصبا . وقرأ ٱبن محيصن وابن جريج والكسائىّ «لَتَزُولُ» بفتح اللام الأول على أنها لام الابتداء ورفع الثانية « وإن » مخففة من الثقيلة ، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم ؛ أى ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه ؛ قال الطَّبَرىّ : الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة؛ قال أبو بكر الأنبارىّ : ولا حجة على مصحف المسلمين فى الحديث الذى حدّثناه أحمد بن الحسين : حدّثنا عثمان بن أبى شيبة حدّثنا وكيع بن الجـرّاح عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن دانيـل[4] قال سمعت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : إن جبّـارا من الجبابرة قال لا أنتهى حتى أعلم من فى السموات، فعَمَد إلى فراخ نُسُور، فأمر أن تطعم اللحم، حتى ٱشتدت وعَضَلت وٱستعلجت[5] أمر بأن يُتخذ تابوتٌ يسع فيه رجلين؛ وأن يجعل فيه عصا فى رأسها لحم شديد حمرته ، وأن يُستوثق من أرجل النسور بالأوتاد؛ وتُشدّ إلى قوائم التابوت ، ثم جلس هو وصاحب له فى التابوت وأَثَارَ النّسورَ، فلما رأت اللحم طلبته، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله؛ فقال الجبّار لصاحبه : ٱفتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذباب، فقال : أغلق الباب؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد، فقال الجبّار لصاحبه : ٱفتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُعْدا، فقال: نَكِّس العصا فنكّسها، فانقضت النّسور . فلمـا وقع التابوت على الأرض سمعت له هدّة كادت الجبال تزول عن

(١) راجع جـ٨ ص ٣٨٢ . (٢) راجع جـ١١ ص ٢٧٥ . (٣) راجع جـ١٦ ص ١١٩ وص ٢٠٨
(٤) هذا السند فى كل الأصول ولم نقف عليه رغم البحث . (٥) استعلجت : غلظت .

مراتبها منها؛ قال : فسمعت عليّا رضى الله عنه يقرأ « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ » بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية . وقد ذكر الثعلبي هذا الخبر بمعناه، وأن الجبّار هو النمرود الذى حاجّ إبراهيم فى ربّه، وقال عِكرمة: كان معه فى التابوت غلام أمرد، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليه ملطخا بالدماء وقال : كُفيتُ نَفْسَكَ إلهَ السّماء . قال عِكرِمة : تَلطّخ بدم سمكة من السماء، قذفت نفسها إليه من بحر فى الهواء معلّق . وقيل: طائر من الطير أصابه السّهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنكِّس اللحم، فهبطت النّسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنّسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء، وأنّ الساعة قد قامت، فذلك قوله : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » . قال القُشَيْرِي : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة فى الجبال. وذكر الماوردى عن ابن عباس : أن النمرود بن كعنان بَنَى الصّرح فى قرية الرسّ من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعا ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعا ، وصعد منه مع النّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصنا ، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصّرح عليهم فهلكوا جميعا، فهذا معنى « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ » وفى الجبال التى عَنَى زوالها بمكرهم وجهان : أحدهما — جبال الأرض . الثانى — الإسلام والقرآن ؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال . وقال القُشَيْرِي : « وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ » أى هو عالم بذلك فيجازيهم ، أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف . « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بكسر اللام ؛ أى ما كان مكرهم مكرا يكون له أثر وخطر عند الله تعالى، فالجبال مَثَل لأمر النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ » فى تقديرهم « لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » وتؤثر فى إبطال الإسلام . وقرئ « لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية؛ أى كان مكرا عظيما تزول منه الجبال، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله

---

(١) تعقب هذه القصة ابن عطية فى تفسيره بعد أن حكاها عن الطبرى بقوله : «وذلك عندى لا يصح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وفى هذه القصة ضعف من طريق المعنى ، وذلك أنه غير ممكن أن تصمد الأنسر كما وصف ، و بعيد أن يغرر أحد بنفسه فى مثل هذا » .

(٢) عبارة الثعلبى فى «قصص الأنبياء» : (كفيت شغل إله السماء) .

عليه وسلم ، وهو كقوله تعالى : « وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا[1] » والجبال لا تزول ولكنّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون .

قوله تعالى : فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ اسمُ الله تعالى و « مخلف » مفعولا تحسب؛ و « رُسُلَهُ » مفعول « وَعْدِهِ » وهو على الاتساع ، والمعنى : مخلف وعدِه رسلَه ؛ قال الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ * وسائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ[2]

قال القُتَبِيّ : هو من المقدّم الذي يوضحه التأخير، والمؤخّر الذي يوضحه التقديم، وسواء في قولك : مخلف وعدِه رسلَه ، ومخلف رسلِه وعدَه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ أي من أعدائه . ومن أسمائه المنتقم وقد بيّناه في « الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ أي اذكر يوم تبدل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله . وقيل هو صفة لقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » . واختلف في كيفية تبديل

(١) راجع ح ١٨ ص ٣٠٦ .

(٢) يصف الشاعر هاجرة قد ألجأت الثيران في كنسها ، فترى الثور مدخلا لرأسه في ظل كناسه لما يجده من الحرارة ، وسائره بارز للشمس

الأرض ، فقال كثير من الناس : إن تبدّل الأرض عبارة عن تغير صفاتها ، وتسوية آكامها ، ونسف جبالها ، ومدّ أرضها ؛ ورواه ابن مسعود رضي الله عنه ؛ خرجه ابن ماجه في سننه وذكره ابن المبارك من حديث شَهر بن حَوْشَب ، قال حدّثني ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مُدّت الأرضُ مدّ الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا ؛ وذكر الحديث . وروى مرفوعا من حديث أبي هُريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " تبدّل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العُكاظيّ[1] لا ترى فيها عِوجا ولا أمْتا ثم يزجر الله الخلق زجرةً فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى [من كان في بطنها ففي بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها][2] " ذكره الغَزْنَويّ . وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها ، وتناثر نجومها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : اختلاف أحوالها ، فمرّة كالمُهل[3] ومرة كالدهان[4] ؛ حكاه ابن الأنباريّ ؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبيّنا في كتاب « التذكرة » وذكرنا ما للعلماء في ذلك ، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . روى مسلم عن ثَوْبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك ؛ وذكر الحديث ، وفيه : فقال اليهوديّ أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في الظُّلمة دون الجِسر[5] " . وذكر الحديث . وخرّج عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : " على الصراط " . خرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء ، وخرجه الترمذيّ عن عائشة وأنها هي السائلة ، قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ فهذه الأحاديث تنصّ على أن السموات والأرض تُبدّل وتُزال ، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسر . وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أديم عكاظي : منسوب إلى عكاظ ، وهو مما حمل إليها فبيع بها . وعكاظ : اسم سوق من أسواق الجاهلية مشهورة كانت بقرب مكة . والأمت : المكان المرتفع والتلال الصغار والانخفاض والارتفاع .

(٢) عبارة الأصل هنا ناقصة ومحرفة ، والزيادة والتصويب من تفسير الطبري وكتاب « التذكرة » للمؤلف .

(٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٤ .　(٤) راجع جـ ١٧ ص ١٧٣ .　(٥) الجسر : الصراط .

وسلم : "يُحشَر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاءَ عَفراء كقُرْصَة النَّقِيّ[1] ليس فيها عَلَمٌ لأحد" .
وقال جابر : سألت أبا جعفر محمد بن علىّ عن قول الله عز وجل : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » قال : تُبدّل خُبْزة يأكل منها الخلق يوم القيامة ، ثم قرأ : « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ[2] » . وقال ابن مسعود : إنهـا تبدّل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمَل عليها خطيئة . وقال ابن عباس : بأرض من فضّة بيضاء . وقال علىّ رضى الله عنه : تبدّل الأرض يومئـذ من فضة والسماء من ذهب وهـذا تبديل للعين ، وحسبك . ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ أى من قبورهم ، وقد تقدّم .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ﴾ وهم المشركون . ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم القيـامة . ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ أى مشدودين ﴿ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ وهى الأغلال والقيود ، واحدها صَفْد وصَفَد . ويقـال : صَفَدته صَفْدا أى قيّـدته والاسم الصَّفَد ، فإذا أردت التكثير قلت : صَفَّدته تصفيدا ؛ قال عمرو بن كُلْثوم :

فآبُـوا بالنِّهـاب وبالسَّـبايَا * وأبْنـا بالمُـلُوك مُصَفَّدِينـا

أى مقيّدينا . وقال حسان :

مِن كلِّ مأسُـورٍ يُشَـدُّ صِفَادُه * صَـقْرٍ إذا لاَقَى الْكَرِيهَةَ حَامِ

أى غلُّه ، وأصفدته إصـفادا أعطيته . وقيـل : صَفَدته وأَصْفَدته جاريان فى القيـد والإعطاء جميعا ؛ قال النابغة :

* فَلَمْ أُعَرِّض أَبَيْتَ اللَّعْنَ[3] بالصَّفَدِ *

فالصَّفَد العطاء ؛ لأنه يُقيِّد ويُعْبِد ؛ قال أبو الطيب :

وقَيَّـدتُ نفسِى فى ذَرَاكَ[4] مَحَبَّةً * ومَن وَجَدَ الإحسانَ قَيْدًا تَقيَّدَا

---

(١) النقى : الدقيق الحوارى . والحوارىّ : ما حوّر أى بيض . والعلم الأثر .
(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٧٢ . (٣) معنى أبيت اللعن : أى أبيت أن تأتى شيئا تلعن عليه ، وصدر البيت :
* هذا الثناء فإن تسمع لقائله *
(٤) الذرا (بالفتح) : الدار ونواحيها ، وكل ما استترت به ؛ تقول : أنا فى ذرا فلان أى فى كنفه وستره .

قيل : يقرن كل كافر مع شيطان فى غُلّ، بيانه قوله : « ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ »(١) يعنى قرناءهم من الشياطين . وقيل : إنهم الكفار يجمعون فى الأصفاد كما اجتمعوا فى الدنيا على المعاصى . ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أى قمصهم ، عن ابن دُرَيد وغيره ، واحدها سربال ، والفعل تسربلتُ وسربلتُ غيرى ؛ قال كعب بن مالك :

تلقاكُمُ عَصَبٌ حولَ النبيّ لهم * من نَسْجِ داودَ فى الهيجا سرابيلُ

« مِن قَطِرَانٍ » يعنى قطران الإبل الذى تُهْنَأ به(٢) ؛ قاله الحسن . وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم . وفى الصحيح : أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جَرَب . وروى عن حماد أنهم قالوا : هو النُّحاس . وقرأ عيسى بن عمر : « قَطْرَانٍ » بفتح القاف وتسكين الطاء . وفيه قراءة ثالثة : كسر القاف وجزم الطاء ؛ ومنه قول أبى النجم :

جَوْنٌ كأنّ العَرَقَ المنتوحا(٣) * لَبَّسَهُ القِطْرانَ والمُسُوحا

وقراءة رابعة : « مِن قِطْرٍ آنٍ »(٤) رويت عن ابن عباس وأبى هريرة وعكرمة وسعيد بن جُبير ويعقوب ؛ والقِطْر النحاس والصُّفْر المذاب ؛ ومنه قوله تعالى : « آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا »(٥) . والآن : الذى قد انتهى إلى حرّه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ »(٦) . ﴿ وَتَغْشَىٰ ﴾ أى تضرب ﴿ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ فتغشيها . ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أى بما كسبت . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أى هذا الذى أنزلنا إليك بلاغ ؛ أى تبليغ وعظة . ﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ أى ليخوّفوا عقاب الله عز وجل ، وقرئ . « وَلِيَنْذَرُوا » بفتح الياء والذال ، يقال : نَذِرت بالشىء أنْذَر إذا علمت به فاستعددتَ له ، ولم يستعملوا منه مصدرا كما لم يستعملوا من عسى وليس ، وكأنهم استغنوا بأن والفعل كقولك : سرّنى أن نَذِرتُ بالشىء . ﴿ وَلِيَعْلَمُوا

(١) راجع جـ ١٥ ص ٧٢ . (٢) تهنأ به : تدهن . (٣) نتح العرق خرج من الجلد .
(٤) « قطر » : ضبطه فى « روح المعانى » بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء ، ومثله فى « البحر المحيط » ، وضبط بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء ، ففيه ثلاث لغات . (٥) راجع جـ ١١ ص ٦٢ .
(٦) راجع جـ ١٧ ص ١٧٥ .

أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين . ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى وليتّعظ أصحاب العقول . وهــذه اللامات فى « وَلِيُنْذَرُوا » « وَلِيَعْلَمُوا » « وَلِيَذَّكَّرَ » متعلقة بمحذوف ؛ التقدير : ولذلك أنزلنـاه . و روى يَمـان بن رِئَاب أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصــديق رضى الله عنــه . وسئل بعضهم هل لكتاب الله عنوان ؟ فقال : نعم ؛ قيــل : وأين هــو ؟ قال قوله تعالى : « هَــذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ » إلى آخرها . تم تفسير سورة إبراهيم عليه السلام والحمد لله .

محققــه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

تم الجزء التـاسع من تفسير القرطبي

يتـلوه إن شاء الله تعـالى الجزء العـاشر ، وأوله :

ســـورة « الحجـــر »

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٥٩١٧

ISBN٩٧٧ - ٠١ - ١٥١٥ - ٠